

تكملة معجم العرب

في عصور العرب في الزاهرة

تأليف

أحمد زكي صفوت

الجزء الثالث

العصر العباسي الأول

ويليه ذيل الزاهرة

دار النشر للنشر والتوزيع

جاسم محمد الجار، البروة، مكة المكرمة

لجوه خزانة العرب

في عصور العرب الزاهرة

الجزء الثالث

العصر العباسي الأول

ويليه ذيل الجمهرة

تأليف

أحمد زكي صقوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

شيزوت - لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم وفقني إلى إتمام ما بدأت ، فلك الشكر والمنة في البدء والنهاية ،
وأصلي وأسلم على خاتم رسلك ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
وبعد : فهذا ثالث الأجزاء من « جمهرة خطب الغرب » في خطب العصر العباسي
الأول ، وهو على نسق سابقه ضبطا وتحريرا ، وشرحا وتعليقا ، ويليه ذيل الجمهرة ،
في خمسة أبواب من الخطب :

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربية .

» الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

» الثالث : في نثر الأعراب .

» الرابع : في خطب النكاح .

» الخامس : في خطب من أرتج عليهم ، ونوادير طريفة لبعض الخطباء .

وبذا تم ما قصدت إلى جمعه في هذا المؤلف ، وإني أتبذل إلى المولى القدير أن يحقق
ما رجوته من استفادة قارئيه به ، وأن يسد خطانا جميعا إلى سبيل الرشاد ،
إنه الكبير المتعال ؟

أحمد زكي صفوت

حرر بالقاهرة في { مارس سنة ١٩٣٤ م
في القعدة سنة ١٣٥٢ هـ

فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى علىّ القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « التاسع
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول - التاسع
- مهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السادس
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى
- أمالى السيد المرتضى : « الأول - الرابع
- مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « التاسع - العاشر
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : « السادس
- مروج الذهب : للمسعودى : « الثانى
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثانى

مواسم الأدب: للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني

الصناعتين : لأبي هلال العسكري

مقدمة ابن خلدون

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى



الباب الرابع

الخطبة الأولى بوصايا

في

العصر العباسي الأول

١ - خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة

(توفي سنة ١٣٦ هـ)

صعد أبو العباس^(١) السفاح المنبر حين بويع له بالخلافة ، فقام في أعلاه ، وصعد
عنه داود بن علي فقام دونه ، وتكلم أبو العباس ، فقال :
« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تَكْرِمَةً ، وَشَرَفَهُ وَعَظَمَهُ ، واختاره لنا
وأيدته بنا ، وجعلنا أهله وَكَهْفَهُ^(٢) وحصننه ، والقوام به ، والذابن عنه ، والناصرين له ،
وألزمتنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحقَّ بها وأهلها ، وخصنا برحمة رسول الله صلى الله

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين ، بويع

(٢) الكهف : الورد والملجأ .

بالخلافة سنة ١٣٢ هـ .

عليه وسلم وقرابته ، وأنشأنا من آباءه ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته^(١) ، جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ماعننا^(٢) ، حريصاً علينا ، بالمؤمنين رهوفاً رحماً ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم ، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من مُحْكَمِ الْقُرْآنِ : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ^(٣) أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » وقال : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » ، وقال « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » وقال : « مَا أَفَاءَ^(٤) اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » ، وقال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفئ^(٥) والغنيمة نصيبنا ، تَكْرِمَةً لَنَا ، وَفَضْلاً عَلَيْنَا ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

وزعمت السَّبِيَّةُ الضَّلَالُ أَنْ غَيْرَنَا^(٦) أَحَقُّ بِالرِّيَاسَةِ وَالْخِلَافَةِ مِنَّا ، فَشَاهَتْ^(٧) وُجُوهُهُمْ ! بِمِمْ وَلِمَ أَيُّهَا النَّاسُ ؟ وَبِنَا هَدَى اللَّهُ النَّاسَ بَعْدَ ضَلَالَتِهِمْ ، وَبَصَّرَهُمْ بَعْدَ جَهَالَتِهِمْ ، وَأَنْقَذَهُمْ بَعْدَ هَلَكَتِهِمْ ، وَأَظْهَرَ بِنَا الْحَقَّ ، وَأَدْحَضَ بِنَا الْبَاطِلَ ، وَأَصْلَحَ بِنَا مِنْهُمْ مَا كَانَ فَاسِداً ، وَرَفَعَ بِنَا الْخَسِيئَةَ ، وَأَتَمَّ بِنَا النَّقِيصَةَ ، وَجَمَعَ الْفُرْقَةَ ، حَتَّى عَادَ النَّاسُ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ أَهْلَ تَعَاوُفٍ وَبِرٍّ ، وَمَوَاسَاةٍ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَإِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ فِي آخِرَتِهِمْ ، فَفَتَحَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنةً وَمِنْحَةً لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ قَامَ بِذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ أَصْحَابُهُ ، وَأَمْرُهُمْ سُورَى بَيْنَهُمْ ، فَخَوَّوْا مَوَارِيثَ الْأُمَمِ ، فَعَدَلُوا فِيهَا ،

(١) النبع في الأصل : شجر نفسي والمهام . (٢) العنت بالتحريك : دخول المشقة على الإنسان .

(٣) القدر ، وكل ما استقدر من العمل . (٤) ما أعاده عليه أي صيره له .

(٥) الغنيمة . (٦) يريد العلويين .

(٧) شاه وجهه شوها بالفتح : تبح .

وَوَضَعُوا مَوَاضِعَهَا ، وَأَعْطَوْهَا أَهْلَهَا ، وَخَرَجُوا خِصَاصًا^(۱) مِنْهَا ، ثُمَّ وَثَبَ بَنُو حَرْبٍ
وَمَرْوَانَ فَابْتَزُّوْهَا وَتَدَاوَلُوهَا بَيْنَهُمْ ، فَجَارُوا فِيهَا ، وَاسْتَأْثَرُوا بِهَا ، وَظَلَمُوا أَهْلَهَا ، فَأَمَلِي^(۲)
اللَّهُ لَهُمْ حِينًا حَتَّى آسَفُوهُ^(۳) ، فَلَمَّا آسَفُوهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِأَيْدِينَا ، وَرَدَّ عَلَيْنَا حَقَّنَا ، وَتَدَارَكَ بَنَا
أَمْتَنَا ، وَوَلَّى نَصْرَنَا وَالْقِيَامَ بِأَمْرِنَا ، لِيُؤْمِنَنَّ بِنَا عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ ، وَخَتَمَ
بِنَا كَمَا افْتَتَحَ بِنَا ، وَإِنِّي لِأَرْجُو إِلَّا بِأَيْتِكُمُ الْجَوْرُ مِنْ حَيْثُ أَتَاكُمْ الْخَيْرُ ، وَلَا الْفَسَادُ
مِنْ حَيْثُ جَاءَكُمْ الصَّلَاحُ ، وَمَا تَوْفِيقُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِلَّا بِاللَّهِ .

يَأْهَلِ الْكُوفَةِ ، أَنْتُمْ مَحَلٌّ مَحَبَّتِنَا ، وَمَنْزِلٌ مُوَدَّتِنَا ، أَنْتُمْ الَّذِينَ لَمْ تَتَغَيَّرُوا عَنْ ذَلِكَ ،
وَلَمْ يَثْنِبِكُمْ عَنْ ذَلِكَ تَحَامُلُ أَهْلِ الْجَوْرِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى أُدْرِكْتُمْ زَمَانَنَا ، وَأَنَا كَمَا اللَّهُ
يَبُولْتَنَا ، فَأَنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِنَا ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَيْنَا ، وَقَدْ زِدْتُمْ فِي أُعْطِيَاتِكُمْ مِائَةَ دَرَاهِمٍ ،
فَاسْتَعْدُوا ، فَأَنَا السَّفَاحُ الْمُبِيحُ ، وَالتَّائِثُ الْمُبِيرُ^(۴) .

وَكَانَ مَوْعُوكَا فَاشْتَدَّ بِهِ الْوَعْكَ^(۵) ، فَجَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، وَصَعِدَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ ، فَقَامَ
دُونَهُ عَلَى مَرَّاقِي^(۶) الْمَنْبَرِ ، فَقَالَ :

(تَارِيخُ الطَّبِيِّ ۹ : ۱۲۵ ، وَشَرْحُ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ ۲ : ص ۲۱۳)

۲ - خُطْبَةُ دَاوُدِ بْنِ عَلِيٍّ

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، شُكْرًا شُكْرًا شُكْرًا ، الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوْنَا ، وَأَصَارَ إِلَيْنَا مِيرَاثَنَا مِنْ
نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيُّهَا النَّاسُ : الْآنَ أَقْشَعَتْ^(۷) حَنَادِسُ الدُّنْيَا ، وَانْكَشَفَ

(۱) جِبَاعًا جَمْعُ خَيْصٍ مِنْ خَيْصِ الْبَطْنِ مِثْلَةُ الْمِيمِ أَيْ خَلَا ، وَالْمُخْمَصَةُ : الْمَجَاعَةُ ، وَهُوَ خَيْصَانٌ بِالضَّمِّ ،
وَخَيْصُ الْحَشَا : ضَامِرُ الْبَطْنِ . (۲) أَمْهَاهُمْ . (۳) أَعْضَبُوهُ . (۴) أَبَارُهُ : أَهْلُكَ .
(۵) الْوَعْكَ : أَذَى الْحَمَى وَرُجْمُهَا ، وَالْمِنْ شِدَّةُ التَّمَبِّ . (۶) جَمْعُ مَرَقَاةٍ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا .
(۷) قَشَعَتْ الرِّيحُ السَّحَابَ : كَشَفَتْهُ كَأَنْقَشَعَتْ فَأَوْشَعَتْ وَانْقَشَعَتْ وَتَقَشَعَتْ ، وَالْحَنَادِسُ جَمْعُ حَنْدَسٍ بِكَسْرِ الْحَاءِ
وَالدَّالِ وَهُوَ الظُّلْمَةُ .

عِطَاؤُهَا ، وَأَشْرَقَتْ أَرْضُهَا وَسَمَاوُهَا ، وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَطْلَعِهَا وَبَزَغَ الْقَمَرُ مِنْ مَبْزَغِهِ ، وَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَعَادَ السَّهْمَ إِلَى النَّزْعَةِ^(١) . وَرَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ^(٢) ، فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ ، أَهْلِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِكُمْ وَالْعَطْفِ عَلَيْكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا فِي طَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ لِنُكْثِرَ لُجَيْنًا ، وَلَا عَقِيَانًا^(٣) ، وَلَا نَخْفِرَ نَهْرًا ، وَلَا نَبْنِي قَصْرًا ، وَإِنَّمَا أَخْرَجْنَا الْأَنْفَةَ مِنْ ابْتِزَاظِهِمْ حَقًّا ، وَالغَضْبُ لِبَنِي عَمْنَا ، وَمَا كَرَّثْنَا^(٤) مِنْ أُمُورِكُمْ ، وَبَهَظْنَا مِنْ شَتُونِكُمْ ، وَلَقَدْ كَانَتْ أُمُورِكُمْ تُرْمِضُنَا^(٥) وَنَحْنُ عَلَى فُرُشِنَا ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْنَا سَوْءُ سِيرَةِ بَنِي أُمِيَّةَ فِيكُمْ ، وَخَرَقَهُمْ بِكُمْ ، وَاسْتَدْلَاهُمْ لَكُمْ ، وَاسْتَثَارَهُمْ بِفَيْئِكُمْ وَصَدَقَاتِكُمْ وَمَغَائِمِكُمْ عَلَيْكُمْ ، لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَذِمَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذِمَّةُ الْعَبَّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ نَحْكُمَ فِيكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَنَعْمَلُ فِيكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَنَسِيرَ فِي الْعَامَّةِ مِنْكُمْ وَالْخَاصَّةِ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تَبَا تَبًّا لِبَنِي حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةَ وَبَنِي مَرْوَانَ ، آثَرُوا فِي مَدِينَتِهِمْ وَعَصَرَهُمُ الْعَاجِلَةَ عَلَى الْآجِلَةِ ، وَالِدَارَ الْفَانِيَةَ عَلَى الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ، فَرَكَبُوا الْأَثَامَ ، وَظَلَمُوا الْأَنْثَامَ ، وَأَنْتَهَكُوا الْمَحَارِمَ ، وَغَشَّوْا الْجَرَائِمَ ، وَجَارَوْا فِي سِيرَتِهِمْ فِي الْعِبَادِ ، وَسُنَّتِهِمْ فِي الْبِلَادِ ، الَّتِي بَهَا اسْتَلْدَوْا تَسْرُبُلَ الْأَوْزَارِ ، وَتَجَلَّبَبَ الْأَصَارِ^(٦) ، وَمَرَّحُوا فِي أَعْيُنِ الْمَعَاصِي ، وَرَكَضُوا فِي مِيَادِينِ الْغَيِّ ، جَهْلًا بِاسْتِدْرَاجِ اللَّهِ ، وَأَمْنًا لِمَكْرِ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمْ بِأَسُ اللَّهِ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحُوا أَحَادِيثَ ، وَمُزَّقُوا كُلُّ مُمَزَّقٍ ، فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَأَدَالِنَا^(٧) اللَّهُ مِنْ مَرْوَانَ ، وَقَدْ غَرَّهَ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ، أُرْسِلَ لَعْدُو اللَّهِ فِي عِنَانِهِ ، حَتَّى عَثَرَ فِي فَضْلِ خِطَامِهِ ، فَظَنَّ عَدُو اللَّهِ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى حِزْبَهُ ، وَجَمَعَ مَكَايِدَهُ ، وَرَمَى بِكِتَابِيهِ ، فَوَجَدَ أَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَبِأَسِهِ

(١) جمع نازع : وهو الرامي يشد الوتر إليه ايضع فيه السهم ، وصار الأمر إلى النزعة أي قام بإصلاحه أهل الأمانة ، وعاد السهم إلى النزعة : رجع الحق إلى أهله . (٢) أصله . (٣) ذهباً . (٤) كثره الغم كضرب ونصر : اشتد عليه كما كثرته . (٥) أرمضه : أوجعه وأحرقته ، وأرمض الحر القوم : اشتد عليهم فأذاهم . (٦) جمع إصر كعجل وهو الذئب . (٧) نصرنا عليه .

ونِعمته ، ما أَمات باطله ، ومَحَق ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ،
وردَّ إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين - نصره الله نصراً عزيزاً - إنما عاد إلى المنبر
بعد الصلاة ، أنه كره^(١) أن يَخِط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعهُ عن استتمام الكلام
بعد أن أَسْحَنَفَرَ^(٢) فيه شدةُ الوَعَك ، وادعوا الله لأمر المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم
الله بمروان عدوِّ الرحمن ، وخليفةِ الشيطان ، المتبع للِسْفلة الذين أفسدوا في الأرض
بعد إصلاحها ، بإبدال الدين ، وانتهاكِ حريم المسلمين ، الشاب^(٣) للتكهل المتهمل ،
المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ، ومناهج
التقوى « - فعجَّ الناس له بلدعاء - ثم قال :

« يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا
شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفاج^(٤) بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ،
وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تشوِّفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم
وبَيَّض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ،
ومنَّ عليكم بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الإيالة^(٥) ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر ،
والزموا طاعتنا ، ولا تُخدَعوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصراً ،
وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خائفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى
أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا ، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم
صلى الله عليه ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا » .

(تاريخ الطارى ٩ : ١٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

(١) أى لأنه كره . (٢) اسحنفر الخطيب : اتسع في كلامه . (٣) كانت سنة
حين ولي الخلافة ٢٨ سنة إذ ولد سنة ١٠٤ هـ . (٤) نصر . (٥) آل الملك رعيته إبالا :
سامهم ، وآل عل القوم إبالا وإيالة : ولي .

۳ - خطبة داود بن علي وقد أرتج على السفاح

وروى أنه لما قام أبو العباس في أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقة المصحف فاستحيا فلم يتكلم، فنهص داود بن علي حتى صعد المنبر، فقال المنصور: فقلت في نفسي: شيخنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فانتضيت سيفي، وغطيته بثوبي^(۱)، وقلت: إن فعل ناجزته، فلما رقي عتبا استقبل الناس بوجهه دون أبي العباس، ثم قال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، ولأثر الفِعال أجدى عليكم من تشويق^(۲) المقال، وحسبكم بكتاب الله مُمتثلًا^(۳) فيكم، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خائفةً عليكم، والله - كما برآ لا أريد به إلا الله - ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحقُّ به من علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا، فليظن ظانكم، وليهمس هامسكم» قال أبو جعفر: ثم نزل، وشمت^(۴) سيفي.

(عيون الأخبار ۲ : ص ۲۵۲، وشرح ابن أبي الحديد ۲ : ص ۲۱۳، ومواسم الأدب ۲ : ۱۱۴)

۴ - خطبة أخرى له

وروى السيد المرتضى في أماليه قال:

أراد أبو العباس السفاح يوماً أن يتكلم بأمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه - وكان فيه حياءً مُفْرِطاً - فأرتج عليه، فقال داود بن علي بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس، إن أمير المؤمنين الذي قلده الله سياسة رعيته، عُقل من لسانه،

(۱) في عيون الأخبار: «وغطيت ثوبي» وهو تحريف. (۲) شق الكلام: أخرجه أحسن

مخرج. (۳) امثال طريقته: تبها فلم يعدوا. (۴) شام سيفه يشبهه: غمده (واستله أيضاً: ضد).

عند ما يُعْهَدُ مِنْ بَيَّانِهِ ، وَلِكُلِّ مَرْتَقٍ ^(١) بُهْرٌ ، حَتَّى تَنْفَسَهُ الْعَادَاتُ ، فَأُبَشِّرُوا
بِنِعْمَةِ اللَّهِ فِي صَلَاحِ دِينِكُمْ ، وَرَغَدِ عَيْشِكُمْ . (أمالي السيد المرتضى ٤ : ١٩)

٥ - خُطْبَةٌ أُخْرَى لِلسِّفَاحِ بِالْكُوفَةِ

وخطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » وَاللَّهُ لَا أَعِدُّكُمْ شَيْئًا إِلَّا وَفِيَتْ بِالْوَعْدِ
وَالْوَعِيدِ ، وَالْأَعْمَلْنَ اللَّيْنَ حَتَّى لَا تَنْفَعُ إِلَّا الشَّدَّةُ ، وَالْأُغْمِدَنَّ السِّيفَ إِلَّا فِي إِقَامَةِ حَدِّ ،
أَوْ بُلُوغِ حَقِّ ، وَالْأَعْطَيْنَكُمْ حَتَّى أَرَى الْعَطِيَّةَ ضَيَاعًا ، إِنْ أَهْلَ بَيْتِ اللَّعْنَةِ وَالشَّجَرَةِ ^(٢)
الْمَلْعُونَةِ فِي الْقُرْآنِ ، كَانُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ، لَا يَرْجِعُونَ مَعَكُمْ مِنْ حَالَةٍ إِلَّا إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا ،
وَلَا يَبْلِي عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَآلٍ إِلَّا تَمَنِّيَّةً مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ، وَإِنْ كَانَ لِأَخِيرٍ فِي جَمِيعِهِمْ ، مَنَعَكُمْ
الصَّلَاةَ فِي أَوْقَاتِهَا ، وَطَالَبُوكُمْ بِأَدَائِهَا فِي غَيْرِ وَقْتِهَا ، وَأَخَذُوا الْمُقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ ^(٣) ، وَالجَّارَ
بِالْجَارِ ، وَسَلَطُوا شِرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ ، فَقَدْ مَحَقَّ اللَّهُ جَوْرَهُمْ ، وَأَزْهَقَ بَاطِلَهُمْ ، بِأَهْلِ
بَيْتِ نَبِيِّكُمْ ، فَمَا تَوَخَّرَ لَكُمْ عَطَاءٌ ، وَلَا نَضِيعَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ حَقًّا ، وَلَا نُجْمَرَكُمْ فِي بَعْثٍ ،
وَلَا نَخَاطِرٍ بِكُمْ فِي قِتَالٍ ، وَلَا نَبْذُلُكُمْ دُونَ أَنْفُسِنَا ، وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ بِالْوَفَاءِ
وَالْاجْتِهَادِ ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ » ثُمَّ نَزَلَ . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٢)

٦ - خُطْبَةُ السِّفَاحِ بِالشَّامِ حِينَ قَتَلَ مَرْوَانَ

وَمَا قَتَلَ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ - آخِرَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ - خُطِبَ السِّفَاحُ ، فَقَالَ :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ

(١) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . (٢) هي شجرة الزقوم التي تثبت في أصل الجحيم ،

جعلها الله فتنة للمشركين إذ قالوا : إن النار تحرق الشجر فكيف تثبت .

(٣) انظر قول زياد بن أبيه في خطبته البراء الجزء الثالث ص ٢٧٢ .

يَصْلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ « نَكَصَ بِكُمْ يَا أَهْلَ الشَّامِ آلُ حَرْبٍ وَآلُ مَرْوَانَ، يَتَسَكَّمُونَ^(۱) بِكُمْ الظُّلْمَ، وَيَتَهَوَّرُونَ بِكُمْ مَدَاحِضَ^(۲) الزَّلَقِ، يَطْشُونَ بِكُمْ حَرَمَ اللَّهِ^(۳) وَحَرَمَ رَسُولِهِ^(۴)، مَاذَا يَقُولُ زَعَمَاؤُكُمْ غَدًا؟ يَقُولُونَ: « رَبَّنَا هُوَ لَوْلَا أَضَلُّونَا فَأَتَيْتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ »
إِذْنًا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: « لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ » أما أمير المؤمنين فقد اتنف^(۵) بكم التوبة، واغتفر لكم الزلة، وبسط لكم الإقالة^(۶)، وعاد بفضلته على نقصكم، وبجله على جهلكم، فليفرخ روعكم^(۷)، ولتطمئن به داركم، وليقطع مصارع أوائلكم، « فَتِلْكَ بِيُوتِهِمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا » . (العقد الفريد ۲ : ۱۴۵)

۷ - خطبة عيسى بن علي حين قتل مروان

وخطب عيسى بن علي - عم السفاح - لما قتل مروان، فقال:

« الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من هرب، خدعت والله الأشقر نفسه، إذ ظن أن الله ممهله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فحق مني، وإلى مني؟ أما والله لقد كرهتهم العبدان^(۸) التي افترعوها، وأمسكت السماء ذرها^(۹)، والأرض ريعها^(۱۰)، وقعل الضرع^(۱۱)، وجفز الفنيق^(۱۲)، وأسمل^(۱۳)

(۱) تسكع: مضي مشيا متعسفا. (۲) جمع مدحضة: وهي المزلّة. (۳) يعبر إلى ما كان من مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير بحمكة، ورسمه الكعبة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان
(۴) يشير إلى وقعة الحرة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة هل عهد يزيد بن معاوية.
(۵) استأنف وابتدا. (۶) أقاله عثرته: دفعه من سقوطه. (۷) الروح: بالضم القلب، أو موضع الفزع منه والروح بالفتح: الفزع: وأفرخت البيضة: خرج الفرج منها، أي ليخرج الروح من روعكم ولتهدوا وتطمئنوا.
(۸) أي أمراء المنابر، وافترعوها: أي علوها. (۹) مطرها. (۱۰) الريح: الغناء والزيادة.
(۱۱) قعل: يبس جلده على عظمه. (۱۲) الفنيق: الفحل المسكرم لا يولدى لذكرااته حل أمه ولا يركب، والجفز: كشمس السرعة في المضي، ولم تذكر كتب اللغة ضبط فعله، وجاء في اللسان: « الجفز: سرعة المهي بمانية، حكاهما ابن دريد، قال: ولا أدرى ما صحتها، وفي رواية مواسم الأدب: « وجفل فنيق الشرك ». (۱۳) أسمل اللوب وسمل، كدخل وكرم: أخلق.

جلبابُ الدين ، وأبطلت الحبود ، وأهدرت السماء ، وكان ربك بالمرصاد ، فدَمَدَمَ (١) عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ، وَلَا يَخَافُ عُقَابَهَا ، وملكنا الله أمرم عبادَ الله ، لينظر كيف تعملون ، فالشكر الشكر ، فإنه من دواعي المزيد ، أعاذنا الله وإياكم من مُضِلَّاتِ الأهواء ، وبَغْتَاتِ الفتن ، فإنما نحن به وله .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٥)

٨ - خطبة داود بن علي بمكة (٢)

وخطب داود بن علي الناس بمكة في أول موسم ملكه بنو العباس ، فقال :
« شكراً شكراً ، إنا والله ما خرجنا لنخفِرَ فيكم نهراً ، ولا لنبني فيكم قصرأ ،
أظنَّ عدوَّ الله أن لن نقدر عليه ، أن رُوخِي (٣) له من خطامه ، حتى عثر في فضل زمامه ؟
فالآن حيث أخذ القوسَ باريها ، وعادت النبل إلى النزعة ، ورجع الملك في نصابه
من أهل بيت النبوة والرحمة - والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن في فرشنا - أمن
الأسود والأحمر (٤) ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لكم ذمة العباس ، لا وربُّ هذه البنية - وأوماً بيده إلى الكعبة - لا نهيج
منكم أحداً . »

(تهذيب الكامل ١ : ١٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٧ ، والبيان والتبيين
١ : ١٨٠ ، وابن أبي الحديد ٢ : ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

(١) دمدم القوم ، ودمدم عليهم : طحهم فأهلكهم ، فسواها : أي الدممة ، أي صوم بها فلم
يفلت منهم أحد . (٢) رلاه أبو العباس الكوفة وسوادها ، ثم ولاء المدينة ومكة واليمن والعمامة
سنة ١٣٢ وولاه إمارة الحاج في هذه السنة ، ومات بالمدينة في ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ (الطبري ج ٩ ص
١٤٧) (٣) أي لأن رُوخِي له ، ظن أن لن نقدر عليه .
(٤) الحمراء : العجم لأن العناب حل ألوانهم البياض والحبرة .

٩ - خطبته بالمدينة

قال : « أيها الناس : حَتَّامَ يَهْتِفُ بِكُمْ صَرِيحُكُمْ ^(١) ؟ أما آنَ لِرَأْفِدِكُمْ أَنْ يَهْبُؤَ
مِنْ نَوْمِهِ ؟ كَلَّا بَلْ رَانَ ^(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَعْرَأَكُمُ الْإِمْهَالَ حَتَّى
حَسِبْتُمُوهُ الْإِمْهَالَ ؟ هِيَاتِ مِنْكُمْ وَكَيْفَ بِكُمْ ، وَالسُّوْطُ كُنْفِي ، وَالسَّيْفُ مُشَهَّرٌ ^(٣) !
حَتَّى يُبِيدَ قَبِيلَةَ قَبِيلَةٍ وَيَعْضَّ كُلُّ مُثَقَّفٍ بِالْهَامِ ^(٤)
وَيُقِيمَنَّ رَبَّاتِ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا ^(٥) يَسْحَنَ عُرُضَ ذَوَائِبِ الْأَيْتَامِ ^(٥)

(المعقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٠ - خطبة أخرى له ^(٦)

وخطب فقال : « أحرز لسان رأسه ، اتعظ امرؤ بغيره ، اعتبر عاقل قبل أن يعتبر به ،
فأمسك الفضل من قوله ، وقدم الفضل من عمله » ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال : « إن بكم
داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، وما بعد الوعيد إلا الإيقاع » .

(هيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

(١) الصريح : المستغث (والمغيث أيضا) (٢) غلب . (٣) شهر سيفه كنع ، وشهره
بالتشديد : انتضاء فرقه على الناس . (٤) فتقيد للرمح : تسويتها . (٥) قوله ويقن :
أي الرماح ، والضمير يعود على (كل مثقف) . حواسر : جمع حاسر وهي كل مكشوفة الرأس والذراعين .
(٦) هذه الخطبة أوردها ابن قتيبة ، ووزاها إلى داود بن علي ، ونسبها صاحب المعقد إلى المنصور ،
وأنه قالها لما قتل الأمويين (راجع المعقد ج ٧ : ص ١٤٥) .

ونصها كما أوردها : « أحرز لسان رأسه ، انتبه امرؤ لحظته ، نظر امرؤ في يومه لغده ،
فمضى القصد ، وقال الفضل ، وجانب الهجر » ، ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال :

« أيها الناس : إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن
يُعتبر به ، فإنما بعد الوعيد الانقطاع ، و « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ »
والهجر : الفصح من الكلام .

١١ - خطبته وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاةً بنى العباس

وبلغهُ أن قوماً أظهروا شكاةً بنى العباس ، فافترع المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ،

ثم قال :

« أَغْدَرًا يَا هَلْ الْخَيْرُ ^(١) وَالتبديل؟ أَلَمْ يَرُدَّ عَمَّ الْفَتْحُ الْمَبِينُ ^(٢) ، عَنْ الْخَوْضِ

فِي ذَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ كَلَّا وَاللَّهِ حَتَّى تَحْمِلُوا أَوْزَارَكُمْ وَأَوْزَارَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ ،

كَيْفَ قَامَتْ شِفَاهَكُمْ بِالشُّكْوَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ بَعْدَ أَنْ حَانَتْ آجَالُكُمْ فَأَرْجَاهَا ،

وَانْبَعَثَ دِمَاؤُكُمْ فَحَقَّنَهَا ، الْآنَ يَا مَنَابِتَ الدَّمَنِ ، مَشَيْتُمُ الضَّرَاءَ ^(٣) ، وَدَبَّيْتُمُ الْخَمْرَ ^(٤) ،

أَمَا وَمُحَمَّدٍ وَالْعَبَّاسِ إِنْ عُدْتُمْ لِمِثْلِ مَا بَدَأْتُمْ ، لِأَخْضُدِنَا بِظَبَاتِ السُّيُوفِ ، ثُمَّ يُفْنِي

رَبُّنَا عَنْكُمْ ، وَنَسْتَبْدِلُ غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

مهلاً ياروايا ^(٥) الإرجاف ، وأبناء النفاق ، عن الخوض فيما كنتم ، والنخلى

إلى ما حذرتكم ، قبل أن تتلف نفوس ، ويقلَّ عدد ، ويذلَّ عز ، وما أتم وتلك؟

ألم تجيدوا ما وعد ربكم حقاً من إيرات المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها؟ بلى

والحجر والحجر ^(٦) ، ولكنه حمد مضر ، وحسك ^(٧) في الصدور ، فرغماً للعاطس ^(٨) ،

وبعداً للقوم الظالمين ^(٩) . »

(١) الخمر : الفدر ، أو أتبعه . (٢) في الأصل « أَلَمْ يَرُدَّ عَمَّ الْفَتْحُ الْمَبِينُ مِنْ الْخَوْضِ فِي ذَمِّ أَمِيرِ

المؤمنين » وهو تحريف . (٣) الضراء : الشجر الملتف في الوادى ، يقال : توارى الصيد منه

في ضراء ، وفلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر . (٤) في الأصل « ودببتم

الحمراء » وهو تحريف ، وصوابه ما ذكرنا ، والحمرة بالتحريك : كل ما وراك من شجر أو بناء أو غيره ،

وخر كفرح : توارى ، ومن أمثاله : « يدب له الضراء ، ويمشى له الحمرة » وهو مثل يضرب للرجل يختل

صاحبه . (٥) الروايا جمع راوية : وهى المازدة فيها الماء . (٦) الحجر : حجر الكعبة ،

وهو ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال . (٧) الحسك : الحقد والعداوة .

(٨) العاطس جمع «عطس كجلس ومقعد وهو الأنف ، والرغم : الذل . (٩) وروى صاحب العقد

١٢ - خطبته وقد أرتج عليه

وخطب داود بن عليّ ، فحمد الله جل وعز ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قال : أما بعد ، امتنع عليه الكلام ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد يَجِدُ المَعْسِر ، وَيُعْسِرُ المُوَسِّر ، وَيُقِلُّ الحَدِيد ، وَيَقْطَع الكَلِيل ، وَإِنَّمَا الكلام بعد الإِحْخَام ، كالإِشْرَاق بعد الإِظْلَام ، وقد يعزّب البيان ، وَيُعْقَم الصواب ، وَإِنَّمَا اللسان ، مُضْغَةٌ من الإنسان ، يَفْتَرُ بفتوره إذا نَكَلَ ، وَيُثَوِّبُ بانبساطه إذا ارتجَل ؛ أَلَا وَإِنَّا لَننطِق بِطَرًّا ، وَلَا نَسْكُتُ حَصْرًا ، بل نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ ، وَننطق مُرْشِدِينَ ، وَنَحْنُ بَعْدُ أَمْرَاءُ القول ، فِينَا وَشَجَّتْ ^(١) أَعْرَاقُهُ ، وَعَلِينَا عَطَفَتْ أَغْصَانُهُ ، وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ ، فَتَخَيَّرَ مِنْهُ مَا اخْتَلَوَى وَعَذَّبَ ، وَنَطَّرَحَ مِنْهُ مَا امْتَلَوَحَ وَخَبِثَ ، وَمِنْ بَعْدِ مَقَامِنَا هَذَا مَقَامٌ ، وَبَعْدَ أَيَامِنَا أَيَامٌ ، يُعْرَفُ فِيهَا فَضْلُ البَيَانِ ، وَفَضْلُ الخُطَابِ وَاللَّهِ أَفْضَلُ مُسْتَعَانَ » ثم نزل ^(٢) .

(كتاب الصناعتين ص ٢١ ، وأمال السيد المرتضى ٤ : ١٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٥)

بعض هذه الخطبة وعزاها إلى أبي جعفر المنصور ، فقال : « خطب المنصور حين خروجه إلى الشام فقال :

شِنْشِنَةٌ أَعْرِفِيهَا مِنْ أَحْزَمٍ مَنْ يَلْقَى أَبْطَالَ الرِّجَالِ يُنْكَمِ

مهلا مهلا روايا الإرجاف ، وكهوف النفاق . . . إلى آخر الخطبة ، راجع العقدة للفريد ٢ : ١٤٥ - والشنشة : الطبيعة والعادة ، وهو مثل لأبي أخزم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم ، وكان عاقا ، فات وترك بنين ، فوثبوا يوما على جدتهم أبي أخزم فأدموه فقال :

إن بني ضرجوني بالدم شنشة أعرفها من أخزم

أي إن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق : يضرب في قرب الشبه ، ويكلم : يجرح .

(١) وشجت العروق والأغصان كوعه وشجا وشيجا : اشتبكت ، والواشجة : الرحم المشتبكة .

(٢) وروى المصري في زهر الآداب بعض هذا القول وعزاها إلى عبد الملك بن صالح ، وروى السيد

المرتضى في أماليه قال :

« صعد أبو العباس السفاح المنبر ، فأرتج عليه فقال : « أيها الناس ، إن اللسان ، بضعة

(٢ - جمهرة خطب العرب - ثالث)

١٣ - خطبة صالح بن علي

وخطب صالح بن علي^(١) عم السفاح ، فقال :

يا أعضاء النفاق ، وعُبد الضلالة ، أغرَّكم لين أساسي ، وطول إيناسي ؟ حتى ظن
جاهلكم أن ذلك لفلول حدّ ، وفتور جدّ ، وخور^(٢) قنّاة ، كذبت الظنون ، إنها
العِترَةُ بعضها من بعض ، فإذ قد استوليتُم العافية ، فعندي فِطام وفِكاك ، وسيف يُقدُّ
الهَام ، وإني أقول :

أغرَّكم أني بأكرم شيمة رفيق ، وأني بالفواحش أخرق ؟
ومثلي إذا لم يُجزَّ أحسن سعيه تكلم نغمه فيها فتنطق
لعمري لقد فاحشنتني فغلبتني هنيئا مريثا أنت بالفحش أرفق

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٤ - خطبة سديف بن ميمون

وروى صاحب العقد قال :

لما قدّم الغمّ بن يزيد بن عبد الملك على أبي العباس السّفاح في ثمانين رجلا من

من الإنسان ، يكلُّ إذا كَلَّ ، وينفسح بانفساحه إذا فسح ، ونحن أمراء الكلام ، مذا
تفرعت فروعه ، وعلينا تهذلت غصونه ، ألا وإنا لا نتكلم هذرا ، ولا نسكت إلا
معتبرين » ثم نزل ، فبلغ ذلك أبا جعفر ، فقال : « لله هو لو خطب بمثل ما اعتذر ،
لكان من أخطب الناس » ، وهذا الكلام يروى لداود بن عليّ اه .

والبضعة بفتح الباء وقد تكسر : القطعة من اللحم ، والهدر بالتحريك : سقط الكلام وبسكون الذا
مصدر هذر في منطقه كضرب ونصر .

(١) هو صالح بن هلي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد وُلد السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ،
ثم وُلد مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح في ذى الحجة سنة ١٣٦ ، فأقره المنصور على
عمل مصر ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو عامل حصن بقتسرين . (٢) ضعف .

بنی أمیة ، ووضعت لهم الكراسی ، ووضعت لهم نمارق^(۱) ، وأجلسوا عليها ، وأجلس الغمر مع نفسه في للصلی ، ثم أذن لسيئته فدخلوا ودخل فيهم سديف بن ميمون^(۲) ، وكان متوشحاً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وكان طويلاً آدم^(۳) ، فقام خطيباً .

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيزعم الضلال بما حبطت^(۴) أعمالهم أن غير آل محمد أولى بالخلافة ؟ فلم وبم أيها الناس ؟ لكم الفضل بالصحابة ، دون حق ذوى القرابة ، الشركاء في النسب ، الأكفاء في الحسب ، الخاصة في الحياة ، الوفاة^(۵) عند الوفاة ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الأولى جائعكم ، فكم قصم الله بهم من جبار باع ، وفاسق ظالم ، لم يسمع بمثل العباس ، لم تخضع له أمة بواجب حق ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وجلدة ما بين عينيه^(۶) ، أمينه ليلة العقبة^(۷) ورسوله إلى أهل مكة ، وحاميه يوم حنين^(۸) ، لا يرُدُّ له رأياً ، ولا يخالف له قسماً ، إنكم والله معاشر قريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث ما اختاره الله لكم ، تيمى^(۹) مرة ، وعدوى^(۱۰) مرة ، وكنتم بين ظهراني قوم قد آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، وجعلوا الصدقات في الشهوات ، والفني في اللذات والغناء ، والمغائم ،

(۱) نمارق جمع نمرقة كمنفذة : وهي الوسادة الصغيرة . (۲) مولد أبي العباس السفاح .

(۳) وصف من الأدمة ، وهي كالصخرة وزنا ومعنى . (۴) فسدت . (۵) الوفاة جمع

واف . (۶) خطب الوليد بن عبد الملك فقال : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : « إن الحجاج جلدة ما بين عيني ، ألا وإنه جلدة وجهي كله » - البيان والتبيين ۱ : ۱۶۰ و ۳ : ۲۱ - .

(۷) يوم مبايعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً معهم امرأتان وليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عمه العباس - وهو على دين قومه - ولكنه رأى أنه يحضر أمر ابن أخيه ليتوثق له . (۸) كان العباس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة

حنين ، حين انهزم المسلمون أول الموقعة ، وكان آخذاً بلجام بقلته . (۹) يريد أبا بكر الصديق

رضي الله عنه ، وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤي . (۱۰) يريد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو من عدى بن كعب بن لؤي .

في المحارم ، إذا ذُكروا بالله لم يذُكروا ، وإذا قدّموا بالحق أدبوا ، فذلك زمانهم ،
وبذلك كان يعملُ شيطانهم^(۱) . « (العقد الفريد : ۲ : ۲۰۱)

۱۵ - خطبة أبي مسلم الخراساني

وروى ابن أبي الحديد قال :

وخطب أبو مسلم بالمدينة في السنة التي حج فيها في خلافة السفاح^(۲) ، فقال :
« الحمد لله الذي حمّد نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى ، واختاره من خلقه ، نفسه من أنفسهم ، وبيته
من بيوتهم ، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه ، وأشهد ملائكته على
حقه ، قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا » ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، فصبر من صبر منهم
بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على الأواء^(۳) ، والشدة ، وأغضى على الاستبداد
والأثرة ، ثم إن قوماً من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله ، جاهدوا على ملة نبيه
وسنّته بعد عصر من الزمان ، من عمال بطاعة الشيطان ، وعداوة الرحمن ، بين ظهراني
قوم آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، إن رتق جور فتقوه ، أو فتق حق رتقوه ،
أهل خمر ومارحور ، وطنابير^(۴) ومزامير ، إن ذُكروا لم يذُكروا ، أو قدّموا إلى
الحق أدبوا وجعلوا الصدقات ، في الشبهات ، والمغانم في المحارم ، والنبي في الغي ،
هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم ، وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر
منهم ، فلم وبم أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصّحابة ، دون ذوى القرابة ، الشركاء

(۱) فقر هذه الخطبة مروية في خطبة أبي مسلم الخراساني الآتية بعدها ، ولكن أثر إيراد الروابطين

جميعاً كما وردتا . (۲) وذلك في سنة ۱۳۶ هـ . (۳) الشدة .

(۴) الطنابير : جمع طنبور كمصفور ، وهو الذي يلعب به .

في النسب ، وَالْوَرِثَةَ فِي السَّلْبِ (١) ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الجذب جائعكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم بعد نبيه تختارون تميمًا مرة ، وَعَدَوِيًّا مرة ، وَأَمْوِيًّا مرة ، وَأَسَدِيًّا (٢) مرة ، وَسُفْيَانِيًّا مرة ، وَمَرَوَانِيًّا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته (٣) يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنوةً ، وأتم صاغرون ؛ ألا إن آل محمد أئمة الهدى ، ومَنَارُ سَبِيلِ التَّقَى ، القادة الذادة السادة ، بنو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَمُنَزَّلِ جَبْرِيلَ بالتَنْزِيلِ ، كم قصم الله

(١) ما يسلب ، والمراد ورثته في الخلافة . (٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ابن أسد . (٣) قال ابن أبي الحديد : « يعني نفسه لأنه لم يكن معلوم النسب ، وقد اختلف فيه أهو مولى أم هانئ » وقال ابن خلكان في (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠) في ترجمته : « أبو مسلم عبد الرحمن ابن مسلم وقيل عثمان الخراساني القائم بالدعوة العباسية ، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن جودرن من ولد بزرجهر بن البختكان الفارسي ، وقد اختلف للناس في نسبه ، فقيل إنه من العرب ، وقيل إنه من المعجم ، وقيل من الأكراد ، وفي ذلك يقول أبو دلامة :

أبا مجرم ما غير الله نعمة هل عبده حتى يغيرها العبد
أق دولة المنصور حارات غدرة ألا إن أهل الدر آباؤك الكرد

وقال ابن طباطبائي الفخرى ص ١٢٣ : « أما نسبه ففيه اختلاف كثير ، فقيل : هو حر من ولد بزرجهر ، وأنه ولد بأصفهان ، ونشأ بالكوفة ، فاتصل بإبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس فقير اسمه وكناه بأبي مسلم ، وثقفه وفقّه ، حتى كان منه ما كان . وقيل هو عبد تنقل في الرق ، حتى وصل إلى إبراهيم الإمام ، فلما رآه أعجبه سمته وهمله ، فابذعه من مولاه وثقفه وفهمه ، وصار يرسله إلى شيعة وأصحاب دعوته بخراسان ، وما زال هل ذلك حتى كان من الأمر ما كان .

وأما هوفانه لما قويت شوكته ادعى أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، وكان لعبد الله بن عباس جارية فوقع عليها مرة ، ثم اعتزلها مدة فاستنكحها عبدا فوطئها ، فولدت منه غلاما سمته سليطا ، ثم ألصقته بعبد الله بن عباس ، وأنكره عبد الله ولم يعترف به ، ونشأ سليط ، وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس ، فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته في ميراثه ، وأعجب ذلك بني أمية ليغضوا من علي بن عبد الله ابن عباس ، فأعانوه وأوصوا قاضي دهرق في الباطن ، فقال إليه في الحكم وحكم له بالميراث ، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا .

وذكر ابن خلكان أن المنصور قال له قبل قتله ، وقد عدد له مساوي وقعت عنه : « زعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا ! » .

بهم من جبار طائع ، وفاسق باغ ، شيد الله بهم الهدى ، وجلى بهم العمى ، لم يُسمع بمثل العباس ، وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حق الحرمة ؟ أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وجلدة بين عينيه ، أمينه يوم العقبة ، وناصره بمكة^(١) ، ورسوله إلى أهلها ، وحاميه يوم حنين ، عند ملتقى الفئتين ، لا يخالف له رسماً ، ولا يفصى له حكماً ، الشافع يوم نيق العقاب^(٢) ، إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في الأحزاب ، ها إن في هذا أيها الناس لعبرة لأولى الأبصار .

(شرح ابن أبي الحديد م : ٢ : ٢١٥)

١٦ — خالد بن صفوان وأحوال السفاح

روى الجاحظ قال :

كان خالد بن صفوان الأهمي من سمار أبي العباس السفاح ، وأهل المنزلة عنده ، ففخر عليه ناس من بدحارث^(٣) ، وأكثروا في القول ، فقال أبو العباس : لم لاتكلم يا خالد ؟ فقال : « أحوال^(٤) أمير المؤمنين وعصبته » قال : « فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته » قال خالد : وما عسى أن أقول لقوم ، كانوا بين ناسج بُرد ، ودابغ جلد ،

(١) يشير إلى ما كان من العباس في غزوة أحد ، وذلك أن جيش المشركين خرج من مكة لمحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا مقابل المدينة ، وبلغ الخبر الرسول من كتاب بعث به إليه عمه العباس الذي لم يخرج معهم في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر ، وكان بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار المشركين (وقيل إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتبكم إلامه) .

(٢) موضع بين مكة والمدينة . وذلك أن العباس شفع فيه يوم فتح مكة في أبي سفيان ، وفي أهل مكة فعفا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم .

(٣) انظر الجزء الثاني ٣٣٥ . (٤) كانت أم السفاح من بني الحارث ، وهي ريطة بنت عبدة الله بن عبد الله بن عبد المدان بن الديان الحارثي ، والذا كان يقال له ابن الحارثية .

وسائس قرود ، وراكب عرود^(۱) ، فكّ عليهم هدهد^(۲) ، وغرقهم فأرة^(۳) ،
وملكهم امرأة^(۴) ؟ » .
(البيان والتنبيه ۱ : ۱۸۴)

* * *

وروى الحضريّ في زهر الآداب قال :

« دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح ، وعنده أخواله من بني الحارث
ابن كعب ، فقال : ما تقول في أخوالي ؟ فقال : « هم هامة^(۵) الشرف ، وعرينين^(۶)
الكرم ، وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم ، لأنهم
أطولهم لِمَاءً^(۷) ، وأكرم شيئا ، وأطيبهم طعما^(۸) ، وأوفاهم ذمّا ، وأبعدهم همما ،
الجمرة في الحرب ، والرّفد^(۹) في الجذب ، والرأس في كل خطب ، وغيرهم
بمنزلة العجب^(۱۰) » .

فقال : وصفت أبا صفوان فأحسنت ، فزاد أخواله في الفخر ، فغضب أبو العباس

(۱) المراد : الحمار .

(۲) يشير إلى حديث المدهد مع سليمان عليه السلام في قوله تعالى : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ
لَا أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، فَكَيْتَ غَيْرَ بِعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ
بِنَبَأٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ،
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . الآيات » .

(۳) يشير إلى ما يزرعه المورخون من أن سيل العرم للذي غرب انمين كان سببه نرض الجرذ لسد مأرب

انظر الجزء الأول ص ۱۰۵ . (۴) هي بلقيس (بالسكسر) ملكة سبأ .

(۵) هامة : رأس كل شيء . (۶) العرينين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شيء .

أوله . (۷) في الأصل « أنما » وأراه محرفا ، وصوابه « لما » والنعم جمع لمة بالسكسر ، وهي الشعر المجاوز

شعرة الأذن . (۸) الطعم : الطعام . (۹) الرفد : العطاء والصلة . (۱۰) العجب : أصل

للذنب ، ومؤخر كل شيء .

لأعمامه ، فقال : افخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين ، قال : وأنت من أعمامه ،
قال :

« كيف أفاخر قوماً بين ناسج بُرْد ، وسائس قِرْد ، ودابغ جِلْد ، وراكب عَرْد ،
دلّ عليهم هُدُهد ، وغرّقهم جُرْد ، وملكتهم امرأة ؟ » ، فأشرق وجه أبي العباس .
(زهر الآداب ٣ : ١٣٠ ، ٣٤٦)

١٧ — خالد بن صفوان ورجل من بني عبد الدار

وفاخر خالد بن صفوان رجلاً من بني عبد الدار الذين يسكنون اليمامة ، فقال له
العبدري : من أنت ؟ قال : أنا خالد بن صفوان بن الأهمم ، فقال له العبدري : أنت خالد
« كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ^(١) » وأنت ابن صفوان ، وقال الله تعالى : « كَمَثَلِ صَفْوَانَ
عَلَيْهِ تَرَابٌ ^(٢) » ، وأنت ابن الأهمم ، والصحيح خير من الأهمم ^(٣) ، فقال له خالد
ابن صفوان : يا أخا بني عبد الدار ، أتتكلم ؟ وقد هَشَمْتَكَ هاشم ، وأمَّتكَ ^(٤) بنو أمية ،
وخزمتك بنو مخزوم ، وجمحتك بنو جمح ^(٥) ؟ فأنت عبد دارهم ^(٦) تفتح إذا دخلوا ،
وتغلق إذا خرجوا » فقام العبدري محمواً .

(أمال السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٢)

(١) وتتمام الآية الكريمة : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » .

(٢) صفوان جمع صفوانة : وهي الحجر الصلد الضخم كالصفواء والصفاء ، والآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ،
فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

(٣) هم كافرين : انكسرت ثناياه من أصولها فهو أهمم . (٤) قادتك (٥) انظر

الجزء الثاني ص ٩٨ . (٦) وكانت الحجابة في بني عبد الدار ، انظر الجزء الثاني ص ٩٨ أيضا .

١٨ - خالد بن صفوان يرثي صديقه

وقال الجاحظ : قيل لرجل - أراه خالد بن صفوان^(١) - مات صديق لك ، فقال :
« رحمة الله عليه ، لقد كان يملأ العينَ جمالا ، والأذنَ بيانا ، ولقد كان يُرْجَى
فلا يَخْشَى ، ويُغْشَى فلا يَغْشَى ، ويُعْطَى فلا يُعْطَى ، قليلاً لدى الشرِّ حضوره ، سليماً
للصديق ضميره » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والأمل ٢ : ١٧٤)

١٩ - خالد بن صفوان يمدح رجلاً

وذكر خالد رجلاً ، فقال :
« كان والله بديع المنطق ، دَلِقَ^(٢) الجُرْأَة ، جَزَل الألفاظ ، عربيّ اللسان ، ثابت
العقدة ، رقيق الحواشي ، خفيف الشفتين ، بليغ الريق ، رَحْب الشرف ، قليل
الحركات ، خفيّ الإشارات ، خلوّ الشمائل ، حَسَن الطلاوة^(٣) ، حَيِّياً جَرِيئاً ، قَتُولاً
صَمُوتاً ، يَفْلُ الحزَّ^(٤) ويصيب المفاصل ، لم يكن بالمعذر^(٥) في منطقته ، ولا بالزَمِينِ^(٦)
في مروءته ، ولا بالخرق^(٧) في خليقته ، متبوعاً غير تابع ، كأنه علم في رأسه نار » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

٢٠ - كلمات بليغة لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان لبعض الأولاد : « قَدِمْتَ فَأَعْطَيْتَ كُؤُلًا بِقِسْطِهِ مِنْ وَجْهِكَ

- (١) ورواية القالي : عن الأصمعي قال خالد بن صفوان لفتى بين يديه : رحم الله أباك . . . الخ .
(٢) مأخوذ من « سيف دلق » أي سهل الخروج من غمده ، ويقال : اندلق الصيل أي اندنع ،
واندلق للسيف : أي شق جفنه فخرج منه . (٣) الطلاوة مثلثة : النبول . (٤) الحز : للقطع .
(٥) عذر في الأمر تعذيراً ، إذا قصر ولم يجتهد . (٦) أي المغيب ، والزمانة كسحابة : العاهة .
زمن كفرح فهو زمن وزمين . (٧) الخرق : الذي لا يحسن للعمل والتصرف في الأمور .

«وكرامتك^(١)، حتى كأنك من كل أحد، وحتى كأنك لست من أحد» .

(الأمل ١ : ٢١٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٣٤٧ ، ١٦٧)

وقال شبيب بن شيبه بن خالد بن صفوان : « مَنْ أَحَبُّ إِخْوَانِكَ إِلَيْكَ ؟ » قال :

« مَنْ سَدَّ خَلِّي ، وَغَفَرَ زَلِّي ، وَقَبِلَ عَلِّي » . (الأمل ١ : ١٩٨)

وذكر شبيب عنده مرة ، فقال : « ليس له صديق في السر ، ولا عدو في العلانية » .

قال الجاحظ : « وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون في هذه الصناعة » .

(البيان والتبيين ١ : ١٨٤ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

وقال خالد : « ما الإنسان ، لولا اللسان ، إلا صورة ممثلة ، أو بهيمة مُمَهَّمَة » ،

وقال « أتقوا مجانب^(٢) الضعفاء » يريد الدعاء . (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان ، فقال : « يُنَشِقُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِثْلَ الْخُرْدَلِ ،

يُفْرِغُ عَلَيْهِ مِثْلَ الْمُرْجَلِ ، وَيَرْمِيهِ بِمِثْلِ الْجُنْدَلِ ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّمَا كُنْتُ أَمْزَحُ ! » .

(زهر الآداب ٥٢ : ٨)

٢١ - عمارة بن حمزة والسفاح

وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أمر له بجواز نفيته وكثوة وصيلة ،

وأدنى مجلسه :

« وَصَلِّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَرَكَ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَرَدْنَا شُكْرَكَ عَلَى كُنْهِ^(٣) »

صَلِّتِكَ ، إِنْ الشُّكْرَ لَيَقْصُرُ عَنْ نِعْمَتِكَ ، كَمَا قَصُرْنَا عَنْ مَنَزَلَتِكَ ، ثُمَّ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى

جَعَلَ لَكَ فَضْلًا عَلَيْنَا ، بِالتَّقْصِيرِ مِنَّا ، وَلَمْ تَحْرِمْنَا الزِّيَادَةَ مِنْكَ لِنَقْصِ^(٤) شُكْرَنَا » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

(١) وفي رواية زهر الآداب : « من نظرك ومجلسك في صوتك وهدوك » .

(٢) جمع منجنيق بفتح الميم وكسرهما : آلة ترمى بها الحجارة . (٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) في الأصل : « لبعض » وأراء محرفا .

خطب أبي جعفر المنصور (توفي سنة ١٥٨ هـ)

٢٢ - خطبته بمكة

خطب أبو جعفر المنصور بمكة ، فقال :

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ، وتسديده وتأيدده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحني فتحنى لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، فإن شاء أن يُقفلني عليها أقفلني ، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به إذ يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » أن يوفقني للرشاد والصواب ، وأن يُبليهنى الرأفة بكم والإحسان إليكم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . »

(العقد للفرید ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٥١ ، تاريخ الطبری ٩ : ٢١)

٢٣ - خطبته بمكة بعد بناء بغداد

وحج بعد بناء بغداد فقام خطيباً بمكة ، فكان مما حفظ من كلامه^(١) : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ^(٢) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، أَمْرٌ مُبْرَمٌ ، وَقَوْلٌ عَدْلٌ ، وَقَضَاءٌ فَصْلٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَفْلَجَ^(٣) حُجَّتَهُ ، وَبُعَدَّ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ،

(١) عز صاحب العقد هذه الخطبة إلى سليمان بن علي (انظر ج ٢ ص ١٤٥) ، وكذا صاحب مواهب

الأدب (انظر ج ٢ : ص ١١٥) . (٢) قبل المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ، وبالذكر العوج

المحفوظ . (٣) نصر .

الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، وَالْفِيءَ إِرْثًا ، وَجَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ^(١) ، لَقَدْ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فَمَا تَرَى مِنْ بَرٍّ مُعْتَلَةٍ^(٢) وَقَصْرِ مَشِيدٍ ، أَمَهُلِهِمْ اللَّهُ حَتَّى بَدَلُوا السَّنَةَ ، وَاضْطَهَدُوا الْعِتْرَةَ^(٣) وَعَعَدُوا^(٤) وَاعْتَدُوا وَاسْتَكْبَرُوا ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ فَيْلٌ مَحْسٌ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا؟^(٥) .

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والكمال لابن الأثير ٦ : ١٢)

٢٤ - خطبته بمدينة السلام

وخطب بمدينة السلام « بغداد » فقال :

« يا عباد الله ، لا تظالموا ، فإنها مظالم يوم القيامة ، والله لولا يد خاطئة ، وظلم ظالم ، لمشيت بين أظهركم في أسواقكم ، ولو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر مني لأتيت حتى أدفعه إليه . »

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٠)

٢٥ - خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته

ولما أخذ عبد الله بن حسن^(٦) وإخوته ، والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) الرضة : للفرقة والقطعة والجمع عضون ، وجعل المشركون القرآن عِضِينَ أي فرقا : فرقوا فيه القول ، فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا ، فهم قد (عضوه) بالتشديد أعضاء أي جزءه وأجزاءه ، وهو يرهد هنا الأمويين يشير إلى أنهم عطلوا بعض أوامر القرآن بما أتوه من الأعمال من رمى الكعبة ، واضطهاد أهل البيت الخ . (٢) متروكة لا يستحق منها هلاك أهلها ، ومشيد : مرفوع أو مطل بالشيد (بالكسر) وهو ما طل به الحائط من جص ونحوه ، أي معطل خال من ساكنيه أيضا . (٣) العترة نسل الرجل ورهط . وعشيرته الأذنون . (٤) عند (مثالث النون) من الطاريق : مال (٥) الصوت الخفى (٦) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد حمله المنصور هو وأهل بيته ، من المدينة إلى العراق سنة ١٤٤ هـ ، وأقام في غيايات السجون حتى ماتوا بسجن الكوفة ، وكان يتخوف أن يغالبه على الخلافة محمد بن عبد الله هذا (وهو محمد الملقب بالنفس الزكية) وقد خرج عليه بالمدينة فوجه المنصور جيشا قتله فقتل سنة ١٤٥ هـ ، وخرج أخوه إبراهيم على المنصور بالبصرة فقتل أيضا في مله السنة .

« يا أهل خراسان : أتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب ، تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم تعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام فيها علي ابن أبي طالب ، فتلطخ ، وحكم عليه الحكيم ، فافتقت عنه الأمة ، واختافت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه ، وبطانتته وثقاته فقتلوه ، ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدرس إليه معاوية : إني أحعلك ولياً عهدي من بعدى ، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات علي فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق ، والإغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة السوداء - وأشار إلى الكوفة - فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم فأسلمها ، فرق الله بيني وبينها ، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخدعه أهل الكوفة وغرثوه ، فلما أخرجوه^(١) وأظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن علي^(٢) ، فناشده في الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصب بالبكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل وتم^(٣) على خروجه ، فقتل وصاب بالكناسة^(٤) ثم وثب علينا بنو أمية ، فأما توأشرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة^(٥) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ، فنفونا من البلاد فصيرنا مرة بالطائف . ومرة بالشام ، ومرة بالشراة^(٦) ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة

(١) وقد خرج في خلافة هشام بن عبد الملك ، فقاتله يوسف بن عمر الثقفي والى العراق ، وقتل وصاب سنة ١٢١ هـ .

(٢) يريه أباه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

(٣) تم على الأمر : استمر عليه . (٤) موضع بترب الكوفة .

(٥) ثار . (٦) موضع بين دمشق والمدية (السكر الان) .

وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ، ودمغ بحكم أهل الباطل ، وأظهر
حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقرر الحق مقررته ، وأظهر مناره ، وأعز
أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت
الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلما وحسدا
منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته ، وميراث نبيه
صلى الله عليه وسلم :

جَهْلًا عَلَىٰ وَجْبْنَا عَنْ عَدُوهُمْ كَبِئْسَتِ الْخَلَّتَانِ الْجَهْلُ وَالْجَبْنُ

فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض
السقم والتعثر^(١) ، وقد دسست لهم رجالا ، فقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان ، نخذ معك
من المال كذا ، وحدوت لهم مثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ،
فدسوا إليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ، ولا صغير ولا كبير ،
إلا بايعهم بيعة استحالت بها دماءهم وأموالهم ، وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ،
وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج على ، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين «
ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » .

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٤١)

٢٦ - خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن

ولما خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله ، شن^(١) المنصور عليه درعه ، وتقلد سيفه ،
وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال :

مَالِي أَكْفِكُ عَنْ سَعْدٍ وَتَشْتُمُنِي ؟ وَلَوْ شَتَّمْتُ بَنِي سَعْدٍ لَقَدْ سَكَنُوا

(١) الأصل فيه : تمرمه : تمرقه ونزع ما عليه من اللحم . (٢) شن عليه درعه : صبها .

جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنَا عَنْ عَدُوهُمْ لَبِئْسَتْ اِخْلَاطَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ
 أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ مَجَزُوا عَمَّا قَنَابَهُ ، فَمَا عَضَدُوا الْكَافِيَ ، وَمَا شَكَرُوا الْمُنْعَمَ ، فَإِذَا
 حَاولُوا أَشْرَبَ رَنْقًا عَلَى غَصَصٍ ، وَأَبَيْتُ مِنْهُمْ عَلَى مَضَضٍ ، كَلَّا وَاللَّهِ لَا أَصِلُ ذَا رَحِمٍ
 حَاولَ قَطِيعَتِهَا ، وَلَنْ لَمْ يَرْضَ بِالْعَفْوِ لِيَطَابَنَّ مَا لَمْ يَوْجِدْ عِنْدِي ، فَلْيُتَبَقِ ذُو نَفْسٍ
 عَلَى نَفْسِهِ ، قَبْلَ أَنْ تَمُتِي ، فَلَا يُبْكَى عَلَيْهِ . (مواضع الأدب ۲ : ۱۱۹)

۲۷ - خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراساني

وخطب بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني^(۱) ، فقال :
 « أَيُّهَا النَّاسُ : لَا تَخْرُجُوا مِنْ أُنْسِ الطَّاعَةِ إِلَى وَحْشَةِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا تُسِرُّوا غَشَّ
 الْأُمَّةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُسِرَّ أَحَدٌ قَطُّ مَنكَرَةً إِلَّا ظَهَرَتْ فِي آثَارِ يَدِهِ ، وَفَلَّتَاتِ لِسَانِهِ ،
 وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَأَبْدَاهَا اللَّهُ لِإِمَامِهِ ، بِإِعْزَازِ دِينِهِ ، وَإِعْلَاءِ حَقِّهِ ، إِنْ لَنْ نَبْخَسَكُمْ
 حَقُوقَكُمْ ، وَلَنْ نَبْخَسَ الدِّينَ حَقَّهُ عَلَيْكُمْ ، إِنْهُ مِنْ نَارِ عَنَّا عُرُوءَةَ هَذَا الْقَمِيصِ أَجْزَرَنَا
 خَبِيَّ هَذَا الْفِعْدِ ، وَإِنْ أَبَا مُسْلِمٍ بَايَعْنَا وَبَايَعَ النَّاسَ لَنَا ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ نَكْتِ بِنَا فَقَدْ
 أَبَاحَ دَمَهُ ، ثُمَّ نَكْتِ بِنَا ، فَحَكَمْنَا عَلَيْهِ لِأَنْفُسِنَا حُكْمَهُ عَلَى غَيْرِهِ لَنَا ، وَلَمْ تَمْنَعْنَا
 رِعَايَةَ الْحَقِّ لَهُ ، مِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ . »

(تاريخ الطبري ۹ : ۳۱۳ ، ومجمع الأمثال ۱ : ۳۱۸ ، ومواضع الأدب ۲ : ۱۲۰ وغرر
 الحصائص الواضحة ۷۶) .

(۱) قتل أبو مسلم سنة ۱۳۷ ، وذلك أن المنصور كان قد أرسله لحرب عمه عبد الله بن علي - وكان
 قد خرج عليه بالشام كما سيأتي - فلما ظفر أبو مسلم ، وغنم جميع ما كان في صكر عبد الله ، وانهمز عبد الله
 إلى البصرة ، أرسل المنصور بعض خدومه للحفاظ على ما في العسكر من الأموال ، فغضب أبو مسلم ، وقال :
 أمين على الدماء ، خائن في الأموال ! وشتم المنصور ، وعزم على الخلاف ، وأن يتوجه إلى خراسان ،
 فجعل المنصور يتلطف به حتى استفدته إليه وقتله .

۲۸ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تنفروا أطرافَ النعمة بقلة الشكر ، فتحلَّ بِكُمْ النِّقمة ، ولا تستروا غِشَّ الأئمة ، فإن أحداً لا يستر مُنكراً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وَصَفَحَات وجهه ، وَطَوَّاع نظره ، وإنا لانجهل حقوقكم ما عرفتم حَقَّنا ، ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذكرتم فضلنا ، ومن نازعنا هذا القميصَ أوطأنا أم رأسه خَبءٌ^(۱) هذا الغمَد . والسلام » .

(مواسم الأدب ۲ : ۱۲۰)

۲۹ - قوله وقد قوطع في خطبته

وخطب يوم الجمعة . فقال :

« الحمد لله أحمدُه . وأستعينه . وأؤمن به . وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : أيها الناس . اتقوا الله . فقام إليه رجل . فقال : أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين . فقطع الخطبة . ثم قال : « سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله . وذكرك به . وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً . وأن تأخذني العِزَّة بالإثم . لقد ضللتُ إذنُ وما أنا من المهتدين . وأنت أيها القائل . فوالله ما أردت بها وجه الله . ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال . فعوقب فصبر . وأهون بها ! ويلك لو هممت^(۲) ! فاهتبها^(۳) إذ غفرت . وإياك وإياكم معشر الناس أختها فإن الحكمة علينا نزلت . ومن عندنا فصلت . فردوا الأمر إلى أهله . ثوردوه مواردَه . وتصدروه مصادره . ثم عاد في خطبته . فكانه يقرؤها من كفه . فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

(تاريخ الطبري ۹ : ۳۱۱ ، والمعقد الفريد ۲ : ۱۴۵ ، وحيون الأخبار م ۲ : ص ۳۳۶ ،

والكمال لابن الأثير ۶ : ۱۲ ، وصبح الأعشى ۱ : ۲۶۲) .

(۱) الحب : ما خبى . (۲) أي لو هممت بقتابك . (۳) اغتمها .

٣٠ - المنصور يصف خلفاء بني أمية

واجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه . منهم عيسى بن موسى
والعباس بن محمد وغيرهما . فتذاكروا خلفاء بني أمية . والسبب الذي به ساءوا عزهم .
فقال المنصور :

« كان عبد الملك جباراً لا يُبالى ما صنع . وكان الوليد لجاناً مجنوناً . وكان سليمان
همته بطنه وفرجه . وكان عمر أعور بين عُثمان . وكان هشام رجل القوم . ولم يزل
بنو أمية ضابطين لما مُهد لهم من السلطان ، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه . ويحرسون
ما وهب الله لهم منه ، مع تسنمهم معالي الأمور ، ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم
إلى أحداثٍ مُترفين من أبناءهم ، فغمطوا^(١) النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا
الرعاية . فابتدأت النعمة منهم ، باستدراج الله إياهم ، آمنين مكره ، مُطرحين صيانة
الخلافة ، مستخفين بحق الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم الله العزة ،
وألبسهم الذلة ، وأزال عنهم النعمة » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢١٥)

٣١ - المنصور يصف عبد الرحمن الداخل

وقال المنصور يوماً لأصحابه : أخبروني عن صقر قريش ، من هو ؟ قالوا :
أمير المؤمنين ، الذي راض^(٢) الملك ، وسكّن الزلازل ، وحسّم الأدواء . وأباد الأعداء .
قال : ما صنعتُم شيئاً . قالوا : معاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان .
قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الرحمن بن معاوية^(٣) ، الذي عبر

(١) غمط النعمة : طهرها وحقرها .

(٢) ذلل . (٣) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل

حارس دولة بني أمية بالاندلس وسياق .

البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً ، فصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن
الدواوين ، وأقام ملكاً بعد انقطاعه ، بحسن تديره ، وشدة شِكيمته . إن معاوية
نهض بِمَرَكَبٍ حَمَلَهُ عَلَيْهِ عُمرُ وَعُثمانُ ، وَذَلالاً لَهُ صَعْبُهُ ، وَعبدُ المَلِكِ بِدَبِيعَةٍ تَقَدَّمَ لَهُ
عَقْدُهَا ، وَأَميرُ المُؤمِنينَ بِطابِ غَيرِهِ واجْتِماعِ شِيعَتِهِ ، وَعبدُ الرَحمَنِ مَنفردٌ بِنَفْسِهِ ، مُؤَيَّدٌ
بِأَبِيهِ ، مُستَصحِبٌ لِعِزَمِهِ .

(العقدة الفريد ٢ : ٢٠٢)

وصايا المنصور لابنه المهدي

٣٢ - وصية له

قال المنصور لابنه المهدي : « يا بُنَيَّ لَا تُبْرِمَ أَمْراً حَتَّى تَفَكَّرَ فِيهِ ، فَإِنَّ فِكْرَةَ الْعَاقِلِ مِرْآةَهُ ، تُرِيهِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا التَّقْوَى ، وَالسَّاطَانَ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الطَّاعَةَ ، وَالرَّعِيَّةَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الْعَدْلَ ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ ، وَأَنْقَصُ النَّاسِ عَقْلاً مَنْ ظَلَمَ مِنْ هُوَ دُونَهُ . »

(نهاية الأرب ٦ : ٤١ ، والمعقد الفريد ١ : ١٤)

٣٣ - وصية أخرى له

ووصاه فقال له : « إني لم أدع شيئاً إلا قد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك بمخصل والله ما أظنك تفعل واحدة منها - وكان له سَفَطٌ فِيهِ دَفَاتِرُ عِلْمِهِ ، وَعَالِيهِ قُفْلٌ لَا يَأْمَنُ عَلَى فَتْحِهِ وَمِفْتَاحِهِ أَحَدٌ ، يَصُرُّ مِفْتَاحَهُ فِي كُمِّ قَمِيصِهِ - فقال للمهدي : انظر هذا السفط فاحتفظ به ، فإن فيه علم آباءك ما كان وما هو كأن إلى يوم القيامة ، فإن أحزنتك أمرٌ فانظر في الدفتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ماتريد ، وإلا فالثاني والثالث حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجدٌ فيها ماتريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة فإياك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ، ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات ، وعطاء الذرية ، ومصالحة الثغور ، فاحتفظ بها فإنك لاتزال عزيزاً مادام

بيت مالك عامراً ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل بيتك ، أن تُظهر كرامتهم
وتُقدّمهم ، وتُكثر الإحسان إليهم ، وتعظم أمرهم ، وتوطين الناس أعقابهم ، وتوليهم
المنابر ، فإن عزك عزهم ، وذكركم لك ، وما أظنك تفعل ، وانظر مواليك فأحسن إليهم
وقربهم ، واستكثر منهم ، فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل .
وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بدلوا أموالهم في دولتك ،
ودمائم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تُحسن إليهم ، وتتجاوز عن
مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده ،
وما أظنك تفعل ، وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تتم بناءها ، وما أظنك تفعل ،
وإياك أن تستعين برجل من بني سليم ، وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء
في مشورتك في أمرك ، وأظنك ستفعل . « (تاريخ الطبري ۹: ۳۱۹)

۳۴ - وصية أخرى له

ووصى المهدي أيضاً ، فقال : « اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ،
يجعل لك فيما كرتك وحزرك مخرجاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث
لا تحسب ، احفظ يا بني محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته ، يحفظ الله عليك أمورك ،
وإياك والدم الحرام ، فإنه حوب^(۱) عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم ، والزم
الحلال ، فإن فيه ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل ، وأقم الحدود ، ولا تعتد
فيها فتبور^(۲) ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصح لدينه ، وأزجر عن معاصيه من الحدود ،
لأمر به في كتابه ، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب
والعقاب على من سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال :

(۲) تهاك .

(۱) الإثم .

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فالساطان يا بنى حبل الله اللتين ، وَعُرْوَتَهُ الْوُثْقَى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وَحُطَّهُ ، وحصنه وَذُبَّ عَنْهُ ، وَأَوْقِعْ بِالْمُلْجِدِينَ فِيهِ ، واطمَعِ الْمَارِقِينَ مِنْهُ ، وَاقْتُلِ الْخَارِجِينَ عَنْهُ بِالْعِقَابِ لَهُمْ ، وَالْمَثَلَاتُ (١) بِهِمْ ، وَلَا تَجَاوِزْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ ، وَاِحْكَمْ بِالْعَدْلِ وَلَا تُشْطِطْ ، فَإِنْ ذَلِكَ أَقْطَعَ لِلشُّغْبِ ، وَأَحْسَمِ لِلْعَدُوِّ ، وَأَنْجِعْ فِي الدَّوَاءِ ، وَعَفِّ عَنِ النَّيِّءِ ، فَايَسْ بِكَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ مَعَ مَا أَخْلَفَهُ لَكَ ، وَاَنْتَحِ عَمَلَكَ بِصَلَةِ الرَّحِمِ وَبِرِّ الْقَرَابَةِ ، وَإِيَاكَ وَالْآثِرَةَ ، وَالتَّبْدِيرَ لِأَمْوَالِ الرِّعِيَةِ ، وَاشْحَنَ (٢) الثُّغُورَ ، وَاضْبِطِ الْأَطْرَافَ ، وَأَمِّنِ السُّبُلَ وَخُصَّ الْوَاسِطَةَ (٣) وَوَسَّعِ الْمَعَاشَ ، وَسَكَّنِ الْعَامَةَ ، وَأَدْخِلِ الْمُرَافِقَ عَلَيْهِمْ ، وَاصْرِفِ الْمَكَارِهِ عَنْهُمْ ، وَأَعِدِّ الْأَمْوَالَ وَاخْزُنْهَا . وَإِيَاكَ وَالتَّبْدِيرَ ، فَإِنَّ النُّوَابِغَ غَيْرَ مَأْمُونَةَ ، وَالْحَوَادِثَ غَيْرَ مَضْمُونَةَ ، وَهِيَ مِنْ شِيَمِ الزَّمَانِ ، وَأَعِدِّ الرِّجَالَ وَالسُّكْرَاعَ (٤) وَالْجُنْدَ مَا اسْتَطَعْتَ . وَإِيَاكَ وَتَأْخِيرَ عَمَلِ الْيَوْمِ إِلَى غَدٍ ، فَتَتَدَارَكَ عَلَيْكَ الْأُمُورُ وَتَضْيَعُ ، جِدِّ فِي إِحْكَامِ الْأُمُورِ النَّازِلَاتِ لِأَوْقَاتِهَا أَوَّلًا فَأَوَّلًا ، وَاجْتَهِدْ وَشَمِّرْ فِيهَا ، وَأَعِدِّ رِجَالَكَ بِاللَّيْلِ لِمَعْرِفَةِ مَا يَكُونُ بِالنَّهَارِ ، وَرِجَالَكَ لِمَعْرِفَةِ مَا يَكُونُ بِاللَّيْلِ ، وَبِأَشْرَ الْأُمُورِ بِنَفْسِكَ وَلَا تَضْجِرْ ، وَلَا تَكْسَلْ ، وَلَا تَفْشَلْ ، وَاسْتَعْمَلْ حَسْنَ الظَّنِّ بِرَبِّكَ ، وَأَسِيءُ الظَّنِّ بِعَمَّا لَكَ وَكُتَّابِكَ ، وَخُذْ نَفْسَكَ بِالتَّقِظِ ، وَتَنَقَّدْ مِنْ بَيْتِ عَلِيِّ بَابِكَ ، وَسَهِّلْ إِذْنَكَ لِلنَّاسِ ، وَانظُرْ فِي أَمْرِ النُّزَاعِ إِلَيْكَ ، وَوَكِّلْ بِهِمْ عَيْنًا غَيْرَ نَائِمَةً ، وَنَفْسًا غَيْرَ لَاهِيَةٍ ، وَلَا تَنْمُ فَإِنَّ أَبَاكَ لَمْ يَنْمُ مِنْذُ وُلِّيَ الْخِلَافَةَ ، وَلَا دَخَلَ عَيْنَهُ غَمُضٌ إِلَّا وَقَلْبُهُ مُسْتَيْقِظٌ ، هَذِهِ وَصِيَّتِي إِلَيْكَ ، وَاللَّهُ خَائِفَتِي عَلَيْكَ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٢٠)

(١) جمع مثلة : وهى العقوبة .

(٢) أى املأها بالدافعة .

(٣) التوسطة

(٤) السكراع : اسم يجمع الخيل .

۳۵ - خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور

لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية^(۱) على المنصور ، قام على منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر من بناء القبة الخضراء ، التي بناها معاندةً لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . وإن أحقَّ الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار المواسين ، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك وَعَمِلُوا بِغَيْرِ كِتَابِكَ ، وَغَيَّرُوا عَهْدَ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَآمَنُوا مِنْ أَخْفَتَ ، وَأَخَافُوا مِنْ آمَنَتَ ، فَأَحْصِهِمْ عَدَدًا ، وَأَقْتِهِمْ بَدَدًا^(۲) ، وَلَا تُبْقِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا » .

(زئيل لأماله ص ۱۲۱)

(۱) كان بنو هاشم - الطالبيون والعباسيون - قد اجتمعوا أخربوات العصر الأموي ، وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وانفقوا على أن يدعوا الناس إليهم سرا ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فانفقوا على مبايعة النفس الزكية ، وكان من صادات بني هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما ، وشاء الفدر أن يظفر العباسيون بالخلافة ، نوليها السفاح ثم المنصور ، ولم يكن المنصور هم من تباؤا عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقبضه ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدى الميل إليه ، وكانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقتل لا علم لى بهما - وكانا قد تغيبا خوفا منه - فلما أطال عليه ، قال : كم تطول ؟ والله لو كانا تحت قدمي ، لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! آتلك بولدى لتقتلها ! فقبض عليه ، وعلى أمه من بني الحسن وحبسهم في سجن الكوفة حتى ماتوا فيه كما تقدم ، ولم يزل النفس الزكية متغربا منذ أمست الدولة إلى بني العباس خوفا منه على نفسه ، فلما علم بما جرى لوالده واقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة ، ثم غلبها ، وعزل عنها أميرها ، ورتب عاها حاملا وقاضيا ، فوجه المنصور لقتاله جيشا بقيادة ابن أخيه هيسى بن موسى ، فكانت الغلبة لاسكر المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ۱۴۵ هـ . (۲) متبددين : متفرقين .

٣٦ - وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي

لابنه محمد (أو إبراهيم)

ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه محمداً النفس الزكية (أو إبراهيم) ، فقال :

« أَيْ بُنَيَّ ، إِنِّي مُؤَدِّ حَقِّ اللَّهِ فِي تَأْدِيبِكَ ، فَأَدِّ إِلَى حَقِّ اللَّهِ فِي الْإِسْتِمَاعِ مِنِّي ، أَيْ بُنَيَّ كُفِّ الْأَذَى ، وَارْفُضِ الْبِدَا^(١) ، وَاسْتَعِنْ عَلَى الْكَلَامِ بِطَوْلِ الْفِكْرِ ، فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَدْعُوكَ فِيهَا نَفْسُكَ إِلَى الْكَلَامِ ، فَإِنَّ لِلْقَوْلِ سَاعَاتٍ يَضُرُّ فِيهَا الْخَطَأُ ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا الصَّوَابُ . وَاحْذَرِ مَشُورَةَ الْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحاً ، كَمَا تَحْذَرُ مَشُورَةَ الْعَاقِلِ إِذَا كَانَ غَاشِئاً ، لِأَنَّهُ يُرَدِّدُكَ بِمَشُورَتِهِ . وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ رَأْيَكَ إِذَا احْتَجَّتْ إِلَيْهِ وَجَدْتَهُ نَائِماً ، وَوَجَدْتَ هَوَاكَ يَقْظَانَ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَبَدَّ بِرَأْيِكَ ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ هَوَاكَ ، وَلَا تَفْعَلْ فِعْلاً إِلَّا وَأَنْتَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ عَاقِبَتَهُ لَأَتْرُدِيكَ ، وَأَنَّ نَتِيجَتَهُ لَأَتَجْنِيْ عَائِيكَ »

(زهر الأديب ١ : ٩٢ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٠ ، ٢ : ٨٨)

٣٧ - قول عبد الله بن الحسن وقد قتل ابنه محمد

ولما قتل المنصور ابنه محمداً - وكان عبد الله في السجن - بعثَ برأسه إليه مع الربيع حاجبه ، فوضع بين يديه ، فقال :

رَحِمَكَ اللَّهُ أبا القاسم ، فقد كنت من « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » ، ثم تمثل :

(١) البداء : السفة والإنحاشرون للمنطق .

فَتَّى كَانَ يَحْمِيهِ عَنِ الذَّلِّ سَيْفُهُ وَيَكْفِيهِ سَوَاءَاتِ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا
ثم التفت إلى الربيع ، فقال له : « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ، ومن
نعيمك مثأها ، والموعِدُ اللهُ تعالى » قال الربيع : فما رأيتُ المنصور قطُّ أ كثرَ
انكساراً منه حين أبلغته الرسالة .
(زهر الآداب ١ : ٩٥)

٣٨ - امرأة محمد بن عبد الله والمنصور

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله ، اعترضته امرأة معها صبيّان ، فقالت :
« يا أمير المؤمنين ، أنا امرأة محمد بن عبد الله ، وهذان ابناه ، أيتهمما سيفك ،
وأضرعهمما^(١) خوزك ، فناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تصعّر لهما خدك ، فينأى
عنهما رِفْدُكَ ، أو لَتَعَزِّزِكَ عايبهما شَوَابِكُ النسب ، وأواصير^(٢) الرَّحِمِ » .
فالتفت إلى الربيع ، فقال : أَرُدُّ عايبهما ضياع أبيهما ، ثم قال : كذا والله أحبُّ
أن تكون نساء بني هاشم .
(زهر الآداب ١ : ٩٦)

٣٩ - جعفر الصادق والمنصور

وكان أهل المدينة لما ظهر محمد بن عبد الله ، أجمعوا على حرب المنصور ونصر محمد ،
فلما ظهر المنصور أحضر جعفرًا الصادق^(٣) بن محمد الباقر ، فقال له : قد رأيتَ إطباق
أهل المدينة على حربي ، وقد رأيتُ أن أبعث إليهم من يعور^(٤) ويحمر^(٥) نخلهم ،
فقال له جعفر : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وإن أيوب ابتلى فَصَبَرَ ،

(١) أذلما . (٢) أراصر جمع أصرة ، والآصرة : جبل صغير يشد به أسفل الخباء (وهي
أيضاً الرحم والقرابة) . (٣) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين
ابن الحسين عليه السلام وتوفي سنة ١٤٨ . (٤) في الأصل « ينور » وأراه محرفاً ، وقد أصلحت
« ينور » يقال : عور البئر أي طمها وسد عيونها التي ينبوع منها الماء . (٥) جمر النخل : قطع جماره .

وإن يوسف قدر ففقر ، فاقتدِ بأيّهم شئتَ ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون
ويصفحون » ، فقال أبو جعفر : إنَّ أحداً لا يعاهاًنا الحلمَ ، ولا يعرفنا العلمَ ، وإنما قاتُ
كهممتُ ، ولم ترني فعلتُ ، وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم .
(زهر الآداب ١ : ٩٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

لما حج المنصور مرّاً بالمدينة ، فقال للربيع الحارثي : عليّ بجعفر بن محمد ، قتلتني الله
إن لم أقتله ، فطُلب به ، ثم ألحّ عليه ، فحضر ، فلما كُشِفَ الستر بينه وبينه ، ومثَّلَ
بين يديه ، همس جعفر بِشَفْتِيهِ ، ثم تقرب وسلم ، فقال : « لاسلمَّ الله عليك يا عدوَّ الله ،
تعمل على الفوائلِ في ملكي ؟ قتاني الله إن لم أقتلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ،
إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أعطى فشكر ، وإن أيوبَ ابتلي فصبر ، وإن يوسفَ
ظلم ففقر ، وأنت على إرثٍ منهم ، وأحقُّ من نأسي بهم » ، فنكس أبو جعفر رأسه مَلِيّاً
وجعفر واقف ، ثم رفع رأسه ، وقال : « إلىَّ أبا عبد الله فأنت القريب القرآنية ، وذو الرحم
الواشجة^(١) ، السليمُ الناحية ، القايلُ الغائلة » ، ثم صاحهُ بيمينه ، وعانقه بشماله ، وأجلسه
معه على فراشه ، وانحرف له عن بعضه ، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ، ثم قال :
باربيع ، عجلْ لأبي عبد الله كِسوته وجائزته وإذنه .
(العقد الفريد ١ : ١٤٥)

(١) القرية : المشتكة

٤٠ - صفح المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب

ولما داهن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في شأن إبراهيم بن عبد الله^(١) ،
وصار إلى المنصور ، أمر الربيع بن خثيم بنخلع سواده ، والوقوف به على رؤوس اليمانية
في المقصورة يوم الجمعة ، ثم قال : قل لهم :

« يقول لكم أمير المؤمنين قد عرفتم ما كان من إحساني إليه ، وحسن بلائي ،
وقديم نعمتي عليه ، والذي حاول من الفتنة ، ورام من البغي ، وأراد من شق العصا
ومعاونة الأعداء ، وإراقه الدماء ، وإنه قد استحق بهذا من فعله ، أليم العقاب ، وعظيم
العذاب ، وقد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجميل لديه ، ورب^(٢) نعمائه السابقة عنده
لما يتعرفه أمير المؤمنين من حسن عادة الله عليه ، وما يؤمله من الخير العاجل والآجل ،
عند العفو عن ظلم ، والصفح عن أساء ، وقد وهب أمير المؤمنين مسيئهم ليحسبهم ،
وغادرهم لوفيتهم » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٨٥)

٤١ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور

ولما انهزم عبد الله بن علي^(٣) من الشام قدم على المنصور وقد منهم ، فقام عدوة
منهم ، فتكلموا ، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن الغفاري ، فقال : « يا أمير المؤمنين

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، أخو النفس الزكية ،
وقد خرج على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتل
النفس الزكية فقاتله وقتل إبراهيم في المركة سنة ١٤٥ هـ .

(٢) رب الشيء : جمعه وراده ، ورب الصبي : ربه حتى أدرك .

(٣) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم المنصور ، وكان قد خرج عليه بالشام ، وقال : إن
السفاح قال لي إن ظهرت على مروان الحمدي - وكان السفاح أرسله لقتال مروان بالشام - فأنت ولي العهد
بمدي ، وشهد له جماعة بذلك . فأرسل المنصور أبا مسلم الحرابي لهاربتة فهزمه ، وهرب عبد الله إلى
البصرة ، وذل علي أخيه سايان بن علي ، فشفع فيه سايان إلى المنصور فأمنه ، فلما جاء إليه حبه ومات
في حبسه ، وقيل إنه بنى له بيتا ، وجعل في أساسه ملحاً ، ثم أجري الماء فيه ، فدمقت البيت عليه ، فاتت به .

إنا لسنا وقد مباحة ، وإنما نحن وقد توبة ، وإنا ابتلينا بفتنة استخفت كريمنا ، واستفرت حلیمنا ، ونحن بما قدمنا مُعترفون ، ومما سلف منا مُعتذرون ، فإن تعاقبنا فيما أجرمنا . وإن تعفُ عنا فبفضلك علينا . فاصفح عنا إذ ما كنت . وامنن إذ قدرت . وأحسن إذ ظفرت ، فطالما أحسنت إلى من أساء مِنَّا » ، فقال المنصور : قد فعلت . ثم قال للحرسى : هذا خطيبهم ، وأمر برد ضياعه عليه بالغوطة^(١) .

(العقد الفريد ١ : ١٤٤ : وتاريخ الطبري ٩ : ٣٠٧ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٢ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور أيضا

وقال عثمان بن خزيم للمنصور ، حين عفا عن أهل الشام في إجلائهم^(٢) مع عبد الله بن عليّ عمه : « يا أمير المؤمنين ، لقد أعطيت فشكرت وابتليت فصبرت ، وقدِرت فعفوت » .

وقال آخر : « يا أمير المؤمنين ، الانتقام عدلٌ ، والتجاوز فضلٌ ، والمتفضل قد جاوز حدَّ النصف ، فنحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس^(٣) النصيبين ، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين » .

وقال آخر : « من انتقم فقد شفى غيظ نفسه ، وأخذ أتصى حقه ، وإذا انتقم فقد انتقصت^(٤) ، وإذا عفوت تطولت^(٥) . ومن أخذ حقه ، وشفى غيظه ، لم يجب شكره ، ولم يُذكر في العالمين فضله . وكظم الغيظ حلمٌ ، والحلم صبرٌ ، والتشفي طرف من العجز^(٦) ، ومن رضى ألا يكون بين حاله وبين حال الظالم إلا ستر رقيق ،

(١) كورة دمشق .

(٢) في الأصل : إجلائهم ، وهو تحريف ، والصواب : إجلائهم ، أى في فتنهم وهياجهم من الجلبة بالعصيان وهو الصياح . (٣) من الوكس كوعد : وهو النقصان .

(٤) أى انتقص حقلك فخر ووجنا عليك ، فحقك الانتقام منا لأخذ حقلك .

(٥) تطول عليه : امتن ونفضل . (٦) وفي زهر الآداب : « من الجزع » .

وحجابٌ ضعيف ، لم يجزم في تفضيل الحلم ، وفي الاستيثاق من ترك دواعي الظلم ، ولم تر
 أهل النهي . والمنسويين إلى الحجاً والتقى ، مدحوا الحكماء بشدة العقاب . وقد ذكروهم
 بحسن الصَّحح ، وبكثرة الاعتقار ، وشدة التغافل . وبعد ، فالمعاقب مستعد^(١) لعداوة
 أولياء المذنب ، والعاقب مستدعٍ لشكرهم . آمين من مكافأته^(٢) أيام قدرتهم ، ولأن
 يُبْتَنَى عليك باتساع الصدر ، خير من يُبْتَنَى عليك بضيق الصدر^(٣) ، على أن إقالتك
 عثرة عباد الله ، مُوجِبٌ لإقالتك عثرتك من رب عباد الله . وعفوك عنهم موصول
 بعفو الله عنك ، وعقابك لهم موصول بعقاب الله لك . قال الله عزَّ وجلَّ : « خُذِ الْعَفْوَ
 وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٣ - أبو جعفر المنصور والربيع

وقال سعيد بن مُسْلِم بن قَتَيْبَةَ : دعا المنصور بالربيع^(٤) ، فقال : سَلْنِي مَا تَرِيدُ ،
 فَقَدْ سَكَتَ حَتَّى نَطَقْتَ ، وَخَفَفْتَ حَتَّى ثَقَلْتَ . وَقَلَّتْ حَتَّى أَكْثَرْتَ ، فَقَالَ :
 « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا أَرْهَبَ بِيُحْلِكَ وَلَا أَسْتَقْصِرُ عُمْرَكَ . وَلَا أَسْتَصْفِرُ فَضْلَكَ ،
 وَلَا أَعْتَمُّ مَالَكَ ، وَإِنْ يَوْمِي بِفَضْلِكَ عَلَيَّ أَحْسَنُ مِنْ أَمْسِي ، وَغَدُوكَ فِي تَأْمِيلِي أَحْسَنُ
 مِنْ يَوْمِي . وَلَوْ جَازَ أَنْ يَشْكُرَكَ مِثْلِي بِغَيْرِ الْخِدْمَةِ وَالْمَنَاصِحَةِ لَمَا سَبَقَنِي لَدَيْكَ أَحَدٌ »
 قَالَ : صَدَقْتَ ، عَلِمِي بِهِذَا مِنْكَ أَحَلَّكَ هَذَا الْحُلَّ ، فَسَلْنِي مَا شِئْتَ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أَنْ
 تَقْرَبَ عَبْدَكَ « الْفَضْلُ »^(٥) « وَتُوَثِّرَهُ وَتَحَبَّهُ ، قَالَ : يَا رَبِّعُ ، إِنْ الْحُبَّ لَيْسَ بِمَالٍ يُوْهَبُ

(١) وفي زهر الآداب : مستودع . . (٢) مجزأته .

(٣) وفي زهر الآداب : خير من أن توصف بضيقه . .

(٤) هو أبو الفضل الربيع بن يونس ، وزير المنصور ، وكان مهيباً فصيحاً كافياً حازماً فطناً ، ولم

يزل وزيراً للمنصور إلى أن مات المنصور . وقام الربيع بأخذ البيعة للمهدي ، ثم سعى به أعدؤه إلى الهادي ،
 فقتله سنة ١٧٠ هـ . (٥) هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر للرشيدي بعد البرامكة ، وابنه الأمين

كاساني .

ولا رتبة تُبَدَّل ، وإنما تُؤَكِّدُه الأسبابُ ، قال : فاجعل لي طريقاً إليه ، بالتفضل عليه ، قال : صدقت . وقد وَصَلْتُهُ بألف درهم ، ولم أصل بها أحداً غير عمومتى ، لتعلم ماله عندي . فيكون منه ما يستدعى به محبتي ، قال : فكيف سألت له المحبةَ ياربيع ؟ قال : لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شرٍّ ، تُسْتَرُّ بها عندك عيوبه ، وتصيرُ حَسَنَاتٍ ذُنُوبُهُ . قال : صدقت .

(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

٤٤ - مقام عمرو بن عبِيد بين يدي المنصور

دخل عمرو^(١) بن عبِيد على المنصور بعد ما بايع للهدى ، فقال له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وَطَّدتَ لهُ الأمور ، وهى تصير إليه . وَأنت عنهُ مسئولٌ ، فاستعبر المنصور ، وقال له : عِظْنِي يا عمرو ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها ، وإن هذا الذى فى يدك ، لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك . فأحذر ليلةَ تَمَخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع : يا عمرو غممت أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا صحبك عشرين سنةً ، لم يرَ لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً . وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلت لك ، خاتمي فى يدك ، فتعال وأصحابك فا كفى ، قال عمرو : أدعنا بعدلك ، تسخُ أنفسنا بعونك ، بيارك ألف مظلمة ، أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق . »

(مروج الذهب ٢ : ٢٢٤ ، وحيون الأخبار ج ٢ : ص ٣٣٧ ، ووفيات الأعيان

١ : ٣٨٤ ، والقد الفرهد ١ : ٣٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٨)

(١) من كبار أئمة المعتزلة ، توفى سنة ١٤٤ هـ .

٤٥ - مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور

بينما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور ، فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوهُ ، فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن . وأقبل مع الرسول ، فسلم عايه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الأرض ؟ وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني^(١) ، قال : يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي ، أنباتك بالأمر من أصولها . وإلا احتجزت منك . واقتصرت على نفسي ، ففيها لي شاغلٌ ، فقال : أنت آمنٌ على نفسك نقل ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع ، حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد لأنت ، قال : ويحك ، وكيف يدخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء^(٢) في قبضتي ، والحلو والحامض عندي ؟ قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر . وأبواباً من الحديد . وحجبة معهم السلاح ، ثم سجت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بالآل يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ، نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ، ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يُحجَبُوا عنك ، تجبى الأموال وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا

(١) أوجعني وآلني . (٢) الصفراء والبيضاء : الدنانير والدراهم .

قد خان الله ، فما بالنا لانخونه وقد سَجَنَ لنا نفسه ؟ فَأَتَمَّرُوا بِالْأَيُّمِ مِنْ عِلْمِ
أَخْبَارِ النَّاسِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، وَلَا يُخْرِجُ لَكَ عَامِلٌ ، فَيُخَالِفُ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبُوهُ (١)
عِنْدَكَ وَنَفْوَهُ ، حَتَّى تَسْقُطَ مَنَزِلَتُهُ ، وَيَصْفُرُ قَدْرُهُ ، فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عِنْدَكَ وَعِنْتَهُمْ ،
أَعْظَمَهُمُ النَّاسَ وَهَابُوهُمْ ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ صَانَعَهُمْ عُمَّالَكَ بِالْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ ، لِيَقْوُوا بِهَا
عَلَى ظُلْمِ رِعِيَّتِكَ ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ذُووُ الْقُدْرَةِ وَالثَّرْوَةِ مِنْ رِعِيَّتِكَ ، لِيَنَالُوا بِهِ ظُلْمَ مَنْ دُونِهِمْ
فَامْتَلَأَتْ بِلَادُ اللَّهِ بِالطَّمَعِ بَغْيًا وَفَسَادًا ، وَصَارَ هَوْلَاءُ الْقَوْمِ شُرَكَاءَكَ فِي سُلْطَانِكَ ،
وَأَنْتَ غَافِلٌ ، فَإِنْ جَاءَ مَظْلَمٌ حَيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ مَدِينَتِكَ ، فَإِنْ أَرَادَ رَفْعَ قِصَّتِهِ إِلَيْكَ
عِنْدَ ظَهْوَرِكَ ، وَجَدَكَ قَدْ نَهَيْتَ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَوْقَفْتَ لِلنَّاسِ رِجَالًا يَنْظُرُونَ فِي مَظَالِمِهِمْ ،
فَإِنْ جَاءَكَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، فَبَاعَ بِطَانَتِكَ خَبْرَهُ ، سَأَلُوا صَاحِبَ الْمَظَالِمِ أَلَّا يَرْفَعُ مَظَالِمَتَهُ
إِلَيْكَ ، فَإِنَّ الْمَظْلَمَ مِنْهُ لَهُ بِهِمْ حُرْمَةٌ ، فَأَجَابَهُمْ خَوْفًا مِنْهُمْ ، فَلَا يَزَالُ الْمَظْلُومُ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ ،
وَيُلُودُ بِهِ ، وَيَشْكُو وَيَسْتَنِيثُ ، وَهُوَ يَدْفَعُهُ وَيَعْتَلِّ عَالِيَهُ ، فَإِذَا أُجْهِدَ وَأُخْرِجَ وَظَهَرَتْ ،
صَرَخَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَضُرِبَ ضَرْبًا مُبْرِحًا لِيَكُونَ نَكَالًا لغيره ، وَأَنْتَ تَنْظُرُ فَلَا
تُنْكِرُ ، فَمَا بَقَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى هَذَا ؟ وَقَدْ كُنْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُسَافِرُ إِلَى الصِّينِ
فَقَدِمْتُهَا مَرَّةً ، وَقَدْ أَصَابَ مَا كُفِّرُ بِسَمْعِهِ ، فَبَكَى يَوْمًا بَكَاءً شَدِيدًا ، فَحَثَّ جَسَاؤُهُ
عَلَى الصَّبْرِ ، فَقَالَ : أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي لِلْبَلِيَّةِ النَّازِلَةِ بِي ، وَلَكِنِّي أَبْكِي لِمَظْلُومٍ بِالْبَابِ
يَصْرُخُ ، وَلَا أَسْمَعُ صَوْتَهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا إِذَا ذَهَبَ سَمْعِي ، فَإِنْ بَصُرِي لَمْ يَذْهَبْ ، نَادُوا
فِي النَّاسِ أَلَّا يَبْسُ ثَوْبًا أَحْمَرَ إِلَّا مَظْلَمٌ ، ثُمَّ كَانَ يَرْكَبُ الْفَيْلَ طَرْفَى نَهَارِهِ ، وَيَنْظُرُ
هَلْ يَرَى مَظْلُومًا ؟ فَهَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ ، غَابَتْ رَأْفَتُهُ بِالْمُشْرِكِينَ شُحَّ نَفْسِهِ ،
وَأَنْتَ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ ، ثُمَّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، لَا تَغْلِبُ رَأْفَتَكَ بِالْمُسْلِمِينَ عَلَى شُحِّ نَفْسِكَ ؟
فَإِنْ كُنْتَ إِذَا تَجَمَّعَ الْمَالُ لَوْلَدِكَ ، فَقَدْ أَرَاكَ اللَّهُ عَبْرًا فِي الطِّفْلِ ، يَسْقُطُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ،

(١) عابوه وشتموه ، وفي المقدم الفريد : « غونوه » .

وما له على الأرض مالٌ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يَلطُفُ
 بذلك الطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست بالذي تعطى، بل الله يعطى من
 يشاء ما شاء، وإن قلتَ إنما أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عبْرًا في بني أمية،
 ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة، وأعدُّوا من الرجال والسلاح والكراع،
 حتى أراد الله بهم ما أراد، وإن قلتَ إنما أجمع لطاب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها
 فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلةٌ، لا تُدرِكُ إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين،
 هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ قال المنصور: لا، قال: فكيف تصنع بالملك
 الذي خوَّلكَ مُلكَ الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل؟ ولكن بالخلود في العذاب
 الأليم، قد رأى ما قد عُقدَ عليه قلبك، وَعَمِلْتَهُ جوارحك، ونظر إليه بصرك،
 واجترحتَه^(١) يداك، ومشتَ إليه رجلاك، هل يُغنى عنك ما شجحتَ عليه من مُلك
 الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب؟ فبكي المنصور وقال: يا ليتني لم أُخلَقُ،
 ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلامًا يَفزَعون إليهم
 في دينهم، ويرضون بهم، فاجمعهم بِطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسدُّوك،
 قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني، قال: خافوا أن تحمِلهم على طريقتك، ولكن افتح
 بابك، وسهِّل حجَابَكَ، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ النىء والصدقات مما خل
 وطاب، واقسمه بالحق والعدل على أهله، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويُسدوك على
 صلاح الأمة»، وجاء المؤذنون، فسلموا عليه، فصلى وعاد إلى مجلسه، وَطُلبَ
 الرجل فلم يوجد.

(ميون الأخبار م ٢ : ص ٣٢٣، والامقد الفريد ١ : ٣٠٤)

٤٦ - مقام الأوزاعي بين يدي المنصور

قال الأوزاعي^(١) : دخلت على المنصور ، فقال لي : ما الذي بطأ بك عني ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذي تريد مني ؟ فقال : الاقتباس منك ، قلت : أنظر ماتقول ، فإن « مكحولاً^(٢) » حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بلغه عن الله نصيحة في دينه ، فهي رحمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها من الله بشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد إثماً ، ويزداد عليه غضباً ، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا ، وإن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كرهه الله لأن الله هو الحق المبين » فلا تجهلن ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع ، قال الأوزاعي : فسل عليّ الربيع السيف ، وقال : تقول لأمر المؤمنين هذا ؟ فاتهره المنصور وقال : أمسك ، ثم كلمه الأوزاعي ، وكان في كلامه أن قال :

« إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به ، والله سأثلك عن صغيرها وكبيرها ، وفتياها ونقيرها^(٣) ، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من راع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً ، وبالقيسط

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، إمام أهل الشام ، ولم يكن بها أعلم منه . وله يبطلك سنة ٥٨٨ هـ وتوفي سنة ١٥٧ ببيروت . والأوزاعي : نسبة إلى أوزاع ، وهي بطن من ذى الكلاع من اليمن ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما زل فيهم : فنسب إليهم ، وهو من سبي اليمن .

(٢) هو مكحول بن عبد الله الشامي ، معلم الأوزاعي ، وكان من سبي كابل ، ووقع إلى سعيد بن العاص ، فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقته ، قال الزهري : العلاء أربعة : سعيد بن المسهب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام ، ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أس بن مالك وغيره ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفي سنة ١١٨ هـ .

(٣) الفتيل : السحاة التي في شق النوة ، والنقيير : النقرة التي في ظهر النواة .

(٤) - جملة خطاب العرب - (الك)

فما بينهم قائماً ، لا يتخوف مُحْسِنُهُمْ مِنْهُ رَهَقاً^(١) ، ولا مُسِيئُهُمْ عُدْوَاناً ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ، ويردع عنه المنافقين ، فاتاه جبريل فقال : « يا محمد ، ما هذه الجريدة بيدك ! اذفها لاتملاً قلوبهم رُعْباً » فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبقارهم ، وأنهب^(٢) أموالهم ؟ يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ، فهبط جبريل ، فقال : « يا محمد ، إن الله لم يبعثك جبّاراً تكسِرُ قرون أمتك » واعلم أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقاب^(٣) قوس أحدكم من الجنة ، أو قذة^(٤) خير له من الدنيا بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويذول نعيمها ، ولو بقي الملك لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علّق بين السماء والأرض لآذاهم . فكيف من يتقمّصه ؟ ولو أن ذنوبا^(٥) من صديد أهل النار صبّ على ماء الأرض لآجنه^(٦) ، فكيف بمن يتجرّعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ، فكيف من سلّك^(٧) فيها ، ويردّ فضاها على عاتقه ؟ وقد قال عمر بن الخطاب : « لا يقوم أمر الناس إلا حصيف^(٨) العقدة ، بعيد الغيرة^(٩) لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يحنق في الحق على جرة^(١٠) ، ولا تأخذه في الله لومة لأثم » .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف^(١١) نفسه وعمّاله ، فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترُفرف ، وأمير رتّع ورتع عمّاله ، فذاك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ،

(١) ظلما . (٢) جعلها نهبا يفار عليه . (٣) القاب : ما بين المقبض والسية (وسية لقفوس كعدة : ماعطف من طرفها) . (٤) ريش السهم . (٥) الذنوب : الدلو . (٦) جعله أجنا أى متغير للطعم واللون . (٧) قيد . (٨) حصيف الرجل ككريم : استحلم عقله فهو حصيف ، وأحصف الحبل : أحكم فتاه . (٩) الغفلة . (١٠) أحنق : حقد حقدا لا ينحل ، وأحنق الصلب : لزق بالهطن ، والحجرة ما يفيض به الهمير فيأكله ثانية ، والمراد أنه لا يضرر الحقد والحنق . (١١) يكف .

ويرتفع عماله ، فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتفع ويظلمُ عماله ، فذاك شر الأكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم ، عُرض على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل : « لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها » أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، وقال : فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدي ؟ فأعيدك بالله أن يُخيل إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع مع المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا صفيةُ عمّة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استوهباً أنفسكما من الله ، إني لا أغني عنكما من الله شيئاً ، وكان جدك الأكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمامة ، فقال : « أي عم ، نفس تُحيتها ، خير لك من إمامة لا تُحيتها » نظراً لعمّه ، وشفقةً عليه أن يبلى فيجور عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعاً ، ولا عنه دفعا ، هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن ردّدتها فنفسك تحسنت ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى ، نقبها ونشكر عليها ، وبالله نستعين .

(المقدم الفريد ١ : ١٠٥ ، وعبون الأخبار م ٢ : ص ٢٢٨)

٤٧ - نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة للمنصور

ودخل يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) على أمير المؤمنين المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين : توسّع توسعاً قرشياً ، ولا تضق ضيقاً حجازياً .

ويروى أنه دخل يوماً ، فقال له المنصور حدثنا ، فقال : « يا أمير المؤمنين :

(١) ول قنبر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وجمع له مروان بن محمد ولاية البصرة والكوفة ، وكان آخر من جمع له المراقان من الولاة ، ولما استظهرت عليه جيوش خراسان ، وهزمت عسكره لحق بمدينة واسط ، فتحصن بها . ولما بويج السطاح بالخلافة وجه أخاه أبا جعفر المنصور لقتاله ، فحصره بواسط شهراً ، ثم أنه وانتص البلد صلحاً ، ثم قتل .

إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم
مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين ، لقد كَحَصْتُ^(١) لك النصيحة « ثم نهض
فنهض معه سبعمائة من قيس ، فأتأثره^(٢) المنصور بصره ، ثم قال : لا يعزُّ مُلْكُ يكون
فيه مثلُ هذا ! .

(تهذيب الكامل ١ : ٢٨)

٤٨ - معن بن زائدة والمنصور

ودخل معن^(٣) بن زائدة الشيباني على أبي جعفر المنصور وقد أسنَّ ، فقارب
في خطوه ، فقال له المنصور : لقد كبرت سنُّك يا معن ، قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ،
قال : وإِنَّكَ لَجَلْدٌ ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإِنَّ فِيكَ كَبَقِيَّةٌ ، قال :
هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : فأى الدولتين أحب إليك ، هذه أم دولة بني أمية ؟
قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين . إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلي .
(البيان والتهيب ٣ : ٢٢٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٠٩ : وزمر الآداب ٣ : ١٦١)

٤٩ - معن بن زائدة وأحد زواره

ودخل رجل على معن بن زائدة ، فقال : ما هذه الغيبة ؟ فقال : « أيها الأمير ،
ما غابَ عن العين مَنْ يذكُرُه القلبُ وما زال شوقى إلى الأمير شديداً ، وهو دونَ

(١) أخلصت . (٢) أثاره البحر : أتبعه لإياه ، وحده إليه النظر .

(٣) كان جواداً شجاعاً جريلاً العطاء كثير المعروف ، وكان في أيام بني أمية متقلداً في الولايات ، منقطعاً
إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير المراقين ، فلما انتقلت الدولة إلى بني العباس ، وحاصر المنصور يزيد
بمدينه واسط كما قدمنا ، أبل يومئذ معن مع يزيد بلاء حسناً ، فلما قتل يزيد خاف معن من أبي جعفر
المنصور ، فاستقر عنه مدة ، ولم يزل مستتراً حتى كان يوم الهاشمية ، وذلك أن جماعة من أهل خراسان ناروا
على المنصور ، وجرت مقتلة عظيمة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية - وهي مدينة بناها السفاح بالقرب
من الكوفة - وكان معن متوارياً بالقرب منهم ، فخرج متنكراً معتماً مثلثاً ، وتقدم إلى القوم ، وقابل قدام
المنصور قتالاً أبان فيه من نجدة وشهامة وفرقتهم ، فلما أفرج عن المنصور ، قال له : من أنت ويحك ؟ -

ما يَجِبُ لَهُ ، وَذَكَرَى لَهُ كَثِيراً وَهُوَ دُونَ قَدْرِهِ ، وَلَكِنْ جَفْوَةَ الْحُجَّابِ ، وَوَقْتَهُ
بِشْرِ الْعِلْمَانِ ، مِنْعَانِي مِنَ الْإِكْثَارِ » ، فَأَمَرَ بِتَسْهِيلِ حُجَابِهِ ، وَأَجْزَلَ صَلْتِهِ .

(زهر الآداب ٣ : ١٦١)

٥٠ - المنصور وأحد الأعراب

وَدَخَلَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى الْمَنْصُورِ فَتَكَلَّمَ ، فَأُعْجِبَ بِكَلَامِهِ ، فَقَالَ لَهُ : سَلْ حَاجَتَكَ .
فَقَالَ : يُبْقِيكَ اللَّهُ ، وَيَزِيدُ فِي سُلْطَانِكَ ، فَقَالَ : سَلْ حَاجَتَكَ ، فَايَسُ فِي كُلِّ وَقْتٍ
تُؤَمِّرُ بِذَلِكَ ، قَالَ : « وَبِئْسَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَوَاللَّهِ مَا أَسْتَقْصِرُ عَمْرَكَ ، وَلَا أَخَافُ
مُخْلِكَ ، وَلَا أُغْنِمُ مَالَكَ ، وَإِنْ سَوَّأَكَ لِشَرَفٍ ، وَإِنْ عَطَاكَ لِزَيْنٍ ، وَمَا بَأْمَرِي
بِذَلِّ وَجْهِهِ إِلَيْكَ نَقْصٌ وَلَا شَيْنٌ » . فَأَحْسَنَ جَائِزَتَهُ وَأَكْرَمَهُ .

(الصناعاتين ص ٤١ ، العقد الفريد : ١٣٩)

٥١ - أعرابية تعزى المنصور وتهنئه

وَرَوَى الْقَلْقَشَنْدِيُّ قَالَ : تَعَرَّضَتْ أَعْرَابِيَّةٌ لِلْمَنْصُورِ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ بَعْدَ وَفَاتِهِ
أَبِي الْعَبَّاسِ السَّقَّاحِ ، فَقَالَتْ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَحْتَسِبُ الصَّبْرَ ، وَقَدَّمَ الشُّكْرَ ، فَقَدْ أَجْزَلَ اللَّهُ لَكَ الثَّوَابَ
فِي الْحَالَتَيْنِ ، وَأَعْظَمَ عَلَيْكَ الْمِنَّةَ فِي الْحَادِثَتَيْنِ ، سَلَبَكَ خَلِيفَةَ اللَّهِ ، وَأَفَادَكَ خِلَافَةَ اللَّهِ ،
فَسَلِّمْ فِيمَا سَلَبَكَ ، وَاشْكُرْ فِيمَا مَنَحَكَ ، وَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَارَ لَكَ
فِيمَا مَلَكَكَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْدِينِ » .

- فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائد ، فأمنه المنصور وأكرمه ، وصار من خواصه ، وروى
سجستان في أواخر أمره ، فلما كانت سنة ١٥١ اندس قوم من الخوارج بين صناع كانوا يعملون في داره
بمدينة هبت ، فقتلوه وهو يحتجم ، وتبعهم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة ، فقتلهم بأسرهم .

وروى الجاحظ قال : عَزَّتْ امرأة المنصور عن أبي العباس مقدّمه من مكة ، قالت :
« أعظم الله أجرك ، فلا مصيبة أجلُّ من مصيبتك ، ولا عِوَضُ أعظم من خلافتك » .
(صبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والبيان والتهيين ٢ : ٥٥)

٥٢ - خطبة محمد بن سليمان^(١) يوم الجمعة

(وكان لا يغيرها)

الحمد لله ، أحمدده وأستعينه وأستغفره ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى
ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، من يعتصم بالله ورسوله ،
قد اعتصم بالعرُوة الوثقى ، وسعد في الأولى والآخرة ، « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا وَخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يُطِيعُهُ
وَيُطِيعُ رَسُولَهُ ، وَيَتَّبِعُ رِضْوَانَهُ ، وَيَتَجَنَّبُ سُخْطَهُ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ لَهُ وَبِهِ . أوصيكم عباد الله
بتقوى الله ، وأحكام على طاعة الله ، وأرضى لكم ما عند الله ، فإن تقوى الله أفضل
ما تباحث الناس عليه ، وتداعوا إليه ، وتواصوا به ، فاتقوا الله ما استطعتم ، وَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .
(البيان والتهيين ٢ : ٦٥)

٥٣ - وصية مسلم بن قتيبة

وقال مسلم بن قتيبة^(٢) : « لاتطابن حاجتك إلى واحد من ثلاثة : لاتطلبها
إلى الكذاب ، فإنه يُقَرِّبُهَا وهي بعيدة ، ويبعدها وهي قريبة ؛ ولا تطلبها إلى الأحمق ،

(١) هو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان عامل البصرة في خلافة أبي جعفر المنصور
رنوف سنة ١٧٣ في خلافة الرشيد .

(٢) استشاره المنصور في قتل أبي مسلم ، فقال : ماترى في أمره ؟ قال : « لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ
إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » فقال : حسبك يا بن قتيبة ، لقد أودعتها أدنا واعية (رفيات الأعيان ١ : ٢٨٢) .

فإنه يريد أن ينفعك وهو يضرك ؛ ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم ما كَلَّةٌ ، فإنه يجعل حاجتك وِقَاءً لحاجته .
(الأل ۲ : ۱۹۰)

۵۴ - خطبة المهدي (توفي سنة ۱۶۹ هـ)

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه ، أحده على آلائه^(۱) ، وأجده لبلائه^(۲) ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه توكل راضٍ بقضائه ، وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المجتبي^(۳) ، ورسوله إلى خاقه وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطُمُوس^(۴) العلم ، واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفة أمية ، أهل عداوة وتضامن ، وفرقة وتباين ، قد استهوتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قرناؤهم^(۵) ، فاستشعروا الردى ، وساكوا العمى ، يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحثكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والالتفاء إلى ما يقرب من رحمته وينجى من سخطه ، ويُنَالُ به مآلديه ، من كريم الثواب ، وجزيل المآب ، فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب ، وأليم العذاب ، ووعيد الحساب ، يوم توقفون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على النار « بَوْمَ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذَنبِهِ ، فَفِيهِمْ شِقِيٌّ وَسَعِيدٌ ؛ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ أُمَّرٍ

(۱) نعمه ، والمفرد إلى كحمل وشمس ، وأل كعصا وإلى كرضا .

(۲) البلاء : يكون منحة ، ويكون محنة . (۳) المحقار . (۴) الدروس والاشياء .

(۵) القرين : المصاحب ، والشيطان : المقرون بالإنسان : لا يفارقه .

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ
هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا
يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ « ، فإن الدنيا دار غرور ، وبلاء وشرور ، واضمحلال وزوال ،
وتقلب وانتقال ، قد أفنت من كان قبلكم ، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم ،
من ركن إليها صرعه ، ومن وثق بها خاتته ، ومن أمله^(١) كذبه ، ومن رجاها
خذلته ، عزها ذل ، وغناها فقر ، والسعيد من تركها ، والشقي فيها من آثرها ،
والمغبون فيها من باع حظها من دار آخرته بها ، فالله الله عباد الله ، والتوبة مقبولة ،
والرحمة مبسوطة ، وبادروا بالأعمال الزكية^(٢) ، في هذه الأيام الخالية ، قبل أن يؤخذ
بالكظم^(٣) ، وتندموا فلا تنالون الندم ، في يوم حسرة وتأسف ، وكآبة وتلهف ،
يوم ليس كالأيام ، وموقف صنك المقام . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ،
يقول الله تبارك وتعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ » . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ألهاكم التكاثر
حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ - إلى آخر السورة - أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به ،
وأنها كم عما نهاكم عنه ، وأرضى لكم طاعة الله ، وأستغفر الله لي ولكم « .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

(١) أمه أملا وأمله بالتخفيف والنشيد . (٢) زكا يزكو : تما وصدق .

(٣) الكظم : الحاق أو الفم ، أو نخرج النفس ، أى قبل الموت .

مشاورة المهدي لأهل بيته

في حرب خراسان

روى ابن عبد ربه قال :

« هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه ، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان ، أيام تحاملت عليهم العمال وأُغْنِفَتْ ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة ، على أن نكثوا بيعتهم ، ونقضوا موثقتهم ، وطرردوا العمال ، والتووا بما عليهم من الخراج ، وحمل المهدي ما يحب من مصلحتهم ، ويكره من عنيتهم ، على أن أقال عثرتهم ، واغفر زلتهم ، واحتمل دالتهم ، تطوؤلاً بالفضل ، واتساعاً بالعفو ، وأخذاً بالحجة ، ورفقاً بالسياسة ، ولذلك لم يزل مدحله الله أعباء الخلافة ، وقلده أمور الرعية ، رقيقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للمعدلة في رعيته ، تسكناً إلى كنفه ، وتأنساً بعفوه ، وتشق بحلمه . فإذا وقعت الأقضية اللازمة ، والحقوق الواجبة . فليس عنده هَوَادَةٌ ، ولا إغضاء ، ولا مداهنة ، أثرَةٌ للحق ، وقياماً بالعدل ، وأخذاً بالحزم ؛ فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه ، والثقة بعفوه ، أن كسروا الخراج ، وطرهوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خاطبوا احتجاجاً باعتذار ، وخضومة بإقرار ، وتنصلاً باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدي ، خرج إلى مجلس خلائه ، وبعث إلى نفر من لحمة^(١) ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصحهم للرعية ، ثم أمر الموالى^(٢) بالابتداء ، وقال للعباس^(٣) بن محمد : أي عم تعقب قولنا ، وكن حكماً بيننا ، وأرسل إلى ولديه

(١) الحمة : القرابة . (٢) جمع سوك ، وهو هنا القرب كإبن العم ونحوه .

(٣) هو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أخو المنصور .

موسى وهرون ، فأحضرهما الأمر ، وشاركهما فى رأى ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالاتهم فى كتاب .

٥٥ - مقال سلام صاحب المظالم

فقال سلام صاحب المظالم :

« أيها المهدي : إن فى كل أمر غايةً ، ولكل قوم صناعةً ، استفرغت رأيهم ، واستفرقت أشغالهم ، واستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها ، وذهبت بهم ، وعرفوا بها ، وعرفت بهم ، ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غايةً ، وطلبت معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز^(١) ، وإخوان التجارب ، وأبطال الوقائع ، الذين رشحتهم سجالها^(٢) ، وقيأتهم ظلالها ، وعصتهم شدائدُها ، وقرمتهم نواجذها^(٣) ، فلو جمعت ما قباهم ، وكشفت ما عندهم ، لو جدت نظائر تؤيد أمرك ، وتجارِبَ توافق نظرك ، وأحاديثَ تقوى قلبك . فأما نحن معاشرَ عمالك . وأصحابَ دواوينك . فحسن بنا ، وكثير منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك ، واستودعتنا من أمانتك ، وشغلنا به من إمضاء عدلك ، وإنفاذ حكمك ، وإظهار حقك . »

فأجابه المهدي : « إن فى كل قوم حكمةً . ولكل زمان سياسة . وفى كل حال تدبير . يبطل الآخر الأول . ونحن أعلم بزماننا ، وتدبير ساطاننا . »

قال نعم : أيها المهدي : أنت متسع الرأى ، وثيق العقدة ، قوى المنة^(٤) ، بليغ الفطنة ، معصوم النية ، محضور الروية ، مؤيد البديهة ، موفق العزيمة ، معان بالظفر ، مهدي إلى الخير . إن هممت فى عزمك مواقع الظن ، وإن اجتمعت صدع فعلك

(١) الهزيمة والهزادز : تحريك البلايا والحروب الناس . (٢) جمع سجل كشمس : وهو الدار لعظيمة مملوكة . (٣) قرم الطعام : أكله ، والنواجذ : أنهبى الأضراس . (٤) القوة .

ملتبس الشك . فاعزم يَهْدِ اللهُ إلى الصواب قلبك . وقل يُنطق اللهُ بالحق لسانك .
فلن جنودك جمة . وخزائنك عامرة . ونفسك سخية . وأمرك نافذ .

فأجابه المهدي : « المشاورة والمناظرة باها رحمةٍ ومفتاحا بَرَكةٍ . لا يَهْلِكُ عليهما
رأى ، ولا يَتَفَيْلُ^(١) معهما حَزْمٌ ، فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يحضركم ، فإنى من
ورائكم ، وتوفيقُ اللهُ من وراء ذلك . »

٥٦ - مِثَالُ الرَّبِيعِ بْنِ يُونُسَ^(٢)

وقال الربيع :

أيها المهدي : إن تصاريفَ وجوه الرأى كثيرة . وإن الإشارة ببعض معاريفِ
القول يسيرة . ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة . مُتْرَاحِيَةِ الشَّقَّةِ^(٣) . متفارقة السُّبُلِ
فإذا ارتأيت من مُحْكَمِ التَّدْيِيرِ . ومُبْرَمِ التَّقْدِيرِ . ولُبَابِ الصَّوَابِ ، رأيا قد أحكمهُ
نظرك ، وَقَلْبُهُ تَدْيِيرُكَ . فإيس وراءه مذهب طاعن . ولا دونه معلق لخصومة عائب .
ثم خَبَّتِ البُرْدُ^(٤) به ، وانطوت الرُّسُلُ عليه ، كان بالحرى أن لا يصل إليهم مُحْكَمُهُ .
إلا وقد حدث منهم ما يَنْقُضُهُ . فما أيسر أن ترجع إليك الرسل . وتَرِدَ عليك الكتب
بحقائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومصادر أمورهم ، فتُحَدِّثُ رأياً غيرَه ، وتبتدع
تدييراً سواه ، وقد انفرجت الحلق ، وتحللت العقد ، واسترخى الحجاب^(٥) ، وامتد
الزمان . ثم كَعِلِمَ موقع الآخرة كمصدر الأولى . ولكن الرأى أيها المهدي وفقك اللهُ .
أن تصرف إجابة النظر ، وتقايبَ الفِكرَ فيما جمعتنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير
لحربهم ، والحيل في أمرهم ، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، وورع

(١) قال رأيه وتفيل : أخطأ وضعف . (٢) وزر لأبي جعفر المنصور وقتله الهادى سنة ١٧٠ هـ

(٣) للبعد والسفر البعيد . (٤) جمع بريد : وهو الرسول ، وخبت : أسرعت .

(٥) الحجاب : ما تشده المرأة في وسطها .

واسع . ليس موصوفاً بهوى في سواك ، ولا متبهما في أثره عليك ، ولا ظنينا^(١) على دُخلة^(٢) مكروهة . ولا منسوباً إلى بدعة محذورة . فيقدح في مالك ، ويريض^(٣) الأمور لغيرك ، ثم تستند إليه أمورهم . وتفوض إليه حربهم ، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه . بلزوم أمرك ما كزيمه الحزم . وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي ، عند استحالة الأمور ، واشتداد الأحوال التي ينقض أمر الغائب عنها ، ويثبت رأى الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ، فوائب أمرهم من قريب ، وسقط عنه ما يأتي من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة . ونفذ العمل . وأحد النظر إن شاء الله .

٥٧ - مقال الفضل بن العباس

قال الفضل بن العباس :

« أيها المهدي : إن وليّ الأمور ، وسائس الحروب ، ربما نحى جنوده ، وفرق أمواله في غير ماضيق أمر حزبه^(٤) ، ولا ضغطة حال اضطرته ، فيقعد عند الحاجة إليها ، وبعد التفرقة لها ، عديماً منها . فاقداً لها . لا يثق بقوة ، ولا يصول بعدة ، ولا يفرع إلى ثقة . فالرأى لك أيها المهدي وفقك الله ، أن تعفى خزائنك من الإنفاق للأموال ، وجنودك من مكابدة الأسفار ، ومقارعة الأخطار ، وتغريير القتال ، ولا تسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون ، والعطاء لما يسألون ، فيفسد عليك أدبهم ، وتجري من رعبك غيرهم ، ولكن اغزهم بالحيلة ، وقاتلهم بالمكيدة ، وصارعهم باللين ، وخاتلهم^(٥) بالرفق ، وأبرق^(٦) لهم بالقول ، وأرعد نحوهم بالفعل ، وابتعث البعوث ،

(١) متبهما . (٢) دخلة الرجل مثلك ، ودخيلته : نيته ومذهبه .

(٣) في كتب اللغة : راضه وروضه : ذله ، وأراض الأرض جعلها رياضاً . (٤) اشت عليه .

(٥) خادمهم . (٦) رعد وبرق ، وأرعد وأبرق : تهدد وتوعده .

وجند الجنود ، وكتب الكتاب ، واعقد الألوية ، وانصب الرايات ، وأظهر أنك
موجهٌ إليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم ، وأسوئهم أثراً فيهم ، ثم ادس الرسل ،
وابثت الكتب ، وضع بعضهم على طمعٍ من وعدك ، وبعضاً على خوفٍ من وعيدك ،
وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم ، واغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ
القلوب من الوحشة ، وتنطوي الصدور على البغضة ، ويدخل كلا من كل الحذر
والهيبة ، فإن مرّام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة^(١) بالكتب ، والمكايده
بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ، القوى الموقع من النفوس ،
المعقود بالحجج ، الموصول بالحيل ، المبنى على اللين الذي يستميل القلوب ، ويسترق
العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة^(٢) ، أنفذ من القتال بظلمات
السيوف ، وأسنة الرماح ، كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل . ويفرق كلمة عدوه
بالمكايده ، أحكم عملاً ، وألطف منظراً ، وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك
إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال . والتفريز والخطار^(٣) . وليعلم المهدي أنه إن وجه
لقتالهم رجلاً لم يسير لقتالهم إلا بجنود كثيفة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم على
أسفار ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقود غشّة ، إن ائتمنهم استنفدوا ماله ، وإن
استنصحهم كانوا عليه لاله .

قال المهدي : « هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ،
ومجند حقه في القلوب ، ولكن فوق كل ذي علم عليم » ، ثم نظر إلى ابنه علي ،
فقال : ما تقول ؟

(١) ناصبه الحرب والمدارة : أقامها . (٢) الموافقة . (٣) المخاطرة .

٥٨ - مقال علي بن المهدي

قال علي بن المهدي :

« أيها المهدي : إن أهل خراسان لم يَخْلَعُوا عن طاعتك ، ولم يَنْصِبُوا من دونك أحداً ، يَقْدَحُ في تغيير ملكك ، وَيُريِضُ الأمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخطبُ أيسرَ ، والشأنُ أصغرَ ، والحالُ أدلَّ ، لأن الله مع حقِّه الذي لا يَخْذُلُهُ ، وعند مَوْعَدِهِ الذي لا يُخْلِفُهُ ، ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفة من شيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبتَ إلى دعوتهم ، ونفستَ عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال ، ويحدث من عندهم فتق ، أطعتَ أمر الرب ، وأطفأتَ نائرة الحرب ، ووفرتَ خزائن المال ، وطرحتَ تفريرَ القتال ، وحملَ الناسُ محملاً ذلك على طبيعة جودك ، وسجية حلمك ، وإسجاج^(١) خايقتك ، ومعدلة نظارك ، فأمنتَ أن تُنسبَ إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَةً ، وإن منعتهم ما طلبوا ، ولم تُجِبْهم إلى ما سألوا ، اعتدلتَ بك وبهم الحالُ ، وساويتهم في ميدان الخطاب ، فما أربُّ المهدي أن يعمدَ إلى طائفة من رعيته ، مقرّين بملكته ، مُذعنين بطاعته ، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يُبرثونها من عبوديته ، فيملكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ، ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حدِّ المقارعة وميضار المخاطرة . أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال ؟ فلعمري لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإتفاق أكثر منها مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يدعى قباهم ، ولو نالها فحُمِلت إليه ، ووُضِعَتْ بخزائنها^(٢) بين يديه

(١) الإسجاج : حسن العفر .

(٢) جمع خريطة : وهي وءاء من آدم وفهمه بمرج على ما فيه .

ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها ، لكان إليه مما يُنسب ، وبه يُعرف ، من الجود الذي طبعه الله عليه ، وجعل قرّة عينه ، ونهمة^(١) نفسه فيه ، فإن قال المهدي : هذا رأى مستقيم سديد ، في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا ، وتحامل وولاتنا ؛ فأما الجنود الذين نقضوا موثيق العهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية ، وكسروا قيد الفتنة ، فقد ينبغي لهم أن أجمعهم نكالا لغيرهم ، عظة لسواهم ، فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد ، مُقرّنين^(٢) في الأصفاد^(٣) ، ثم اتسع لحقن دماهم عفوه ، وإقالة عثرتهم صَنْجُهُ ، واستبقاهم لما هم فيه من حربته ، أو لمن ييازئهم من عدوه ، كما كان بدعاً من رأيه ، ولا مستنكراً من نظره ، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً ، وأشدّها وقعاً ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاظمه^(٤) عفوّ ، ولا يتكأده^(٥) صفح ، وإن عظم الذنب ، وجل الخطب ، فالرأى للمهدي وفقه الله تعالى أن يحل عُقدة الفيض ، بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم ، وأن يذكر أولى حالاتهم ، وَضِيعة عيالاتهم ، برّاً بهم ، وتوسّعاً لهم ، فإنهم إخوان دولته ، وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبُحْبَجَّتِهِم يقول ، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخِطِهِ ، وتعرّضوا له من معاصيه ، وانطأوا فيه عن إجابته ، ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم ، أو نُقْلٍ من حاله لهم ، أو تغيّر من نعمته بهم ، كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازيين ، أصاب أحدهما خبلٌ عارض ، وَهُوَ حَادِثٌ . فهص إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالكره ، فلم يزد أخوه إلا رقةً له ، ولطفاً به ، واحتياجاً لمداواة مرضه ، ومراجعة حاله ، عطفاً عليه ، وبرّاً به ، ومَرَاحَةً له .

(١) النهمة : الحاجة وبلوغ الشهوة في الشيء .

(٢) مقيدون . (٣) الأصفاد : القيود ؛ جمع صفة كسب .

(٤) تعاظمه الأمر ، عظم عليه . (٥) تكأده الأمر ؛ شق عليه .

فقال المهدي : أما عليّ فقد نوى سمّت الأليان^(١) ، وَفَضَّ الْقُلُوبِ فِي أَهْلِ خِرَاسَانَ ،
وَلِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ ، فقال : ما ترى يا أبا محمد يعني موسى ابنه (الهادي) .

٥٩ - مقال موسى بن المهدي

فقال موسى :

« أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : لَا تَسْكُنْ إِلَى حَلَاوَةِ مَا يَجْرِي مِنَ الْقَوْلِ عَلَى أَسْنَتِهِمْ ، وَأَنْتَ
تَرَى الدَّمَاءَ تَسِيلُ مِنَ خَلِّ فَعْلِهِمْ ، الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يَنَادِي بِمَضْمَرَةٍ شَرِّ ، وَخَفِيَّةٍ حَقْدٍ ،
قَدْ جَعَلُوا الْمَعَاذِيرَ عَلَيْهَا سِتْرًا ، وَاتَّخَذُوا الْعِلَلَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا ، رَجَاءً أَنْ يَدَافِعُوا
الْأَيَّامَ بِالتَّأخِيرِ ، وَالْأُمُورَ بِالتَّطْوِيلِ ، فَيَكْسِرُوا حِيَلَ الْمَهْدِيِّ فِيهِمْ ، وَيُفْنُوا جُنُودَهُ
عَنْهُمْ ، حَتَّى يَتَلَاحَمَ أَمْرُهُمْ ، وَتَتَلَاحِقَ مَادَّتُهُمْ ، وَتَسْتَفْجِلَ حَرْبُهُمْ ، وَتَسْتَمِرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ
وَالْمَهْدِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي حَالِ غِرَّةٍ ، وَابِاسٍ أَمَنَةٍ ، قَدْ فَتَرَ لَهَا ، وَأَنَسَ بِهَا ، وَسَكَنَ إِلَيْهَا .
وَلَوْلَا مَا اجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَبَرَدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُنَاصِبَةِ بِالْقِتَالِ ، وَالْإِضْمَارِ
لِلْقِرَاعِ ، عَنْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَوْ شَيْطَانِ فُسَادٍ ، لَرَهَبُوا عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوُلَاةِ ، وَغَبَّ
بِسُكُونِ الْأُمُورِ ، فَيَشُدُّ الْمَهْدِيُّ وَقْفَهُ اللَّهُ أَرْزَهُ^(١) لَهُمْ ، وَيَكْتُبُ كِتَابَهُ نَحْوَهُمْ ،
وَلْيَضِعَ الْأَمْرَ عَلَى أَشَدِّ مَا يَحْضُرُهُ فِيهِمْ ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ لَا يُعْطِيهِمْ خُطَّةً يَرِيدُ بِهَا صَلَاحَهُمْ ،
إِلَّا كَانَتْ دُرْبَةً إِلَى فُسَادِهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ ، وَدَاعِيَةً إِلَى عَوْدَتِهِمْ ، وَسَبَبًا لِفُسَادِ
مَنْ يَحْضُرْتَهُ مِنَ الْجُنُودِ ، وَمَنْ يَبَابُهُ مِنَ الْوَفُودِ الَّذِينَ إِنْ أَقْرَبَهُمْ وَتَلَّكَ الْعَادَةَ ، وَأَجْرَاهُمْ
عَلَى ذَلِكَ الْأَرْبِ ، لَمْ يَبْرَحْ فِي فَتْقِ حَادِثٍ ، وَخِلَافِ حَاضِرٍ ، لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ دِينَ ،
وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ دُنْيَا ، وَإِنْ طَابَ نَغْيِرُهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ الدُّرْبَةِ ، لَمْ يَصِلْ

(١) الأليان : الملاينة . مصدر لاين ، والسمت : الطريق .

(٢) القوة والظاهر .

إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة . والمثونة الشديدة . والرأى للمهدى وفقه الله أن لا يقبل عثرتهم . ولا يقبل معذرتهم . حتى تطأهم الجيوش . وتأخذهم السيوف . ويستحرج^(١) بهم القتل . ويحدق بهم الموت . ويحيط بهم البلاء . وَيُطَبِّقُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّ . فإن فعل المهدي بهم ذلك . كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم . وهزيمة لكل بادرة شر منهم . واحتمال المهدي في مثونة غزوتهم هذه . تضع عنه غزوات كثيرة . ونفقات عظيمة . فقال المهدي : « قد قال القوم . فاحكم يا أبا الفضل » .

٦٠ - مقال العباس بن محمد

فقال العباس بن محمد :

« أيها المهدي : أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جنابات الصواب ، وتعدوا أموراً قصر بنظرهم عنها ، أنه لم تأت تجاربهم عليها . وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تنفق ، والجنود ألا تفرق ، وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا ، ولا يبذل لهم ما سألوا . وجاء بأمر بين ذلك استصغاراً لأمرهم ، واستهانةً بحربهم . وإنما يهيج جسيات الأمور صفارها .

وأما على فأشار باللين وإفراط الرفق . وإذا جرّد الوالى لمن غمط أمره وسفه حقه ، اللين بحتاً ، والخير محضاً . لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب عن لينه . ولا بشرراً يخبسهم إلى خيره . فقد ملكهم الخلع لعذرهم . ووسّع لهم الفرجة لثني أعناقهم . فإن أجابوا دعوته . وقبلوا لينه من غير خوف اضطهرهم ولا شدة . فنزوة^(٢) في رءوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم . ويستصرخون بها رأى المهدي فيهم . وإن لم يقبلوا دعوته . ويسرعوا لإجابته باللين المحض ، والخير الصراح . فذلك ما عليه الظن بهم ، والرأى فيهم ، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم . لأن الله تعالى خاق الجنة . وجعل فيها

(١) يشعل .

(٢) وثبة إلى الشر .

من النعيم المقيم . والملك الكبير . مالا يَحْطُرُّ على قلب بشر . ولا تُذَرِّكُه الفِكر .
ولا تعلمه نفسٌ ، ثم دعا الناس إليها ، ورغَّبهم فيها . فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمةً
يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبُوا بشدة لا لين فيها . وأن يُرَمَوْا بشرًا لا خير معه
وإذا أضمر الوالى لمن فارق طاعته . وخالف جماعته . الخوف مفردا . والشر مجردا .
وليس معها طمع . ولا لينٌ يثنيهم . اشتدت الأمور بهم . وانقطعت الحال منهم
إلى أحد أمرين . إما أن تدخلهم الحمية من الشدة . والأنفة من الذلة . والامتعاض
من القهر . فيدعوهم ذلك إلى التماذى فى الخلاف . والاستبسال فى القتال . والاستسلام
للموت . وإما أن ينقادوا بالكراهة . ويذعنوا بالقهر على بغضة لازمة . وعداوة باقية .
تورث النفاق . وتُعقِبُ الشقاق . فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت^(١) لهم قدرة . أو قويت
لهم حال . عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان .

وقال فى قول أبى الفضل : أيها المهدي أكنى دليل . وأوضح برهان . وأبين
خبر بأن قد أجمع رأيه . وحزَم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم . وتوجيه
البعوث نحوهم . مع إعطائهم ما سألوا من الحق . وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل .
قال المهدي : ذلك رأى .

٦١ - مقال هرون بن المهدي

قال هرون :

« خلطت الشدة أيها المهدي باللين . فصارت الشدة أمرًا فِطامٍ لما تكروه .
وعاد اللين أهدي قائد إلى ما تحب . ولكن أرى غير ذلك » .
قال المهدي : « لقد قلت قولاً بديعاً . وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً . والمرء

(١) رجعت .

مُؤْتَمَنٌ بِمَا قَالَ . وَظَنِينَ بِمَا ادَّعَى . حَتَّى يَأْتِيَ بَيِّنَةً عَادِلَةً . وَحُجَّةً ظَاهِرَةً . فَأَخْرَجَ
عَمَّا قَلْتُ « قَالَ هَرُونَ : « أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ . إِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ ^(١) . وَالْأَعَاجِمُ قَوْمٌ مَكْرَةٌ .
وَرَبَّمَا اعْتَدَلْتُ الْحَالَ بِهِمْ . وَاتَّفَقْتُ الْأَهْوَاءَ مِنْهُمْ . فَكَانَ بَاطِنٌ مَا يُسْرُونَ عَلَى ظَاهِرٍ
مَا يُعْلِنُونَ . وَرَبَّمَا افْتَرَقْتُ الْحَالَانِ . وَخَالَفَ الْقَلْبَ اللِّسَانَ . فَانطَوَى الْقَلْبُ عَلَى مَحْجُوبَةٍ
تُبْطَنُ . وَاسْتَسْرَّ بِمَدْخُولَةٍ لِاتْعَانِ . وَالطَّيِّبُ الرَّفِيقُ بَطْبَهُ . الْبَصِيرُ بِأَمْرِهِ . الْعَالِمُ بِمُقَدَّمِ
يَدِهِ . وَمَوْضِعِ مَيْسَمِهِ ^(٢) لَا يَتَعَجَّلُ بِالذَّوَاءِ . حَتَّى يَقَعَ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّاءِ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ
- وَفَقَهُ اللَّهُ - أَنْ يَفِرَّ ^(٣) بَاطِنُ أَمْرِهِمْ فَرَّ الْمُسِنَّةَ . وَيَمْحَضُ ظَاهِرَ حَالِهِمْ مَحْضَ السَّقَاءِ .
بِمَتَابَعَةِ الْكُتُبِ . وَمِظَاهِرَةِ الرُّسُلِ . وَمَوَالِيَةِ الْعَيُونِ . حَتَّى تَهْتَكَ حُجُبَ عَيُونِهِمْ .
وَتَكْشَفَ أَغْطِيَةَ أُمُورِهِمْ . فَإِنْ انْفَرَجَتِ الْحَالَ وَأَفْضَتِ الْأُمُورَ بِهِ إِلَى تَغْيِيرِ حَالٍ .
أَوْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ اشْتَمَلَتِ الْأَهْوَاءَ عَلَيْهِ . وَانْقَادَ الرِّجَالَ إِلَيْهِ . وَامْتَدَّتِ الْأَعْنَاقُ نَحْوَهُ
بِذِينَ يَعْتَقِدُونَهُ . وَإِثْمٌ يَسْتَحْلُونَهُ . عَصَبُهُمْ بِشِدَّةٍ لَا لِينَ فِيهَا . وَرِمَاهُمْ بِعَقُوبَةٍ لَا عَفْوَ مَعَهَا .
وَإِنْ انْفَرَجَتِ الْعَيُونُ . وَاهْتَصَرَتِ السُّتُورُ . وَرُفِعَتِ الْحُجُبُ . وَالْحَالَ فِيهِمْ مَرِيعةً ^(٤) .
وَالْأُمُورَ بِهِمْ مَعْتَدَلَةً . فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا . وَأَعْمَالٍ يُنْكَرُونَهَا . وَظُلُمَاتٍ يَدْعُونَهَا .
وَحَقُوقٍ يَسْأَلُونَهَا . بِمَاتَةٍ سَابِقَتِهِمْ . وَدَالَّةٍ مَنَاصِحَتِهِمْ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ - وَفَقَهُ اللَّهُ -
أَنْ يَتَسَعَ لَهُمْ بِمَا طَلَبُوا . وَيَتَجَافَى لَهُمْ عَمَّا كَرِهُوا . وَيَشْعَبُ ^(٥) مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا .
وَيَرْتُقُ مِنْ فَتْقِهِمْ مَا قَطَعُوا . وَيُوَلِّي عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْبَابٍ . وَيَدَاوِي بِذَلِكَ مَرْضَى قُلُوبِهِمْ
وَفَسَادِ أُمُورِهِمْ . فَإِنَّمَا الْمَهْدِيُّ وَأُمَّتُهُ . وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ . بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرَّفِيقِ .
وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ . وَالرَّاعِيِ الْمَجْرَّبِ الَّذِي يَحْتَمِلُ لِمَرَابِضِ غَنَمِهِ . وَضَوَائِلِ رَعِيَّتِهِ . حَتَّى
يُبْرِئُ الْمَرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا . وَيُرَدِّدُ الصَّحِيحَةَ إِلَى أَنْسِ جَمَاعَتِهَا . ثُمَّ إِنَّ خِرَاسَانَ بِمَخَاصِئِ

(١) خدعة بسكون الدال وتثنية الخاء، وبضم الخاء وفتح الدال، أي تنقضى بخدعة .

(٢) الميسم : المكواة . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليمرف منها .

(٤) مرع الوادى ككرم مراعاة : أخصب بكثرة الكلأ فهو مريع . (٥) نصلح .

الذين لهم دالة محمولة . وماتة مقبولة . ووسيلة معروفة . وحقوق واجبة . لأنهم أيدي دولته . وسيوف دعوته . وأنصار حقه . وأعوان عدله . فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم . ولا المؤاخذة لهم . ولا التوغر^(١) بهم . ولا المكافاة بإساءتهم . لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى ، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ ، أحزم في الرأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدي : « ما زال هرون يقع وَقَع الحياء^(٢) حتى خرج خروج القدح من الماء وانسلَّ انسلال السيف فيما ادعى فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأى ، وثني بعده هرون ؛ ولكن مَنْ لأعنة الخيل وسياسة الحرب وقيادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة ؟ » .

٦٣ - مقال صالح بن علي^(٣)

قال صالح :

« لسنا نبغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسة رأيك وبعض لحظات نظرك، وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم، ذو دين قاض ورأى كامل، وتدبير قوى، تقلده حربك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطلع بالأعباء الثقيلة وأنت بحمد الله ميمون النقية^(٤)، مبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب معصوم العزم، فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك، وتُسند إليه شغرك، إلا أراك الله ماتحب، وجمع لك منه ما تريد . »

(١) توغر الرجل : تشدد . (٢) المطر .

(٣) هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس . (٤) النفس والطبيعة .

قال المهدي : « إني لأرجو ذلك لتقديم عادة الله فيه وحسن معاونته عليه ولكن أحب الموافقة على الرأي ، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم » .

٦٣ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أهل خراسان أيها المهدي قوم ذوو عِزَّةٍ وَمَنْعَةٍ ، وشياطينُ خَدَاعَةٍ ، زُرُوعِ الحِمِيَّةِ فِيهِمْ نَابِتَةٌ ، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبة والعجالة فيهم حاضرة ، تسبق سيولهم مطرهم ، وسيوفهم عدلهم ، لأنهم بين سيفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم ، وبين رؤساء لا يلجمون إلا بشدة ولا يفظمون إلا بالمر ، وإن ولي المهدي عليهم وضيعاً لم تنقذ له العطاء ، وإن ولي أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء وإن آخر المهدي أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ناصحاً ، يتفق عليه أمرهم ، وثيقة تجتمع له أملاؤهم^(١) بلا أنفة تلزمهم . ولا حمية تدخلهم ، ولا مصيبة تنفرهم ، تنفست الأيام بهم ، وتراخت الحال بأمرهم . فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ، مالا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ، ولا يستصلحه وإن جهد ، إلا بعد دهر طويل ، وشر كبير ، وليس المهدي موقفه الله فاطماً عاداتهم ، ولا قارحاً صفاتهم^(٢) ، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عدل^(٣) في ذلك بهما ، أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ، ويد ممثلة لعينك ، وصخرة لا تززع ، وبهمة^(٤) لا تُثنى ، وبازل^(٥) لا يُفرزه صوت الججلج ، تقى العريض ، نزيه النفس ، جليل الخطر^(٦) اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة

(١) جمع ملاكسب : وهو الجماعة . (٢) الصفاة : الحجر الصلد الضخم . (٣) العدل : للنظير .
(٤) البهمة : الصخرة ، والشجاع الذي لا يهوى من أين يؤتى . (٥) البازل : الجمل في السنة التاسعة ، والرجل السكامل في تجربته . (٦) القدر .

بِهَمَّتَهُ ، وجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً ، والغرض الأدنى لِقَدَمِهِ مَوْطِئًا ، فليس يقبل عملاً ، ولا يتعدى أملاً ، وهو رأس مَوَالِيكَ ، وأنصح بني أبيك ، رجل قد غُدِّي بلطيف كرامتك ، وَنَبَتَ في ظل دولتك ، ونشأ على قوائم أدبك ، فإن قلده أمرهم وَحَمَلْتَهُ ثِقَلَهُمْ ، وأسندت إليه ثغرهم ، كان قفلاً فتحه أمرُك ، وباباً أغلقه نهْيُك . فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً ، وإذا أحكم المنصفة . وملك المعدلة ، فأعطاهم ما لهم ، وأخذ منهم ما عليهم ، غرس لك في الذي بين صدورهم وأسكن لك في السؤيذاء ، داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق ، باسقة الفروع ، متائلة في حواشي عواممهم ، متمكنة من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم ريبٌ إلا نفوه ولا يلزمهم حقٌ إلا أدوه ، وهذا أحدهما ، والآخر عودٌ من غيضتك^(١) ، وَنَبَعَةٌ من أرومتك ، فتى السن ، كنهل الحلم ، راجح العقل ، محمود الصرامة ، مأمون الخلاف . يجرد فيهم سيفه ، ويسيطر عليهم خيره ، بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب ما يستوجبون وهو فلان أيها المهدي ، فسَلَطَهُ - أعزك الله - عليهم ، ووجهه بالجيوش إليهم ، ولا تمنعك ضراعة^(٢) سنه ، وحادثة مولده ، فإن الحلم والثقة مع الحداثة ، خير من الشك والجهل مع الكهولة ، وإنما أحداكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصكم به من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصرامة الأنفس ، كفراخ عتاق الطير ، المُحَكِّمَةَ لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب . فالعلم والعلم ، والعزم والحزم ، والجود والثوذة ، والرفق ، ثابت في صدوركم ، مزروع في قلوبكم ، مُسْتَحْكِمٌ لكم ، متكاملٌ عندكم بطبائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

(١) الليضة : الأجمة ومجمع الشجر في مفيض ماء . (٢) المراد حداثة

٦٤ - مقال معاوية بن عبد الله

قال معاوية بن عبد الله :

« أفتاه^(١) أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر ، وأهل خراسان في حال عز على ما وُصف ، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود . ولا بنبيه الصوت في الحروب ، ولا بطويل التجربة للأمر ، ولا بمعروف السياسة للجيش ، والهيبة في الأعداء دخل ذلك أمران عظيمان ، وخطر ان مهولان ، أحدهما أن الأعداء يفتمزونها منه ، ويحتقرونها فيه ، ويجترون بها عليه ، في النهوض به . والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل ما حين الاختبار لأمره ، والتكشف لحاله ، والعلم بطباعه ؛ والأمر الآخر أن الجنود التي يقود ، والجيش التي يسوس ، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ، ولم يعرفوه بالصوت^(٢) والهيبة ، انكسرت شجاعتهم ، وماتت نجبتهم واستأخرت طاعتهم ، إلى حين اختبارهم ، ووقوع معرفتهم ، وربما وقع البوار قبل الاختبار وبياب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حنيك^(٣) صيت ، له نسب زالك . وصوت عال ، قد قاد الجيوش وساس الحروب ، وتآلف أهل خراسان ، واجتمعوا عليه باليقة ، ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولّاه المهدي أمرهم ، لكفاه الله شرهم . »

قال المهدي : « جانبت قصد الرمية ، وأبيت إلا عصبية إذ رأى الحدّث من أهل بيتنا ، كراى عشرة حلماء من غيرنا . ولكن أين تركتم ولي العهد ؟ » .

قالوا : « لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جدّه ، ونسيج وحده^(٤) . ومن الدين وأهله . بحيث يقصر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عز وجل حجّب عن

(١) جمع في كيتيم وأيتام . (٢) الصوت والصات والصيت : للذكر الحسن . (٣) محنك .

(٤) هو نسيج وحده : لا نظير له منفرد بخصال محدودة لا يشركه فيها غيره . كما أن الثوب النفيس

لا ينسج على مثاله غيره ، أي لا يشرك بينه وبين غيره في اللدى .

خلقه ، وسَمَرَ دون عباده ، عِلْمَ ما تَخْتَلَفُ به الأيام ، ومعرفة ما تَجْرِي عليه المقاديرُ من حوادث الأمور ، ورَيْبِ المنون^(١) المُخْتَرِمَةِ لِخَوَالِي القرون ، وَمَوَاضِي الملوك فِكْرِهَا شُسُوعَهُ^(٢) عن مَحْمَلَةِ الملك ، وَدَارِ السلطان ، وَمَقَرِّ الإمامة وَالْوِلايَةِ ، وموضع المدائن والخرائن ، وَمَسْتَقَرِّ الجنود ، وَمَعْدِنِ الجود ، وَمَجْمَعِ الأموال التي جعلها الله قُطْبًا لِمَدَارِ الملك ، وَمِصِيدَةِ قلوب الناس ، وَمَثَابَةِ لإخوان الطمع ، وَثَوَارِ الفتن ، وَدَوَاعِي البِدَع . وفُرْسَانِ الضلال ، وَأَبْنَاءِ الموت ، وَقَانَا إِنْ وَجَّهَ المهدي ولىَّ عَهْدَهُ ، فحدث في جيوشه وَجُنُودِهِ ، ما قد حدث بِجُنُودِ الرسل من قبله ، لم يستطع المهدي أن يُعَقِّبَهُمْ بغيره ، إلا أن يَنْهَضَ إليهم بنفسه ، وهذا خَطَرٌ عَظِيمٌ ، وهول شديد ، إن تنفست الأيام بِمَقَامِهِ . واستدارت الحال بِإِمَامِهِ ، حتى يقع عَوَضٌ لا يُسْتَفْنَى عنه ، أو يَحْدُثُ أمر لا بُدَّ منه . صار ما بعده مما هو أعظم هَوًى وَأَجَلَ خَطَرًا ، له تبعًا ، وبه متصلاً .

٦٥ - مقال المهدي

قال المهدي :

« اَلْخَطْبُ أَيْسَرُ مما تذهبون إليه ، وعلى غير ماتصفون الأمرَ عاياه ، نحن أهل البيت نجرى من أسباب القضايا ، ومواقع الأمور ، على سابق من العلم ، ومحتوم من الأمر ، قد أنبأت به الكتب ، وَتَنَبَّأت عليه الرسل ، وَقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا . وَتَكامل بِحَدَافِيرِهِ^(٣) عندنا ، فيه نَدْبَرٌ ، وعلى الله نتوكل ، إنه لا بُدَّ لولىَّ عهدي . وَوَلَىَّ عَهْدِ عَقْبِي بعدى أَنْ يقود إلى خراسان البعوث ، ويتوجه نحوها بالجنود ؛ أما الأول فإنه يُقَدِّمُ إليهم رسله ، ويُعْمَلُ فيهم حِيَاةً . ثم يخرج نَشِيطًا إليهم حَنِيقًا

(١) المنون المنية (مؤنث) والمختربة : المهلكة ، والحوالي جمع خالية : وهي الماضية .

(٢) شوع كنع شععا وشوعا : بعد فهو شاع وشوع .

(٣) جمع حذفور كحذفور أو حذفار كقرطاس : وهو الجانب .

عليهم . يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن ، ودواعي البدع ، وفرسان الضلال .
إلا توطأه بحرّ القتل ، وألبسه قناع القهر . وقلده طوق الذل ، ولا أحداً من الذين
عملوا في قصر جناح الفتنة ، وإخماد نار البدعة ، ونصرة ولاية الحق ، إلا أجرى عليهم
ديم فضاه ، وجداول نهله ، فإذا خرج مزمعاً به ، مُجمِعاً عليه ، لم يسر إلا قليلاً حتى
يأتيه أن قد عملت حيله ، وكدحت كتبه ، ونفذت مكائده ، فهدأت نافرة القلوب .
ووقعت طائرة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا ، فيميل نظراً لهم ، وبراً بهم .
وتعطفاً عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله
الحرام ، وساب تجارهم رزق الله الحلال ؛ وأما الآخر فإنه يوجه إليهم ، ثم تعتقله
الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون ، وببذل ما يسألون ، فإذا سمحت الفرق بقراباتها له .
وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ، فأضغت إليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة .
وقدمت عليه الوفود ، قصد لأول ناحية بجمعت^(١) بطاعتها ، وألقت بأزمته ، فألبسها
جناح نعمته ، وأنزلها ظل كرامته وخصها بعظيم حباؤه^(٢) ، ثم عم الجماعة بالمعدلة .
وتعطف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ، ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها
بركته ، ووصلت إليها منفعته ، فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضعها . وزاد
رفيعها ، ما خلا ناحيتين ، ناحية يغاب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف
بدعوته ، وتبطن عن إجابته ، وتتأقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث ، وأبطأ من
يوجه ، فيصطلي عليها موجدة ، ويتنفى لها علة ، لا يلبث يجد^(٣) بحق يلزمهم ، وأمر
يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحربهم القتل ، ويخيط
بهم الأضر ، ويُفنيهم التبّع ، حتى يُخرّب البلاد ويؤتيم الأولاد ، وناحية لا يسط
لهم أماناً ، ولا يقبل لهم عهداً ، ولا يجعل لهم ذمة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة .

(١) جمع بالحق بخوعاً : أذربه وخضع له . (٢) مطانه . (٣) ينضب .

وتدرّع جِلبابَ الفتنة ، وربّضَ في شِقِّ القَصَا ، ولكنه يُقتل أعلامهم ، ويأسر قوادمهم .
ويطلب هُرَّابهم ، في لُجَجِ البحار ، وَقَلَلِ الجبال ، وَحَمِيلِ^(١) الأودية ، ويطون الأرض .
تقتيلاً وتغايلاً وتنكيلاً ، حتى يدع الدنيا خراباً ، والنساء أياًمى ، وهذا أمر لانعرف له
في كتبنا وقتاً ، ولا نصحّ منه غير ما قلنا تفسيراً ؛ وأما موسى ولي عهدي ، فهذا
أوانُ تَوَجُّهه إلى خراسان ، وحلوله بجرّجان ، وما قضى الله له من الشخوص إليها .
والمقام فيها ، خير للمسلمين مَغَبَّةً ، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يُغمر في لُجَجِ
بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم فضله ، ويتدأب^(٢)
مشرق نوره ، ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه من الوزراء ، ويختار له
من الناس ؟ » .

٦٦ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أيها المهدي : إن وليّ عهدك أصبح لأمتك ، وأهل ماتك ، علماً قد تثنت نحوه
أعناقها ، ومدّت سمته أبصارها . وقد كان لقرب داره منك ، ومحلّ جواره لك ،
عُطْل^(٣) الحال ، غفل الأمر ، واسع العذر . فأما إذا انفرد بنفسه . وخلا بنظره .
وصار إلى تدبيره . فإن من شأن العامة أن تنفق مخرج رأيه . وتستنصت لمواقع آثاره
وتسأل عن حوادث أحواله ، في برّه ومروءته . وإقساطه^(٤) ومعدّته ، وتديبره
ومياسته ، ووزرائه وأصحابه . ثم يكون ماسبق إليهم أغاب الأشياء عليهم ، وأملك
الأمر بهم ، وألزمها لقلوبهم ، وأشدّها استمالةً لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم . فلا يفتأ
المهدي - وفقه الله - ناظراً له فيما يقوى عمده مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ،

(١) الحمل : بطن المسيل . (٢) يضطرب .

(٣) عطل (كأخرج) من المال والأدب : خلا فهو عطل كعقل وعندق . (٤) عدله .

ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله . وأظهر لجماله ، وأفضل مغبته لأمره ، وأجل موقفاً في قلوب رعيته ، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملته . ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له . وأبلغ في استعطاف القلوب عليه ، من مَرَحْمَةٍ تظهر من فعله . ومعللة تنتشر عن أثره . ومحبة للخير وأهله ، وأن يختار المهديُّ - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة . وفقهاء أهل كلِّ مصر ، أقواماً تسكن العامةُ إليهم إذا ذُكِرُوا ، وتأنس الرعية بهم إذا وُصِفُوا . ثم تسهل لهم عمارة سُبُل الإحسان ، وفتح باب المعروف . كما قد كان فتح له ، وسهل عليه .

قال المهدي : صدقت ونصحت . ثم بعث في ابنه موسى ، فقال :

٦٧ - مقال المهدي

« أَيُّ بُنْيَ . إنك قد أصبحت لَسَمْتَ وجوه العامة نُصَباً ، ولَسُنِي أعطافِ الرعية غايةً ، فحَسَنَتِكَ شاملةً . وَإِسَاءَتِكَ نائيةً ، وأمركَ ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته . فاحتمِلْ سُخْطَ الناسِ فيهما ، ولا تطلب رضاهم بِمُخْلَافِهما ، فإن الله عز وجل كافيك مَنْ أسخطه عليك إيثاركِ رضاه . وليس بكافيك مَنْ يُسْخِطُه عليك إيثاركِ رضا مَنْ سواه . ثم اعلم أن الله تعالى في كلِّ زمانٍ فترةٌ من رسله . وبقايا من صفوة خلقه ، وَخَبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَجِدُّ حَبْلَ الإِسْلَامِ بدعواهم ، وَيَشِيدُ أركانَ الدينِ بِنُصْرَتِهِمْ ، ويتخذ لأولياءِ دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله أعواناً . يَسُدُّونَ الخللَ ، وَيُقِيمُونَ الميَلَّ ، ويدفعون عن الأرض الفساد ، وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا ، وسيوفِ دعوتنا ، الذين نستدفعُ المكارهَ بطاعتهم ، ونستصرفُ نزولَ العظائمِ بِمُنَاصَحَتِهِمْ . وَنُدَافِعُ رَبِّبَ الزمانِ بعزائمهم ، وَنُرَاحِمُ ركنَ الدهرِ ببصائرهم ، وهم عماد الأرض إذا أرجفَ كنفها ، وخوفُ الأعداءِ إذا برزت صفحتها ، وَحُصُونُ الرعية إذا تضايقت الحال بها ، قد مضت لهم وقائعُ صادقات ، ومواطنُ صالحات ، أخذت نيرانَ

الفِتنِ ، وَقَسَمْتَ دَوَاعِيَ الْبِدْعِ . وَأَذَلَّتْ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ ، وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَاكَ مَا جَرَوْا
مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ طَاعَتِنَا ، الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا
ذِلَّتَهُمْ ، وَرَفَعَ بِهَا ضَعْفَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمَلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ
بَعْدَ لِبَاسِ الذِّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ الْبَلَاءِ ، وَمُخَالَفَةِ الْأَسَى ، وَجَهْدِ الْبَأْسِ
وَالضَّرِّ . فَظَاهِرٌ عَلَيْهِمْ لِبَاسَ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزَلَهُمْ فِي حَدَائِقِ نِعْمَتِكَ ، ثُمَّ اعْرِفْ لَهُمْ
حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ دَلَّتِهِمْ ، وَمَا تَهَّ سَابِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مَنَاصِحَتِهِمْ ، بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ،
وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِثَابَةِ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِقَالَةَ لِسَيِّئِهِمْ .

أَيُّ بَنِي ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةَ . فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجَابِ مَوَدَّتِهَا
بِالْإِنصَافِ لَهَا ، وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعِيَّتِكَ ، وَاجْعَلْ عُمَالَ الْعُدْرِ
وَوُؤَالَةَ الْحَجِجِ مُقَدَّمَةً بَيْنَ يَدَيْ عَمَلِكَ ، وَنَصَفَةً مِنْكَ لِرِعِيَّتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ
كُلِّ بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَلِيَهُ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ
الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُمْ ، فَإِنْ أَحْسَنَ نَحِدَتَ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرْتَ . هُوَلَاءَ عُمَالَ
الْعُدْرِ ، وَوُؤَالَةَ الْحَجِجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ مَا فِي ذَلِكَ إِذَا انْتَشَرَ فِي الْآفَاقِ ، وَسَبَقَ إِلَى
الْأَسْمَاعِ مِنْ انْعِقَادِ أَلْسِنَةِ الْمُرْجِفِينَ ، وَكَبَتْ قُلُوبَ الْحَاسِدِينَ ، وَإِطْفَاءِ نِيرَانِ الْحُرُوبِ ،
وَسَلَامَةِ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَلَا يَنْفَكَنَّ فِي ظِلِّ كِرَامَتِكَ نَازِلًا ، وَبِعُرَا حَبْلِكَ مُتَعَلِّقًا ،
رِجَالَانِ : أَحَدُهُمَا كَرِيمَةٌ مِنْ كِرَامَتِ رِجَالَاتِ الْعَرَبِ ، وَأَعْلَامُ بِيُوتَاتِ الشَّرَفِ ، لَهُ أَدَبٌ
فَاضِلٌ ، وَحِلْمٌ رَاجِحٌ ، وَدِينٌ صَحِيحٌ ، وَالْآخِرُ لَهُ دِينٌ غَيْرُ مَغْمُوزٍ ، وَمَوْضِعٌ غَيْرُ مَدْخُولٍ ،
بَصِيرٌ بِتَقْلِيْبِ الْكَلَامِ ، وَتَصْرِيْفِ الرَّأْيِ ، وَأَنْحَاءِ الْعَرَبِ ، وَوَضْعِ الْكُتُبِ ، عَالِمٌ
بِحَالَاتِ الْحُرُوبِ ، وَتَصَارِيْفِ الْخَطُوبِ ، يَضَعُ آدَابًا نَافِعَةً ، وَأَثَارًا بَاقِيَةً ، مِنْ مَحَاسِنِكَ
وَتَحْسِينِ أَمْرِكَ ، وَتَحْلِيَةِ ذِكْرِكَ ، فَتَسْتَشِيرُهُ فِي حَرْبِكَ ، وَتَدْخُلُهُ فِي أَمْرِكَ ، فَرَجُلٌ
أَصَبَتْهُ كَذَاكَ ، فَهُوَ يَأْوِي إِلَى مَحَلَّتِي ، وَيُرْعَى فِي خُضْرَةِ جَنَانِي ، وَلَا تَدْعُ أَنْ تَخْتَارَ
لَكَ مِنْ فُقَهَاءِ الْبُلْدَانِ ، وَخِيَارِ الْأَمْصَارِ ، أَقْوَامًا يَكُونُونَ جِيرَانِكَ وَسُمَّارِكَ ، وَأَهْلَ

مشاورتك فيما تُورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصدِر ، فِسرٌ على بركة الله ، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يَهْدِي إلى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك .
وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد^(١) .

(العقد الفريد ١ : ٥٧)

٦٨ - ابن عتبة يعزى المهدي ويهنئه

لما توفى المنصور دخل ابن عتبة^(٢) مع الخطباء على المهدي ، فسلم فقال :
« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فما مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عُقبي أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فأقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٠٣ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٦٩ - يعقوب بن داود يستعطف المهدي

لما سخط المهدي على وزيره يعقوب بن داود^(٣) أحضره ، فقال : يا يعقوب ، قال : كَبَّيك يا أمير المؤمنين ، تَلْبِيَةَ مَكْرُوبٍ لِمَوْجِدَتِكَ ، شَرِقَ بَغُصَّتِكَ ، قال :

(١) ملاحظة : أقول : وهذا يناق ما ورد في التاريخ : إذ المعروف أن المهدي توفى في المحرم سنة ١٦٩ وأقبله الهادي ، الذي توفى في ربيع الأول سنة ١٧٠ ، فكيف يكون تاريخ كتابة هذه المشاورة هو ربيع الآخر سنة ١٧٠ أي بعد وفاة المهدي والهادي ، مع أنه ذكر في سياق خبرها أن المهدي أمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالاتهم في كتاب ، أي أنها كتبت في المجلس الذي حدثت فيه المشاورة . والله ادرى في التاريخ أيضا أن الهادي خرج إلى جرجان سنة ١٦٦ و ١٦٧ (راجع تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٧ - ٨) اللهم إلا أن يقال إنها كتبت في مجلس المشاورة ، وبقيت محفوظة لدى كاتبها ، حتى نشرت للناس في ربيع الآخر سنة ١٧٠ أي أن ذلك التاريخ هو تاريخ كتابتها لإعلانها للجمهور ، عل أننا نتشكك فيما من وجهة أخرى ، وذلك لما نراه عليها من ملاحظة الكتابة الفنية المنصقة .

(٢) وفي العقد الفريد « أبو العيناء المحدث » .

(٣) وكان المهدي قد فوض إليه الأمور كلها ، وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، ثم سخط عليه . وسبب ذلك أنه دفع إليه رجلا من العلويين ، وقال له : أحب أن تكفيني أمره ، فلما صار العلوي =

« ألم أرفع قدرك وأنت حامل ، وأسيرٌ ذكرك وأنت هامل ، وألبستك من نعم الله تعالى
وَنِعْمَى مَا لَمْ أَجِدْ عِنْدَكَ طَاقَةً لِحَمَلِهِ ، وَلَا قِيَامًا بِشُكْرِهِ ؟ فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهُ تَعَالَى
أَظْهَرَ^(١) عَلَيْكَ ، وَرَدَّ كَيْدَكَ إِلَيْكَ ! » .

قال : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت قلت هذا بتيقن وعلم فإني معترف ، وإن كان
بسعاية الباغين ، ونمائم المعاندين ، فأنت أعلمُ بأكثرها ، وأنا عائذٌ بكرمك ،
وعميم شرفك » .

فقال : لولا الحنث^(٢) في دمك لألبستك قميصاً لاتشد عليه أزراراً ، ثم أمر به إلى
السجن ، فتولى وهو يقول : « الوفاء يا أمير المؤمنين كرم ، والمودة رحيم ، وما على
العفو ندم ، وأنت بالعفو جدير ، وبالمحاسن خَلِيق » ، فأقام في السجن إلى أن أخرجه
الرشيد . (زهر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٧٠ - رجل من أهل خراسان يخطب بحضرة المهدي

وقَدِمَ عَلَى المَهْدِيِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ خِرَاسَانَ ، فَقَالَ : « أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
إِنَّا قَوْمٌ نَأْيُنَا عَنِ الْعَرَبِ ، وَشَغَلْتَنَا الْحُرُوبُ عَنِ الْخُطْبِ ، وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَعْلَمُ طَاعَتَنَا ،
وَمَا فِيهِ مَصْلَحَتُنَا ، فَيَكْتَفِي مِنَّا بِالْيَسِيرِ عَنِ الْكَثِيرِ ، وَيَقْتَصِرُ عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ ، دُونَ
التفسير » ، فقال المهدي : أنت أخطب من سمعته . (الصناعتين ص ٤٠)

— في يده ، قال له : يا يعقوب تلق الله بدمي ، وأنا ابن علي بن أبي طالب ، وابن فاطمة رضي الله عنها ، وليس
لك إليك ذنب ؟ فرق له ، واخل سبيله ، ونمى الخبر إلى المهدي ، فأرسل في طلب العلوي حتى ظفر به ،
واستدعى يعقوب ، فقال : ما فعلت بالعلوي ؟ قال : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال :
نعم ، فاستحلفه ، فحلف له ، فأخرج إليه للعلوي ، فلم يجر جواباً ، فأمر بهجسه في بئر مظلمة ، وما زال
محبوساً حتى عفا عنه الرشيد وتوفي سنة ١٨٦ هـ . (١) أي أعان عليك .

(٢) في الأصل « الحنث » وأرى أنها محرقة عن « الحنث » وهو الذنب العظيم والإثم .

٧١ - مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي

دخل صالح بن عبد الجليل على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم فقال :

« إنه لما سهل علينا ما توعدنا على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإظهار باني أعناقنا من فريضة الأمر والنهي ، عند انقطاع عُذر الكتمان ، ولا سبباً حين اتَّسَمَتْ بِمِيسَمِ التواضع ، ووعدت الله وَحَمَلَةَ كِتَابِهِ إِيْثَارَ الْحَقِّ عَلَى مَا سِوَاهُ ، فَجَمَعْنَا وَإِيَّاكَ مُشْهَدٌ مِنْ مَشَاهِدِ التَّمْحِيصِ ، لِيَتِمَّ مُؤَدِّيْنَا عَلَى مَوْعُودِ الْأَدَاءِ عَنْهُمْ ، وَقَابِلُنَا عَلَى مَوْعُودِ الْقَبُولِ ، أَوْ يَزِيدَنَا تَمْحِيصُ اللَّهِ إِيَانَا فِي اخْتِلَافِ السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَيُحَلِّقُنَا حِلْيَةَ الْكَذَّابِينَ ، فَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُونَ : « مَنْ حَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ الْعِلْمَ ، عَذَّبَهُ عَلَى الْجَهْلِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمَ وَأَدْبَرَ عَنْهُ ، وَمَنْ أَهْدَى اللَّهُ إِلَيْهِ عِلْمًا فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ ، فَقَدْ رَغِبَ عَنْ هَدْيَةِ اللَّهِ وَقَصَّرَ بِهَا » ، فَأَقْبَلُ مَا أَهْدَى اللَّهُ إِلَيْكَ مِنْ أَسْنَتِنَا ، قَبُولَ تَحْقِيقِ وَعَمَلِ لَا قَبُولَ سَمْعٍ وَرِيَاءٍ ، فَإِنَّهُ لَا يَعْدَمُكَ مِنْ إِعْلَامٍ لِمَا تَجْهَلُ ، أَوْ مُوَاطَاةَ عَلَى مَا تَعْلَمُ ، أَوْ تَذْكَيرَ لَكَ مِنْ غَفْلَةٍ ، فَقَدْ وَطَّنَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَزْوِلِهَا ، تَعْزِيَةً عَمَّا فَاتَ ، وَتَمْحِيصًا مِنَ التَّمَادِي ، وَدَلَالَةً عَلَى الْمَخْرَجِ ، فَقَالَ : « وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وَأَطْلِعِ اللَّهَ عَلَى قَابِكَ ، بِمَا يَنْوِّرُ اللَّهُ بِهِ الْقُلُوبَ ، مِنْ إِيْثَارِ الْحَقِّ ، وَمُنَابَذَةِ الْأَهْوَاءِ ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ يُرْ أَرْكَ وَأَثُرُ اللَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

(المعتمد الفريد ١ : ٣٠٣ ، رعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٨١)

٧٢ - عظة شبيب بن شيبه للمهدى

وقال شبيب بن شيبه^(١) للمهدى : « يا أمير المؤمنين ، إن الله إذ قَسَمَ الأقسام في الدنيا ، جعل لك أسنأها وأعلاها ، فلا ترض لنفسك من الآخرة ، إلا مثل ما رضى لك به من الدنيا ، فأوصيك بتقوى الله ، فعليكم نزلت ، ومنكم أخذت ، وإليكم تُردّ . »
(العقد الفريد ١ : ٣٠٧)

٧٣ - خطبته في تعزية المهدي بابنته

لما ماتت البانوقة بنت المهدي ، جَزَع عليها جزعاً لم يُسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يُحجَب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازي ، واجتهدوا في البلاغة ، وفي الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ، ولا أبلغ ، من تعزية شبيب بن شيبه ، فإنه قال :
« أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزيت أجراً ، وأعقبك صبراً ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ، ولا نزع منك نعمة ، ثوابُ الله خيرٌ لك منها ، ورحمة الله خير لها منك وأحقُّ ما صبرَ عليه مالا سبيل إلى رده^(١) . »
(تاريخ الطبري ١٠ : ٢١)

٧٤ - خطبة أخرى له في مدح الخليفة

قيل لبعض الخلفاء إن شبيب بن شيبه يستعمل الكلام ويستعدله ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فحاجة لرجوت أن يفتضح ، فأمر رسولا فأخذ بيده إلى المسجد فلم يفارقه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم حق الصلاة عليه ، ثم قال :

(١) هو شبيب بن شيبه بن عبد الله بن عمرو بن الأهم المنقري التميمي وهو ابن عم خالد بن صفوان .
توفي في حدود سنة ١٧٠ هـ .
(٢) روى صاحب العقد أن شيبا عزي بهذا المقال المنصور على أخته أبي العباس (العقد الفريد ٢ : ٣٥) .

« ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة : الأسد الخادر^(١) ، والبحر الزاخر ، والقمر الياهر ، والربيع الناضر ؛ فأما الأسد الخادر : فأشبهه منه صولته وَمَضَاءَهُ ؛ وأما البحر الزاخر : فأشبهه منه جوده وعطاءه ؛ وأما القمر الباهر : فأشبهه منه نوره وَضِيَاءَهُ ؛ وأما الربيع الناضر : فأشبهه منه حسنه وبهاءه ، ثم نزل وأنشأ يقول :

وموقفٍ مثل حدِّ السيف قمتُ به أحمي الذمار وترميني به الحدق^(٢)
فما زلقت ، وما ألقيت كاذبةً إذا الرجال على أمثاله زلقوا

(المعجم الفريد ٢ : ١٥٨ ، ١ : ١٣٨ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

٧٥ - كلمات لشبيب بن شذبة

وقال شبيب : « اطاب الأدب ، فإنه دليل على المروءة ، وزيادة في العقل ، وصاحب في العربة ، وصلة في المجلس . »

وقال للهدي يوماً : « أراك الله في بنيك ، ما أرى أباك فيك ، وأرى الله بنيك فيك ، ما أراك في أبيك . » (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وخرج من دار الخلافة يوماً ، فقال له قائل : كيف رأيت الناس ؟ قال : « رأيت الداخل راجياً ، والخارج راضياً . »

(البيان والتبيين ١ : ١٩٠ ، زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٧٦ - خطبة يوسف بن القاسم بن صديح الكاتب

يوم ولي الرشيد الخلافة

روى الطبري قال : لما كانت الليلة التي توفي فيها موسى الهادي ، أخرج هرثمة ابن أعين هرون الرشيد ليلاً ، فأقعدته للخلافة ، فدعا هرون يحيى بن خالد بن برمك

(١) الخدر : أجرة الأسد ومنه يقال أسد خادر ، وأخدر الأسد : لزم الأجرة . وأخدر العرين الأسد : ستره فهو مخدر بكسر الدال وفتحها . (٢) الذمار : ما تجب حمايته .

- وكان محبوساً - وقد كان عزم موسى على قتله ، وقتل هرون الرشيد في تلك الليلة^(١) فحضر يحيى ، وتقلد الوزارة ، ووجه إلى يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب ، فأحضره وأمره بإنشاء الكتب ، فلما كان غداة تلك الليلة وحضر القواد ، قام يوسف ابن القاسم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« إن الله بمنه ولطفه ، من عايكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ، ومعدن الرسالة ، وإياكم أهل الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة ، من نعمه التي لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضي مدى الأبد ، وأيديه التامة ، أن جمع ألفتكم ، وأعلى أمركم ، وشد عضدكم ، وأوهن عدوكم ، وأظهر كلمة الحق ، وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضى ، والذابين بسيفه المنتضى ، عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، إوبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور ، والناقضين عهد الله ، والسافكين الدم الحرام ، والآكلين الفىء والمستأثرين به ، فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة ، واحذروا أن تغيروا فيغيروا بكم ، وإن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادى الإمام ، فقبضه إليه ، وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين بكم رهوفاً رحياً ، من محسنكم قبولاً ، وعلى مسيئكم بالعفو عطفواً ، وهو - أمتعته الله بالنعمة ، وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولاه بما تولى به أوليائه وأهل طاعته - بئدكم من نفسه الرأفة بكم ، والرحمة لكم ، وقسم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم ، ويبدل لكم من الجائزة ، مما أفاء الله على الخلفاء ، مما فى بيوت المال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً ، غير مقاض لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم وحاملاً باقى ذلك للدفع عن حريمكم ، وما لعله أن يحدث فى النواحي والأقطار من

(١) وكان الهادى يريد أن يجعل الخلافة فى ابنه جعفر ، ويخلف أخاه هارون . وسعى إلى الهادى يحيى ابن خالد ، وقيل له إنه ليس عليك من هرون خلاف ، وإنما يفحصه يحيى بن خالد ، فأغضب ذلك موسى الهادى على يحيى وأمر بهبسه .

العصاة المارقين ، إلى بيوت الأموال ، حتى تعود الأموال إلى جوامها^(١) وكثرتها ،
والحال التي كانت عليها ، فاحمدوا الله وجددوا شكراً يُوجب لكم المزيد من
إحسانه إليكم ، بما جدّد لكم من رأى أمير المؤمنين ، وتفضل به عليكم ، أيده الله
بطاعته ، وارغبوا إلى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامة النعماء ، لعلكم ترحمون ،
وأعطوا صفة أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عايكم ، وأصلح بكم
وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباده الصالحين . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٤٨)

٧٧ - خطبة هرون الرشيد (توفى سنة ١٩٣ هـ)

« الحمد لله حمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ،
ونؤمن به حقاً ، ونتوكل عليه ، مفوضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس^(٢)
من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، بشيراً بالنعم المقيم ، ونذيراً بين
يدى عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله ، فأدى عن الله وعده
ووعيده ، حتى أتاه اليقين ، فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف
الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاة من النار ، وأحذركم يوماً تشخص^(٣) فيه الأبصار ،
وتعلن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التغابن^(٤) ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ،
يوم لا يستغتب من سيئة ، ولا يزداد من حسنة ، يوم الآزفة^(٥) ، إذ القلوب لدى
المناجر كاطمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين^(٦)

(١) كثرتها . (٢) دروس : انحاء . (٣) شخص بصره كنع : فتح عينيه ، وجعل لا يهتد .

(٤) يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أهل الجنة تغيب فيه أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة أو آمنوا .

(٥) الآزفة ، من أرف كفرح : دنا وقرب . (٦) مشارقتها للنظر إلى المحرم .

وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

عباد الله : إنكم لم تُخلَقُوا عبثاً ، ولن تُتْرَكَوا سُدًى ، حصَّنوا إيمانكم بالأمانة ،
ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له » .
إنكم سَفَرٌ^(۱) مجتازون ، وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا
إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذِكره
أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمُنِيبين . قال الله عز وجل وقوله
الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَاسَأْ كُتُبَهُمُ الَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ،
وقال : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وإياكم والأمانى ،
فقد غرَّت وأردت^(۲) ، وأوبقت كثيراً ، حتى أ كذبتهم منايهم ، فتناوشوا^(۳)
التوبة من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، فأخبركم ربكم عن المثلث فيهم
وصرف الآيات ، وضرب الأمثال ، فرغب بالوعد ، وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم
وقائعهم بالقرون الخوالي جِيلاً فجيلاً ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر ،
باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن بين أظهركم ، لاندفعون عنهم ، ولا تحولون
دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند
المواقف والحساب والعقاب ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ؛ يقول الله عز وجل
« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أعوذ بالله من
الشیطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

(۱) جماعة المسافرين . (۲) اهلكت وكذا اوبقت . (۳) تناولوا .

الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد . أمركم بما أمركم الله به ،
وأنها كم عما نهاكم عنه ، وأستغفر الله لي ولكم . (المقد الفريد ٢ : ١٤٧)

٧٨ - وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين

ووصى الرشيد مؤدب ولده الأمين ، فقال :

« يَا أَحْمَرُ^(١) ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مَهْجَةَ نفسه ، وَثَمَرَةَ قلبه ، فصير
يدك عليه مبسوطةً ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ،
أقرنه القرآن ، وعرفه الأخبار ، ورؤه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام
وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا
عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجاسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتم
فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه ، فتميت ذهنه ، ولا تمنع في مساحته ، فيستحلي
الفراغ وبالفقه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

(مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢)

٧٩ - خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي (قتل سنة ١٨٧ هـ)

وهاجت العصبية بالشأم بين أهلها في عهد الرشيد (سنة ١٨٠ هـ) وتفاقم أمرها ،
فاغتم لذلك الرشيد ، وعقد لجعفر بن يحيى على الشأم ، وقال له : إما أن تخرج أنت
أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أقيك بنفسى ، فشخص في جيلة القواد والكراع
والسلاح ، فأتاهم فأصاح بينهم ، وقتل زواقيلهم^(٢) والمتلصصة منهم ، ولم يدع بها رجلاً
ولا فرساً ، فعادوا إلى الأمن والطمانينة ، وأطفأ تلك النائرة .

(١) هو هل بن المبارك الأحمر صاحب الكسائي ، وكان يؤدب الأمين ، وكان مشهوراً بالنحو واتساع

الحفظ ، ومات سنة ٢٠٦ ، أو سنة ٢٠٧ . انظر ترجمته في « نزهة الألبا في طبقات الأدبا » ص ١٢٥ .

(٢) الزواقيل : الصيوس .

فلما قَدِمَ على الرشيد دخل عليه ، فقبَّل يديه ورجليه ، ثم مثل بين يديه ، فقال :
 « الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنسَ وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحمَ نَصْرَتِي ،
 وأنسا^(۱) في أجلي ، حتى أراني وجه سيدي ، وأكرمني بقربه ، وأمتنَّ عليَّ بتقبيل يده ،
 وردَّني إلى خدمته ، فوالله إن كنت لأذكر غيبتى عنه ، ومخرَجى والمقادير التي
 أزعجتني ، فأعلم أنها كانت بمعاصي لحقتني ، وخطايا أحاطت بي ، ولو طال مقامى عنك
 يا أمير المؤمنين - جعلنى الله فذاك - لخفتُ أن يذهب عطفى ، إشفاقاً على قربك ،
 وأسفاً على فراقك ، وأن يعجل بي عن إذتك الاشتياقُ إلى رؤيتك ، والحمد لله الذي
 عصمنى في حال الغيبة ، وأمتنى بالعافية ، وعرفنى بالإجابة ، ومَسَّكنى بالطاعة ، وحال
 بينى وبين استعمال المعصية ، فلم أشخص إلا عن رأيك ، ولم أقدم إلا عن إذتك وأمرك
 ولم يحترمني أجلٌ دونك ، والله يا أمير المؤمنين - فلا أعظم من اليمين بالله - لقد عاينتُ
 ما لو تُعرض لى الدنيا كلها ، لاخترتُ عليها قربك ، ولما رأيتها عوَضاً من
 المقام معك . »

ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام :

« إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليكَ^(۲) في خلافتك ، بقدر ما يعلم من نيتك ،
 ويريك في رعيته غاية أمنيته ، فيُصلِّح لك جماعتهم ، ويجمع ألفتهم ، ويَلْمُ شعَثهم ،
 حفظاً لك فيهم ، ورحمة لهم ، وإنما هذا للتمسك بطاعتك ، والاعتصام بحبل مرَّضاتك ،
 والله الحمودُ على ذلك وهو مُستَحِقُّه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهلَ كورِ الشام
 وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرَّط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ،
 نازلون على حُكْمِكَ ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤمِّلون فضلك ، آمِنون
 بادرته ، حالهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم

(۲) ينعم عليك .

(۱) آخر .

كانت في امتناعهم ، وَعَفُو أمير المؤمنين عنهم ، وَتَغَمُّدُهُ^(۱) لهم ، سابقٌ لِعَذْرَتِهِمْ ،
 وَصَلَةُ أمير المؤمنين لهم ، وَعَظْفُهُ عَلَيْهِمْ ، متقدِّمٌ عنده لسألتهم ، وَإِيْمَ اللهُ يَا أمير المؤمنين
 لئن كُنْتُ قد شَخَّصْتُ عنهم ، وَقَدْ أَخَذَ اللهُ شِرَارَهُمْ ، وَأَطْفَأَ نَارَهُمْ ، وَنَفَى مُرَاقِبَهُمْ^(۲) ،
 وَأَصْلَحَ دَهْمَهُمْ^(۳) ، وَأَوْلَانِي الْجَمِيلَ فِيهِمْ ، وَرَزَقَنِي الْإِنْتِصَارَ مِنْهُمْ ، فما ذلك كله :
 إِلَّا بِبِرْكَتِكَ وَبُرْحَمَتِكَ^(۴) ، وَدَوَامِ دَوْلَتِكَ السَّعِيدَةِ الْمِيْمُونَةِ الدَّائِمَةِ ، وَتَخَوُّفِهِمْ
 مِنْكَ ، وَرَجَائِهِمْ لَكَ . وَاللهُ يَا أمير المؤمنين ما تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِوَصِيَّتِكَ ، وَمَا عَامَلْتَهُمْ
 إِلَّا بِأَمْرِكَ ، وَلَا سِرَّتُ فِيهِمْ إِلَّا عَلَى حَدِّ مَا مَثَّلْتَهُ لِي وَرَسَمْتَهُ ، وَوَقَّفْتَنِي عَلَيْهِ ، وَوَاللهِ
 مَا انْقَادُوا إِلَّا لِإِدْعَاؤِكَ ، وَتَوَحُّدِ^(۵) اللهُ بِالصَّنْعِ لَكَ ، وَتَخَوُّفِهِمْ مِنْ سَطْوَتِكَ . وَمَا كَانَ
 الَّذِي كَانَ مِنِّي ، وَإِنْ كُنْتُ قد بذلتُ جَهْدِي ، وَبَلَغْتُ مَجْهُودِي ، قَاضِيَا بَعْضَ حَقِّكَ
 عَلَيَّ ، بَلْ مَا أَزْدَادَتْ نِعْمَتَكَ عَلَيَّ عِظْمًا ، إِلَّا أَزْدَدْتُ عَنْ شُكْرِكَ مَعْجَزًا وَضَعْفًا ،
 وَمَا خَلَقَ اللهُ أَحَدًا مِنْ رَعِيَّتِكَ ، أَبْعَدَ مِنْ أَنْ يُطِيعَ نَفْسَهُ فِي قِضَاءِ حَقِّكَ مِنِّي ،
 وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أكونَ بِأَذَلِّ مُهْجَتِي فِي طَاعَتِكَ ، وَكُلِّ مَا يَقْرُبُ إِلَيَّ مُوَافَقَتِكَ ،
 وَلَكِنِّي أَعْرِفُ مِنْ أَيْدِيكَ عِنْدِي مَا لَا أَعْرِفُ مِثْلَهَا عِنْدَ غَيْرِي ، فَكَيْفَ بِشُكْرِي !
 وَقَدْ أَصْبَحْتُ وَاحِدَ أَهْلِ دَهْرِي ، فَمَا صَنَعْتَهُ فِيَّ ؟ وَبِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي ! وَإِنَّمَا
 أَقْوَى عَلَى شُكْرِكَ يَا كَرَامَكَ إِيَّايَ ؟ ، وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَلَوْ جَعَلَ اللهُ شُكْرِي
 فِي إِحْصَاءِ مَا أَوْلَيْتَنِي ، لَمْ يَأْتِ عَلَى ذَلِكَ عَدِّي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ كَهْفِي دُونَ
 كُلِّ كَهْفٍ لِي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ لَا تَرْضَى لِي مَا أَرْضَاهُ لِي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي !
 وَأَنْتَ تَجِدُّدُ مِنْ نِعْمَتِكَ عِنْدِي مَا يَسْتَفْرُقُ كُلَّ مَا سَأَفُ عِنْدَكَ لِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي !
 وَأَنْتَ تُنْسِينِي مَا تَقْدَمُ مِنْ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، بِمَا تُجَدِّدُهُ لِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي ؟ وَأَنْتَ

(۱) تغمده الله برحمته : غمزه بها . (۲) جمع مارق : وهو الخارج الحاذق .

(۳) الدهماء : جماعة الناس . (۴) قوتك .

(۵) توحد الله تعالى بمصمته : عصمه ولم يكله إن غمزه .

تَقَدَّمَنِي بِطَوْلِكَ عَلَى جَمِيعِ أَكْفَائِي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ وَلِيِّي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ الْمَكْرَمُ لِي؟ وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي رَزَقَنِي ذَلِكَ مِنْكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَهُ إِذْ كَانَ الشُّكْرُ مَقْصُوراً عَنْ بُلُوغِ تَأْدِيَةِ بَعْضِهِ، بَلْ دُونَ شِقْصٍ^(١) مِنْ عَشْرِ عَشِيرِهِ - أَنْ يَتَوَلَّى مَكَافَأَتَكَ عَنِّي، بِنَا هُوَ أَوْسَعُ لَهُ وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَقْضِيَ عَنِّي حَقَّكَ، وَجَلِيلَ مَنَّتِكَ، فَإِنْ ذَلِكَ بِيَدِهِ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ.» (تاريخ الطبري ١٠ : ٦٦)

٨٠ - استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشيد

روى صاحب العقد قال :

« كانت أم جعفر بن يحيى^(٢) - وهي فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة - أرضعت الرشيد مع جعفر ، لأنه كان رُبِّي في حِجْرِهَا ، وَغُدِّي بِرِسْلِهَا^(٣) ، لَأَنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ عَنْ مَهْدِهِ ، فَكَانَ الرَّشِيدُ يَشَاوِرُهَا مُظْهِراً لِأَكْرَامِهَا ، وَالتَّبَرُّكَ بِرَأْيِهَا ، وَكَانَ آوِي وَهُوَ فِي كِفَالَتِهَا أَنْ لَا يَحْجُبُهَا ، وَلَا اسْتَشْفَعَتْهُ لِأَحَدٍ إِلَّا شَفَعَهَا ، وَآلَتْ عَلَيْهِ أُمُّ جَعْفَرٍ أَنْ لَا دَخَلَ عَلَيْهِ إِلَّا مَأْذُوناً لَهَا ، وَلَا شَفَعَتْ لِأَحَدٍ مَقْتَرِفٍ ذَنْباً ، فَكَمِ أُسِيرٍ فَكَّتْ وَمُجَبِّهٍ عِنْدَهُ فَتَحَّتْ ، وَمَسْتَغْلِقٍ مِنْهُ فَرَّجَتْ ، وَاحْتَجَبَ الرَّشِيدُ بَعْدَ قَدُومِهِ^(٤) ، فَطَلَبَتْ الْإِذْنَ عَلَيْهِ مِنْ دَارِ الْبَاقُونَةِ ، وَمَتَّتْ^(٥) بِوَسَائِلِهَا إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَأْذِنْ لَهَا ، وَلَا أَمَرَ بِشَيْءٍ فِيهَا ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ بِهَا خَرَجَتْ كَاشِفاً وَجْهَهَا ، وَاضعةً لِثَامِهَا ، مُحْتَفِيَةً^(٦) فِي مَشِيئِهَا ، حَتَّى صَارَتْ بِيَابِ قِصْرِ الرَّشِيدِ ، فَدَخَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْفَضْلِ الْحَاجِبَ ،

(١) الشقص : السهم والنصيب ، والعشير : جزء من عشرة كالمعشار والعشر .

(٢) كان البرامكة قد امتأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في ماله ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها - وحديثهم في ذلك طويل ، ليس هاهنا موضعه - فمزم على نكبتهم ، حتى انتهز فرصة رجوعهم من الحج سنة ١٨٧ : فقتل جعفرًا الهلالي طريقه ، وقبض على يحيى وابنه الفضل ورقية البرامكة ، وحبسهم في سجن الزنادقة إلى أن ماتوا فيه ، واستنصقوا وأولموا وضيأهم . (٣) الرسل : اللبن .

(٤) أي من الحج . (٥) توسلت . (٦) احتق : شئ حافياً .

فقال : ظئراً^(١) أمير المؤمنين بالباب ، في حالة تقلب شمانة الحاسد ، إلى شفقة أم الواحد ؛ فقال الرشيد : وَيَحْك يا عبد الملك ! أو ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية . قال : أَدْخِلْهَا يا عبد الملك ، فَرُبَّ كَبِدٍ غَدَّتْهَا ، وَكُرْبَةٌ فَرَجَّتْهَا ، وَعَوْرَةٌ سَتَرَتْهَا ، فدخلت ، فلما نظر الرشيد إليها داخلةً محتفيةً ، قام محتفياً حتى تلقاها بين عمدة المجلس وأكبَّ على تقبيل رأسها ، ومواضع ثدييها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين أَيْعَدُو عَلَيْنَا الزمان ، وَيَجْفُونَا خَوْفًا لِكَ الْأَعْوَانِ ، وَيُخْرِدُكَ^(٢) بنا البهتان ، وقد رببتك في حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ، قالت : ظئرك يحيى ، وأبوك بعد أيبك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين ، من نصيحتته ، وإشفاقه عليه ، وتعرضه للاحتف في شأن موسى أخيه^(٣) ، قال لها : يا أم الرشيد ، أمرٌ سبق ، وقضاء حم^(٤) ، وغضبٌ من الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين « يَمْجُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٥) » قال : صدقت فهذا مما لم يَمْجُهُ اللهُ ، فقالت : الغيب محبوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد ملياً ، ثم قال :

(١) الظئر : العاطفة على ولد غيرها ، المرصعة له ، في الناس وغيرهم ، للذكر وللأنثى .
 (٢) يفضبك . (٣) قدمنا أن الهادي كان اهتزم خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد ، واستخلاف ابنه جعفر ، وقد سعى إلى الهادي بيحيى بن خالد ، وأنه يفسد عليه أخاه الرشيد . فحبسه وهم بقتله . ويروى أنه قال للهادي في خلع الرشيد لما كلمه فيه : « يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أركد لبيعتهم » فقال : صدقت ونصحت ، ولما في هذا تدبير ، ولما أمر بحبسه رفع إليه يحيى رقعة : إن عندي نصيحة ، فدعا به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخلنى ، فأخلاه ، فقال : يا أمير المؤمنين . أرايت إن كان الأمر - أسأل الله إلا نبلغه ، وأن يقدمنا قبله - أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزورهم ؟ قال : والله ما أظن ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسموا إليها أهلك ، وجلتهم مثل فلان وفلان ، ويطلع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أيبك ؟ فقال له : فبهتني يا يحيى ، وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ؟ أما كان ينبغي أن تعقده له ؟ فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقده المهدي له ؟ ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا باع جعفر وبلغ الله به ، أتيت بالرشيد فخلع نفسه ، وكان أول من يبایعه ويعطيه صفقة يده ، قيل فقبل الهادي قوله ورايه وأمر بإطلاقه . (٤) حم : قدر . (٥) أم الكتاب : أصله ، أو اللوح المحفوظ .

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألقيت كل تميمه لاتنفع^(١)

فقلت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمه يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول^(٢) :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل « وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ » . فأطرق هرون ملياً ، ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقلت : يا أمير المؤمنين وأقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانظر أى كف تبدل^(٣)

قال هرون : رضيت ، قالت : فهبه لى يا أمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئاً لله ، لم يُوجده^(٤) الله لفقده » فأكب هرون ملياً ،

ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قالت : يا أمير المؤمنين

« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

واذ كر يا أمير المؤمنين أليتك^(٥) ما استشفعت إلا شفعتنى . قال : واذا كرى

يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً ، فلما رآته صرح بمنعها ، ولاذ^(٦) عن

مطلبها ، أخرجت حقاً من زمرودة^(٧) خضراء ، فوضعت بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟

ففتحت عنه قفلاً من ذهب ؛ فأخرجت منه خفضته^(٨) وذوائبه وثناياه ، قد غمست

جميع ذلك في المسك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ،

(١) التمام جمع تميمه : وهي العوذة التي تعلق على الصبي دفماً لعين ، أو المرض والبيت لأبي ذؤيب الخذلى .

(٢) هو الأخطال . (٣) هذا البيت والذي تباه من قصيدة لمن بن أوس المزني مطلعها :

لممرك ما أدرى ، وإني لأوجل على أينما تمسوا المنية أول ؟

(٤) أى يحزونه . (٥) الآية : القسم . (٦) أى لم يجبه . (٧) الزمرد والزمرد بالبدال

والذال . (٨) خفض الجارية كضرب خفضاً ، وهو كالحتان للغلام ، وقيل : خفض الصبي خفته ،

فاستعمل في الرجل ، والأهرف أن الخفض للمرأة والحتان للصبي ، يقال للجارية خفضت ، وللغلام حتن .

وبما صار معي من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيي عبدك ، فأخذ هرون ذلك فليثمه ، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومرت البشير إلى يحيى ، وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه ، فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق ، وقال لها : لَحَسَنٌ مَا حَفِظْتَ الْوَدِيعَةَ ، قالت : وأهلٌ لكافأة أنت يا أمير المؤمنين ، فسكت وأقبل الحق ، ودفعه إليها ، وقال : « إِنَّ اللَّهَ يَا مُرُومُ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » قالت : والله يقول : « وَإِذَا حَكَّمْتُمُ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » ويقول : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ » ، ثم قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : أو ما أقسمت لي به ألا تحجبني ولا تتمهني^(١) ؟ قال : أحب يا أم الرشيد أن نشتره محكمة فيه . قالت : أنصفت يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت غير مستقيمة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عنم لم يسخطك ، قال : يا أم الرشيد أمالي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت : بلى يا أمير المؤمنين ، أنت أعز علي ، وهم أحب إلي . قال : فتحكمي في تمنية بغيرهم ، قالت : بلى قد وهبتك ، وجعلتك في حل منه ، وقامت عنه ، وبقي مبهوتاً ما ينجير^(٢) لفظه « .

(العقد الفريد ٣ : ٢٣)

٨١ - خطبة يزيد بن يزيد الشيباني

لما رضى الرشيد عن يزيد بن يزيد^(٣) أذن له بالدخول عليه ، فلما مثل بين يديه قال : « يا أمير المؤمنين ، الحمد لله الذي سهل لي سبيل الكرامة بلقائك ، ورد علي »

(١) أمته : ابتذله .

(٢) ينجير : يرد . (٣) وذلك أن الوليد بن طريف الشاري خرج في عهد الرشيد بالجزيرة ، واشتدت شوكة وكثر تبعه سنة ١٧٩ هـ فوجه إليه الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني ، فجعل يخاتله وبما كره ، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد ، فأغروا به الرشيد ، وقالوا : إنما يتجاني عنه لرحم (لأنه شيباني مثله) وإلا فشوكة للوليد يسيرة وهو يواعده ، وينتظر ما يكون من أمره ، فوجه إليه الرشيد كتاب مغضب ، يقول فيه : لو وجهت بأحد الخدم لقم بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب ، وأمير المؤمنين يقسم بالله أن أخرت مناجزة

النعمة بوجه الرضا منك ، وكشف عنى ضبابة الكرب بإفضالك ، وجزاك الله
يا أمير المؤمنين في حال سُخْطِكَ جزاءً المحسنين المراقبين ، وفي حال رضاك جزاءً المنعمين
المتنين المتطولين ، فقد جعلك الله - وله الحمد - تَثَبَّتْ^(١) تَحْرُجًا عند الغضب ، وتمتُّ
تَطَوُّلاً بالنعم ، وتستبقي المعروف عند الصنائع^(٢) تفضلاً بالعفو .

(العقد الفريد ١ : ١٤١ ، وتاريخ الطبري ١٠ : ١١٧ وزهر للأدب ٢ : ٢٨٧)

٨٢ - خطبة عبد الملك بن صالح^(٣) (توفي سنة ١٩٦ هـ)

أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى
قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » ؟ يَا أَهْلَ الشَّامِ ، إن الله وصف إخوانكم في الدين ، وأشباهكم في الأجسام
فحذرهم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ،
وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ،
هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ ، قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » ؟ فقاتلكم الله أني تُصْرَفُونَ ؟
جُثُّ مَائِلَةٌ ، وقلوبٌ طَائِرَةٌ ، تُشَبُّونَ^(٤) الفتن ، وتولون الدُّبُرَ ، إِلَّا عَنِ حَرَمِ اللَّهِ
فَإِنَّهُ دَرِيئَتُكُمْ^(٥) ، وحرَمَ رسوله ، فإنه مغزَاكم ، أَمَا وَحُرْمَةُ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ لَتَنْفِرُنَّ
خِيفًا وَثِقَالًا ، أَوْ لِأَوْسَعِنَكُمْ إِرْغَامًا وَنَكَالًا . » (العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

الوايد ، ابوجهن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين ه ثم حمل يزيد على الوليد فقتله وبعث برأسه إلى
الرشيد ، فلما انصرف يزيد بالظفر ، حجب برأى البرامكة ، وأظهر الرشيد السخط عليه ، فقال : وحق
أمير المؤمنين لأصيفن وأشتون على فرسي أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك فأذن له فدخل ، فلما رآه الرشيد
ضحك وسر ، وأقبل يصيح مرحباً بالأعرابي ، حتى دخل وأجلس وأكرم وصرف بلاؤه ونقاء صدره
(راجع أخباره في الأغانى ١١ : ٨ ، وابن خلكان ٢ : ٢٨٣ ، والطبري ١٠ : ٦٥) .

(١) وفي رواية الطبري « تنيب » . (٢) وفي الطبري : « وتعفو عن المسيء » .

(٣) هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولي للرشيد بلاد الجزيرة وللشام وغيرها .

(٤) توقدون . (٥) الدريعة : الحلاقة يتعلم الطمن والرمي عليها .

۸۳ - عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنته

ودخل عبد الملك بن صالح دار الرشيد ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له ، ووُلد له آخر ، فلما دخل عليه قال : « سَرَّكَ اللهُ يا أمير المؤمنين فيما ساءَكَ ، ولا ساءَكَ فيما سَرَّكَ ، وجعل هذه بهذه ، مَثُوبَةٌ على الصبر ، وَجَزَاءٌ على الشكر » .
(المعتمد الفريد ۲ : ۲۵)

۸۴ - غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح

وَنَصَبَ^(۱) له ابنه « عبد الرحمن » وكتبه « قامة » فسعى به إلى الرشيد ، وقال له : إني يطلب الخلافة ، ويطمع فيها ، فأخذه وحبسه عند الفضل بن الربيع ، وذكروا أنه أدخل على الرشيد حين سَخِطَ عليه ، فقال له الرشيد : أ كُفِرًا بالنعمة ، وَجُحُودًا لَجَلِيلِ الْمِنَّةِ وَالتَّكْرِمَةِ ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، لقد بُوئْتُ^(۲) إذن بالندم ، وتعرضتُ لاستحلال النَّقْمِ ، وما ذاك إلا بغى حاسدٍ ، نأفستى فيك مودة القرابة ، وتقديم الولاية ، إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأمينه على عترته ، لك عليها فرضُ الطاعة وأداءُ النصيحة ، ولها عليك العدلُ في حُكْمِهَا ، والتثبتُ في حَادِثِهَا ، والغفران لذنوبها » ، فقال له الرشيد : « أتضع لي من لسانك ، وترفع لي من جنانك ؟ هذا كاتِبُكَ قامة ، يُخْبِرُ بِغَلِّكَ وفساد نيتك ، فاسمع كلامه » ، فقال عبد الملك : « أعطاك ما ليس في عقده^(۳) ، ولعله لا يقدر أن يَعْضَنِي^(۴) ولا يَبْهَتَنِي بما لم يَعْرِفْهُ مني » ، وَأَحْضِرْ قامة ، فقال له الرشيد : تكلم غير هائب ولا خائف ، قال : « أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك » ،

(۱) عاداه . (۲) رجعت . (۳) أى ما يمتقده .

(۴) عضه كنع : كذب ونم ، وعضه فلانا : بهت وقال فيه ما لم يكن .

فقال عبد الملك: أهو كذلك يا قمامة؟ قال قمامة: نعم، لقد أردت ختل^(١) أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: وكيف لا يكذب عليّ من خلني، وهو يبّهتني في وجهي؟ فقال له الرشيد: « وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعُتُوك، وفساد نيتك، ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك، فبِمَ تدفعهما عنك؟ »، فقال عبد الملك: « هو مأمور، أو عاق مجبور، فإن كان مأموراً: فمعدور، وإن كان عاقاً: ففاجر كفور، أخبر الله عزّ وجلّ بعداوته، وحذر منه بقوله: « إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ »، فبهض الرشيد وهو يقول: « أمّا أمرك فقد وضح، ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضي الله فيك، فإنه الحكم بيني وبينك »، فقال عبد الملك: « رضيت بالله حكماً، وبأمر المؤمنين حاكماً، فإني أعلم أنه يؤثّر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه ».

* * *

فلما كان بعد ذلك جالساً مجلساً آخر، فسلمّ لما دخل، فلم يردّ عليه، فقال عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتج فيه، ولا أجازب منازعاً وخصماً. قال: ولم؟ قال: لأن أوّاه جرى على غير السنّة، فأنا أخاف آخره، قال: وما ذاك؟ قال: لم تردّ علىّ السلام، أنصف نصفة العوام، قال: السلام عليكم اقتداءً بالسنّة، وإيثاراً للعدل، واستعمالاً للتحيّة، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال: وهو يخاطب بكلامه عبد الملك:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد
ثم قال: « أما والله لكأني أنظر إلى شوئبوبها قد همع^(٢)، وعارضها^(٣) قد لمع،

(١) ختله: خدعه. (٢) الشؤبوب: الدفعة من المطر، وهمع: سال وانصب.

(٣) العارض: السحاب المترض في الأفق، والضمير للفتنة المفهومة من سياق الحديث.

وكأني بالوعيد قد أوزى ناراً تطع ، فأقلع عن برّاجم^(١) بلا معاصم ، وروعس
بلا غلاصم^(٢) فمهلاً مهلاً ، فبي والله سهيل لكم الوعر ، وصفاً لكم الكدر ، وألقت
إليكم الأمور أثناء^(٣) أزمته ، فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد ،
لبوط^(٤) بالرجل . فقال عبد الملك : « اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك ، وفي رعيتك
التي استرعاك ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع الثواب ، فقد
نخلت النصيحة ، ونحمت^(٥) لك الطاعة ، وشددت أواخي^(٦) ملكك بأثقل من
ركني يلم^(٧) ، وتركت عدوك مشتغلاً^(٨) ، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه
- بعد أن بلّته^(٩) - بظن أفصح الكتاب لي بعضه^(١٠) ، أو يبغى باغ ينهس^(١١)
اللحم ، ويألغ^(١٢) الدم ، فقد والله سهلت لك الوعر ، وذلت لك الأمور ، وجمعت
على طاعتك القلوب في الصدور ، فكم من ليل تمام^(١٣) فيك كابدته ، ومقام ضيق
لك قمته ، كنت فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب :

ومقام ضيق فرجته بيناني وإساني وجدل
لو يقوم الفيل أو فياله زال عن مثل مقامي وزحل^(١٤)

فقال له الرشيد : « أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك » .

- (١) جمع برجة كقنفذة : وهي مفصل الأصابع ، أو ظهر القصب من الأصابع ، والمعاصم جمع معصم
ككبر : وهو موضع السوار أو اليد . (٢) جمع غلصة بالفتح وهي رأس الخلقوم وهو الموضع الذي
في الخلق . (٣) أثناء الشيء ومثانيه طاقاته ، واحدهما نبي كحغل ومثناة بفتح الميم وكسرها .
(٤) لبط به الأرض ضرب ، ولبط البعير كضرب : خبط بيده وهو يمدو .
(٥) أخلصت . (٦) جمع آخية وتشدد : عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة ، وأخيت
للدابة فأخية : صنعت لها آخية وربطتها بها . (٧) يلدلم أو ألمم أو يرمرم : ميقات اليمن : جبل هل
مرحلتين من مكة . (٨) وفي رواية العقد : وتركت عدوك سيلاً تتاوره الأقدام .
(٩) بلات فلانا : لزمته . (١٠) اللغصه بسكون الضاد وفتحها : الكلاب والنميمة . (١١) نهس اللحم
كنع وسمح : أخذه بمقدم أسنانه ورائته . (١٢) وائغ الكلب في الإفاه ومنه وبه يلغ كيب وياغ :
شرب ما فيه بأطراف لسانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه . (١٣) ليل التمام : أطول ليال الشتاء .
(١٤) زحل من مقامه : زال كترحول .

ولم يزل عبد الملك محبوساً حتى تُوفى الرشيد ، فأطلقه محمد الأمين وعقد له
على الشام^(١) .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٨٩ ، والنقد الفريد ١ : ١٤٣ ،
والكمال لابن الأثير ٦ : ٧٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٣)

٨٥ - قوله بعد خروجه من السجن

ولما خرج من السجن وذُكر الرشيد وفعاله به قال :

« والله إن الملك لشيء مانويته ، ولا تمنيته ، ولا نصبت له ولا أردته ، ولو
أردته لكان إلى أسرع من الماء إلى الحدور^(٢) ، ومن النار إلى ييس العرفج^(٣) ،
وإني لما أخذ بما لم أجن ، ومستول عما لا أعرف ، ولكنه حين رآني للملك قمينا^(٤) ،
وللخلافة خطيرا^(٥) ، ورأى لي يداً تناولها إذا مدت ، وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً
تكمل لحصالها ، وتستحقها بفعالها ، وإن كنت لم أختَر تلك الخصال ، ولم أضطنع
تلك الفعال ، ولم أترشح لها في السر ، ولا أشرت إليها في الجهر ، ورأها تحن إلى
حنين الوالدة الواهية ، وتميل إلى ميل أهلك^(٦) ، وخاف أن ترغب إلى خير مرغب ،
وتزيع إلى أخصب منزع ، عاقبني عقاب من سهر في طلبها ، وجهد في التماسها ،
فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي ، وأليقُ بها وتليق بي ، فليس
ذلك بذنب جنيته فأتوب منه ، ولا تطاولت له فأحط نفسي عنه ، وإن زعم أنه
لاصرف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، إلا بأن أخرج له من جد العلم والحلم والحزم ،
فكما لا يستطيع المضياع أن يكون مصلحاً ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً ،

(١) وقد جعل الأمين عهد الله وميثاقه : لئن قتل وهو حي لا يعطى المأمون طاعة أبداً ، فات قبل
قتل الأمين ، فدفن في دار من دور الإمارة ، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له حوله أباك
من داري ، فنهشت عظامه وحولت . (٢) المكان المنحدر . (٣) شجر . (٤) جديراً .
(٥) عظيم القدر . (٦) الفاجرة المتساقطة على الرجال .

وسواءً عليه أعاقبني على علمي وحلمي، أم عاقبني على نسبي وسني، وسواءً عليه عاقبني على جوالي، أم عاقبني على محبة الناس لي، ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير» . (العقد الفريد ١ : ١٤٣)

٨٦ - وصية عبد الملك بن صالح لابنه

أوصى عبد الملك بن صالح ابنه فقال :

« أي بني احلم ، فإن من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد . وألق أهل الخير فإن لقاءهم عمارة للقلوب ، ولا تجمع بك مطية اللجاج ، وفئك من أعتبك^(١) ، والصاحب المناسب لك ، والصبر على المكروه يعصم القلب ، المزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف ، والاقتصاد يُثمر^(٢) القليل ، والإسراف يُبِير^(٣) الكثير ، ونعم الحظ القناعة ، وشر ما صحب المرء الحسد ، وما كل عورة تُصاب ، وربما أبصر العمي رُشدَه ، وأخطأ البصير قصدَه ، واليأس خير من الطلب إلى الناس ، والعفة مع الحرِفة^(٤) خير من الفنى مع الفجور ، ارفق في الطلب وأجمل في الكسب ، فإنه رب طلب ، قد جرَّ إلى حرب^(٥) ، ليس كل طالب يُمنجج^(٦) ، ولا كل ملجح يحتاج ، والمغبون من غبن نصيبه من الله ، عاتب من رجوت عتبه ، وفاكه من أمنت بلواه ، لاتكن مضحاً كاً من غير عجب ، ولا مشاءً إلى غير أرب ، ومن نأى عن الحق أضاق مذهبه ، ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله ، لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ، فإنه إنما سعى في مضرتك ونفعك ، وعود نفسك السباح ، وتخيرها من كل خلق أحسنه ، فإن الخير عادة ، والشر حاجة ، والصدود آية المقت ، والتعلل آية البخل ، ومن الفقه كتمان السر ، وإقح المعرفة

(١) أعتبه : أعطاه المتبى أي الرضا . (٢) ينسى ويكثر . (٣) يهلك .

(٤) الحرمان . (٥) حربه حرباً كطابه : سلب ماله . (٦) أنجح : صار ذا نجح .

(٧) - جبهة خطب للعرب - ثالث

دراسة العلم ، وطولُ التجارب زيادة في العقل ، والقناعة راحة الأبدان ، والشرف
التقوى ، والبلاغة معرفة رتق الكلام وفتقهِ ، بالعقل تُستخرج الحكمة ، وبالعلم
يستخرج غور العقل ، ومن شمر في الأمور ، ركب البحور ، شر القول ما نقض بعضه
بعضاً ، ومن سعى بالنميمة حذره البعيد ، ومقتته القريب . من أطال النظر بإرادة تامة
أدرك الغاية ، ومن تواني في نفسه ضاع . من أسرف في الأمور انتشرت عليه ، ومن
اقتصد اجتمعت له ، والأجاجة تورث الضياع للأمور ، غيبُ الأدب أحمد من ابتدائه ،
مبادرة الفهم تورث النسيان ، سوء الاستماع يُعقبُ العيب ، لا تُحدث من لا يُقبل
بوجهه عليك ، ولا تُنصت لمن لا ينمى ^(١) بحديثه إليك . البلادة للرجل هجنة ، قلَّ
مَالِكٌ إلا استأثر ، وقلَّ عاجز إلا تأخر ، الإحجام عن الأمور يُورث العجز ، والإقدام
عليها يورث اجتلاب الحظ ، سوء الطعمة ^(٢) يُفسد العريض ، ويُخلق الوجه ، ويمحق
الدين ، الهيبة قرين الحرمان ، والجسارة قرين الظفر ، وفيتك من أنصفك ، وأخوك
من عاتبك ، وشريكك من وفى لك ، وصفيك من آثرك ، أعدى الأعداء العقوق ،
اتباع الشهوة يُورث الندامة ، وفوت الفرصة يورث الحسرة ، جميع أركان الأدب
التأني للرفق ، أكرم نفسك عن كل دنية ، وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لا تجد
بما تبدل من دينك ونفسك عوضاً ، لاتساعد ^(٣) النساء فيملائنك ، واستبق من نفسك
بقية ، فإنهن أن يرين أنك ذو اقتدار ، خيرٌ من أن يطلعن منك على انكسار ،
لاتملك المرأة الشفاعة لغيرها ، فتميل من شفعت لها عليك معها ، أي بني ، إني قد
اخترت لك الوصية ، ومحضتك النصيحة ، وأديت الحق إلى الله في تأديبك ،
فلا تُغفلن الأخذ بأحسنها ، والعمل بها ، والله موفقك .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

(١) نوى الحديث ونمناه بالتشديد : رفته . (٢) الطعمة : وجه المكسب . (٣) لعلها لا تقاعد .

٨٧ - وصية أخرى له

عن يزيد بن عقال قال :

وَصَّى عبد الملك بن صالح ابنه وهو أمير سَرِيَّة ، ونحن ببلاد الروم فقال له :
« أنت تاجرُ الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس ، الذي إن وجد ربحاً تجر ،
وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطالب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك
على عدوك ، أشدَّ خوفاً من احتيالك عدوك عليك^(١) » . (البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

٨٨ - كلمات حكيمة لابن السماك

وقال محمد بن صباح - المعروف بابن السماك^(٢) - :

« خيرُ الإخوان أقلُّهم مصانعةً في النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبةً ، وخير
الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرفُ السلطان ما لم يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء
من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأخلاق أعونها
على الورع ، وإنما يُختَبَرُ ذلَّ الرجال عند الفاقة والحاجة » .

(زمر الآداب ٢ : ٢٠٥)

٨٩ - ابن السماك والرشيدي

وذكر محمد بن هرون عن أبيه قال : حضرت الرشيد ، وقال له الفضل بن الربيع :
يا أمير المؤمنين قد أحضرتُ ابنَ السماك كما أمرتني ، قال : أدخِله ، فدخل ، فقال له :

(١) أوردت هذه الوصية في الجزء الثاني ص ١٨٥ معزوة إلى عبد الملك بن مروان كما أوردتها صاحب
العقد ، ويؤيد ذلك ما رواه الطبري - ج ٨ : ٣٧ - إذ يقول : « وفي سنة ٨٤ كانت غزوة عبد الله بن
عبد الملك بن مروان للروم ، ففتح فيها المصيصة - كسفيئة - وعزاه الجاحظ إلى عبد الملك بن صالح كما ترى
في هذه الرواية . (٢) كان زاهدا عابدا حسن الكلام صاحب مراعاة ، وهو كوفي ، قدم بغداد زمن
الرشيد فسكت بها مدة ، ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ هـ .

عِظْنِي ، قال : يا أمير المؤمنين : اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقفٌ غداً بين يدي الله ربك ، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين ، لا ثالثة لهما : جنة أو نار ، فبكى هرون حتى اخضتت^(١) لحيته ، فأقبل الفضل على ابن السماك ، فقال : سبحان الله ! وهل يتخالجُ أحداً شكٌّ في أن أمير المؤمنين مصروفٌ إلى الجنة إن شاء الله ؟ لقيامه بحق الله ، وعدله في عباده ، وفضله ، فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ، ولم يلتفت إليه وأقبل على أمير المؤمنين ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا - يعني الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى هرون حتى أشفقنا عليه ، وأحلم الفضل بن الربيع ، فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

قال : ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً ، فبينما هو عنده إذ استسقى ماءً ، فأتى بِقَلَّةٍ من ماء ، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السماك : على رسلك^(٢) يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو منعت هذه الشربة ، بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب هناك الله ، فلما شربها ، قال له : أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو منعت خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ، قال : بجميع ملكي ، قال ابن السماك : إن ما كما قيمته شربة ماء جَدِيرٌ أَلَّا يُنَافَسَ فيه ، فبكى هرون ، فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف .

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ١١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٩)

الفتنة بين الأمين والمأمون

وفد الأمين إلى المأمون

لما عزم محمد الأمين على خلع أخيه عبد الله المأمون من ولاية العهد^(١) ، كتب إليه كتاباً يستقدمه ، ويحبب أن يكون بقربه - وكان المأمون على خراسان - ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى ، وإلى عيسى بن جعفر ، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك ، وإلى صالح صاحب المصلى ، وأمرهم أن يتوجهوا به إلى المأمون ، وألاً يدعوا وجهاً من اللين والرَّفَق إلا بلغوه ، وسهّلوا الأمر عليه ، (وذلك سنة ١٩٤ هـ) فتوجهوا بكتابه ، فلما وصلوا إلى المأمون أذن لهم ، فدفعوا إليه الكتاب ، ثم تكلم العباس بن موسى :

٩٠ - خطبة العباس بن موسى

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الأمير : إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثِقلاً عظيماً ، ومن النظر في أمور الناس عبئاً جليلاً ، وقد صدقت نيته في الخير ، فأعوزته الوزراء والأعوان والكفّاءة على العدل ، وقليل ما يأنس بأهل بيته ، وأنت أخوه

(١) ذكروا أن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، كان قد خاف المأمون ، لما فعله عند موت الرشيد بطوس من إحضار جميع ما كان في مسكبه إلى الأمين ، بعد أن كان الرشيد قد أشهد به للمأمون ، وعلم أن الخلافة إن أنضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عايبه ، فحسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفضل جماعة على ذلك ، قال الأمين إلى أقوالهم ، ثم إنه استشار عقلاء أصحابه ، فجهروا عن ذلك وحذروه عاقبة لابنهم ونكث للمهود ، وقالوا له : لا تجرى للقواد على النكث للأيمان وعل الخلع فيخلعوك ، فلم يلتفت إليهم ، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع ، وشرع فوعد المأمون باستدعائه إلى بغداد ، فلم ينخدع وكتب يعتذر .

وشقيقه^(١) وقد فرغَ إليك في أموره ، وأَمَلَكَ للموازرة والمكانفة^(٢) ، ولسنا نستبطنك في برِّه ، اتهاماً لنصرك له ، ولا نحضك على طاعة ، تخوفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه أنس عظيم ، وصلاح لدولته وسُلطانته ، فأجِبَ أيها الأمير دعوة أخيك ، وآثر طاعته ، وأَعِنه على ما استعانك عليه في أمره ، فإن في ذلك قضاء الحق ، وَصِلَةَ الرحم ، وصلاح الدولة ، وَعِزَّ الخلافة ، عزم الله للأمير على الرشد في أموره ، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه .

٩١ - خطبة عيسى بن جعفر

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر ، فقال :

« إن الإكثار على الأمير - الله ، الله - في القول خرق ، والاقْتِصَارُ في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير ، وقد غاب الأمير - أكرمه الله - عن أمير المؤمنين ، ولم يستغن عن قربه من شَهِدَ غيره من أهل بيته ، ولا يجد عنده غنى ، ولا يجد منه خافاً ، ولا عَوْضاً ، والأمير أولى مَنْ بَرَّ أخاه ، وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أَرْضَى وأقربُ من موافقة أمير المؤمنين ومحبتة ، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظٌ عظيم ، والإبطاء عنه وَكَفٌ^(٣) في الدين ، وضرر ومكروه على المسلمين . »

٩٢ - خطبة محمد بن عيسى بن نهيك

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك ، فقال :

« أيها الأمير إنا لانزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نشجذ نيتك بالأساطير وألْطَبَ فيما يلزمك من النظر والعناية

(١) أمه أم ولد يقال لها مراجل .

(٢) الكوفة الميل والجور والعيب ، الإثم .

(٣) المعاونة .

بأمر المسلمين ، وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والنصحاء بحضرتة ، وتناولك فزعاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره ، فإن تجب أمير المؤمنين فما دعاك إليه ، فنعمة عظيمة يتلافى بها رعيتك وأهل بيتك ، وإن تقعد يُغن الله أمير المؤمنين عنك ، ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البرِّ بك ، والاعتماد على طاعتك ونصيحتك .

٩٣ - خطبة صالح صاحب المصلي

وتكلم صالح صاحب المصلي ، فقال :

« أيها الأمير : إن الخلافة ثقيلة ، والأعوان قليل ، ومن يَكِيد هذه الدولة ، وينطوي على غشها ، والمعاندة لأولياها ، من أهل الخلاف والمعصية كثير ، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه ؟ وصلاح الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه ، إذ أنت وليُّ عهده ، والمشارك في ساطنانه وولايته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره ، وفي إجابتك إياه إلى القدوم عليه صلاح عظيم في الخلافة ، وأنسٌ وسكونٌ لأهل الملة والذمة ، وفقَّ الله الأمير في أموره ، وقضى له بالذي هو أحب إليه وأنفع له . »

٩٤ - خطبة المأمون

حمد الله المأمون ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« قد عرفتموني من حق أمير المؤمنين - أكرمه الله - مالا أنكره ، ودعوتموني من الموازنة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه ، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدّم ، والمساعدة إلى ماسرّه ووافقّه حريصٌ ، وفي الروية تبيانُ الرأي ، وفي إعمال الرأي نصيحُ الاعتزام والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبطاً ومدافعةً ، ولا أتقدم عليه

اعتسافاً وَعَجَلَةً ، وَأَنَا فِي ثَغْرٍ^(٢) مِنْ ثَغُورِ الْمُسْلِمِينَ ، كَلِبٍ عَدُوِّهِ ، شَدِيدِ شَوْكَتِهِ ، وَإِنْ أَهْمَتُ أَمْرَهُ لَمْ آمَنْ دُخُولَ الضَّرْرِ وَالْمَكْرُوهِ عَلَى الْجُنُودِ وَالرَّعِيَةِ ، وَإِنْ أَقَمْتُ عَلَيْهِ لَمْ آمَنْ قَوَّتَ مَا أَحَبَّ مِنْ مَعُونَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَازِرَتِهِ وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، فَانصَرَفُوا حَتَّى أَنْظَرْتُ فِي أَمْرِي ، وَيَصِحَّ الرَّأْيُ فِيمَا أَعْتَزِمُ عَلَيْهِ مِنْ مَسِيرِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين ، يسأله أن يُعْفِيَهُ مِنَ الشُّخُوصِ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُقَرِّهَ عَلَى عَمَلِهِ ، إِذْ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ غَنَاءً عَلَى الْمُسْلِمِينَ . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٦)

٩٥ - وصية السيدة زبيدة لعلی بن عیسی بن ماهان

وَأَتَمَّتِي الشَّرَّ بَيْنَ الْأَخْوِيْنَ ، وَاسْتَطَارَ شَرُّهُ ، وَبَعَثَ الْأَمِينَ جَيْشًا كَثِيفًا بِقِيَادَةِ عَلِيِّ بْنِ عَيْسَى بْنِ مَاهَانَ لِحَرْبِ الْمَأْمُونِ ، وَأَعَدَّ الْمَأْمُونُ لِلِقَائِهِ جَيْشًا بِقِيَادَةِ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ فَلَمَّا أَرَادَ عَلِيٌّ الشُّخُوصَ إِلَى خِرَاسَانَ ، رَكِبَ إِلَى بَابِ السَّيِّدَةِ زُبَيْدَةَ^(٢) وَالِدَةِ الْأَمِينِ فَوَدَّعَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ :

« يَا عَلِيُّ ، إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ كَانَ وَلَدِي ، إِلَيْهِ تَنَاهَتْ شَفَقَتِي ، وَعَلَيْهِ تَكَامَلَتْ حِذْرِي ، فَإِنِّي عَلَى عَبْدِ اللَّهِ مُنْعَطِفَةٌ مُشْفِقَةٌ لِمَا يَحْدُثُ عَلَيْهِ مِنْ مَكْرُوهٍ وَأَذَى ، وَإِنَّمَا ابْنِي مَلِكٌ نَافِسٌ أَخَاهُ فِي سُلْطَانِهِ ، وَغَارَاهُ^(٣) عَلَى مَا فِي يَدِهِ ، وَالكَرِيمُ يَوْءُ كُلِّ لَحْمَةٍ ، وَيُمَيِّتُهُ غَيْرُهُ ، فَاعْرِفْ لِعَبْدِ اللَّهِ حَقَّ وَالِدِهِ وَأَخَوْتِهِ ، وَلَا تَجِبَّهُ^(٤) بِالْكَلَامِ ، فَإِنَّكَ لَسْتَ نَظِيرَهُ ، وَلَا تَقْتَسِرُهُ^(٥) اقْتِسَارَ الْعَبِيدِ ، وَلَا تُرْهِنُهُ بِقَيْدٍ وَلَا غُلٍّ^(٦) ، وَلَا تَمْنَعُ مِنْهُ جَارِيَةً وَلَا خَادِمًا ، وَلَا تَعْنَفْ عَلَيْهِ فِي السَّيْرِ ، وَلَا تَسَاوِرْهُ فِي الْمَسِيرِ ، وَلَا تَرْكَبْ قَبْلَهُ ،

(١) الثغر: موضع الحفاة من فروع البلدان. (٢) هي السيدة زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور ولها في خلفاء بني العباس من أمه وأبوه هاشميان سواء .

(٣) في الأصل : غاره • وأراه محرفا عن غاراه • غاريتته مغارة وغراء : لاجبته .

(٤) جبهه كنهه : لقيه بما يكره . (٥) قسره واقتسره : قهره .

(٦) أرهته : أضعفه ، وفي الفخرى : ولا قومه • وأرهته : أضعفه أيضا ، والغل : القيد .

ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ برِكابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفّه عليك فلا ترادّه .

ثم دفعت إليه قيداً من فضّة ، وقالت : إن صار في يدك فقئده بهذا القيد ، فقال لها : سأقبل أمرك ، وأعمل في ذلك بطاعتك .

(تاريخ الطبرى ۱۰ : ۱۴۹ ، والفخرى ص ۱۹۵)

۹۶ - وصية الأمين لابن ماهان

وخرج على بن عيسى بن ماهان من بغداد (فى ۷ من شعبان سنة ۱۹۵ هـ) وخرج معه الأمين يشيعه ، وأقبل يوصيه ، فقال :

« أَمْنَعُ جُنْدَكَ مِنَ الْعَبَثِ بِالرَّعِيَةِ ، وَالغَارَةِ عَلَى أَهْلِ الْقَرْيِ ، وَقَطْعِ الشَّجَرِ ، وَاتِّهَاكِ النِّسَاءِ ، وَوَلِّ الرِّىَّ يَحْيَى بْنَ عَلِيٍّ ^(۱) ، وَاضْمُمْ إِلَيْهِ جُنْدًا كَثِيفًا ، وَوَمِّرْهُ لِيُدْفِعَ إِلَى جَنْدِهِ أَرْزَاقَهُمْ مِمَّا يَحْيَى مِنْ خَرَّاجِهَا ، وَوَلِّ كُلَّ كُورَةٍ تَرَحَّلَ عَنْهَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَيْكَ مِنْ جُنْدِ أَهْلِ خِرَاسَانَ وَوَجُوهَهَا فَأَظْهَرَ إِكْرَامَهُ ، وَأَحْسِنَ جَائِزَتَهُ ، وَلَا تَعَاقِبْ أَخًا بِأَخِيهِ ، وَضِعْ عَنِ أَهْلِ خِرَاسَانَ رُبْعَ الْخِرَاجِ ، وَلَا تَأْمِنْ أَحَدًا رِمَاكَ بِسَهْمٍ ، أَوْ طَعْنَ فِي أَصْحَابِكَ بِرِمْحٍ ، وَلَا تَأْذَنْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي الْمَقَامِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَشْخَصْتَهُ ، فَيُكِنُّ مَعِ أَوْثَقَ أَصْحَابِكَ عِنْدَكَ ، فَإِنْ غَرَّهَ الشَّيْطَانُ فَنَاصَبَكَ ، فَاحْرَصْ عَلَى أَنْ تَأْسِرَهُ أَسْرًا ، وَإِنْ هَرَبَ مِنْكَ إِلَى بَعْضِ كُورِ خِرَاسَانَ ، فَتَوَلَّ إِلَيْهِ الْمَسِيرَ بِنَفْسِكَ ، أَفْهَمْتِ كُلَّ مَا أَوْصَيْتُكَ بِهِ ؟ » .

قال : نعم ، أصاح الله أمير المؤمنين ، قال : سر على بركة الله وعونه .

(تاريخ الطبرى ۱۰ : ۱۵۰)

(۱) هو يحيى بن على بن عيسى بن ماهان .

٩٧ - استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين

وخرج ابن ماهان ، فلما جاز حُلُوان ، لَقِيَتْهُ القوافل من خُرَاسان ، فكان يسألها عن الأخبار ، فيقال له : إن طاهراً مقيم بالرَّيِّ ، يَعْرِضُ أصحابه ، وَيُرِمُّ^(١) آلته ، فيضحك ثم يقول :

« وما طاهر؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني ، أو شرارة من نارى ، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ، ويلقى الحروب » ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : « والله ما بينكم وبين أن ينقصف انقصفَ الشجر من الريح العاصف ، إلا أن يبلغه غُبُورُنا عَقَبَةَ^(٢) هَمْدَانَ ، فإن السَّخَالَ^(٣) لا تقوى على نِطَاحِ الكِبَاشِ ، والثعالب لا صبرَ لها على لقاء الأسد ، فإن يُقِمَ طاهر بموضعه يكن أول معرَّضٍ لِظُبَاتِ^(٤) السيوف وأسننة الرماح . وسار حتى صار فى أول بلاد الرىِّ ، وأتاه صاحب مقدّمته وقال : « لو كنت - أبقى الله الأمير - أذ كَيْتَ العيون ، وبعثت الطلائع ، وارتدت موضعاً تُعَسِّكِرُ فيه ، وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به ، كان ذلك أبلغ فى الرأى ، وآنسَ للجند » .

قال : « لا ، ليس مثل طاهر يستعدّ له بالمكايد والتحفّظ ، إن حال طاهر تُؤول إلى أحد أمرين ، إما أن يتحصن بالرّىِّ ، فَيَبْهَتُهُ^(٥) أهلها ، فيكفونا مَثُونته ، أو يُخَلِّيها وَيُدْبِرُ راجعاً لو قَرُبَتْ خيولنا وعساكرنا منه » .
وأتاه يحيى بن على ، فقال : « اجمع متفرّق العسكر ، واحذر على جندك البيات ، ولا تسرح الخيل إلا ومعها كُثْفُ^(٦) من القوم ، فإن العساكر لا تُسأسُ بالتوانى ،

(١) يصلح . (٢) العقبة : مرق صعب من الجبال . (٣) السخال جمع سخلة بالفتح : وهو وله الغنم ذكراً أو أنثى . (٤) الظبات جمع ظبة : وهى حد السيف . (٥) به . كنهه : أخذه بفتة ، قال تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » ، وفى مروج الذهب : « يشب به » .
(٦) الكثف : الجماعة .

والحروب لا تدبر بالاعتذار ، والثقة أن تحترز ، ولا تقل : المحارب لي طاهر ، فالشرارة الخفية ربما صارت ضراماً^(١) ، والثمة من السيل ربما اغتربها وتهوّن ، فصارت بحراً عظيماً ، وقد قرّبت عساكرنا من طاهر ، فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا .
قال : اسكت ، فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى ، وإنما يتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها ، وتستعدّ إذا كان المناوي^(٢) لها أكتفاءها ونظراءها .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٩)

٩٨ - حزم طاهر وقوة عزمه

وعسكر طاهر على خمسة فراسخ من الرّسى ، وأتاه محمد بن العلاء ، فقال : « أيها الأمير ، إن جنديك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلات قلوبهم خوفاً ورعباً منه^(٣) ، فلو أقمّت بمكانك ، ودافعت القتال إلى أن يشامهم^(٤) أصحابك ، ويأنسوا بهم ، ويعرفوا وجه المآخذ في قتالهم » ، فقال :

« لا ، إني لا أوتى من قلة تجربة وحزم ، إن أصحابي قليل ، والقوم عظيم سوادهم ، كثير عددهم ، فإن دافعت القتال ، وأخرت المناجزة ، لم آمن أن يطلّعوا على قلتنا وعورتنا ، وأن يستميلوا من معي برغبة أو رهبة ، فينفر عني أكثر أصحابي ، ويخذلني أهل الحفاظ والصبر ، ولكن ألف الرجال بالرجال ، وألحم^(٥) الخيل بالخييل ، وأعتمد على الطاعة والوفاء ، وأصبر صبر محتسب للخير ، حريص على الفوز بفضل الشهادة ، فإن

(١) الضرام : اشتعال النار في الحلفاء وغيرها ، ودقاق الحطب الذي يسرع اشتعال النار فيه .

(٢) المعادي .

(٣) وكانت عدة عسكر ابن ماهان حسين ألفاً ، وذكر بعض أهل بغداد أنهم لم يروا عسكراً كان أكثر رجلاً وأفره كراماً ، وأظهر سلاحاً ، وأتم عدة ، وأكل هيئة من عسكره ، وروى أن طاهراً كان في أقل من أربعة آلاف . (٤) شاماً وتشاماً : شم أحدهما الآخر ، والمعنى اقترباً .

(٥) أي أقرن الخيل بالخييل ، من قولهم : ألحمت الحرب فالتحمت ، والملاحم بضم الميم وبفتح الحاء : الماصق بالقوم ، ولحمت الشيء بالشيء : الصق به .

يَرْزُقُ اللَّهُ الظفرَ وَالْفَلَجَ^(۱) ، فَذَلِكَ الَّذِي نَزِيدُ وَرَجُو ، وَإِنْ تَكُنِ الْآخِرَى فَلَسْتُ
أَوَّلَ مَنْ قَاتَلَ فَقُتِلَ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ أَجْزَلُ وَأَفْضَلُ . (تاريخ الطبري ۱۰ : ۱۵۱)

۹۹ - طاهر يشد عزيمة جنده

وَكَتَبَ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ كِتَابِيَهُ ، وَكَرَدَسَ كَرَادِيْسَهُ^(۲) ، وَسَوَّى صَفُوْفَهُ ،
وَجَعَلَ يَمْرَ بَقَائِدَ قَائِدٍ ، وَجَمَاعَةَ جَمَاعَةٍ ، فَيَقُولُ :

« يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَأَهْلَ الْوَفَاءِ وَالشُّكْرِ ، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ كَهَوْلَاءَ الَّذِينَ تَرَوْنَ مِنْ
أَهْلِ النَّكْتِ وَالْغَدْرِ ، إِنْ هُوَ لَأَمْضَى مَا حَفِظْتُمْ ، وَصَفَرُوا مَا عَظَّمْتُمْ ، وَنَكَثُوا
الْإِيمَانَ الَّتِي رَعَيْتُمْ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَ الْبَاطِلَ ، وَيَقَاتِلُونَ عَلَى الْغَدْرِ وَالْجَهْلِ ، أَصْحَابَ سَلْبٍ
وَنَهَبٍ ، فَلَوْ قَدْ غَضَضْتُمْ الْأَبْصَارَ ، وَأَثْبَتْتُمُ الْأَقْدَامَ ، قَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَفَتَحَ عَلَيْكُمْ أَبْوَابَ
عِزِّهِ وَنَصْرِهِ ، فَجَالِدُوا طَوَاغِيَتِ الْفِتْنَةِ ، وَيَعَاسِبِ النَّارِ^(۳) عَنْ دِينِكُمْ ، وَدَافِعُوا بِحَقِّكُمْ
بِاطِلَهُمْ ، فَإِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . »

وَنَشِبَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى جَيْشِ ابْنِ مَاهَانَ وَقُتِلَ^(۴) .
وَوَجَّهَ الْأَمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَرْبِ طَاهِرٍ جَيْشًا بِقِيَادَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبَلَةَ ، فَهَزَمَ

وَقُتِلَ أَيْضًا . (تاريخ الطبري ۱۰ : ۱۵۲)

(۱) الفوز الظفر .

(۲) الكرادييس جمع كردوسة بالضم : وهي القطعة العظيمة من الخيل وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة .

(۳) الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال ، واليعاسيب جمع يعسوب : وهو الرئيس

الكبير . (۴) روى أن نعي هل بن عيسى ورد إلى الأمين وهو على الشط بصيد السمك ، فقال للذي

أخبره : وهلك دهنى ، فإن كوثرًا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئًا بعد - وكان كوثر خادمًا

خصياله وكان يحبه - .

١٠٠ - وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين

ونذب أسد بن يزيد بن مزيد لقتال طاهر

وبعث الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، قال : فأتيته ، فلما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده رُقعة قد قرأها ، واحمرّت عيناه ، واشتد غضبه ، وهو يقول :

« ينام نوم الظربان^(١) ، وينتبه انتباه الذئب ، همته بطنه ، ولذته فرجه ، لا يفكر في زوال نعمته ، ولا يُروى في إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ، وشغله قدحُه ، فهو يجرى في لهوه ، والأيام تُسرع^(٢) في هلاكه ، قد شمّر عبدُ الله له عن ساقه ، وفوق له أصيب^(٣) أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحنف النافذ ، والموت القاصد^(٤) ، قد عبّى له المنايا على مُتون الخيل ، وناط^(٥) له البلاء في أسنة الرماح ، وشفار السيوف . ثم استرجع وتمثل بأبيات للبعيث^(٦) ، ثم التفت إلى فقال :

« يا أبا الحارث ، إنا وإياك لنجری إلى غاية ، إن قصّرنا عنها ذمنا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإنا نحن شعب من أصل ، إن قوی قوینا ، وإن ضعف ضعفنا ، إن هذا قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكفاء^(٧) ، يشاور النساء ، ويعتمد على الرؤيا . وقد أمكن أهل اللهو والخسارة من سمعه ، فهم يعدونه الظفر ، ويمنّونه عقب^(٨) الأيام ،

(١) الظربان : دويبة فوق جرو الكلب منقنة الريح كثيرة الفسوخ ، يضرب بها المثل فيقال : « أفسى من ظربان » . (٢) في الأصل « تضرع » وأراه محرفاً . (٣) أصيب : أفل من صاب السهم يصيب صبيبا : أي أصاب ، وسهم صيوب كصبور . (٤) القاصد أي الكاسر ، من القصد بالفتح : هو الكسر بأي وجه كان ، أو بالنصف ، كالتقصيد ، يقال قصد الخمة وقصدتها : كسرهما وفصلها فتقصدت . (٥) هلق . (٦) هو خدائش بن بشر الحاشمي ، أحد شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى جريراً . (٧) وصف من الركب بالتحريك : وهو الإثم والميب والنقص ، وكف كفرح إذا أثم ، وفي رواية الطبري « للوكماء » بالعين ، وهي الحمقاء . (٨) العقب كقفل وعنق : العاقبة .

والهلاک أسرع إليه من السيل إلى قيعان^(۱) الرمل ، وقد خَشِيتُ وألله أن مهلكَ
بهلاكه ، ونعطبَ بعطبه .

وأنت فارس العرب وابن فارسها ، وقد فزع إليك في لقاء هذا الرجل (طاهر) ،
وأطمعته فيما قبلك أمران ؛ أما أحدهما فصِدْقُ طاعتك ، وفضلُ نصيحتك ؛ والثاني يُمنُّ
نقيبتك^(۲) ، وشدة بأسك ، وقد أمرني بإزاحة عِلَّتِكَ ، وبسطِ يدك فيما أحببت ، غير
أن الاقتصاد رأس النصيحة ، ومفتاح اليمن والبركة ، فأَنْجِزِ حوائجك ، وعجّل المبادرة
إلى عدوك ، فإنني أرجو أن يُوليك الله شرف الفتح ، وَيَلِمَّ بِكَ شَعَثُ هذه الخلافة والدولة .
فأجاب بالسمع والطاعة ، غير أنه طلب مطالب لم تَرُقْ في عين الأمين فغضب عليه ،
وأمر بِسَجْنِهِ . (تاريخ الطبری ۱۰ : ۱۵۸ وزهر الآداب ۲ : ۱۵۸)

۱۰۱ - وصية الأمين لأحمد بن مزید

ثم ندب عمه أحمد بن مزید ، فلما أراد الشخصوص دخل على الأمين ، فقال : أوصني
أكرم الله أمير المؤمنين ، فقال :
« أوصيك بِخِصَالٍ عِدَّةٍ ، إِيَّاكَ وَالْبَغْيَ فَإِنَّهُ عِقَالُ^(۳) النصر ، ولا تقدم رجلاً إلا
باستخارة ، ولا تشهر سيفاً إلا بعد إعدار ، ومهما قدرت عليه بالين ، فلا تتعدّه إلى
إلى الخرق والشرة ، وأحسن صحابة من معك من الجند ، وطالعني بأخبارك في كل
يوم ، ولا تخاطر بنفسك في طلب الزلفة^(۴) عندي ، ولا تستقها فيما تخوف رجوعه على ،
وكن لعبد الله أخاً مضافاً ، وقريناً برّاً ، وأحسن مجامعته ، وصحبتة ومعاشرته ، ولا تحذله إن
استنصرك ، ولا تبطئ عنه إذا استصرحك ، ولتكن أيديكما^(۵) واحدة ، وكلمتكما متفقة . »

(۱) القيعان جمع قاع : وهو أرض مطبنة سهلة قد انفرجت عنها الجهال والآكام .

(۲) النقيبة : النفس والطبيعة . (۳) العقال في الأصل : الحبل الذي تقيد به الدابة .

(۴) الزلفة والزلنى : القرية . (۵) أى أنت وعبد الله بن حميد بن قحطبة .

وتوجه أحمد بن مزيد في عشرين ألفاً من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً من الأبناء ، حتى نزلا خانقين - قريباً من حلوان - ولم يزل طاهر يَحْتال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم ، حتى اختلفوا ، وانتقض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، فأخَلَوْا خانقين ورجعوا عنها ، دون أن يَلْقُوا طاهراً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٩)

١٠٢ - مقال عبد الملك بن صالح للأمين

وكان عبد الملك بن صالح يشكر للأمين تخلية سبيله ، ويوجب بذلك على نفسه طاعته ونصيحته ، فلما قوى طاهر ، واستعلى أمره ، وهزم من هزم من قواد الأمين وجيوشه ، دخل عبد الملك على الأمين ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إني أرى الناس قد طمعوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فإن تمت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم ، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضببتهم ، وليس تملك الجنود بالإمساك ، ولا يبقى ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جنك قد رعبتهم الهزائم ونهكتهم ، وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلات قلوبهم هبية لعدوهم ، ونكولاً^(١) عن لقاءهم ومناهضتهم ، فإن سيرتهم إلى طاهر ، غلبت بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم ، وأهل الشام قوم قد ضرستهم^(٢) الحروب ، وأدبتهم الشدائد ، وجلهم منقاد إلى ، مسارع إلى طاعتي ، فإن وجهي أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً يعظم نكايتهم في عدوه ، ويؤيد الله بهم أوليائه وأهل طاعته . »

فقال الأمين : « فإني مؤليك أمرهم ، ومقويك بما سألت من مال وعُدَّة ، فعجل

(١) جينا وخوفا . (٢) جربتهم واحكمتهم .

الشخص إلى ما هنالك ، فاعمل عملاً يظهر أثره ، وَيُحْمَدُ بركته ، رأيك ونظرك فيه
إن شاء الله ، فولاه الشام والجزيرة .

(تاريخ الطبري ۱۰ : ۱۶۱ ، والكامل لابن الأثير ۶ : ۱۰۳)

۱۰۳ - الشعب في جيش عبد الملك بن صالح

وسار عبد الملك بن صالح ، فلما قَدِمَ الرَّقَّةَ^(۱) ، كتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه
الجزيرة ، فلم يبق أحد من يُرْجَى ، ويذكر بأسه وَغَنَاؤُه إلا وَعَدَه ، وبسط له في أمله
وأمنيته ، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أحد
إلا أجازه ، وخلع عليه وحمله ، فأناه أهل الشام ، الزَّوْاقِيل والأعراب من كل فج ،
وَاجتمعوا عنده حتى كثُروا ، بَيَدَ أنه شبت نار الفتنة بين جند أهل خراسان وبين
الزَّوْاقِيل^(۲) ، وَأَفْضَى الأمر إلى تلاحمهم واقتتالهم ، ثم قام رجل من أهل حِمْص ، فقال :
« يا أهل حِمْص ، الهَرَبُ أهونُ من العَطَبِ ، والموت أهون من الذل ، إنكم بعدتم
عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذلة ؛ ألا وفي
الشر وقعتم ، وإلى حومة الموت أُنْحَتَمُ ، إن المنايا في شوارب المسوِّدة^(۳) وقلانيسهم ،
النفير النفير^(۴) قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمرُ الجليل ، ويفوت المطلب ، ويعسر
المذهب ، ويبعد العمل ، ويقرب الأجل . »

وقام رجل من كلب ، فقال :

« يا معشر كلب ، إنها الراية السوداء ، والله ما ولت ولا عدلت ، ولا ذلَّ

(۱) بلدة على الفرات . (۲) وسببها أن بعض جند أهل خراسان نظر إلى دابة كانت قد أخذت منه
في إحدى الوقعات تحت بعض الزواقيل ، فتملق بها ، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا ، واجتمعت جماعة
من الزواقيل والجنود فتلاحموا ، وأهان كل فريق منهم صاحبه ، ثم اتسع نطق الفتنة فانشقت وحدة الجيش .
(۳) كانت الجنود الخراسانية التي تقاتل الامويين في سبيل نشر الدعوة العباسية يحملون الرايات السود
فسموا من أجل ذلك المسودة . (۴) نفر إلى الأمر كضرب نفيرا : أسرع إليه .

نصرها ، ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ،
وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشرق قبل أن يعظم ، وتخطوه قبل أن يضطرم ،
شأمكم ، داركم داركم ، الموت الفلستيني خير من العيش الجزري ، ألا وإني راجع
فمن أراد الانصراف فلينصرف معي .

ثم سار وسار معه عامة أهل الشام ، وأقبلت الزواويل حتى أضرمو ما كان جمع
من الأعلاف بالنار ، (وكان ذلك في سنة ۱۹۶ هـ) . (تاريخ الطبري ۱۰ : ۱۶۲)

۱۰۴ - خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان

يدعو إلى خلع الأمين

ومات عبد الملك بن صالح بالرقّة ، وكان معه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ،
فأقل الجند من الجزيرة إلى بغداد ، فتلقاه أهلها بالتكرمة والتعظيم ، وضربوا له القباب ،
واستقبله القواد والرؤساء والأشراف ، ثم اجتمع إليه الناس فقام فيهم فقال :
« يا معشر الأبناء ، إن خلافة الله لا تجاوز بالبطر ، ونعمه لا تستصحب بالتجبر
والتكبر ، وإن محمداً يريد أن يوتغ^(۱) أديانكم ، وينكث ببيعتمكم ، ويفرق جمعكم ،
وينقل عزكم إلى غيركم ، وهو صاحب الزواويل بالأمس ، وبالله إن طالت به مدة ،
وراجعه من أمره قوّة ، ليرجعن وبال ذلك عايكم ، وليعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم
ودعوتكم ، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزّه قبل أن يضع عزكم ، فوالله
لا ينصره منكم ناصرٌ إلا خذل ، ولا يمنعه مانعٌ إلا قتل ، وما عند الله لأحد هواده ،
ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده ، وألحنت بأيمانه . »

وخلع الحسين بن علي محمداً الأمين وحبسه^(۲) ، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون .

(تاريخ الطبري ۱۰ : ۱۶۳)

(۱) أرتغ دینه بالإثم : أفسده ، وأرتغه الله : أهلكه .

(۲) وكان حبس الحسين بن علي محمداً الأمين في قصر أبي جعفر يومين .

۱۰۵ - خطبة محمد بن أبي خالد

في فض الناس عن اتباع الحسين بن علي بن عيسى

فلما أصبح الناس من الغد ، طلبوا من الحسين بن علي الأرزاق ، وماج الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد ، فقال :
« أيها الناس ، والله ما أدري ، بأي سبب يتأمر الحسين بن علي علينا ، ويتولى هذا الأمر دوننا ؟ ما هو بأكبرنا سناً ، ولا أكرمنا حسَباً ، ولا أعظمنا منزلةً ، وإن فينا من لا يَرْضَى بالدنيّة ، ولا يُقَاد بالمخادعة ، وإني أوّلُكم ، نقض عهدَه ، وأظهر التغييرَ عليه ، والإنكار لفعله ، فمن كان رأيه رأبي ، فليعتزل معي » .

(تاريخ الطبري ۱۰ : ۱۶۴)

۱۰۶ - إطلاق الأمان من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة

وقام أسد الحرّبيّ ، فقال : « يا معشر الحربية ، هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد نمتُم وطلّ نومكم ، وتأخرتم فقدم عليكم غيرُكم ، وقد ذهب أقوامٌ بذِكر خلع محمد وأسرِه فذهبوا بذِكر فكّه وإطلاقه » .

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكفاية على فرس ، فصاح بالناس : اسكتوا ، فسكتوا ، فقال :

« أيها الناس ، هل تعتدّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ، قال : فهل قصّر بأحد منكم ، أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ، قال : فهل عزّل أحداً من قوادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال : فما بالكم خذلتموه ، وأعنتم عدوّه على اضطهاده وأسرِه ؟ أما والله ما قتل قومٌ خليفته قطّ ، إلا سلّط الله عليهم السيفَ القاتل ، وألحّفت الجارِف ، انهضوا إلى خليفتهم وادفعوا عنه ، وقاتلوا من أراد خلعَه والفتك به » .

فنهضوا معه وقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابه قتالاً شديداً ، وأكثروا في أصحابه الجراح ، وأسروا الحسين ، ودخل أسد الحربى على محمد فسكر قيوده وأقعده في مجلس الخلافة .

وأتى الأمين بالحسين بن عليّ ، فلامه على خلافه وقال له : ألم أقدم أباك على الناس ، وأولّه أعنة الخيل ، وأملاً يده من الأموال ، وأشرف أقداركم في أهل خراسان ، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ؟ قال : بلى ، قال : فما الذى استحققت به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلّب الناس علىّ ، وتندّبهم إلى قتالى ؟ قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله ، قال : فإن أمير المؤمنين ، قد فعل ذلك بك ، وولاك الطلب بئارك ، ومن قتل من أهل بيتك ، ثم دعا له بخيلة ، فخلعها عليه ، وحماله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى حلوان ، وخرج الحسين ، فهرب في نفر من خدمه ومواليه ، فنادى محمد في الناس ، فركبوا في طلبه فأدركوه وقتلوه . (تاريخ الطبرى ۱۰ : ۱۶۴)

۱۰۷ - خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين

وقام داود بن عيسى^(۱) والى مكة والمدينة - وكان خطيباً فصيحاً جهير الصوت - يدعو إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون ، فقال :

(۱) هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان الأمين حين أفضت الخلافة إليه بعث به والياً على مكة والمدينة ، فأقام والياً عليهما حتى دخلت سنة ۱۹۶ ، فكتب الأمين إلى داود بن عيسى بأمره بخلع عبد الله المأمون ، والبيعة لابنه موسى ، وبعث إلى الكتائب الذين كان الرشيد كتبهما وعلقهما في الكعبة ، فأخذهما ، فلما فعل ذلك جمع داود حجة الكعبة والقرشيين والفقهاء ، ومن كان شهد على ما في الكتائب من اليهود - وكان داود أحدهم - فقال داود : قد علمتم ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق ، عند بيت الله الحرام ، حين بايعنا لابنيه لتكوين مع المظلوم منها على الظلم ، ومع المبني عليه على الباغى ، ومع المغدور به على الغادر ، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً (الأمين) قد بدأ بالظلم والبنى والغدر على أخويه عبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وخلعهما ، وبايع لابنه المفضل رضيع صغير لم يقطم ، واستخرج الشرطين من الكعبة عاصياً ، فحرقهما بالنار ، وقد رأيت خلعهم ، وأن أبايك لعبد الله المأمون بالخلافة ، إذ كان مظلوماً مبنيها عليه ، فقال له أهل مكة : رأينا تبع لرأيك ، ونحن خالعه معك ، فجمع الناس ، وخطبهم هذه الخطبة .

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤتي الملكَ من يشاء ، وَيَنْزِعُ الملكَ من يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، بيده الخيرُ ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالدين ، وختم به النبيين ، وجعله رحمةً للعالمين ، صلى الله عليه في الأولين والآخرين .

أما بعد ، يا أهل مكة ، فأتم الأصلُ والفرع ، والعشيرة والأُسرة ، والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم بَقْدُ وَفَدُ اللهُ^(١) ، وإلى قبلكم يَأْتُمُّ المسلمون ، وقد عَلِمْتُمْ ما أخذ عليكم الرشيد هرون ، رحمة الله عليه وصلاته ، حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق ، لَتَنْصُرُنَّ المظلومَ منهُما على الظالم ، والبغى عليه على الباغى ، والمغدورَ به على الغادر ، ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغى ، والغدر ، وخالف الشروط التي أعطها من نفسه في بطن البيت الحرام ، وقد حلَّ لنا ولكم خَلْعُهُ من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم البغى عليه ، المغدور به ، ألا وإني أشهدكم أني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة ، كما خلعت قلنسوتي هذه من رأسي وخلعت قلنسوته عن رأسه ، فرمى بها إلى بعض الخدم تحته ، وكانت من بُرُودِ حَبْرَةَ^(٢) مسلسلة حمراء ، وأتى بقانسوة سوداء هاشمية فلديسها - ثم قال : قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتمكم » ، فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر رجل فرجل ، فبايعه لعبد الله المأمون بالخلافة وخلع محمداً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٠)

(١) أي لتأدية فريضة الحج . (٢) برود حبرة : ضرب من البرود البمانية ، يقال : برد حبرة مثل حبرة على الوصف والإضافة ، وبرود حبرة ، وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً ، إنما هو وثى كقوك : ثوب قرمز ، والقرمز : صبغة .

۱۰۸ - خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه

ولما رأى الأمين الأمر قد تولى عنه ، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر ، أمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من القواد والجند ، فأشرف عليهم وقال :
« الحمد لله الذي يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، وإليه المصير ،
أحمده على نوائب الزمان ، وخذلان الأعوان ، وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال ، وحلول
النوائب ، وتوفد المصائب ، حمداً يدخر لي به أجزل الجزاء ، ويرفدني^(۱) أحسن العزاء ،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كما شهد لنفسه ، وشهدت له ملائكته ،
وأن محمداً عبده الأمين ، ورسوله إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم ، آمين رب العالمين .
أما بعد : يامعشر الأبناء ، وأهل السبق إلى الهدى ، فقد علمتم غفلة كانت أيام
الفضل بن الربيع وزير عليٍّ ومشير ، فمادت^(۲) به الأيام بما كزمني به من الندامة
في الخاصة والعامة ، إلى أن نبهتموني فانتبهت ، واستعنتموني في جميع ما كرهتم من
نفسى وفيكم ، فبذلت لكم ما حواه ملكي ، ونالته مقدرتي مما جمعه وورثته عن آبائي
فقودت^(۳) من لم يجز ، واستكفيت من لم يكف ، واجتهدت - علم الله - في طلب
رضاكم بكل ما قدرت عليه ، واجتهدتم - علم الله - في مساءتي في كل يوم ما قدرت
عليه ، من ذلك توجيهي إليكم علي بن عيسى شيخكم وكبيركم ، وأهل الرأفة بكم ،
والتحنن عليكم ، فكان منكم ما يطول ذكره ، فغفرت الذنب ، وأحسنتم واحتملت
وعزيت نفسي عند معرفتي بشذوذ الظفر ، وحرصى على مقامكم مسلحة^(۴) حلوان
مع ابن كبير صاحب دعوتكم ، ومن على يدي أبيه^(۵) كان فخركم ، وبه تمت طاعتكم

(۱) رفته وأرفده : أعطاه . (۲) طاولته وأهلكته . (۳) أى انخلته قائداً .

(۴) المسلحة : القوم ذرو سلاح .

(۵) يعنى جد عبد الله بن حميد بن تحطبة ، وهو تحطبة بن شبيب الطائي ، أحد الدعاة العباسية والقواد

للدين قاتلوا الجيوش الأموية - انظر الجزء الثاني ص ۵۱۳

عبد الله بن حميد بن قحطبة ، فصرتم من التائب عليه إلى مالا طاقة له به ، ولا صبراً عليه ، يقودكم رجل منكم وأتم عشرون ألفاً إلى عامين ، وعلى سيدكم متوثبين ، مع سعيد الفرد ، سامعين له مطيعين ، ثم وثبتم مع الحسين عليّ ، فخلعتموني وشتمتموني ، واتهبتموني وحبستموني وقيدتموني ، وأشياء منعتموني من ذكرها ، حقد قلوبكم ، وتلكي^(١) طاعتكم أكبر وأكثر ، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ، ورضي بقدره ، والسلام .

وكانت عاقبة أمره أن قتل سنة ١٩٨ هـ وحمل رأسه إلى المأمون بخراسان .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٥ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٠٥)

١٠٩ - استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون

وقال المأمون للفضل بن الربيع^(٢) لما ظفر به : « يا فضل ، أكان من حقّ عليك وحقّ آباؤي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تشلّيني^(٣) وتسبّني وتحرّض عليّ دمي ؟ أحبّ أن أفعل بك ما فعلته بي ؟ » .

فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن عذري يُحقّدك إذا كان واضحاً جميلاً ، فكيف إذا حفتته^(٤) العيوب ، وقبّحته الذنوب ، فلا يضيق عني من عفوك ما وسّع غيري منك فأنت كما قال الشاعر^(٥) فيك :

صَفُوحٌ عَنِ الْأَجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا
وَلَيْسَ يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَذَى إِذَا مَا الْأَذَى لَمْ يَغْشَ بِالْكَرْهِ مُسَاهِمًا
(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

(١) مسهل عن تلكؤ . (٢) توفي سنة ٢٠٨ . (٣) ثلّبه كضربه : لامة وعابه .

(٤) هكذا في الأصل ، وربما كان « أخفته » لقوله قبل : « إذا كان واضحاً » .

(٥) هو الحسن بن رجاء بن أبي الضمك .

۱۱۰ - خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين

ودخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين ، فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة ، وقد حضره من بني هاشم والقواد وغيرهم جماعة كثيرة قال :

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ، وَلَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، إِنْ ظَهَرَ غَلَبَتْنَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَيْدِينَا وَلَا كَيْدِنَا ، بَلْ اخْتَارَ اللَّهُ لِلْخِلَافَةِ ، إِذْ جَعَلَهَا عِمَاداً لِدِينِهِ ، وَقَوَاماً لِعِبَادِهِ ، وَضَبَطَ الْأَطْرَافَ ، وَسَدَّدَ الثُّغُورَ ، وَإِعْدَادَ الْعُدَّةِ ، وَجَمَعَ النِّعَى ، وَإِنْفَازَ الْحُكْمِ ، وَنَشَرَ الْعَدْلَ ، وَإِحْيَاءَ السُّنَّةِ بَعْدَ إِذْ بَالَ الْبَطَالَاتُ ، وَالتَّلَذُّ بِمُوبِقِ الشَّهَوَاتِ ، وَالْمُخْلَدِ إِلَى الدُّنْيَا مُسْتَحْسِنٌ لِدَاعِي غُرُورِهَا ، مُحْتَلِبٌ دِرَّةً^(۱) نِعْمَهَا ، أَلِفَ لَزْهَرَةٍ رَوَّضَتَهَا ، كَلِفَ بَرَوْتِقٍ بَهَجَتَهَا ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ وِفَاءِ مَوْعُودِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا لِمَنْ بَغَى عَلَيْهِ ، وَمَا أَحَلَّ بِهِ مِنْ بَأْسِهِ وَنَقْمَتِهِ ، لَمَّا نَكَبَ^(۲) عَنْ عَهْدِهِ ، وَارْتَكَبَ مَعْصِيَتَهُ ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَغَيَّرَهُ نَاهِيَةَ ، وَعَظَمَتَهُ مَوْدَبَةً ، فَتَمَسَّكُوا بِدِقَائِقِ عُصْمِ^(۳) الطَّاعَةِ ، وَاسْتَكُوا مَنَاحِي سَبِيلِ الْجَمَاعَةِ ، وَاحذَرُوا مِصَارِعَ أَهْلِ الْخِلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ ، الَّذِينَ قَدَحُوا زِنَادَ الْفِتْنَةِ ، وَصَدَّعُوا شَعْبَ الْأُفَّةِ ، فَأَعَقَبَهُمُ اللَّهُ خَسَارَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . »

(تاريخ الطبري ۱۰ : ۲۰۶ ، والمعقد الفريد ۲ : ۱۵۵)

(۲) عدل .

(۱) الدرة : البين .

(۳) جمع عصام ككتاب ، وعصام القرية : رباطها وسيرها الذي تحمل به .

خطب المأمون (توفي سنة ٥٢١٨ هـ)

١١١ - خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد

خطب الناس بمرو حين ورد عليه نعي الرشيد ، فقال :
« إن ثمرة الصبر الأجر ، وثمره الجزع الوزر ، والتسليم لأمر الله عز وجل ، فائدة
جليلة ، وتجارة مربية ، فالموت حوض مورود ، وكأس مشروب ، وقد أتى على خليفتم
ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، فما كان إلا عبداً
دعياً فأجاب ، وأمر فاطاع ، وقد سدد أمير المؤمنين ثلمه ، وقام مقامه ، وفي أعناقكم
من العهد ما قد عرفتم ، فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضي ، واغتنبوا بالنعماء والوفاء
في خليفتم الباقي ، بأهل الدنيا : الموت نازل ، والأجل طالب ، وأمس واعظ ،
واليوم مغتتم ، وغد منتظر » .

١١٢ - خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافة

ولما بلغه بخراسان قتل أخيه ، وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، صعد المنبر ،
فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :
« أيها الناس : إني جعلتُ لله على نفسي ، إن أسترعاني أموركم أن أطيعه فيكم ،
ولا أسفك دماً عمداً لا تحلّه حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ، ولا
أثاثاً ، ولا نحلة^(١) تحرم على ، ولا أحكم بهوى ، في غضبي ولا رضاي ، إلا ما كان

(١) نحلة : إعطاء والاسم للنحلة .

في الله وله ، جعلت كلُّه لله عهداً مؤكداً ، وميثاقاً مُشدداً ، إني أفي رغبةً في زيادته
إيأى في نعمتي ، ورهبةً من مسألتِهِ إيأى عن حقه وخلقه ، فإن غيَّرتُ أو بدلتُ كنتُ
للغيرِ مستأهلاً ، وللنكالِ مُعرَّضاً ، وأعوذ بالله من سخطِهِ ، وأرغب إليه في المعونة على
طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

١١٣ - خطبته يوم الجمعة

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمدُه وأستعينه ، وأؤمن
به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ،
أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجُّز لوعده ، والخوف
لوعيده ، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله
عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد
جدَّ بكم ، واستعدُّوا للموت فقد أظلمكم ، وكونوا قوماً صريح بهم فانتبهوا ، وعلموا أن
الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، وما بين
أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها
الساعة الواحدة ، لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحدوه^(١) الجديدان : الليل والنهار
كحري بسرعة الأوبة ، وإن قادماً يحل بالفوز أو بالشقوة مستحق لأفضل العدة ، فاتق
عبد ربَّه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله
خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوقها ، حتى
تهجم عليه منيته ، أغفل ما يكون عنها ، فيألها حسرة على ذي غفلة ، أن يكون عمره
عليه حجة ، أو تؤدِّيه أيامه إلى شقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبطرُه نعمة ،

وَلَا تَقْصُرْ بِهِ عَنْ طَاعَتِهِ غَفْلَةً ، وَلَا تَحُلَّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فَرْعَةً . إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ، وَبَيْدُهُ الْخَيْرُ ، وَإِنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ » . (عيون الأخبار م ۲ : ص ۲۵۳ ، والعقد الفريد ۲ : ۱۴۸)

۱۱۴ - خطبته يوم الأضحي

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشریفه ، وعظم حرمة ، ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه من الذبح نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومقدم الأيام المعدودات من النفر^(۱) ، يوم حرام ، من أيام عظام ، في شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله إلى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ ، وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(۲) » .

فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم ، وعظّموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول : « لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ^(۳) » ، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية

(۱) يوم النفر : اليوم الذي ينفر فيه الناس من منى ، وهو بعد يوم القر (يوم التمر بالفتح : اليوم الذي

بعد يوم النحر ، لأن الناس يتقربون في منازلهم) .

(۲) رجلا : أي مشاة ، جمع راجل كقائم وقيام ، - وعلى كل ضامر : أي وركبانا على كل ضامر ، أي

بمير مهزول ، يأتين : أي الضوامر ، صفة لضاير حلا على المعنى ، من كل فج عميق : أي طريق بعيد ، ليشهدوا

منافع لهم : دينية ودنيوية ، في أيام معلومات : هي عشر ذي الحجة ، وقيل : أيام النحر ، من بهيمة الأنعام :

الإبل والبقرة والغنم التي تنحر لضحايا ، ثم ليقضوا تفثهم : أي يزيلوا أوساخهم وشعثهم من نحو قص الأظفار ،

وحلق العانة ، وغير ذلك . (۳) أي يرفع إليه منكم العمل الصالح .

بالتقوى ، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار ، عَظُمَ قَدْرُ الدارين ، وارتفع جزاء العَمَلين^(۱) ،
وطالت مدة الفريقين ، اللهُ اللهُ ، فوالله إنه أَلْبَدُ لا اللَّعِبَ ، وإنه الحق لا الكذب ،
وما هو إلا الموت والبعث ، والميزان والحساب والقصاص والصراط ، ثم العقاب
والثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ،
والشر كله في النار . (عيون الأخبار م ۲ : ص ۲۵۴ ، وللمقد الفريد ۲ : ۱۴۸)

۱۱۵ - خطبته يوم الفطر

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم عيد وسنة ، وابتهاال وورغبة ، يوم
ختم الله به صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، فجعله خاتمة الشهر ، وأول
أيام شهور الحج ، وجعله مُعَقَّباً لمفروض صومكم ، ومُتَنَفَّلَ قيامكم ، أحل فيه الطعام
لكم ، وحرّم فيه الصيام عليكم ، فاطلبوا إلى الله حوائجكم ، واستغفروه لتفريطكم ،
فإنه يقال : « لا كبير مع استغفار ، ولا صغير مع إصرار » ثم التكبير والتحميد ،
وذكر النبي عليه الصلاة والسلام ، والوصية بالتقوى ، ثم قال : فاتقوا الله عباد الله ،
وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم ، ولم يحْتَظِر^(۲) الشك فيه أحداً منكم ، وهو
الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تُسْتَقَالُ بعده عثرة ، ولا تُحْظَرُ قبله توبة ، واعلموا
أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده إلا فوقه ، ولا يُعِينُ على جزعه وعَلَزَه^(۳)
وَكَرْبَه . ولا يعين على القبر وظلمته ، وَضِيقِهِ وَوَحْشَتِهِ ، وَهَوْلِ مَطَامِهِ وَمَسْأَلَةِ ملائكته ،
إلا العمل الصالح الذي أمر الله به ، فمن زلت عند الموت قدمه ، فقد ظهرت ندامته ،
وفاتته استقالته ، ودعا من الرجعة إلى مالا يُجَابُ إليه ، وبذل من الفدية مالا يُقْبَلُ منه ،
فالله الله عباد الله ، وكونوا قوماً سألوا الرجعة فأعطوها ، إذ مُنِعَهَا الذين طلبوها ،

(۱) أى عمل الخير وعمل الشر . (۲) يحضر .

(۳) العلز : ما يصيب المريض عند حشرجة الموت من رهدة واضطراب .

فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهلّ المبسوط لكم ، واحذروا ما حذرکم الله ،
 واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحيفكم الحافظة لأعمالكم ،
 فالينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به ، وما يميل^(۱) في صحيفته الحافظة لما عليه وله ،
 فقد حكى الله لكم ما قال المفرطون عندها ، إذ طال إعراضهم عنها ، قال : « وَوُضِعَ
 الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ
 لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ
 أَحَدًا » ، وقال : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ^(۲) لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ،
 وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنِيَ بِنَا حَاسِبِينَ » ، ولست أنها كم عن
 الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها ، فإن كل ما بها ينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو
 إلى غيرها ، وأعظم مما رأته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله لها ، ونهى الله عنها ،
 فإنه يقول : « فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، وقال :
 « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوٌ . . . الآية » ، فانتفعوا بمعرفتكم بها ، وبإخبار الله عنها ،
 واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائِعها ،
 وآثروا طاعة الله فيها ، فأدركوا الجنة بما تركوا منها .
 (عيون الأخبار م ۲ : ص ۲۵۵ ؛ والعقد الفريد ۲ : ۱۴۸)

۱۱۶ - خطبة ابن طباطبا العلوى

وخطب محمد^(۳) بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطباً بن الحسن بن الحسن بن
 على بن أبي طالب ، حين انتهب قائد جيوشه أبو السرايا السرى ابن منصور قصر
 العباس بن موسى بن عيسى ، فقال :

(۱) يميل . (۲) القسط : العدل : مصدر وصف به للمبالغة أو ذوات القسط .

(۳) خرج بالكوفة لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ۱۹۹ هـ يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل
 بالكتاب والسنة ، وكان القيم بأمره في تدبير الحرب ، وقيادة جيوشه أبا السرايا السرى بن منصور وكان سبب
 خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التي افتتحها ، وتوجيهه إلى ذلك الحسن .

« أما بعدُ : فإنه لا يزال يبُلغني أن القائل منكم يقول : إن بني العباس فينا ، ونخوضُ في دماءهم ، ونرتعُ في أموالهم ، ويُقبلُ قولنا فيهم ، وتُصدّقُ دعوانا عليهم ، حُكم بلا علم ، وعزْم بلا رويّة ! عَجَباً لمن يُطلقُ بذلك لسانه ، ويحدّثُ به نفسه ! أبكتاب الله تعالى حَكم ، أم لِسنة نبيه صلى الله عليه وسلم أتبع ؟ أفي مَيْلي^(۱) معه طَمِعَ ، أم بَسَطَ يدي له بالجوّد أَمَل ؟ هيهات ! فازدوا الحقّ بما نوى ، وأخطأ ذوا الباطل بما تمّني ، حقُّ كلِّ ذي حقٍّ في يده ، وكلُّ مُدّعٍ على حجتِهِ ، وَيَلُ من اغتصب حقّاً ، وادعى باطلاً ، أفلح من رَضِيَ بحكم الله ، وخاف من أرغم الحقُّ أنفه ، العَدْلُ أَوْلَى بالأثرة وإن رَغِمَ الجاهلون ، حُقَّ لمن أمر بالمعروف أن يجتنب المنكر ، ومن سلك سبيل العدل أن يصبر على مرارة الحق ، كل نفس تسمو إلى همتها ، ونعَمُ الصاحبُ القناعة .

أيها الناس ، إن أكرم العبادة الورع ، وأفضل الزاد التقوى ، واعملوا في دنياكم ، وتزوّدوا الآخرتكم ، اتقوا الله حقَّ تقايتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وإياكم والعصبية وَحَمِيَّةَ الجاهلية ، فإنهما يَمَحِقَانِ الدين ، ويورثان النفاق ، ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، يَصْلُحْ لَكُمْ دينكم ، وتحسُنِ المقالة فيكم . الحقُّ أبلجٌ ، والسبيل منهجٌ ، والباطل لَجَاجٌ^(۲) ، والناس مختلفون ، وَلِكُلِّ فِي الحقِّ سَعَةٌ ، من حَارَبَنَا حَارَبَنَا ،

= ابن سهل ، فلما فعل ذلك تحدث الناس بالعراق أن الفضل بن سهل قد غاب حل المأمون ، وأنه قد أنزله قصرًا حجه فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الخاصة والعامّة ، وأنه يهرم الأمور على « واه ، ويستبد بالراي دونه ، ففضب لذلك بالعراق من كان بها من بني هاشم ، ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة للفضل حل المأمون ، واجتروا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن في الأمصار ، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا المذكور ، فوجه إليه الحسن بن سهل زهير بن المسيب في عشرة آلاف فواقهم فهزموه واستباحوا عسكره ، فلما كان من غد اليوم الذي كانت فيه الوقعة (وذلك يوم الخميس ليلة خلت من رجب سنة ۱۹۹) مات ابن طباطبا فجأة فذكر أن أبا السرايا سمع ، وذلك أن ابن طباطبا لما أحرز ما في عسكر زهير منعه أبا السرايا ، وحظره عليه ، وكان الناس له مطيعين ، فلم أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسمه .

(۱) في الأصل : « أفي مثل » و« تحريف ، والصواب ما ذكرته .

(۲) أبلج : أي واضح بين . والمنهج الطريق الواضح ، والباطل بالحلج : أي يترد دفيه صاحبه فلا يصيب مخرجا .

وَمَنْ سَأَلْنَا سَأَلْنَا ، وَالنَّاسَ جَمِيعًا آمِنُونَ إِلَّا رَجُلًا نَصَبْنَا لِنَا نَفْسِهِ ، وَأَعَانَ عَلَيْنَا بِمَالِهِ ،
وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ : وَرَجُلٌ قَالَ فِينَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَعْرَاضِنَا : لَقُلْتُ ، وَكُنِي ، حَسْبُ كُلِّ
أَمْرٍ مَا يَصْنَعُهُ ، وَسَيُكْفِي الظَّالِمُونَ . (موسم الأدب ۲ : ۱۱۳)

۱۱۷ - استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون

لما ظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي^(۱) أمر بإدخاله عليه ، فجىء بإبراهيم
يَحْبُلُ^(۲) في قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له
المأمون : لا سلم الله عليك ، ولا حفظك ، ولا رعاك ، ولا كلاك^(۳) يا إبراهيم ، فقال
له إبراهيم : على رسلك^(۴) يا أمير المؤمنين ، ولي^(۵) الثار محكم في القصاص ، والعفو
أقرب للتقوى ، ومن مد له الاغترار في الأمل ، هجمت به الأناة على التلف^(۶) وقد
أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل^(۷) عفو ، فإن تعاقب فبحقك ،
وإن تعف فبفضلك ، ثم قال :

ذَنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
نَحْذُ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالِي مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

فأطرق المأمون ملياً ، ثم رفع رأسه فقال : إني شاورت أبا إسحاق^(۸) والعباس

(۱) كان المأمون قد عهد بالخلافة لعل الرضا بن موسى الكاظم ، فلما سمع العباسيون ببغداد (وكان المأمون
يمرو حاضرة خراسان) ما فعله المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ، أنكروا منه ذلك ،
وخلعوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي سنة ۲۰۱ هـ ، ولما علم المأمون بذلك جد في المسير إلى بغداد ،
وهرب عمه إبراهيم وتواري .

(۲) حبيل المقيد كضرب ونصر : رفع رجلا ، وتريث في مشيه هل رجله .

(۳) كلاه : حرسه . (۴) المهل والثؤدة . (۵) صاحبه .

(۶) وفي رواية : « ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرخاء ، أمن عادية الدهر » .

(۷) وفي رواية : « وقد أصبحت فوق كل ذنب ، كما أصبح كل ذنب عفو دونك » وفي أخرى :

« وقد جعلك الله فوق كل ذنب ، كما جعل كل ذنب دونك » .

(۸) أبو إسحاق هو المعتصم أخو المأمون ، والعباس هو ابن المأمون .

فی قتلک فأشارا علیَّ به ، قال : فما قلتَ لهما یا أمیر المؤمنین ؟ قال : قلتُ لهما : بدأنا له بإحسان ، ونحن نستأمره فيه ، فإن غیرَ فالله یغیر ما به ، قال : أمّا أن یكونا قد نصحاک فی عِظَم قدر الملك ، وما جرّت علیه عادةُ السياسة فقد فعلا ، ولكن أیتَ أن تستجلب النصر إلا من حیثُ عوّدک الله ، ثم استعبر با کیمًا ، فقال له المأمون : ما یُبکیک ؟ قال : جدًّا ، إذ کان ذنبی إلى من هذه صِفته فی الإنعام ، ثم قال : یا أمیر المؤمنین إنه وإن کان جرّمی یبلغ سفکَ دمی ، فحلم أمیر المؤمنین وتفضله یبلغاننی عفوّه ، ولی بعدها شفاعةُ الإقرار بالذنب ، وحرمةُ الأبِ بعد الأبِ ، قال المأمون : « القدرةُ تذهب الحفیظة ^(۱) ، والندمُ توبةٌ ، وعفوُ الله بینهما ، وهو أكبر ما یحاول ، یا إبراهیم : لقد حبّبتُ إلى العفو ، حتی خفتُ أن لا أوجرَ علیه ، أما لو علمَ الناس ما لنا فی العفو من اللذة ، لتقربوا إلینا بالجنايات ، لاثریب ^(۲) علیک ، یغفر الله لک ، ولو لم یکن فی حق نسبک ما یبلغ الصفح عن زلتک ، لبلغک ما أمّات حسنُ توصلک ، ولطیف تنصلک » ، ثم أمر بردَّ ماله وضايعه ، فقال :

رَدَدْتَ مَالی ، ولم تبخلْ علیَّ به
وَقَبْلَ رَدِّکَ مَالی قد حَقَّقْتَ دمی
فَأَبْتُ مِنْکَ - وما کافَأْتُهَا - بیدِ
ها الحیاتان من وَفَرَوْنَ عَدَمَ ^(۳)
وَقَامَ عَلَمُکَ بی فاحتجَّ عندک لی
مَقَامَ شَاهِدِ عَدْلِ غَیْرِ مُتَّهِمِ
فَلو بَدَأْتُ دمی أَبْغِی رِضَاکَ به
والمالَ ، حتی أسلَّ النعلَ من قَدَمی
ما کان ذاک سِوَى عاریةٍ رَجَعْتُ
إلیک ، لو لم تَهَبَّهَا کنتَ لم تُلَمَّ

(الأغانی ۹ : ۵۷ ، والمعقد الفرید ۱ : ۱۴۲ ، الأمالی ۱ : ۲۰۲ ، وزهر الأداب ۳ : ۱۹۱)

(۱) الحفیظة : الغضب ، وفی رواية الأغانی أن هذه الجملة من قول إبراهیم بن المهدي .
(۲) لا لوم .
(۳) لید : النعمة .

۱۱۸ - إبراهيم بن المهدي وبختيشوع الطيب

تنازع إبراهيم بن المهدي هو وبختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن دؤاد القاضي ،
 في مجالس الحكم ، في عقار بناحية السواد^(۱) ، فزرى عليه^(۲) ابن المهدي ، وأغلظ له
 بين يدي أحمد بن دؤاد ، فأحفظه^(۳) ذلك ، فقال : يا إبراهيم إذا نازعت أحداً في مجلس
 الحكم ، فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ، ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أئماً^(۴) ،
 وطريقك نهجاً^(۵) ، وريحك ساكنة ، وكلامك معتديلاً ، ووقف مجلس الحكومة
 حقوقها ، من التوقير والتعظيم والاستكانة والتوجه إلى الواجب ، فإن ذلك أشبه بك
 وأشكل لمذهبك في محنتك^(۶) ، وعظيم خطر^(۷) ، ولا تعجل ، فرباً مجلّة
 تهب ريثاً^(۸) ، والله يعصمك من الزلل ، وخطأ القول والعمل ، ويتم نعمته عليك
 كما أتمها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم .

قال إبراهيم : « أصاحك الله أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست
 بعائد إلى ما يثلم^(۹) مروءتي عندك ، ويسقطني من عينك ، ويخرجني من مقدار
 الواجب إلى الاعتذار ، فهأنأ معتذراً إليك من هذه البادرة ، اعتذاراً مقرّ بذنبه ، باخج
 بجرمه^(۱۰) ، فإن الغضب لا يزال يستفزني بموادّه ، فيردني مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله
 عندنا منك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد وهبت حق من هذا العقار لبختيشوع ،
 فآيت ذلك اليوم يعول^(۱۱) بأرّش^(۱۲) الجناية ، ولم يتلف مال أفاد موعظة ، وبالله التوفيق .
 (العقد الفريد ۱ : ۲۷ ، وزهر الآداب ۱ : ۲۳۲)

(۱) سواد العراق ، والعقار : كل ملك ثابت له أصل كالدار والنخل ، والجمع عقارات .
 (۲) عابه . (۳) أغضبه . (۴) الأعم : القصد الوسط . (۵) واضحاً .
 (۶) أصلك . (۷) قدرك . (۸) إبطاء . (۹) يعيب وينقص . (۱۰) مقر .
 (۱۱) يزهو ويرجع . (۱۲) الأرض : الدبة .

١١٩ - استعطاف إسحاق بن العباس المأمون

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : « لَأَتَحَسَّبَنِي أُغْفَلْتُ إِجْلَابِكَ مَعَ ابْنِ الْمَهْدِيِّ ،
وَتَأْمِيدِكَ لِرَأْيِهِ ، وَإِيقَادِكَ لِنَارِهِ ، قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَرَحِمِي أَمْسُ مِنْ أَرْحَامِهِمْ
وَقَدْ قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ : « لَا تَثْرِبَنَّ (١) عَلَيْنَا الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ
لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقُّ وَارِثٌ لِهَذِهِ الْمِنَّةِ ، وَمُمْتَلِ (٢)

لِحِلَالِ الْعَفْوِ وَالْفَضْلِ . »

قال : هيهات ! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام ، وجرمك جرم في إسلامك ،
وفي دار خلافتك . قال : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاللَّهِ لَلْمُسْلِمِ أَحَقُّ بِإِقَالَةِ الْعَثْرَةِ ، وَغُفْرَانِ
الزَّلَّةِ مِنَ الْكَافِرِ ، هَذَا كِتَابُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « وَسَارِعُوا إِلَى
مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ » فَهِيَ لِلنَّاسِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُنَّةٌ دَخَلَ فِيهَا الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ ، وَالشَّرِيفُ
وَالْمَشْرُوفُ » قَالَ : صَدَقْتَ ، اجْلِسْ ، وَرَبِّتْ بِكَ زِنَادِي ، وَلَا بَرِحْتُ أَرَى مِنْ
أَهْلِكَ أَمْثَالَكَ . (العقد الفريد ١ : ١٤٢ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٣)

١٢٠ - أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها

لما دخل المأمون بغداد ، تلقاه وجوه أهلها ، فقال له رجل منهم : « يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي مَقْدَمِكَ ، وَزَادَ فِي نِعْمَتِكَ ، وَشَكَرَكَ عَنِ رِعِيَّتِكَ ، تَقَدَّمَتْ
مَنْ قَبْلَكَ ، وَأَتَعَبَتْ مَنْ بَعْدَكَ (٣) ، وَآيَسَتْ أَنْ يُعَايِنَ مِثْلُكَ ، أَمَا فِيمَا مَضَى فَلَا نَعْرِفُهُ ،

(١) لا لوم . (٢) امتثل طريقته : تبمها فلم يمدحها .

(٣) إذ أنه يجهد أن يلحق بك فلا يستطيع .

وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فنحن جميعاً ندعو لك ، ونثنى عليك ، خصب لنا جنابك ،
وعذب ثوابك ، وحسنت نظرتك ، وكرمت مقدرتك ، جبرت الفقير ، وفككت
الأسير ، فإنك يا أمير المؤمنين كما قال الأول :

ما زلتَ في البذل والنوال وإطلاقِ إيمانٍ بجرمه غَلِقِ (۱)
حتى تمنى البراء أنهم عندك أسرى في القيدِ والحلقِ (۲)

(العقدة الفريدة ۱ : ۱۳۷)

۱۳۱ - أحد أهل الكوفة يمدح المأمون

وقدم وفد من الكوفة إلى بغداد ، فوقفوا للمأمون فأعرض عنهم ، فقال شيخ
منهم : « يا أمير المؤمنين : يدك أحقُّ يدٍ بتقبيل ، لعلوها في المكارم ، وبعدها من
المآثم ، وأنت يوسف العفو في قلة التثريب ، من أرادك بسوء جعله الله حصيد سيفك ،
وطريد خوفك ، وذليل دولتك » ، فقال ياعمرو : نعم الخطيب خطيبهم ، أقض حوائجهم .
(مرجع الذهب ۲ : ۳۱۹)

۱۳۲ - محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم ، فقال :
« يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك ، ربيب دولتك ، وسليل نعمتك ،
وغصن من أغصان دوحتك (۳) ، أتأذن في الكلام ؟ قال نعم ، قال : « أستمع الله
حياطة ديننا ودنيانا ، ورعاية أدياننا وأقصادنا ببقائك ، ونسأله أن يزيد في عمرك من
أعمارنا ، وفي أثرك من آثارنا ، ويقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، هذا مقام العائد
بفضلك ، الهارب إلى كنفك وظلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك » ، ثم تكلم في حاجته ،
فقتضاها .
(العقدة الفريدة ۱ : ۱۴۶)

(۱) العاف : الأسير ، والغلق : أصله من خاق الرهن إذا استحمته المرتهن ، وذلك إذا لم يفتكك في الوقت

المشروط . (۲) البراء ككهرام جمع برى .

(۳) الدرحة : الشجرة العظيمة .

۱۲۳ - الحسن بن سهل يمدح المأمون

وقال الحسن بن سهل^(۱) يوماً للمأمون :

« الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ، وَسَنِيَّ ما أعطاك ، إذ قَسَمَ لك
الخلافة ، ووهب لك معها الحِجَّةَ ، وَمَكَّنَكَ بالسلطان ، وَحَلَّاهُ لك بالعدل ، وَأَيَّدَكَ
بالظفر ، وَشَفَعَهُ لك بالعمو ، وَأَوْجِبَ لك السعادة ، وَقَرَّنَهَا بالسيادة ، فمن فُسِحَ^(۲) له
في مثل عطية الله لك ؟ أم مَنْ ألبسه الله تعالى مِنْ زينة المواهب ما ألبَسَكَ ؟ أم من ترادفتْ
نعمةُ الله تعالى عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحدٌ وارْتَبَطَها بمثل محاولتك ؟ أم أى
حاجة بَقِيَتْ لرعيته لم يجدوها عندك ؟ أم أى قِيَمٍ للإسلام انتهى إلى عنايتك وَدَرَجَتِكَ ؟
تعالى الله تعالى ، ما أعظم ما مَحَصَّ القَرْنَ الذى أنت ناصِرُهُ ، وسبحان الله ! أىُّ نعمة
طَبَّقَتْ^(۳) الأرض بك إن أدَّى شكرها إلى بارئها والمنعم على العباد بها ؟ إن الله تعالى
خلق السماء في فَلَكَها ضياءً يَسْتَنيرُ بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ،
فهل لَيْسَتْه زينتُهُ إلا بما اتصل به من نورك ؟ وكذلك كل وَليٍّ من أوليائك ، سَعِدَ
بأفعاله في دولتك ، وَحَسُنَتْ صنائعه عند رعيته ، فإنما نالها بما أيدته من رأيك
وتدبيرك ، وأسعدته من حسنك وتقويمك » .

(زهر الآداب ۳ : ۲۰۰)

۱۲۴ - يحيى بن أكرم يمدح المأمون

وقال المأمون ليحيى بن أكرم^(۴) : صف لى حالى عند الناس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، قد انقادت لك الأمور بأزمته ، ومَلَكَتْ الأمة فُضُولَ

(۱) وزر للمأمون بعد أخيه الفضل بن سهل ، وتزوج المأمون ابنته بوران ؛ وتوفى سنة ۲۳۶ هـ .
(۲) أى وسع . (۳) ملأت وامت ، والاستفهام للتعظيم .
(۴) من ولد أكرم بن صيفى التميمى ، وكان فقيها عالما بالفقه بصيراً بالأحكام ؛ وقد غلب على المأمون ؛
حتى لم يقدمه أحد من الناس جهماً ؛ وقلده قضاء القضاة ، وتدبير أهل مملكته ؛ فكانت الوزراء لا تعطل
في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكرم ؛ وتوفى سنة ۲۴۶ هـ ؛ وعمره ۸۲ سنة .

أَعْنَتَهَا ، بِالرَّغْبَةِ إِلَيْكَ ، وَالْمُحِبَّةَ لَكَ ، وَالرَّفْقَ مِنْكَ ، وَالْعِيَاذَ بِكَ ، بِعَدْلِكَ فِيهِمْ ، وَمِنْكَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى لَقَدْ أَنْسَيْتَهُمْ سَلَفَكَ ، وَأَيْسَتَهُمْ مِنْ خَلْفِكَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَنَا بِكَ بَعْدَ التَّقَاتِعِ ، وَرَفَعَنَا فِي دَوْلَتِكَ بَعْدَ التَّوَاضِعِ .

فَقَالَ : يَا بَحِي ، أَتَحْبِرُ أَمْ أَرْتَجِلُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : وَهَلْ يَمْتَنِعُ فِيكَ وَصْفٌ ، أَوْ يَتَعَذَّرُ عَلَى مَا دَحَكَ قَوْلٌ ، أَوْ يُفْجَمُ فِيكَ شَاعِرٌ ، أَوْ يَتَلَجَّلُجُ فِيكَ خَطِيبٌ ؟
(الصناعتين ص ٤٠)

١٢٥ - أَحَدُ بَنِي هَاشِمٍ وَالْمَأْمُونُ

أَذْنَبَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ذَنْبًا ، فَعَنَّفَهُ الْمَأْمُونُ ، فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَانَتْ لَهُ مِثْلُ دَأْتِي ، وَلَيْسَ شَوْبَ حُرْمَتِي ، وَمَتَّ بِمِثْلِ قَرَابَتِي ، غُفِرَ لَهُ فَوْقَ زَلَّتِي » فَأَعْجَبَ الْمَأْمُونُ كَلَامَهُ وَصَفَحَ عَنْهُ .
(الأمالي ٢ : ١٣٦ ؛ وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٢٦ - رَجُلٌ يَتَظَلَّمُ إِلَى الْمَأْمُونِ

وَتَظَلَّمَ رَجُلٌ إِلَى الْمَأْمُونِ مِنْ عَامِلٍ لَهُ فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا تَرَكَ لِي فِضَّةً إِلَّا فَضَّهَا ، وَلَا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ ، وَلَا غَلَّةً إِلَّا غَلَّهَا^(١) ، وَلَا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا ، وَلَا عِلْقًا^(٢) إِلَّا عَلِقَهُ ، وَلَا عَرَضًا إِلَّا عَرَضَ لَهُ ، وَلَا مَاشِيَةً إِلَّا أَمْتَشَّهَا^(٣) ، وَلَا جَلِيلًا إِلَّا أَجْلَاهُ ، وَلَا دَقِيقًا إِلَّا دَقَّهَ » ، فَعَجِبَ مِنْ فَصَاحَتِهِ وَقَضَى حَاجَتَهُ .
(زهر الآداب ٢ : ١٣٧)

(١) المراد احتيازها ؛ والأصل فيه غلة : أى وضع في عنقه أو يده الفل (بالضم) وهو القيد .
(٢) العلق : اللفيس من كل شيء ؛ وعلق به كفرح أحبه أو هو وعلقه مشدداً . بيئاً للمجهول ؛ علق امرأة : أى أحبها .
(٣) امتش ما في الفروع : أخذ جميعه .

۱۲۷ - عمرو بن سعيد والمأمون

وقال عمرو بن سعيد بن سلم : كانت عليّ نوبةً أنوبها في حرس المأمون ، فكنت في نوبتي ليلةً ، فخرج متفقداً من حضر ، فعرفته ولم يعرفني ، فقال : من أنت ؟ قلت : عمرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسعدك الله ، ابن سلم ، سلمك الله ، فقال : أنت تكلوناً منذ الليلة ؟ قلت : الله يكلوك قبلي ، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، فقال المأمون :

إن أخاك الصدق من يسعى معك
ومن يضرب نفسه لينفعك
ومن إذا صرف الزمان صدعك
بدد شمل نفسه ليجمعك
(زهر الآداب ۲ : ۱۳۷)

۱۲۸ - الحسن بن رجاء والمأمون

دخل المأمون بعض الدواوين ، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم ، فقال : من أنت يا غلام ؟ فقال :

« أنا يا أمير المؤمنين ، الناشئ في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤمل لخدمتك ، خادمك وابن خادمك : الحسن بن رجاء » ، فقال : أحسنت يا غلام ، وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقول ، وأمر برفع مرتبته .
(زهر الآداب ۲ : ۱۷۳)

۱۲۹ - سعيد بن مسلم والمأمون

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة للمأمون :
« لو لم أشكر الله تعالى إلا على حسن ما أبلاني من أمير المؤمنين ، من قصده إلى بحديثه ، وإشارته إلى بطرفه ، لقد كان في ذلك أعظم الرفعة ، وأرفع ما توجب الحُرمة » .

فقال : « يفعل أمير المؤمنين ذلك ، لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حسن الإفهام
إذا حدثت ، وحسن الفهم إذا حدثت ، ما لم يجده عند أحد من مضي ، ولا يظن أنه
يجد عند أحد ممن بقي ، فإنك لتستقصي حديثي ، وتقف عند مقاطع كلامي ، وتخبر
بما كنت أغفلته منه . » (زهر الآداب ۱ : ۱۷۳)

۱۳۰ - أبو زهمان يعظ سعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم : كنت والياً بأرمينية ، فغبر^(۱) أبو زهمان العلاني على
بابي أياماً ، فلما وصل إلى مثل بين يدي قائماً بين السماطين^(۲) وقال :
« والله إني لأعرف أقواماً لو علموا أن سفّ التراب يُقيم من أود^(۳) أصلابهم ،
لجعلوه مسككة^(۴) لازماً فيهم ، إيثاراً للتنزه عن عيش رقيق الحواشي ، أما والله
إني لبعيد الوثبة ، بطيء العطفة ، إنه والله ما يثنيني عليك إلا مثل ما بصرفني عنك
ولأن أكون مقللاً مقرباً ، أحبُّ إلى من أن أكون مكثراً مُبعداً ، والله ما نسأل
عملاً لانضبطه ، ولا مالاً إلا نحن أكثر منه ، وهذا الأمر الذي صار إليك في يدك ،
كان في يد غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فتحبب
إلى عباد الله بحسن البشر ، ولين الجانب ، فإن حبَّ عباد الله موصول بحبَّ الله ،
وبفضهم موصول بفيض الله ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورؤبواؤه على من اعوجَّ
عن سبيله . » (البيان والخبير ۲ : ۱۰۵)

۱۳۱ - وصية طاهر بن الحسين

لابنه عبد الله لما ولّاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما^(۵) سنة ۲۰۶ هـ .
« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ،

(۱) مكث . (۲) السباطان من الناس : الجانبان ؛ يقال : مشى بين السماطين .

(۳) اعوجاج . (۴) المسكة : ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب أو ما يبلغ به منهما .

(۵) أنبعنا هذا الكتاب هنا لأنه في عداد الوصايا .

وخشيته ومراقبته ومزايلة سُخْطِهِ وحفظِ رعيته ، والزَمَ ما ألبسك الله من العافية بالذکر لمعادك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه ، ومستول عنه ، والعمل في ذلك كله بما بعصمك الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وأزمتك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب^(۱) عنهم ، والدفع عن حريمهم وبيضتهم^(۲) ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم^(۳) ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومسائلك عنه ، ومُثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، وفرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك ، ولا يذْهَلْ^(۴) عنه ذاهل ، ولا يَشْغَلْ^(۵) عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك ، وملاك شأنك ، وأول ما يوقفك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تُلْزِمُ به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلك في موافقتها على سُنَنِهَا ، في إسباغ^(۶) الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتّل^(۷) في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وأدأب عليها فإنها كما قال الله : تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة^(۸) الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله في كتابه من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه وإتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ،

(۱) الدفع . (۲) البيضة : حوزة كل شيء .

(۳) وفي مقدمة ابن خلدون : لسربهم ؛ والسرب : النفس

(۴) ذهلت عن الشيء (كفتح) غفلت وقه يعمدى بنفسه . فيقال ذهلت ؛ والأكثر أن يعمدى بالهمزة ؛

فيقال : أذهلتني فلان عن الشيء . (۵) شغله من باب فتح وأشغله لغة جيدة أرقيلة أو رديئة .

(۶) أسبغ الوضوء : وفي كل عضو حقه . (۷) تمهل ولا تعجل .

(۸) استخارته : طلب منه الخبرة .

وَلَا تَمَلِّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ ، لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعِيدٍ ، وَآثِرِ الْفَقْرَةَ
 وَأَهْلَهُ ، وَالدِّينَ وَحَمَلَتَهُ ، وَكِتَابَ اللَّهِ وَالْعَامِلِينَ بِهِ ، فَإِنْ أَفْضَلَ مَا تَزَيَّنَّ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْرَةَ
 فِي دِينِ اللَّهِ ، وَالطَّابَ لَهُ ، وَالْحَثَّ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْرِفَةَ بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى
 الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَالْقَائِدَ لَهُ ، وَالْأَمْرَ بِهِ ، وَالنَّاهِيَ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَوْبِقَاتِ كُلِّهَا ، وَبِهَا مَعَ
 تَوْفِيقِ اللَّهِ تَزْدَادُ الْعِبَادَةُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِنْجِلَالًا لَهُ ، وَدَرَكًا لِلدَّرَجَاتِ الْعُلَا
 فِي الْمَعَادِ ، مَعَ مَا فِي ظَهْوَرِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ ، وَالْهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ ، وَالْأَنْسَةِ بِكَ ،
 وَالثِّقَةِ بِعَدْلِكَ ، وَعَلَيْكَ بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْيَنَ نَفْعًا ، وَلَا أَحْضَرَ
 أَمْنًا ، وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا مِنَ الْقَصْدِ ، وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرَّشْدِ ، وَالرَّشْدُ دَلِيلٌ عَلَى التَّوْفِيقِ ،
 وَالتَّوْفِيقُ قَائِدٌ إِلَى السَّعَادَةِ ، وَقِيَامُ الدِّينِ وَالسُّنَنِ الْهَادِيَةِ بِالْاِقْتِصَادِ ، فَأَثَرُهُ فِي دُنْيَاكَ
 كُلِّهَا ، وَلَا تَقْصُرْ فِي طَابِ الْآخِرَةِ وَالْأَجْرِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَالسُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَمَعَالِمِ
 الرَّشْدِ ، فَلَا غَايَةَ لِلِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْبِرِّ وَالسَّعْيِ لَهُ ، إِذَا كَانَ يُطَلَّبُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَمَرْضَاتُهُ
 وَمُرَافَقَةَ أَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كِرَامَتِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا يُورِثُ الْعِزَّ وَيُحَصِّنُ
 مِنَ الذُّنُوبِ ، وَإِنَّكَ لَنْ تَحُوطَ ^(۱) نَفْسِكَ وَمَنْ يَلِيكَ ، وَلَا تَسْتَصْلِحْ أُمُورَكَ بِأَفْضَلِ مِنْهُ ،
 فَأَتِيهِ وَاهْتَدِ بِهِ تَتِمَّ أُمُورُكَ ، وَتَزِدْ مَقْدَرَتَكَ ، وَتَصْلِحْ خَاصَّتَكَ وَعَامَّتَكَ ، وَأَحْسِنِ الظَّنَّ
 بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَسْتَقِمَ لَكَ رَعِيَّتُكَ ، وَتَلْمَسِ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، تَسْتَدِيمُ بِهِ
 النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ، وَلَا تَتَّهَمَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تَوَلَّيْتَهُ مِنْ عَمَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ أَمْرَهُ ،
 فَإِنَّ إِيقَاعَ التَّهْمِ بِالْإِثْرِ آءٍ ، وَالظَّنُّونَ السَّيِّئَةَ بِهِمْ مَأْتُمْ ، وَاجْعَلْ مِنْ شَأْنِكَ حُسْنَ الظَّنِّ
 بِأَصْحَابِكَ ، وَاطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ ، وَارْفُضْهُ فِيهِمْ ، يُعِينُكَ ذَلِكَ عَلَى اصْطِنَاعِهِمْ ^(۲)
 وَرِيَاضَتِهِمْ ، وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانَ فِي أَمْرِكَ مَفْخَرًا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ مِنَ
 وَهَنِكَ ^(۳) ، فَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْغَمِّ فِي سُوءِ الظَّنِّ مَا يَنْفَعُكَ لَدَاذَةِ عَيْشِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ

(۱) تصون . (۲) اصطنعتك لنفسى : اخترتك لخاصة أمر استكفيتك إياه .

(۳) الوهن يسكون الماء وفتحها ، الضعف .

تجد مُحْسِنِ الظنِ قوَّةَ وراحةٍ ، وَتُكْفَى به ما أَحَببتَ كفايته من أموركَ ، وتدعو به
الناس إلى محبتك ، والاستقامة في الأمور كلها لك ، ولا يمتنع حُسنُ الظنِ بأصحابك
والرأفة برعيتك ، أن تستعمل المسألة والبحث عن أموركَ ، والمباشرة لأُمور الأولياء ،
والحيطة للرعية ، والنظر فيما يُقيمها وَيُصلِحها ، بل لتكن المباشرة لأُمور الأولياء ،
والحيطة للرعية ، والنظر في حوائجهم وَحَمَلُ مَثُوناتهم ، آثَرَ عندك مما سوى ذلك ،
فإنه أقومُ للدين ، وأحيا للسنة ، وأخلصُ نيتك في جميع هذا ، وتفرد بتقويم نفسك
تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزى بما أحسن ، وماخوذ بما أساء ، فإن الله
جعل الدين حِرْزاً وعِزاً ، ورفع من اتبعه وعزَّزه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهجَ الدين
وطريقة الهدى ، وأقيم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ،
ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفریطك في ذلك
لما يُفسد عليك حسنَ ظنك ، واعزم على أمرك في ذلك بالسنة المعروفة ، وجانب
الشبه والبِدعات ، يسلم لك دينك ، وتقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عبداً فبِ به ،
وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وأغمض عن عيب كل ذي عيب
من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغض أهله ، وأقص أهل
النميمة ، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجالها تقريب الكذوب والجرأة على
الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمها ، لأن النميمة لايسلم
صاحبها ، وقائلها لايسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر ، وأحب أهل الصدق والصلاح
وأعز الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعزة
أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف
عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل في سياستهم ، وقم بالحق
فيهم ، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، واملك نفسك عند الغضب ، وآثر

الوقار والحلم ، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول :
إني مُسَلِّطُ أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده
لا شريك له ، وأخاخص لله النية فيه واليقين به ، واعلم أن الملك لله ، يُعْطِيهِ من يشاء ،
وينزعه من يشاء ، ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة إلى أحد ، أسرع منه إلى حمله
النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوط لهم في الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه ،
واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخايرك وكنوزك
التي تدخر وتكيز البر والتقوى والمعدلة ، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد
لأمورهم والحفظ لدهمهم^(١) والإغاثة للمهوفهم ، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت
في الخزائن لا تُشعر ، وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم ، وكف المثونة
عنهم ، نمت وربت وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد
فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفر
منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيته من ذلك حصصهم ،
وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قررت النعمة عليك ،
واستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيته
وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسس لطاعتهم ، وأطيب
نفساً لكل ما أردت ، فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ، ولتعظم حسبتك فيه
فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه ،
وإياك أن تُنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة ، فتهاون بما يحق عليك ، فإن التهاون
يوجب التفريط ، والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى وارج
الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضله ، فاعتصم بالشكر
وعليه فاعتمد ، يزدك الله خيراً وإحساناً ، فإن الله يُثيب بقدر شكر الشاكرين ،

(١) الدماء : جماعه الناس « رف المقدمة : والحفظ لدهمهم » .

وسيرة المحسنين ، وَقَضَى الْحَقَّ فِيمَا حَمَلَ مِنَ النِّعَمِ ، وَأَبْسَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالسُّكْرَامَةِ ،
 وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا ، وَلَا تَمَلُّنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا ، وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا ، وَلَا
 تَدَاهِنَنَّ عَدُوًّا ، وَلَا تَصَدَّقَنَّ نَمَامًا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تَوَالِيَنَّ فَاسِقًا ، وَلَا تَتَّبِعَنَّ
 غَاوِيًا ، وَلَا تَحْمَدَنَّ مُرَائِيًا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا ، وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا تَجْبِينَ (۱)
 بَاطِلًا ، وَلَا تَلَا حِظْنَ مَضْحَكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تَزْهَوَنَّ نَخْرًا ، وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا ،
 وَلَا تَأْتِينَ بَدَخًا (۲) ، وَلَا تَمْشِينَ مَرَحًا ، وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا (۳) ، وَلَا تَفْرُطَنَّ فِي طَلَبِ
 الْآخِرَةِ ، وَلَا تَرْفَعَنَّ لِلنَّامِ عَيْنًا ، وَلَا تُفْغِضَنَّ عَنِ الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مَخَافَةً ، وَلَا تَطْلُبَنَّ
 ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِالدُّنْيَا ، وَأَكْثِرْ مَشَاوِرَةَ الْفُقَهَاءِ ، وَاسْتَعْمَلْ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ ، وَخُذْ عَنِ
 أَهْلِ التَّجَارِبِ ، وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدَّقَةِ (۴) ،
 وَالبُخْلِ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا ، فَإِنْ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَنَفَعَتِهِمْ ، وَليْسْ شَيْءٌ أَسْرَعَ
 فِسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلْتَ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشُّحِّ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ
 كَثِيرَ الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنْ
 رَعِيَّتِكَ إِنَّمَا تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ ، بِالْكَفِّ عَنِ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجُورِ عَنْهُمْ ، وَيَدْوَمُ صَفَاءَ
 أَوْلِيَائِكَ لَكَ ، بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ وَحَسَنِ الْعَطِيَةِ لَهُمْ ، فَاجْتَنِبِ الشُّحَّ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَوْلُ
 مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَأَنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خَزْيٍ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
 « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ ، وَاجْعَلْ
 لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ نَيْتِكَ حِظًّا وَنَصيبًا ، وَأَيِّقِنِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ، فَأَعِدِّدْهُ
 لِنَفْسِكَ خُلُقًا ، وَارْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ الْجَنَّةِ فِي دَوَائِبِهِمْ وَمَكَاتِبِهِمْ ،
 وَأَذِرْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ ، لِيَذْهَبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاقْتَهُمْ ، وَيَقْوَمَ
 لَكَ أَمْرُهُمْ ، وَيَزِيدَ بِهِ قُلُوبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا ، وَحَسْبُ ذِي سُلْطَانِ

(۱) وفي المقدمة : « وَلَا تَحْسِفَنَّ بَاطِلًا » .

(۲) البُخْلِ : الكِبْرِ .

(۳) وفي المقدمة : « وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا » .

(۴) وفي المقدمة : « أَهْلُ الدَّقَةِ » .

من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً في عدله ، وحيطة^(١) وإنصافه ، وعنايته
 وشفقته ، وبره وتوسعته ، فزایل مكرهه أحد البابين باستشعار تكلمة الباب الآخر ،
 ولزوم العمل به ، تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً ، واعلم أن القضاء من الله
 بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذي يعتدل عليه الأحوال
 في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمين السبل ، وينتصف
 المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق الله
 العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجري السنن والشرائع ، وعلى مجاريها يتنجز الحق
 والعدل في القضاء ، واشتد في أمر الله ، وتورع عن النطف^(٢) ، وامض لإقامة الحدود
 وأقلل العجلة ، وابتعد من الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ، ويقر جلك
 وانتفع بتجربتك ، وانتبه في صمتك ، وأسدد^(٣) في منطقتك ، وأنصف الخصم ، وقف
 عند الشبهة ، وأبلغ في الحجة ، ولا يأخذك في أحد من رعيته محاباةً ولا محاماةً^(٤)
 ولا لوم لأثم ، وثبت وتأن وراقب ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر ، وتواضع لربك
 وارأف^(٥) بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك دم (فإن الدماء
 من الله بمكان عظيم) انتها كآ لها بغير حقها ، وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه
 الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنة ، ولعدوه وعدوهم كبتاً^(٦)
 وغيظاً ، ولأهل الكفر من مُعاديهم ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل
 والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، ولا عن غني لغناه ،
 ولا عن كاتب لك ، ولا أحد من خاصتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا
 تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم على مُرِّ الحق ، فإن ذلك أجمع لألقتهم ،

(١) في المقدمة : « وعطية » .
 (٢) النطف : الميب والشر والفساد . (٣) مد يده كضرب : صار سديداً .
 (٤) في المقدمة : « ولا محاملة » . (٥) من باب كرم وقطع وطرب .
 (٦) كبت : صرعه وأخزاه ؛ ورد المدور به يظلم وأذاه .

وألزم لرضا العامة ، واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنما سُمي أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيتهم وقيمتهم ، تأخذ منها ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفق في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند إليك ، ولا يسفلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آثرتَه ووقت فيه بالواجب ، استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدث في عملك ، واحترزت النصحة من رعيتك ، وأُغنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العارة بناحيتك ، وظهر الخصب في كورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جنديك ، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعُدَّة ، فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئا ، تحمداً مغبّة أمرك إن شاء الله ، واجعل في كل كورة من عملك أميناً يُخبرك أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، مُعَين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأْمضِه ، وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عُدته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقَوَّاه^(۱) ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت ، وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لعدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لعد أموراً وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله

(۱) في المقدمة : « وقد أتاه على ما يهوى فأقواه ذلك » .

اجتمع عليك أمر يومين ، فَشَفَّاكَ ذلك حتى تُعْرَضَ عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله
أرحتَ نفسك وبدنك ، وأحكمتَ أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف
منهم ، ثم استيقن صفاء طَوْبِيَتِهِمْ ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة
على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهدْ أَهْلَ البيوتات ممن دخلت عليهم
الحاجة ، فاحتمل مَثُوتِهِمْ ، وأصلح حالهم ، حتى لا يجلدوا نَحْلَتِهِمْ^(١) مَسًّا ، وأفرد نفسك
بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مَظَالِمَتِهِ إِلَيْكَ ، والمحترق الذي
لا علم له بطاب حقه ، فاسأل عنه أحنى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ،
ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يُصْلِحُ الله به أمرهم ، وتعاهد
ذوى البأساء ويتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ، اقتداءً بأمر المؤمنين
- أعزه الله - في العطف عليهم والصلة لهم ، لِيُصْلِحَ اللهُ بذلك عِيَشَتِهِمْ ، ويرزقك به
بركةً وزيادة ، وَأَجْرٍ لِلأَصْرَاءِ من بيت المال ، وَقَدِّمَ حِمْلَةَ القرآن منهم والحافظين
لأكثره في الجراية^(٢) على غيرهم ، وانصب لِمَرْضَى المسلمين دُوراً تُؤْوِيهِمْ ، وَقَوَّاماً
يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وَأَسْعِفِهِمْ بشهواتهم ، ما لم يؤدَّ ذلك إلى
سرف في بيت المال ، واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيتهم ، لم يُرْضِهِمْ
ذلك ، ولم تُطِيبْ أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلاتِهِمْ ، طمعاً في نيل الزيادة وفضل
الرفق منهم ، وربما بَرِمَ^(٣) المتصفح لأمر الناس ، لكثرة ما يرد عليه ، وَيَشْفَلُ فكره
وذهنه منها ما يناله به مُؤْنَةٌ ومشقة ، وليس من يرغب في العدل ، وَيَعْرِفُ محاسن أموره
في العاجل ، وفضل ثواب الآجل ، كالذي يستقبل ما يقرب به إلى الله ، ويلتمس رحمته به
وأكثر الإذن للناس عليك ، وَأَبْرَزَ لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، واخفِضَ لهم
جناحك ، وأظهر لهم بِشْرَكَ ، وَلِنْ لهم في المسألة والمنطق ، واعطِ عليهم بجودك وفضلك ،
وإذا أعطيت فأعط بسماحةٍ وطيب نفس ، والتمس الصنيفة والأجر غير مكدّر ولا مغان

(١) ضجرومل .

(٢) في المقدمة : « في الجراية » .

(٣) الخلة : الحاجة .

فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله ، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى
من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم
في أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه
وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله ، واعرف ما تجمع عمالك
من الأموال ، وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة
العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم
الأمر ومعاليها ، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك ، من إذا رأى عيباً فيك
لم يمنع هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر ، وإعلامك بما فيه من النقص ، فإن أولئك
أنصح أوليائك ، ومظاهريك لك ، وانظر عمالك الذين يحضرتك وكتائبك ، فوقت
لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من
حوائج عمالك ، وأمر كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك
وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق
فأمضه ، واستخِر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه ،
ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم
إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك
وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك
واستخِره فإن الله مع الصالح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رعيتك ، ما كان
له رضا ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلاً وصلاحاً ، وأنا أسأل
الله أن يصلح عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته
بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ،
وأسنهم ذكراً وأمرأ ، وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبغى عليك ، ويرزقك من

رعيتك العافية ، ويحجز الشيطان عنك ووساوسه ، حتى يستعلى أمرُك بالعرز والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بقى أبو الطيب (يعنى طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .
(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٥٨ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٢٢٩)

١٣٢ — خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر الناس ، وقد تيسر لقتال الخوارج^(١) فقال :

« إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به ، من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاية أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام^(٢) المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه ، وأهل معصيته ، الذين أشيرو^(٣) وتمردوا ، وشقوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ

(١) الوارد في كتاب الفرق بين الفرق : أن المأمون بعث طاهر بن الحسين لقتال حمزة بن أكرك - هكذا فيه ، وفي الملل والنحل حمزة بن أدرك بالدال - وهو زعيم فرقة الحمزية إحدى فرق الخوارج العجاردة ، وقد عاث في سجستان وخراسان ومكران وقوهستان وكرمان ، وهزم الجيوش الكبيرة ، وكان ظهوره في أيام هرون الرشيد سنة ١٧٩ ، وبقى الناس في فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، فلما تمكن المأمون من الخلافة كتب إليه كتابها استدعاه فيه إلى طاعته ، فإزداد إلتواء ، فبعث لقتاله طاهر بن الحسين ، فدارت بينه وبين حمزة حروب قتل فيها من الفريقين مقدار ثلاثين ألفاً ، أكثرهم من أتباع حمزة ، وانهمز حمزة إلى كرمان ، ثم استدعى المأمون طاهراً من خراسان ، فطعم فيها حمزة ، وأقبل بجيشه من كرمان ، فخرج إليه عبد الرحمن النهسابوري في عشرين ألفاً فهزموه ، وقتلوا الألواف من أصحابه ، وانفلت منهم حمزة جريحاً ، ومات في هزيمته

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» ، فليكن الصبر مَعْقِلَكُمْ الذي إليه تَلَجُّونَ^(١) ، وَعُدَّتْكُمْ التي بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع ، الذي دلّم الله عليه ، وَالْجَنَّةُ^(٢) الحصينة التي أمركم الله بلباسها . غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَاخْفِتُوا أَصْوَاتَكُمْ في مصافِّكم ، وَامضُوا قُدُمًا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، فارغين إلى ذكر الله ، والاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَأْتِبْتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أيدكم الله بعز الصبر ، وَوَلِيكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالنَّصْرِ .

(للعقد للقرء : ٢٤ : ١٥٥)

١٣٣ - العباس بن المأمون والمعتصم (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ)

قال العباس بن المأمون : لما أفضت الخلافة إلى المعتصم دخلت ، فقال : هذا مجلس كنت أكرهه الناس لجلوسى فيه ، فقلت : « يا أمير المؤمنين ، أنت تعفو عما تيقنته ، فكيف تعاقب على ما توهمتة ؟ » ، فقال : « لو أردت عقابك ، لترك عتابك » .

(زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٣٤ - استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تميم بن جميل السدوسي قد خرج بشاطىء الفرات ، واجتمع إليه كثير من الأعراب ، فعظم أمره ، وبعد ذكره ، فكتب المعتصم إلى مالك بن طوق في النهوض إليه ، فبدد جمعه ، فظفر به ، فحمله مؤثقا إلى المعتصم ، قال أحمد بن أبي ذواد : ما رأينا رجلاً عين الموت ، فما هاله ، ولا أذهله عما كان يجب عاياه أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه أوفى به الرسولُ باب أمير المؤمنين المعتصم ، في يوم الموكب ، حين يجلس للعامة ، ودخل عليه ، فلما مثل بين يديه ، دعا بالنطع^(٣) والسيف فأحضرا ، فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً ، وجعل المعتصم يصعد النظر فيه وبصوِّه ، وكان جسماً

(١) اللجأ والمعتصم ؛ وكذا الوزر . (٢) كل ما يق .

(٣) النطع كحمل وشمس وسبب وصب : بساط من الأديم .

وسياً^(۱) ، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جناؤه ولسانه من منظره ، فقال : يا تميم إن كان لك عذر فأت به ، أو حجة فأدل بها ، فقال : أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسَاهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » جبر بك صدع الدين ، ولم يك شعث المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق ، وأخذ بك شهاب الباطل ، يا أمير المؤمنين إن الذنوب تُحْرِسُ الألسنة الفصيحة ، وتُغَيُّ الأَفْئِدَةَ الصَّحِيحَةَ ، ولقد عَظُمَتِ الجَرِيرَةُ ، وانقطعت الحجة ، وكبر الذنب ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني ، وأسرعهما إليّ ، أولاهما بامتنانك ، وأشبههما بخلافتك ، ثم أنشأ يقول :

أرى الموت بين السيف والنطع كما مناً
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة
يعزُّ على الأوس بن تغلب موقف
وما جزعى من أن أموت وإنتي
ولكن خلفي صبية قد تركتهم
كأنى أراهم حين أنعى إليهم
فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة
فكم قاتل لا يبعد الله روحه
يلاحظني من حيثما أتلفت
وأى أمرى مما قضى الله يُفَلِّتُ ؟
وسيف المنايا بين عينيهِ مُصَلَّتُ ؟^(۲)
يسل على السيف فيه وأسكت
لأعلم أن الموت شيء موقت
وأكبادهم من حسرة تفتت
وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا^(۳)
أذود الردى عنهم وإن ميت موتوا^(۴)
وأخر جدلان يسر ويشمت

(۱) جملاً . (۲) معلول . (۳) خمش وجهه كنصر وضرب : خدشه ولطمه وضربه . (۴) كثر فيهم الموت .

فتبسم المعتصم وقال : « كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل^(١) ، أذهب فقد غفرت لك الصبوة^(٢) ، ووهبتك للصبية » ، ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه ، وعقد له بشاطئ الفرات .
(العقد الفريد ١ : ١٤٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٣٥ - بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله

ولما ولى المهدي بالله^(٣) بن الواثق بن المعتصم سليمان بن وهب وزارته ، قام إليه رجل من ذوى حرمة ، فقال : « أعز الله الوزير ، أنا خادمك ، المؤمل لدولتك ، السعيد بأيامك ، المنظور القاب على ودك ، المنشور اللسان بمدحك ، المرتهن بشكر نعمتك » .
(زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

١٣٦ - أحمد بن أبي دواد والواثق (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ)

دخل أحمد بن أبي دواد^(٤) على الواثق فقال : ما زال اليوم قوم في ثديك ونقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إكل أمرى منهم ما أكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره^(٥) منهم له عذاب عظيم ، والله ولي جزائه ، وعقاب أمير المؤمنين من ورائه ،

(١) العذل كشمس وسبب : الوم ؛ وهو مثل ؛ وأول من قاله ضبة بن أد بن طابخة ؛ وكان له ابنان يقال لأحدهما سعد ؛ وللآخر سعيد ؛ فنظرت إبل لضبة تحت الليل ؛ فوجه ابنه فطلبها فتفرقا ؛ فوجدها سعد فردها ؛ ورضي سعيد في طلبها ؛ فلقى الحرث بن كعب ؛ وكان على الغلام بردان ؛ فسأله الحرث إياهما فأبى عليه فقتله وأخذ برديه ؛ فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا . قال : سعد أم سعيد ؟ فكثرت ضبة بذلك ماشاء الله أن يمكث ؛ ثم إنه حج فوافى مكابا ؛ فاق بها الحرث بن كعب ؛ ورأى عليه بردى ابنه سعيد فمرفهما ، فقال له : هل أنت مجبري ما هذان البردان اللذان عليك ؟ قال بل ؛ لقيت غلاما ؛ هما عليه فسأته إياهما ؛ فأبى على فقتله ؛ وأخذت برديه هذين ؛ فقال ضبة : بسيفك هذا ؟ قال نعم ؛ فقال : فأعطنيه أنظر إليه فأبى أخذه صارما ؛ فأعطاه الحرث سيفه ؛ فلما أخذه من يده هزه وقال : الحديث ذو شجون ؛ ثم ضربه به حتى قتله ؛ فقيل له يا ضبة : أفي الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف العذل . (٢) جهلة الفتوة . (٣) تولى الخلافة سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٥٦ هـ .

(٤) هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد من كبار أئمة المعتزلة ، ونصراء الاعتزال ، كان مقربا من المأمون أثيرا عنده ، ولما ولي المعتصم الخلافة جعله قاضي القضاة ؛ وعزل يحيى بن أكثم ، وخص به أحمد ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه ، ولما مات المعتصم ، وتولى بعده ابنه الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد عنده ، ثم فوج في أول خلافة المتوكل ، فقلده ولده محمدا القضاء مكانه ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ . (٥) أي معظمه ، وفي قراءة كبره ؛ بضم الكاف .

وما ذلَّ يا أمير المؤمنين من أنت ناصرُهُ ، وما صاق من كنت جاراً له ، فما قلت لهم
يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وَسَعَى إِلَى بَعِيْبِ عَزَّةَ مَعْشَرُ جَعَلَ الْإِلَهَ خَدُودَهُنِ نِعَاَهَا

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٨ ، والعقد القريبه ١ : ١٤١)

١٣٧ — ابن أبي دواد والواثق أيضاً

وقال الواثق يوماً لابن أبي دواد تضجراً بكثرة حوائجك : قد أخليت بيوت
الأموال بطلباتك للأئدين بك ، والمتوسلين إليك ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، نتأججُ شكرها متصلةً بك ، وذخاؤها موصولة لك ، ومالي
من ذلك إلا عشقُ اتصال الألسن بخلود المدح » ، فقال : « والله لا منعناك ما يزيد
في عشقك ، ويقوى في هممتك فينا ولنا » ، وأمر فأخرج له خمسةً وثلاثين ألف درهم .
(زهر الآداب ٢ : ٣١٠)

١٣٨ — ابن أبي دواد وابن الزيات

وكان بين القاضي أحمد بن أبي دواد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات^(١) منافسة
وشحناء ، حتى منع الوزير شخصاً كان يصحب القاضي ، ويختص بقضاء حوائجك ، من
الترداد إليه ، فبلغ ذلك القاضي ، فجاء إلى الوزير فقال له :

« والله ما أجيئك متكثرأً بك من قلة ، ولا متعزراً بك من ذلة ، ولكن
أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبَّت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك^(٢) .»
(وفيات الأعيان ١ : ٢٥)

(١) وزير للمعتصم ، وللواثق من بعده ، ثم نكبه المتوكل كما سيأتي .

(٢) وكان الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات ، إلا قام له ، فكان ابن أبي دواد إذا

رآه قام واستقبل القبلة يوصل .

١٣٩ - الجاحظ وابن أبي دواد

وكان الجاحظ مختصاً بمحمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفاً عن أحمد بن أبي دواد ، فلما نكس ابن الزيات^(١) ، حُجِل الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفي عنقه سلسلة ، وعليه قميص سمك^(٢) ، فلما دخل على القاضي أحمد قال له : « والله ما أعلمك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنعة ، معدناً للمساوي ، وما فتنتني باستصلاحك لك ، ولكن الأيام لا تُصلح منك ، لفساد طويبتك ، ورداءة دَخِيَّاتِك ، وسوء اختيارك ، وغالب طباعك » .
فقال الجاحظ : « خَفَضَ عَلَيْكَ - أَيَّدَكَ اللَّهُ - فوالله لأن يكون لك الأمر على ، خيرٌ من أن يكون لي عليك ، ولأن أُسِيءَ وَتُحْسِنَ ، أحسنُ في الأُحْدُوثة عليك ، من أن أحسن وتسيء ، ولأن تَعْفُوَ عَنِّي في حال قدرتك ، أجمل بك من الانتقام مني » .
فقال أحمد : والله ما علمتُك إلا كثير تزويق الكلام ، فحلَّ عنه الغلُّ والقيد ، وأحسن إليه ، وصدَّره في المجلس . (زهر الآداب ٢ : ١٠٦ ، والمنية والأمل ص ٣٩)

(١) كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيء كثير ، وذلك أنه لما مات الواثق (وهو أخو المتوكل) . أشار ابن الزيات بتوايه وله الواثق ، وأشار ابن أبي دواد بتولية المتوكل ، وقام في ذلك وقعد حتى صممه بيده وألبسه البردة ، وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل في أيام الواثق يدخل على ابن الزيات فيتنجهمه ويفلظ له في الكلام - يتقرب بذلك إلى الواثق - فحقد المتوكل ذلك عليه ، فلما ولي الخلافة ، أمهله أربعين يوماً حتى يطمئن إليه ، ثم قبض عليه وسجنه ، واستصغى أمواله ، وكان ابن الزيات إبان وزارته قد اتخذ تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره إلى داخل ، وهي قائمة مثل رموس المسال ، يعذب فيه من يستحقون العقوبة وكان إذا قال أحدهم ارحمني أيها الوزير . قال له : الرحمة خور في الطبيعة ، فلما امتقله المتوكل أمر بادخاله في التنور : وقيدته بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمني ، فقال له : الرحمة خور في الطبيعة ، وبق في المذاب أربعين يوماً حتى مات سنة ٢٣٣ هـ .

(٢) السمل : الخلق من الشهاب .

۱۴۰ - أبو العیناء وابن أبی دعواد

وقال أبو العیناء لابن أبی دعواد : إن قوماً من أهل البصرة قدِموا إلى « سُرَّ مَنْ رَأَى » بَدَا عَلَيَّ ، فقال : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ، فقلت : إن لهم مكرراً ، فقال : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ، فقلت : إنهم كثير ، قال : « كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .
(زهر الآداب ۲ : ۳۱۰ ، والمعقد الفريد ۱ : ۱۴۱)

تم الجزء الثالث

ويليه

ذيل الجمهرة

فهرس

الجزء الثالث

من جمهرة خطب العرب

الباب الرابع

المخطب والوصايا في العصر العباسي الأول

المخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم المخطبة
خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة	١	١
« داود بن عليّ	٢	٣
« داود بن عليّ وقد أرتج على السفاح	٣	١١
« أخرى له	٤	١١
« للسفاح بالكوفة	٥	١٢
« السنماح بالشام حين قتل مروان	٦	١٢
« عيسى بن عليّ	٧	١٣
« داود بن عليّ بمكة	٨	١٤
خطبته بالمدينة	٩	١٥
خطبة أخرى له	١٠	١٥
خطبته وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة بني العباس	١١	١٦
« وقد أرتج عليه	١٢	١٧
خطبة صالح بن عليّ	١٣	١٨
« سديف بن ميمون	١٤	١٨
« أبي مسلم الخراسانيّ	١٥	٢٠
خالد بن صفوان وأخوال السفاح	١٦	٢٣
« « « ورجل من بني عبد الدار	١٧	٢٤

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خالد بن صفوان يرثي صديقا له	٢٥	١٨
« « « بمدح رجلا	٢٥	١٩
كلمات بليغة لخالد بن صفوان	٢٥	٢٠
عمارة بن حمزة والسفاح	٢٦	٢١
خطب أبي جعفر المنصور	٢٧	
خطبته بمكة	٢٧	٢٢
« بعد بقاء بغداد	٢٧	٢٣
خطبته بمدينة السلام	٢٨	٢٤
« وقد أخذ عبد الله بن الحسن وأهل بيته	٢٨	٢٥
« حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن	٣٠	٢٦
« وقد قتل أبا مسلم الخراساني	٣١	٢٧
خطبة أخرى	٣	٢٨
قوله وقد قوطع في خطبته	٣٢	٢٩
المنصور يصف خلفاء بني أمية	٣٣	٣٠
« عبد الرحمن الداخل	٣٣	٣١
وصايا المنصور لابنه المهدي	٣٥	
وصية له	٣٥	٣٢
« أخرى له	٣٦	٣٣
« « «	٣٦	٣٤
خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور	٣٨	٣٥
وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه	٣٩	٣٦
قوله وقد قتل ابنه محمد	٣٩	٣٧
امرأة محمد بن عبد الله والمنصور	٤٠	٣٨
جعفر الصادق والمنصور	٤٠	٣٩
صفحة المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب	٤٢	٤٠
استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور	٤٢	٤١

المخطبة أو الوصية	رقم المخطبة	رقم الصفحة
استعطاف أهل الشام المنصور أيضاً	٤٢	٤٣
أبو جعفر المنصور والربيع	٤٣	٤٤
مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور	٤٤	٤٥
« رجل من الزهاد » « »	٤٥	٤٦
« الأوزاعي بين يدي المنصور	٤٦	٤٩
نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة المنصور	٤٧	٥١
معن بن زائدة والمنصور	٤٨	٥٢
« « « وأحد زواره	٤٩	٥٣
المنصور وأحد الأعراب	٥٠	٥٣
أعرابية تعزى المنصور وتهنئه	٥١	٥٣
خطبة محمد بن سامان	٥٢	٥٤
وصية مسلم بن قتيبة	٥٣	٥٤
خطبة المهدي	٥٤	٥٥

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب حراسان ٥٧

مقال سلام صاحب المظالم	٥٥	٥٨
« الربيع بن يونس	٥٦	٥٩
« الفضل بن العباس	٥٧	٦٠
مقال علي بن المهدي	٥٨	٦٢
« موسى بن المهدي	٥٩	٦٤
« العباس بن محمد	٦٠	٦٥
« هرون بن المهدي	٦١	٦٦
« صالح بن علي	٦٢	٦٨
« محمد بن الليث	٦٣	٦٩
« معاوية بن عبد الله	٦٤	٧٤
« المهدي	٦٥	٧٢
« محمد بن الليث	٦٦	٧٤
« المهدي	٦٧	٧٥

الخطبة أو الوصية

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
ابن عتبة يعزى المهدي ويهنته	٧٧	٦٨
يعقوب بن داود يستعطف المهدي	٧٧	٦٩
رجل من أهل خراسان يخطب بخضرة المهدي	٧٨	٧٠
دقمان صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي	٧٩	٧١
عظة شبيب بن شذبة للمهدي	٨٠	٧٢
خطبته في تعزية المهدي بابنته	٨٠	٧٣
خطبة أخرى له في مدح الخليفة	٨٠	٧٤
كلمات لشبيب بن شذبة	٨١	٧٥
خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب يوم ولي الرشيد بالخلافة	٨١	٧٦
خطبة هرون الرشيد	٨٣	٧٧
وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين	٨٥	٧٨
خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي	٨٥	٧٩
استعطف أم جعفر بن يحيى للرشيد	٨٨	٨٠
خطبة يزيد بن يزيد الشيباني	٩١	٨١
« عبد الملك بن صالح	٩٢	٨٢
عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنته	٩٣	٨٣
غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح	٩٣	٨٤
قوله بعد خروجه من السجن	٩٦	٨٥
وصية عبد الملك بن صالح لابنه	٩٧	٨٦
« أخرى له	٩٩	٨٧
كلمات حكيمة لابن السماك	٩٩	٨٨
ابن السماك والرشيد	٩٩	٨٩
الفتنة بين الأمين والمأمون	١٠١	
وفد الأمين إلى المأمون		
خطبة العباس بن موسى	١٠١	٩٠
« عيسى بن جعفر	١٠٢	٩١
« محمد بن عيسى بن نهبك	١٠٢	٩٢

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة صالح صاحب المصلى	٩٣	١٠٣
و المأمون	٩٤	١٠٣
<hr/>		
وصية السيدة زبيدة لعلی بن عيسى بن ماهان	٩٥	١٠٤
« الأمين لابن ماهان	٩٦	١٠٥
استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين	٩٧	١٠٦
حزم طاهر وقوة عزمه	٩٨	١٠٧
طاهر يشد عزيمته جنده	٩٩	١٠٨
وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين	١٠٠	١٠٩
وصية الأمين لأحمد بن مزيد	١٠١	١١٠
مقال عبد الملك بن صالح للأمين	١٠٢	١١١
الشغب في جيش عبد الملك بن صالح	١٠٣	١١٢
خطبة الحسين بن علی بن عيسى بن ماهان يدعو إلى خلع الأمين	١٠٤	١١٣
« محمد بن أبي خالد	١٠٥	١١٤
إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة	١٠٦	١١٤
خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين	١٠٧	١١٥
« الأمين وقد تولى الأمر عنه	١٠٨	١١٧
استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون	١٠٩	١١٨
خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين	١١٠	١١٩
<hr/>		
خطب المأمون		١٢٠
خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد	١١١	١٢٠
« وقد سلم الناس عليه بالخلافة	١١٢	١٢٠
« يوم الجمعة	١١٣	١٢١
« يوم الأضحى	١١٤	١٢٢
« يوم الفطر	١١٥	١٢٣
<hr/>		
خطبة ابن طباطبا العاوى	١١٦	١٢٤
استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون	١١٧	١٢٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
إبراهيم المهدي وبختيشوع الطيب	١٢٨	١١٨
استعطاف إسحاق بن العباس المأمون	١٢٩	١١٩
أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخاها	١٢٩	١٢٠
أحد أهل الكوفة يمدح المأمون	١٣٠	١٢١
محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون	١٣٠	١٢٢
الحسن بن سهل يمدح المأمون	١٣١	١٢٣
يحيى بن أكرم يمدح المأمون	١٣١	١٢٤
أحد بني هاشم والمأمون	١٣٢	١٢٥
رجل يتظلم إلى المأمون	١٣٢	١٢٦
عمرو بن سعيد والمأمون	١٣٣	١٢٧
الحسن بن رجاء والمأمون	١٣٣	١٢٨
سعيد بن مسلم والمأمون	١٣٣	١٢٩
أبو زهران يعظ سعيد بن مسلم	١٣٤	١٣٠
وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر ومايينها	١٣٤	١٣١
خطبة عبد الله بن طاهر	١٤٤	١٣٢
العباس بن المأمون والمعتصم	١٤٥	١٣٣
استعطاف تميم بن جميل للمعتصم	١٤٥	١٣٤
بين يدي سايمان بن وهب وزير المهدي بالله	١٤٧	١٣٥
أحمد بن أبي دواد والوائق	١٤٧	١٣٦
ابن أبي دواد والوائق أيضاً	١٤٨	١٣٧
ابن أبي دواد وابن الزيات	١٤٨	١٣٨
الجاحظ وابن أبي دواد	١٤٩	١٣٩
أبو العيناء وابن أبي دواد	١٥٠	١٤٠

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

(ح)	(ا)
الحارث بن عبد الرحمن : ٤٢	أبراهيم بن المهدي : ١٢٥ - ١٢٧
الحسن بن رجاء : ١٣٣	ابن السماك : ٩٩
الحسن بن سهل : ١٣١	ابن طباطبا العلوي : ١٢٤
الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان : ١١٣	ابن عتبة : ٧٧
(خ)	أبو جعفر المنصور : ٢٧ - ٢٧ - ٣٠ -
خالد بن صفوان : ٢٢ - ٢٤ - ٢٥	٤٢ - ٣٣ - ٣٣ - ٢٩ - ٣٢ - ٣١
(د)	أبو زهمان العلائي : ١٣٤
داود بن علي :	أبو العباس السفاح : ١ - ١٣ - ١٤
٨ - ١١ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ١٥ - ١٥	أبو مسلم الخراساني : ٢٠
داود بن عيسى : ١١٥	أحمد بن أبي دواد : ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩
(ر)	إسحاق بن العباس : ١٢٨
الربيع بن يونس : ٤٤ - ٥٩	أم جعفر بن يحيى : ٨٨
(ز)	الأمين : ١٠٥ - ١١٠ - ١١٥
السيدة زبيدة : ١٠٤	الأوزاعي : ٤٩
(س)	(ت)
سديف بن ميمون : ٨	تميم بن جميل : ١٤٥
سعيد بن مسلم : ١٣٣	(ج)
سلام (صاحب المظالم) : ٥٥	الجاحظ : ١٤٩
(ش)	جعفر الصادق : ٤٠
شبيب بن شيبة : ٨٠ - ٨١	جعفر بن يحيى البرمكي : ٨٥

الفضل بن العباس ٦٠

(م)

المأمون : ١٠٣ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣

محمد بن أبي خالد : ١١٤

محمد بن سايمان : ٥٤

محمد بن عبد الملك بن صالح : ١٣٠

محمد بن عيسى بن نهيك : ١٠٢

محمد بن الليث : ٦٩ - ٧٤

مسلم بن قتبية : ٥٤

معاوية بن عبد الله : ٧٤

معن بن زائدة : ٥٢

المهدي : ٥٥ - ٧٢ - ٧٥

(ن)

النفس الزكية : ٣٨

(هـ)

الهادي : ٦٤

هرون الرشيد : ٦٦ - ٨٣ - ٨٥

(ي)

يحيى بن أكثم : ١٣١

يزيد بن عمر بن هبيرة : ٥١

يزيد بن مزيد الشيباني : ٩١

يعقوب بن داود : ٧٧

يوسف بن القاسم بن صبيح : ٨١

- تم فهرس أعلام نخطب العرب -

(ص)

صالح (صاحب المصلي) : ١٠٣

صالح بن عبد الجليل : ٧٩

صالح بن علي : ١٨ - ٦٨

(ط)

طاهر بن الحسين :

١٠٧ - ١٠٨ - ١١٩ - ١٣٤

(ع)

العباس بن المأمون : ١٤٥

العباس بن محمد : ٦٥

العباس بن موسى : ١٠١

عبد الله بن الحسن : ٣٩

عبد الله بن طاهر : ١٤٤

عبد الملك بن صالح :

٩٢ - ٩٣ - ٩٦ - ٩٧ - ١١١

عثمان بن خزيم : ٤٣

علي بن عيسى بن ماهان : ١٠٦

علي بن المهدي : ٦٢

عمارة بن حمزة : ٢٦

عمرو بن سعيد : ١٣٣

عمرو بن عبيد : ٤٥

عيسى بن جعفر : ١٠٢

عيسى بن علي : ١٣

(ف)

الفضل بن الربيع : ١٠٩ - ١١٨

ذَلِكَ

جَهْرٌ خَطْبُ الْعَرَبِ

فِي عَصُورِ الْعَرَبِ الزَّاهِرَةِ

ويحوي خمسة أبواب

الباب الأول : في خطب الأنداسيين والمغاربة .

» الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

» الثالث : في نثر الأعراب .

» الرابع : في خطب النكاح .

» الخامس : في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة لبعض الخطباء

فهرس المآخذ

- نفع الطيب ، للمقرى : الجزء الأول - الثاني - الرابع
- مطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان :
- المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب :
- لمحي الدين بن على - المراكشى :
- الإحاطة : فى أخبار غرناطة ، :
- لسان الدين بن الخطيب :
- الأمالى : لأبى على - القالى : الجزء الأول - الثاني - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثالث عشر - السابع عشر
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- أمالى السيد المرتضى : « الرابع
- مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول - الثانى
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السابع - الثامن
- مروج الذهب : للمعمودى : الجزء الثانى

- الصناعتين : لأبي هلال العسكري :
- بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور :
- سرح العيون : لابن نباتة المصري :
- سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزي :
- مواسم الأدب للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكري الألويسي : « الثالث
- مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

الباب الأول

في

خطب الأندلسيين والمغاربية

١ - خطبة عبد الرحمن الداخل (المتوفى سنة ١٧١ هـ)

يوم حربه مع يوسف الفهري صاحب الأندلس

لما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمن الداخل^(١) ، يوم حربه مع يوسف الفهري^(٢) صاحب الأندلس ، ورأى شدة مُقاساة أصحابه قال :
« هذا اليوم هو أس ما يُبني عليه ، إِمَّا ذلّ الدهر ، وإِمَّا عزّ الدهر ، فاصبرُوا ساعةً فيما لا تشتهون ، ترَبِّحُوا بها بقيةَ أعماركم فيما تشتهون » .
ولما أُنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال :

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وذلك أنه لما أصاب دولتهم بالمشرق ما أصابها ، وتبع السفاح من بقى من بني أمية بالقتل والإهلاك ، فرعبد الرحمن إلى الأندلس ، واستطاع بهمه أن يؤسس هناك دولة أورثها عقبه حقبه من الدهر ، وهي دولة بني أمية في المغرب من سنة ١٢٨ إلى سنة ٤٢٢ هـ ، وكانت عاصمة ملكها قرطبة ، وهي مدينة على نهر الوادي الكبير .
(٢) يوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع بن أبي القيروان ، وأمير معاوية على أفريقية والمغرب ، وكانت ولاية يوسف الفهري الأندلس سنة ١٢٩ فذانت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعند انتقال سلطانها إلى بني أمية .

« لا استأصلوا شأفة^(۱) أعداء ترجون صداقتهم ، واستبقوهم لأشدّ عداوةً منهم » - يشير إلى استبقائهم ، ليُستعان بهم على أعداء الدين - . (نفع الطيب ۲ : ۷۰)

۲ - عبد الرحمن الداخل ورجل من جنّد قنسرین

ولما أذعن يوسف صاحب الأندلس لعبد الرحمن ، واستقر ملكه ، استحضر الوفود إلى قرطبة ، فاثالوا^(۲) عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام ، في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم ، بكلام سرّهم ، وطيب نفوسهم .
وفي بعض مجالسهم هذه مثل بين يديه رجل من جنّد قنسرین^(۳) يستجديه . فقال له :

« يا بن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت ، وبك عدت ، من زمن ظلوم ، ودهر غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ، وشعث^(۴) الحال ، فصيرت إلى نداءك المال ، وأنت وليُّ الحمد والمجد ، والمرجوِّ للرفد^(۵) . »
فقال له عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقاتلك ، وقصينا حاجتك ، وأمرنا بعمونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودن ولا سواك لثله ، من إراقة ماء وجهك بتصریح المسألة ، والإلحاف في الطلبة^(۶) ، وإذا ألم بك خطب ، أو حزبك^(۷) أمر ، فارفعه إلينا في رُقعة لا تعدوك ، كما نستر عليك خلتك ، ونكف شمت العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالِكِك ومالِكنا - - عزَّ وجهه - بإخلاص الدعاء ، وصدق النية . »

(۱) الشأفة : قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، أو إذا قطعت مات صاحبها . والأصل ، واستأصل الله شأفته : أذهب كما تذهب تلك القرحة ، أو معناه أزاله من أصله .

(۲) اثال : انصب ، أي تناهبوا وتوافدوا عليه . (۳) بالشام .

(۴) شعث الأمر : نشره وفرقه . (۵) الرفد : العطاء والصلة .

(۶) الطلبة : الطلب . (۷) أي اشتد عليك ، والخلة الحاجة .

وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون من حسن منطقته ، وبراعة أدبه ،
وكف فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه . (نفع الطيب ٢ : ٦٨)

٣ — عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سر قسطة

ولما فتح عبد الرحمن الداخل سر قسطة^(١) ، وَحَصَلَ فِي يَدِهِ ثَارُهَا الْحَسِينُ
الأنصاري ، وانتهى نصره فيها إلى غاية أمليه ، أقبل خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد
من لا يؤبه به من الجند ، فهنأه بصوت عال ، فقال له عبد الرحمن :
« وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمٌ أَسْبَغَ عَلَيَّ فِيهِ النِّعْمَةَ مَنْ هُوَ فَوْقِي ، فَأَوْجَبَ عَلَيَّ
ذَلِكَ أَنْ أَنْعِمَ فِيهِ عَلَيَّ مَنْ هُوَ دُونِي ، لِأَصْلِيَّتِكَ مَا تَعَرَّضْتَ لَهُ مِنْ سُوءِ النَّكَالِ ، مَنْ
نَكُونُ ؟ حَتَّى تُقْبِلَ مُهِنْتًا رَافِعًا صَوْتَكَ ، غَيْرَ مُتَلَجِّجٍ وَلَا مُتَهَيِّبٍ لِمَكَانِ الْإِمَارَةِ ،
وَلَا عَارِفٍ بِقِيمَتِهَا ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَخَاطَبُ أَبَاكَ أَوْ أَخَاكَ ! وَإِنْ جِهَلَك لِيَحْمِلَكَ عَلَى الْعَوْدِ
لِثَلَاثِي ، فَلَا تَجِدُ مِثْلَ هَذَا الشَّافِعِ فِي مِثْلِهَا مِنْ عَقُوبَةٍ . »

فقال : « ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي ، فتشفع لي مق
أتيت بمثل هذه الزلة ، لا أعدمنيه الله تعالى . »

فهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نهنونا على أنفسكم
إذا لم تجدوا من ينهنأ عليها ، ورفع مرتبته وزاد في عطائه . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٤ — تاديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر

كان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٢) سيء الخلق في أول أمره ، كثير الإصغاء
إلى أقوال الوُشاة ، مُفْرِطُ الْقَلْقِ مِمَّا يُقَالُ فِي جَانِبِهِ ، مُعَاقِبًا عَلَى ذَلِكَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى مُعَاقِبَتِهِ ،

(١) مدينة على نهر إبرة . (٢) هو عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ابن الحكم بن هشام بن

عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ هـ .

مكثر التشكى ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فطال ذلك على الأمير ، فأمر
ثِقَةً من ثقاته أن يبنى بجبل منقطع عن العمران بناءً يُسْكِن فيه ابنه ، وألاً يدع أحداً
من أصحابه يزوره ، فلما استقر المنذر في ذلك المكان ، وبقي وحده ، ونظر إلى ما سلبه
من الملك ، ضَجِر وقال للثقة : عسى أن يصلني غلمانى وأصحابى آانسُ بهم ! فقال له :
إن الأمير أمر ألا يصلك أحد ، وأن تبقى وحدك ، لتستريح مما يرفع لك أصحابك من
الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد بذلك محنته وتأديبه ، فكتب إليه يشكو استيحاشه^(١)
بمكانه ، فلما وقف الأمير على رفقته ، وعلم أن الأدب بلغ به حَقَّهُ استدعاه ، فقال له :

« وصلت رفقتك ، تشكو ما أصابك من توحُّش الانفراد ، في ذلك الموضع ،
وَتَرَعَب أن تأنس بِمَخَوَلِك^(٢) وعبيدك وأصحابك ، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن
تطول سُكنائك في ذلك المكان ، وما فعلت ذلك عقاباً لك ، وإنما رأيناك تُكثِر
الضَجَرَ والتشكى من القال وَالْقِيل ، فأردنا راحتك بأن نَحْجُب عنك سماعَ كلامٍ من
يَرَفَع لك وَيَنِم ، حتى تستريح منهم . »

فقال له : « سماعُ ما كنت أضجَرُ منه ، أخفُّ علىَّ من التوحد والتوحُّش ،
والتخلى مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهي . »

فقال له : « فَإِذْ قد عَرَفْتَ وتَأَدَّبْتَ ، فارجع إلى ما اعتدته ، وَعَوَّلْ على أن تسمع
كأُنك لم تسمع ، وترى كأُنك لم تَرَ ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لو تكاشفتهم
ما تدافنتم » ، واعلم أنك أقربُ الناس إلىَّ ، وأَحَبُّهم فيَّ ، وبعد هذا فما يخلو صدرك
في وقت من الأوقات عن إنكارِ علىَّ ، وَسُخْط لما أفعله في جانبك ، أو جانب غيرك ،

(١) ونص الكتاب : « إني قد توحشت في هذا الموضع توحشاً ما عليه من مزيد ، وهدمت فيه من
كنت آانسُ إليه ، وأصبحت مسلوب العز ، فقيد الأمر والنهي ، فإن كان ذلك عقاباً للذنوب كبير ارتكبتها ،
وعلمه مولاي ولم أعلمه ، فإني صابر على تأديبه ، ضارِع إليه في عفوه وصفحته . »

وإن أمير المؤمنين وفعله السكندر : لا عار بما فعل الدهر .

(٢) الخول : مثال الخدم والحشم وزنا ومعنى .

مما لو أطلعني الله تعالى عليه لسأني ، لكن الحمد لله الذي حفظ ما بين القلوب بستر بعضها عن بعض ، فيما يجول فيها ، وإنك لذو همة ومطمح ، ومن يكن هكذا يصبر ويغض ويحمل ، ويبدل بالعقاب الثواب ، ويصير الأعداء من قبيل الأصحاب ، ويصبر من الشخص على ما يسوء ، فقد يرى منه بعد ذلك ما يسر ، ولقد يخف على اليوم من قاسيت من فعله وقوله ما لو قطعتم عضواً عضواً لما ارتكبه مني ، ما شفيت منهم غيظي ، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لاسيما عند الاقتدار أولى ، ونظرت إلى جميع من حولي ممن يحسن ويؤسي ، فوجدت القلوب متقاربة بعضها من بعض ، ونظرت إلى المسيء يعود محسناً ، والمحسن يعود سيئاً ، وصرت أندم على من سبق له مني عقاب ، ولا أندم على من سبق له مني ثواب ؛ فالزم يا بني معالي الأمور ، وإن جماعها في التفاضل ، ومن لا يتفاضل لا يسلم له صاحب ، ولا يقرب منه جانب ، ولا ينال ما ترقى إليه همته ، ولا يظفر بأمله ، ولا يجد معيناً حين يحتاج إليه .

فقبل المنذر يده وانصرف ، ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده ، حتى تخلق بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه به أبوه ورفع قدره .

(نفع الطيب ۲ : ۲۲۷)

هـ - عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك لتيها مفراطاً ، فقال له : حق لفرع أنت أصله أن يعلو ، فقال له : يا بني ، إن العيون تمجُّ التياء ، والقلوب تنفر عنه ، فقال : يا أبا ، لي من العز والنسب وعلو المكان والسلطان ما يجلي^(۱) عن ذلك ، وإني لم أر العيون إلا مقبلة على ، ولا الأسماع إلا مصغية إلى ، وإن لهذا السلطان رونقاً يريقه التبذل ، وعلواً يخفضه الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه إلا التياء والانتباض^(۲) ، وإن هؤلاء الأندال ،

(۱) في الأصل : « يجمل » ، وأرى صوابه : « يجلي » .

(۲) جرى وذلك هل سنن أي مسلم الحراساني ، وكان يقول لقواده إذا أخرجهم : « لا تكلموا الناس إلا رمزاً ، ولا تلاحظوهم إلا شزراً ، فتقبل صدورهم من هيبكم » - انظر العقد الفريد ۲ : ۲۹۹ -

لحم ميزان يَسْبُرُونَ^(١) به الرجل منا ، فإن رأوه راجعاً ، عرفوا له قدر رجاءه ،
وإن رأوه ناقصاً عاملوه بنقصه ، وصيروا تواضعه صيفراً ، وتحفضه خسة » ، فقال له أبوه :
لله أنت ! فابق وما رأيت . (نفع الطيب ٢ : ٢٢٩)

٦ - يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه

ومدح بعض الشعراء يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط ، فأمر له بمال جزيل ، فلما
كان مثل ذلك الوقت ، جاءه بمدح آخر ، فقال أحد خدام يعقوب : هذا اللئيم له دين
عندنا يقتضيه ! فقال الأمير :

« يا هذا ، إن كان الله تعالى خلقك مجبولاً على كرهه رب الصنائع ، فاجر على
ما جبلت عليه في نفسك ، ولا تكن كالأجرب يعدي غيره ، وإن هذا رجل قصدنا
قبل ، فكان منا ما أشير^(٢) به ، وحمله على العودة ، وقد ظن فينا خيراً ، فلا تخيب
ظنه ، والحديث أبداً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهنئة بالعمر ، ونحن نسأل الله
تعالى أن يطيل عمرنا ، حتى يكتر ترداده ، ويديم نعمنا حتى نجد ما ننعم به عليه ،
ويحفظ عايننا مروءتنا ، حتى يعيننا على التجميل معه ، ولا يبلينا بجليس مثلك ، يقبض
أيدينا عن إسداء الأيادي » .

وأمر للشاعر بما كان أمر له به قبل ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان
ما دام العمر . (نفع الطيب ٢ : ٢٣٠)

(٢) أشير : مرع .

(١) السبر . انتحان غدير الجرح .

٧ - وفاة الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز

واعذاره عنه لدى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط

كان الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز ،
ثابتاً على مودته ، فلما قضى الله على هاشم بالأسر ، أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن
الأموي^(١) ذكره في جماعة من خدامه ، والوليد حاضر ، فنسبه إلى الطيش والعجلة
والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد ، فقال :

« أصاح الله تعالى الأمير ، إنه لم يكن على هاشم التخير في الأمور ، ولا الخروج
عن المقدور ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى حق الإقدام ، ولم يكن
ملاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، ونكل عنه من كان معه ، فلم يرحح قدمه
عن موطن حفاظه ، حتى ملك مقبلاً غير مدبر ، مُبلياً غير فِشِل ، فجوزى خيراً
عن نفسه وسلطانه ، فإنه لا طريق للام عليه ، وليس عليه ما جنته الحرب الغشوم .
وأيضاً فإنه ما قصد أن يجود بنفسه إلا رِضاً للأمير ، واجتناباً لسخطه ، فإذا كان
ما اعتمد فيه الرضا جالب التقصير ، فذلك معدود في سوء الحظ » .

فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر عن تنفيذ هاشم ، وسعى

(نفع الطيب ٢ : ٢٣٠)

في تخليصه .

(١) هو الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حكم الأندلس من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣ هـ ،
وكان غزاه لأهل الشرك والخلاف ، وربما أوغل في بلاد العدو ستة أشهر أو أكثر يجرق وينسف ،
وله في العدو رقعة رادى سابط ، وهي من أمهات الوقائع لم يعرف مثلها في الأندلس قبلها .

۸ - خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(۱) المتوفى سنة ۳۵۵ هـ

في الاحتفال بقدم رسل ملك الروم

روى المؤرخون أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله^(۲) ، بلغ من عزّة الملك ، ورفعة السلطان بالأندلس ، أن كانت ملوك الروم والإفرنجية تزددلّف إليه ، تطلب مهادنته ، وتهدى إليه أنفس الذخائر ، ومن جملتهم قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية ، فقد رغب في موادعته ، وبعث إليه سنة ۳۳۸ هـ وفداً من قبله بهدية له ، فتأهب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدمهم احتفالاً رائعاً ، أحبّ أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكّر جلالة ملكه ، وعظيم سلطانه ، ونصف ما تهباً من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده ، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، فأمر الحكم صنيعة الفقيه محمد بن عبد البر بالتأهب لذلك ، وكان يدعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره ، وحضر المجلس السلطاني ، فلما قام يحاول التكلم ، بهره هول المقام ، وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى انقطة ، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبي عليّ القالي - صاحب الأمالي ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق - : قم فارع هذا الوهي^(۳) ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع به القول ، فوقف ساكناً متفكراً

(۱) ولد سنة ۲۶۵ هـ ، وتوفى سنة ۳۵۵ هـ . وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد المعارضة حاضر الجواب عتيده ، ثابت الحجّة ، ولي بقرطبة قضاء الجماعة - المبرر عنه في المشرق بقضاء القضاة - لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم المستنصر ، ستة عشر عاماً من سنة ۳۲۹ إلى سنة ۳۵۵ هـ ، لم يحفظ عليه فيها جور في قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل لهوى .

(۲) هو عبد الرحمن الثالث ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ۳۰۰ هـ إلى سنة ۳۵۰ هـ ، وهو أول من تسمى من أمراء بني أمية بالأندلس بأمر المؤمنين عندما لذات أمر الخلافة بالمشرق ، وغلب موالى الترك هل بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مولاة مؤنس المظفر سنة ۳۱۷ هـ . (۳) الرهي : الشق في الشيء .

فی کلام یدخل به إلى ذکر ما أريد منه ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد البلوطي
- وكان ممن حضر في زُمرَة الفقهاء - قام من ذاته بدرجة من مِرقاته ، فوصل افتتاح
أبي عليٍّ لأول خطبته بكلام كان يسُحّه سَحًّا ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة :
فقال :

« أما بعد حمد الله ، والثناء عليه ، وَالتَّعَدَادَ لآلَائِهِ ، وَالشُّكْرَ لِنِعْمَائِهِ ، وَالصَّلَاةَ
وَالسَّلَامَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَفِيِّهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ ، فَإِنْ لِكُلِّ حَادِثَةٍ مَقَامًا ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالَ ،
وَلَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَإِنِّي قَدْ قَمْتُ فِي مَقَامِ كَرِيمٍ ، بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ عَظِيمٍ ،
فَأَصْغُوا^(۱) إِلَى مَعْشَرِ الْمَلَأِ بِأَسْمَاعِكُمْ ، وَأَتَقِنُوا عَنِّي^(۲) بِأَفْتَدَتِكُمْ ، إِنْ مِنَ الْحَقِّ أَنْ
يُقَالَ لِلْمُحِقِّ صَدَقْتَ ، وَلِلْمُبْطِلِ كَذَبْتَ ، وَإِنْ الْجَلِيلُ تَعَالَى فِي سَمَائِهِ ، وَتَقَدَّسَ
فِي صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ ، أَمْرٌ كَلِيمَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ ،
أَنْ يَذْكَرَ قَوْمَهُ بِأَيَّامِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ عِنْدَهُمْ ، وَفِيهِ وَفِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وَإِنِّي أَذْكَرُكُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ عِنْدَكُمْ ، وَتَلَا فِيهِ لَكُمْ بِخِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
الَّتِي لَمَّتْ شَعَثَكُمْ ، وَأَمَنْتَ سِرِّبَكُمْ^(۳) ، وَرَفَعْتَ قَوْتَكُمْ ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ
وَمُسْتَضْعَفِينَ فَقَوَّاءَكُمْ ، وَمُسْتَدَلِّينَ فَنَصَرْتُمْ ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ رِعَايَتَكُمْ ، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِ إِمَامَتَكُمْ ،
أَيَّامَ ضَرَبَتْ الْفِتْنَةُ سُرَادِقَهَا عَلَى الْآفَاقِ ، وَأَحَاطَتْ بِكُمْ شُعْلُ النِّفَاقِ ، حَتَّى صَرْتُمْ
فِي مِثْلِ حَدَاقَةِ الْبَعِيرِ ، مِنْ ضَيْقِ الْحَالِ ، وَنَكْدِ الْعَيْشِ وَالتَّغْيِيرِ ، فَاسْتَبَدَلْتُمْ بِخِلَافَتِهِ مِنْ
طَلْسُدَةِ الرِّخَاءِ^(۴) ، وَانْتَقَلْتُمْ بِبِيْمَنْ سِيَاسَتِهِ إِلَى تَهْيِيدِ كَنْفِ الْعَافِيَةِ بَعْدَ اسْتِيْطَانِ الْبَلَاءِ .
أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ مَعْشَرَ الْمَلَأِ ، أَلَمْ تَكُنِ الدَّمَاءُ مَسْفُوكَةً فَحَقَّنَهَا ، وَالسُّبُلَ نَحْوَةً فَأَمَّنَّا

(۱) الذي في كتب اللغة : « أصغى إليه سمعه : أماله ، وأصغى إليه : مال بسمه نحوه » ولعل زيادة

الجملة في « بأسماعكم » من النسخ لامن الخطوب .

(۲) هكذا في نفع الطيب ، وفي مطمح الأنفس : « ومنوا على بأفئدتكم » .

(۳) السرب : النفس .

(۴) في الأصل « فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء » والصواب ما ذكرنا :

والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشق صدوركم، وصرتهم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم.

فأنشدكم الله، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقابها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يكِلْ ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة، وهي محبوبة، وترك الرُّكون إلى الراحة، وهي مطلوبة بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة، نافذة ثاقبة، وريح هابئة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجدّ ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، ولم يبق لها غاربٌ إلا جبهه^(۱)، ولا نجم^(۲) لأهلها قرنٌ إلا جدّه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبِلمّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقبصين والأدنين مستخدمةً إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق^(۳)، لأخذ حبل^(۴) بيده وبينكم جملةً وتفصيلاً، ليَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أحوال باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير قائم « وَعَدَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

(۱) الغارب : الكاهل ، أو ما بين السنام والعتق ، وجهه : قطعه .

(۲) في الأصل : « نجم » وهو تحريف ، والصواب « نجم » أي ظهر وطاع ، وجده : قطعه .

(۳) سحيق : بعيد . (۴) أي معاهدة بيده وبينكم .

في الأرض كما استخلف الدين من قبلهم ولئيمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدنهم من بعد خوفهم أمناً ، ، وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولكل نبي مستقر ، ولكل أجل كتاب . فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه للزبد من نعماته ، فقد أصبحتم بين^(۱) خلافة أمير المؤمنين - أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد - أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم بالآل ، وأعزهم قراراً ، وأمنهم داراً ، وأكثفهم جمعاً ، وأجهم صنفاً ، لاتهاجون ولا تذاون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناسحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يده من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال ، وحققن الدماء ، وصلاح الخاصة والدنماء^(۲) ، وأن بدوام^(۳) الطاعة تقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وصيت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سد الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » ، وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين الساعين في شق عصاكم ، وتفريق مملكتكم ، الآخذين في محاذلة دينكم ، وهتك حرمتكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين .

(۱) هكذا في نفع الطيب ، ومطعم الأنفس ، ولعل صوابه : « أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين » .
(۲) الدماء : جماعة الناس . (۳) في الأصل : « بقوام » ، وأظنه : « بهوام » .

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان
الناصر أشدهم تعجباً منه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ، ثم توفى
محمد بن عيسى القاضي ، فولاه قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .
(نفع الطيب ١ : ١٧٢ ، ومطعم الأنفس ص ٤٣)

٩ - خطبة أخرى له

وخطب منذر بن سعيد يوماً - وأراد التواضع - فكان من فصول خطبته ،
أن قال :

« حتى متى ، وإلى متى ، أعِظْ وَلَا أُنْعِظْ ، وَأزْجُرْ وَلَا أَنْزَجِرْ ، أدلّ الطريق
إلى المستدلين ، وَأَبْتَقِ مَقِيماً مع الخائرين ! كلا ، إن هذا هو البلاء المبين ! إن هي
إِلَّا فِتْنَتُكَ نُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَوَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ،
وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ . اللهم فرغني لما خلقتني له ، ولا تشغلني بما تكفلت لي به ،
ولا تحرمني وأنا أسألك ، ولا تعذبني وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين » .
(نفع الطيب ١ : ٢٢٢)

١٠ - أحد حساد الرمادى الشاعر والمنصور بن أبي عامر

(المتوفى سنة ٣٩٤ هـ)

وقال المنصور بن أبي عامر المَعَاوِرِيُّ^(١) يوماً لأبي عمر يوسف الرمادى الشاعر :

(١) هو المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك
المعاوى . دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق ، وكان عظيماً في قومه ، وله في الفتح أثر ، وكان
الحكم بن الناصر قد استوزر ابن أبي عامر ، وفوض إليه أموره ، وترقت حاله عنده ، ثم توفى الحكم
سنة ٣٩٦ هـ ، وولى بعده ابنه هشام ، وكانت سنه تسع سنين ، فحدثت ابن أبي عامر نفسه بالتغلب عليه
لمنصر سنة وتم له ما أمل ، فتغلب عليه ، وترهب على سرير الملك ، وأمر أن يجبا بعبدة الملوك ، وتسمى

كيف ترى حالك معي؟ فقال: «فوق قدرى، ودونَ قدرك^(١)»، فأطرق المنصور كالغضبان، فأنسلَّ الرمادى وخرج وقد ندم على ما بدر منه، وجعل يقول: أخطأت! لا والله، ما يُفليح مع الملوك من يعاملهم بالحق، ما كان ضررتنى لو قلت له: إني بلغت السماء، وتمنطقتُ بالجوزاء! وأنشد:

متى باتِ هذا الموتُ لا يُلفِ حاجةً
لِنَفْسِي إلا قد قضيتُ قضاءها

وكان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور، فوجد فرصة فقال:

«وَصَلَّ اللهُ لِمَوْلَانَا الظَّفَرَ وَالسَّعْدَ، إِنَّ هَذَا الصَّنْفَ صَنَفُ زُورٍ وَهَذَيَانٌ، لا يشكرون نعمة، ولا يرعون إلا^(٢) ولا ذِمَّةً، كلابٌ من غلب، وأصحابٌ من أخصب، وأعداء من أجذب، وحسبك منهم أن الله جل جلاله يقول فيهم: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالًا يَفْعَلُونَ» والابتعاد منهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم: ما ظنك بقوم الصدق يستحسن إلا منهم؟»

* * *

فرجع المنصور رأسه - وكان محامي أهل الأدب والشعر - وقد اسودَّ وجهه، وظهر فيه الغضب المفرط، ثم قال:

«ما بال أقوام يُشيرُون في شيء لم يُستشارُوا فيه، ويسيتُون الأدبَ بالحكم فيما لا يدرون، أيرضى أم يسخط؟ وأنت أيها المبتعث للشر دون أن يُبعث، قد علمنا غرضك، في أهل الأدب والشعر عامة، وحسدك لهم، لأن الناس كما قال القائل:

بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمحاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة، ولم يبق لهشام من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء له على المنابر، وكتابة اسمه في السكة والطرر، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً سنة ٣٩٤ هـ لسبع وعشرين سنة من ملكه.

(١) يريد «ودون ما ينبغي أن يمطيه مثلك مثل».

(٢) الإل: العهد.

من رأى الناس له فضلاً عليهم حسدوه

وَعَرَفْنَا غَرَضَكَ فِي هَذَا الرَّجُلِ خَاصَّةً ، وَلَسْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ نَبْلُغُ أَحَدًا غَرَضَهُ فِي أَحَدٍ ،
وَلَوْ بَلَّغْنَاكُمْ بَلَّغْنَا فِي جَانِبِكُمْ ، وَإِنَّكَ ضَرَبْتَ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ ^(١) ، وَأَخْطَأْتَ وَجْهَ الصَّوَابِ ،
فَزِدْتَ بِذَلِكَ احْتِقَارًا وَصَفَارًا ، وَإِنِّي مَا أُطْرَقْتُ مِنْ كَلَامِ الرَّمَادِيِّ إِنْكَارًا عَلَيْهِ ، بَلْ
رَأَيْتُ كَلَامًا يَجِلُّ عَنِ الْأَقْدَارِ الْجَلِيلَةِ ، وَتَعَجَّبْتُ مِنْ تَهْدِيهِ لِهَ بَسْرَعَةٍ ، وَاسْتَنْبَاطِهِ لِهَ عَلَيَّ
قَلَّةٍ مِنَ الْإِحْسَانِ الْغَامِرِ ، مَا لَا يَسْتَنْبِطُهُ غَيْرُهُ بِالْكَثِيرِ ، وَاللَّهُ لَوْ حَكَّمْتَهُ فِي بَيْوتِ الْأَمْوَالِ ،
لَرَأَيْتُ أَنَّهَا لَا تَرْجَحُ مَا تَكَلَّمُ بِهِ قَلْبُهُ ، ذَرَّةً . وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَعُودَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى الْكَلَامِ
فِي شَخْصٍ ، قَبْلَ أَنْ يُوْخَذَ مَعَهُ فِيهِ ، وَلَا تَحْكُمُوا عَلَيْنَا فِي أَوْلِيَانَا ، وَلَوْ أَبْصَرْتُمْ مِنَّا
التَّغْيِيرَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّا لَا نَتَغَيَّرُ عَلَيْهِمْ بَغْضًا لَهُمْ ، وَانْحِرَافًا عَنْهُمْ ، بَلْ تَأْدِيبًا وَإِنْكَارًا ، فَإِنَّا
مِنْ نَزِيدٍ إِبْعَادَهُ لَمْ نُظْهِرْ لَهُ التَّغْيِيرَ ، بَلْ نُنْبِذُهُ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَإِنِ التَّغْيِيرُ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ
يُرَادُ اسْتِبْقَاؤُهُ ، وَلَوْ كُنْتُ مَائِلَ السَّمْعِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْكُمْ فِي صَاحِبِهِ ، لَتَفَرَّقْتُمْ فِي أَيْدِي
سَبَابٍ ^(٢) ، وَجُونِبْتُ أَنَا مَجَانِبَةَ الْأَجْرِبِ ، وَإِنِّي قَدْ أَطَّلَعْتُكُمْ عَلَى مَا فِي ضَمِيرِي ، فَلَا تَعْدِلُوا
عَنْ مَرَضَاتِي ، فَتَجَنَّبُوا سُخْطِي بِمَا جَنَيْتُمُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

* * *

ثم أمر أن يُرَدَّ الرمادي ، وقال له : أَعِدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ ، فارتاع ، فقال : الأمرُ
على خلاف ما قدرت ، الثوابُ أولى بكلامك من العقاب . فسكن لتأنيسه ، وأعاد
ما تكلم به .

فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان بن المنذر حشاً فم النافعة بالدُّر ، لكلامه

(١) من أمثال العرب : « تضرب : في حديد بارد » وهو مثل يضرب لمن طمع في غير مطمع .
(٢) من أمثالهم أيضاً : « ذهبوا أيدي سبا » ، وتقرنوا أيدي سبا ، وأيادي سبا ، وليلد : الطريق
أي فرقهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبا في مذاهب مختلفة . ضرب المثل بهم ، لأنه لما غرق مكانهم ،
وذهب جناتهم ، تبددوا في البلاد - انظر القصة في الجزء الأول صفحة ١٠٨ - وقد بنوا أيدي سبا ،
وأهدى سبا على السكون لكون مركبا تركيب خمسة عشر .

استملحه منه ، وقد أمرنا لك بما لا يقصُر عن ذلك ، ما هو أنوّه وأحسن عائِدَة ،
وكتب له بمال وَّخَلَع وموضع يعيش منه ، ثم رد رأسه إلى المتكلم في شأن الرمادى
- وقد كان يفوص في الأرض لو وجد ، لشدة ما حلَّ به مما رأى وسمع - وقال :
« وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ : الْإِبْتِعَادُ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَوْلَى مِنَ الْإِقْتِرَابِ ، نَعَمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ

لَيْسَ لَهُ مَفَاخِرٌ ، يَرِيدُ تَحْلِيدَهَا ، وَلَا أَيَادٍ يَرْغَبُ فِي نَشْرِهَا ، فَأَيْنَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ :

عَلَى مُكْثَرِهِمْ رَزَقٌ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُتَمَيِّنِ السَّمَاةُ وَالْبَدَلُ^(١)

وَأَيْنَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مَبْدَاهِ وَمُحْتَضِرِهِ

فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَلَّتْ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ^(٢)

أَمَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ أَكْرَمُ مَنْ قِيلَ فِيهِ هَذَا الْقَوْلُ ؟ بَلَى ، وَلَكِنْ صُحْبَةَ

الشُّعْرَاءِ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ ، أَحْيَتْ غَايِرَ ذِكْرِهِمْ ، وَخَصَّتْهُمْ بِمَفَاخِرِ عَصْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ

لَمْ تَخُلِّدِ الْأُمْدَاحَ^(٣) مَا تَرَاهُمْ ، فَدَثَّرَ ذِكْرَهُمْ ، وَدَرَسَ نَجْرَهُمْ .

(نفع الطيب ٢ : ٢٢٦)

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة في مدح آل هرم بن سنان .

(٢) البيتان لعل بن جبلة الأنباري الملقب بالمكوك من قصيدة قالها في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى

المجلى - وكان جواداً مدحاً وفهماً يقول :

كل من في الأرض من عرب بن بادية إلى حضرة

معتبر منه مكرمة يكتبها يوم مفتخره

وهذا البيتان الأخيران أحفظا عليه المأمون ، فطلبه حتى ظفر به ، فسل لسانه من فقهه ، ويقال : بل هرب

ولم يزل متوارها منه حتى مات ، قال صاحب الأغاني : « وهذا هو الصحيح من القولين ، والآخر شاذ »

(٣) لم أجد هذا الجمع في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها : « الملاحه بالكسر والمديح والأمدوحة بالضم :

حما يمدح به ، والجمع مدح كغيب ومدائح وأمداح . »

١١ - ابن اللبابة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح

لما مات المعتصم بن صمادح^(١) ملك المرية ركب البحر ابنه وولى عهده الواثق عز الدولة ، وفارق الملك كما أوصاه والده المعتصم .

قال أبو بكر بن اللبابة الشاعر : ما علمت حقيقة جور الدهر ، حتى اجتمعت ببجاية^(٢) مع عز الدولة بن المعتصم ، فإني رأيت منه خيراً من يجتمع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة ، وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنم من تحت حمولة ، كما ينم فرند^(٣) السيف وكرمه من تحت الصدا ، مع حفظه ل فنون الأدب والتواريخ ، وحسن استماعه وإسماعه ورقة طباعه ، ولطافة ذهنه ، ولقد ذكرته لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ، ووصفته بهذه الصفات ، فتشوق إلى الاجتماع به ، ورغب إلى في أن أستاذنه في ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال :

« يا أبا بكر ، إنك لتعلم أنا اليوم في حمول وضيق ، لا يتسع لنا معهما ، ولا يجمل بنا الاجتماع مع أحد ، لا سيما مع ذى أدب ونباهة ، يلقانا بعين الرحمة ، ويورنا بمنة التفضل في زيارتنا ، ونكايد من ألقاظ توجعه ، وألحاظ تفجعه ، ما يجدد لنا هماً قد بلى ، ويحبي كمداً قد فني ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضى عن همتنا ، فدعنا كأننا في قبر ، نتدرع لسهام الدهر ، بدرع الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامتزجت امتزاج الماء بالخر ، فكأننا لم نكشيف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا ، فلا نحمل غيرك بحملك » .

(١) هو أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، وكان صاحب المرية ، وبلد بالأندلس على الساحل الجنوبي ، وكان منافساً للمعتصم بن هبادة صاحب إشبيلية . ماورنا له ، وقد سمي به لدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وأفسد ما بينهما ، وكان ابن عباد قد استنصر بابن تاشفين لصد غارة الإسبان ، فعبر بجيشه من مراكش إلى الأندلس ، وأهل بلاد حسناً في قتالهم حتى دارت عليهم الدائرة في وقعة الزلاقة ، ثم مال على ملوك الطوائف ، فاكتسح دولهم ، ودانت له الأندلس . (٢) بجاية : بلد بالمغرب على ساحل بلاد الجزائر . (٣) جوهرة .

قال ابن اللبابة : فلأ والله سمى بلاغةً لاتصدُر إلا عن سداد ، ونفس أبية متمكنة
من أعنة البيان ، وانصرفت متمثلاً :

لسانُ الفتى نصفٌ ، ونِصفٌ فؤاده فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدمِ
وكلُّ من ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتهُ أو نقصُهُ في التكلم^(١)
(نفع اللطيب ٢ : ٢٢٨)

١٢ - دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى

بحضرة ابن تاشفين

لما تألب بنو حسون على القاضي أبى محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة^(٢) ، انبرى
للدفاع عنه العالم الأصولى أبو عبد الله بن الفخار ، فقصده إلى حضرة الإمامة «مرًا كش» ،
وقام فى مجلس أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، وقد غصَّ بأربابه ، فقال :
« إنه لمقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنوء منه ، ونصلي على خيرة أنبيائه ،
محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابة نجوم الليل البهيم^(٣) ، أما بعد ، فإننا
نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفى نصيراً وظهيراً ، ونفزع
إليك مما دهمنا^(٤) فى حماك ، ونبثُ إليك ما لحقنا من الضيم ، ونحن تحت ظلِّ علاك ،
ويأبى الله أن يدَّهم من احتمى بأمر المسلمين ، ويصأبُ بضمٍ من أدرع بحصنه الحصين ،
شكوى قمت بها بين يديك ، فى حق أمرك الذى عَضده^(٥) مؤيِّده ، لتسمع منها ما تختبره
برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدَّمته فى مالقة للأحكام ، ورضيت

(١) البيتان ازهير بن أبى سلمى من معلقته . (٢) باد بالأندلس على الساحل الجنوبى .

(٣) الأسود . (٤) دهمه كسمع ومنع : غشيه .

(٥) عضده كنصره : أصاب عضده ، والمراد بمؤيده بنو حسون ، والمعنى : إن بنى حسون - وكانوا
أحق بتأييد أمرك وتوطيده - قد أوهنوه وأوهوه بتمرضهم لأحكام القاضى ، والظن فيها ، أو معضه
عضده : نصره ، فالمراد بمؤيده القاضى الوحيدى ، والمعنى على ذلك ، إن القاضى القائم بأمرك يدأب على
نصره ، وتلبيت دعائه ، بانتهاجه طريق الحق فى حكمه ، ولو غضب من جراء ذلك فربق من الرعية .

بعده فيمن بها من الخاصة والعوام ، لم يزل يدُلُّ على حسن اختيارك بحسن سيرته ،
وَيَرْضِي اللهُ تَعَالَى وَيَرْضِي النَّاسَ بِظَاهِرِهِ وَسِرِّيَّتِهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، وَلَا
دَرَيْنَا لَهُ مَوْقِفٍ خِزْيٍ ، وَلَمْ يَزَلْ جَارِيًّا عَلَى مَا يُرَضِي اللهُ تَعَالَى وَيَرْضِيكَ وَيَرْضِينَا ، إِلَى
أَنْ تَعَرَّضْتَ بِمَوْحِسُونَ لِلطَّعْنِ فِي أَحْكَامِهِ ، وَالْهَدِّ مِنْ أَعْلَامِهِ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنْ اهْتِضَامَ
الْمُقَدَّمِ رَاجِعٌ عَلَى الْمُقَدَّمِ ، بَلْ جَمَّحُوا فِي لَجَاجِهِمْ ، فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ، وَفَعَلُوا وَأَمْضَوْا مَا بِهِ
هُمُومًا ، وَإِلَى السُّحْبِ يَرْفَعُ الْكُفَّاءَ مِنْ قَدْ جَفَّ عَنْهُ مَسِيلُ عَيْنٍ وَنَهْرٍ .

فَمَا سَمِعَهُ بِبَلَاغَةِ أَعْقَبَتْ نَصْرَهُ وَنَصَرَ صَاحِبَهُ . (نفع الطيب ٢ : ٢٤٠)

١٣ - موعظة ابن أبي رندقة الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ

للأفضل بن أمير الجيوش

دخل ابن أبي رندقة الطرطوشي^(١) مرة على الأفضل^(٢) بن أمير الجيوش
فوعظه ، وقال له :

« إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك ، إنما صار إليك بموت من كان قبلك ،
وهو خارجٌ عن يدك ، بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله
عزَّ وجلَّ سَأَلْتُكَ عَنِ النَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ وَالْفَتِيلِ^(٣) ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ آتَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ

(١) هو الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشي
(بضم الطاء بن ، وقد تفتح الطاء الأولى ، نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس) ويعرف بان أبي رندقة
وكان زاهداً هادياً متورعاً متقللاً من الدنيا قولاً للحق ، رحل إلى المشرق ، ودخل بغداد والبصرة ،
وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان الأفضل بن أمير الجيوش يكرهه ، فلما ولي بعده المأمون بن البطاحي
أكرم الطرطوشي إكراماً كثيراً ، وله ألف الشيخ «سراج الملوك» وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) هو الوزير الأفضل بن بدر الجبالى أمير الجيوش المشهور ، وكان أبوه بدر الجبالى حاكم صكا ، فأرسل
إليه الخليفة الفاطمي المحتصر يسأله القدوم إلى مصر لإصلاح أحوالها المضطربة إذ ذك ، فقدم إليها ، وتولى
شئونها ، وأقام معوجها ، وصارت له فيها الكلمة النافذة ، ثم لابنه الأفضل .

(٣) النقير : النقرة التي في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة التي بين النواة والتمر ، والفتيل :
ما يكون في شق النواة .

مَلِكِ الدُّنْيَا بِحَدَّافِيرِهَا ، فَسَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ وَالطَّيْرَ وَالْوَحُوشَ وَالْبَهَائِمَ ،
 وَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً^(۱) حَيْثُ أَصَابَ ، وَرَفَعَ عَنْهُ حِسَابَ ذَلِكَ أَجْمَعِ ،
 فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : « هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ^(۲) أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فَمَا عَدَّ ذَلِكَ
 نِعْمَةً كَمَا عَدَدْتُمُوهَا ، وَلَا حَسِبَهَا كِرَامَةً كَمَا حَسِبْتُمُوهَا ، بَلْ خَافَ أَنْ يَكُونَ اسْتِدْرَاجًا
 مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَنِي^(۳) أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » ،
 فَافْتَحَ الْبَابَ ، وَسَهَّلَ الْحِجَابَ ، وَانصَرَ الْمَظْلُومَ . (نفع الطيب ۱ : ۲۶۲)

۱۴ - خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين

(المتوفى سنة ۵۳۴ هـ)

استدعى محمد بن عبد الله بن تومرت^(۴) مؤسس دولة الموحدين أصحابه ، قبل
 موته بأيام يسيرة ، وقد أراد أن يستخلف عليهم عبد المؤمن بن علي ، فلما حضروا
 بين يديه قام :

(۱) الرخاء : الريح اللينة . (۲) أي فأعط منه من شئت . (۳) بلاه : اختبره .
 (۴) هو محمد بن عبد الله بن تومرت من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب ، وله سنة ۴۸۵ هـ ،
 ورحل إلى المشرق سنة ۵۰۱ هـ في طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، وقيل إنه أتى أبا حامد الغزالي ، ثم
 رجع إلى المغرب ، وقامت دعوته في أول الأمر في صورة أمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، فاتبعه بعض
 القوم ، وخرج هو وأصحابه إلى السوس ، وشرع في التدريس والدعاء إلى الخير : وما زال يستميل
 القلوب حتى كثرت شيعته ، ثم جعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه ، فلما قدر
 في نفوسهم فضيلة المهدي ، ادعى ذلك لنفسه ، وتسمى بالمهدي ، ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم
 وادعى أنه من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي
 المعصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي ، فبايعوه على ذلك ، ولما كانت
 سنة ۵۱۷ هـ جهز جيشا عظيما - وكانت مراکش تحت إمرة المرابطين - فقال : اقصدوا هؤلاء المارقين
 المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إمامة المنكر ، وإحياء العروف ، وإزالة البدع ، والإقرار
 بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجاؤكم فهم إخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم
 فقد أباحت لكم السنة قتالهم ، وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي ، فخرجوا إلى مراکش فلقبهم المرابطون
 قريبا منها بجيش ضخم أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين ، فدعوهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت
 فرددوا عليهم أسوأ رد ، ثم التقت الفشتان ، فانهزم أصحاب ابن تومرت وقتل منهم خلق كثير ، فلما رجع
 القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ، ويقرر في نفوسهم أن قتلاهم شهداء ، لأنهم ذابون -

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم
أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من
الثبات في دينهم ، والعزيمة في أمرهم ، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لأثم ،
وذكر من حدّ عمر رضي الله عنه ابنه في الخمر ، وتصميمه على الحق ، في أشباه هذه
الفصول ، ثم قال :

فانقضت هذه العصابة ، نضر الله وجوهها ، وشكر لها سعيها ، وجزاها خيراً عن
أمة نبيها ، وخبّطت الناس فتنة تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلاً مداهناً ، فلم
ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه الناس
إليهم ، في أشباه هذا القول ، إلى هلمّ جراً .

ثم إن الله سبحانه - وله الحمد - منّ عليكم - أيتها الطائفة - بتأييده ، وخصّكم
من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقبض^(١) لكم من^(٢) ألفا كم ضلّالاً لا تهتدون ،
وعُمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ، ولا تُنكرون منكراً ، قد فشت فيكم البدع ،
واستهوتكم الأباطيل ، وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات^(٣) ، أنزّه لسانى عن
النطق بها ، وأرّبا^(٤) بلفظى عن ذكرها ، فهذا كم الله به بعد الضلالة ، وبصّر كم بعد
العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزّ كم بعد الذلّة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين^(٥) ،
وسوّرتكم أرضهم وديارهم ، ذلك بما كسبته أيديهم ، وأضمرت قلوبهم ، وما ربك
بظلام للعبيد .

= من دين الله ، فزادهم ذلك بصيرة في أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوهم ، وجعلوا يشنون الغارات على نواحي
مراكش ويقتلون ويسبون ولا يبقون على أحد من قدروا عليه ، وكثر الداخلون في طاعتهم ، ولم يزل
أصحابه ظاهرين ، وأحوال المرابطين تختل ، وانتقاض دولتهم يتزايد ، إلى أن توفي ابن مومرت سنة ٥٣٤ هـ
بعد أن أسس الأمور ، وأحكم التدبير ، وقام بأمر الموحدين من بعده عبد المؤمن بن عل . وقد استوثق له
الأمر بموت عل بن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين سنة ٥٣٧ هـ .

(١) أتاح لكم وسبب رهياً . (٢) يعنى نفسه . (٣) جمع ترهة : وهى الباطل .
(٤) أرتفع . (٥) يريد المرابطين .

فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم ، وأرووه من الشكر قولاً وفعلًا ما يزيكي به
سعيكم ، ويتقبل أعمالكم ، وينشر أمركم ، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة ، وشتات
الآراء ، وكونوا يداً واحدةً على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هابكم الناس ،
وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكثر أنباكم ، وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلا تفعلوا
شملمكم الذل ، وعممكم الصغار^(۱) واحترتكم العامة ، فتخطفكم الخاصة ، وعليكم
في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح
أمر آخر هذه الأمة ، إلا على الذي صلح عليه أمر أولها .

وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلوناه^(۲) في جميع
أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريره وعلا نيته ، فرأيناه في ذلك كله
ثباتاً^(۳) في دينه ، متبصراً في أمره ، وإني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه ، وهذا المشار
إليه هو : « عبد المؤمن » ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فان بدل
أو نكص على عقبه ، أو ارتاب في أمره ، ففي الموحدين - أعزهم الله - بركة وخير
كثير ، والأمر أمر الله بقلده من شاء من عباده .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعاهم ابن تومرت .

(المعجب ، في تاريخ أخبار المغرب ص ۱۰۸)

(۱) للذل . (۲) اخترناه . (۳) أي ثابتاً .

١٥ - مقال لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ)

في الحض على الجهاد

وقال لسان الدين بن الخطيب^(١) في الحض على الجهاد^(٢) :

« أيها الناس - رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى - :

إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو - قصمه الله تعالى - ساحتهم ،
ورام الكفر - خذله الله تعالى - استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم ،
ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم - بعزة الله تعالى - أقوى ، وأنتم المؤمنون
أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه^(٣) ، وسبيل
الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد فقد تعين ، الجار الجار فقد قرر الشرع
حقه وبيّن ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، الله الله
في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم
الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن
من الإعانة ، أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جدّدوا عوائد الخير ، يصل الله تعالى

(١) لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المشهور بابن الخطيب خاتمة أدباء الأندلس ، ولد بقرنطة سنة ٧١٣ ، وكان أول أمره في عداد كتاب السلطان أبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر ، ثم اصطفاه وجعله وزيره ، وفوض إليه شؤون مملكته ، ولما مات أبو الحجاج ، وخلفه ابنه محمد أقره عاد للوزارة ، ثم وثب إسماعيل أخو السلطان على مملكته ، فاضطر أن يفادره إلى المغرب مع وزيره لسان الدين ، فلما تحسنت الأحوال عاد محمد إلى مملكته ، وبقي مدة كتب له فيها ابن زمرق أحد تلاميذ لسان الدين ثم عاد لسان الدين إلى قرنطة ، وحل مكانه من سلطانه ، فألب ذلك نار الحسد في ابن زمرق وأذصاره ، فسموا به إليه حتى أحفظوه عليه ، فهرب إلى المغرب - وكان في حوزة بني مرين ، وهم من البربر - حكموا المغرب بعد الموحديين من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٨٩٠ هـ - فأكرمه سلطان المغرب عبد العزيز ، وخطب ابن الأحمر في أمه وولده ، فبعثه إليه إلى أن مات (عبد العزيز) ، وثار أحد أمراء بني مرين على ابن عبد العزيز ، وساعده ملك بني الأحمر بشرط تسليمه ابن الخطيب ، وتم له أمره ، وقبض عليه ، وسجن بفاس ، ونظر في كلمات له في كتابه « المحبة » وأقنى الفقهاء بقتله ، فدمس عليه من خنقه في سجنه سنة ٧٧٦ .

(٢) وكان سلطانه محمد بن أبي الحجاج أسفره إلى ملوك بني مرين يستنجد به على الإسبان .

(٣) أخفروه : غدر به ونقض عهده .

لکم جمیل العوائد ، صلوا رَحِمَ الْکَلِمَةِ^(۱) وَاسُوا بِأَنْفُسِکُمْ وَأَمْوَالِکُمْ تَلْکَ الطَّوَائِفَ
 الْمُسْلِمَةَ ، کِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَيْدِیکُمْ ، وَالسِّینَةُ الْآیَاتُ تُنَادِیکُمْ ، وَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَیْهِ وَسَلَّمَ قَائِمَةٌ فِیکُمْ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ یَقُولُ فِیهِ : « یَا أَيُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّکُمْ
 عَلٰی تِجَارَةٍ تُنْجِیکُمْ » ، وَمِمَّا صَحَّ عَنْهُ قَوْلُهُ : « مَنْ أُغْبِرَّتْ قَدَمَاهُ فِی سَبِيلِ اللَّهِ
 حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَی النَّارِ » « لَا یَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ » ، « مَنْ جَهَّزَ غَازِیًا
 فِی سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا » أَدْرِ کَوَارِمَقَ الدِّینِ قَبْلَ أَنْ یَفُوتَ ، بَادِرُوا عَلِیلَ الْإِسْلَامِ قَبْلَ
 أَنْ یَمُوتَ ، احْفَظُوا وَجُوهَکُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالٰی یَوْمَ یَسْأَلُکُمْ عَنْ عِبَادِهِ ، جَاهِدُوا فِی اللَّهِ
 بِاللِّسَنِ وَالْأَقْوَالِ حَقَّ جِهَادِهِ :

مَآذَا یَکُونُ جَوَابُکُمْ لِنَبِیِّکُمْ وَطَرِيقُ هَذَا الْعُذْرِ غَیْرُ مُمَهَّدٍ
 إِنْ قَالَ : لِمَ فَرَّطْتُمْ فِی أُمَّتِی وَتَرَکْتُمُوهُمْ لِلْعُدُوِّ الْمُعْتَدِی؟
 تَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْعُقُوبَةَ لَمْ تُنْخَفْ لَکَفَى الْحَیْمَا مِنْ وَجْهِ ذَاکَ السَّیِّدِ

اللَّهُمَّ اعْطِفْ عَلَینَا قُلُوبَ الْعِبَادِ ، اللَّهُمَّ بَثِّ لَنَا الْحَمِیَّةَ فِی الْبِلَادِ ، اللَّهُمَّ دَافِعْ عَنِ
 الْحَرِیمِ وَالضَّعِيفِ وَالْأَوْلَادِ ، اللَّهُمَّ انصُرْنَا عَلٰی أَعْدَائِکَ ، بِأَحْبَابِکَ وَأَوْلِیَائِکَ ،
 یَا خَیْرَ النَّاصِرِینَ ، اللَّهُمَّ أَفْرِغْ عَلَینَا صَبْرًا ، وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلٰی الْقَوْمِ الْکَافِرِینَ
 وَصَلِّی اللَّهُ عَلٰی سَیِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلٰی آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا کَثِیرًا .
 (نفع الطیب : : ۳)

۱۶- مَا خَاطَبَ بِهِ لِسَانَ الدِّینِ تَرْبَةَ السَّلْطَانِ الْکَبِیرِ أَبُو الْحَسَنِ الْمَرِینِی

وَخَاطَبَ لِسَانَ الدِّینِ بِنِ الْخَطِیبِ تَرْبَةَ السَّلْطَانِ الْکَبِیرِ أَبُو الْحَسَنِ الْمَرِینِی

لَمَّا قَصَدَهَا عَقِبَ مَا شَرَعَ فِی جِوَارِهِ ، فَقَالَ :

« السَّلَامُ عَلَیکَ نَمَّ السَّلَامُ ، أَیْهَا الْمَوْلَى الْهَمَامُ ، الَّذِی عَرَفَ فَضْلَهُ الْإِسْلَامُ ،
 وَأَوْجَبَتْ حَقَّهُ الْعُلَمَاءُ الْأَعْلَامُ ، وَخَفَقَتْ بِعِزِّ نَصْرِهِ الْأَعْلَامُ ، وَتَنَافَسَتْ فِی إِنْفَآذِ أَمْرِهِ

(۱) أی کلمة للعرجید .

وهيه السيوف والأقلام ، السلام عليك أيها المولى الذى قَسَمَ زمانه بين حكمٍ فصلٍ وإمضاء نَصْلِ ، وإحراز خَصْلِ^(۱) ، وعبادةٍ قامت من اليقين على أصل ، السلام عليك يامقرّر الصدقاتِ الجارية ، ومُشَبِّعِ البطونِ الجائعة ، وكاسِيِ الظهورِ العارية ، وقادِحِ زِنادِ العزائمِ الوارية ، ومكتَبِ الكتابِ الغازية ، فى سبيلِ الله تعالى والسَّرَايَا^(۲) السارية ، السلام عليك يا حُجَّةَ الصبر والتسليم ، ومتلقَى أمرِ الله تعالى بأُخْلُقِ المَرْضَى والقلبِ السليم ، ومفوضِ الأمرِ فى الشدائدِ إلى السميعِ العليم ، وَمُعْمِلِ البَنانِ الطاهرِ فى اِكْتِتَابِ الذِكرِ الحكيمِ ، كَرَّمَ اللهُ تعالى تُرْبَتَكَ وَقَدَسَهَا ، وطَيَّبَ رُوحَكَ الزَكِيَّةَ وَأَنَسَهَا ، فلقد كنتَ للدهرِ جَمالاً ، وللإسلامِ ثَمالاً^(۳) ، وللمستجيرِ مُجيراً ، وللمظلومِ وائياً ونصيراً ، لقد كنتَ المحاربِ صَدْرًا ، وفى المواقبِ بَدْرًا ، وللمواهبِ بَحْرًا ، وعلى العبادِ والبِلادِ ظِلًّا ظليلاً وَسِتْرًا ، لقد فَرَعْتَ^(۴) أعلامَ عِزِّكَ الثنايا ، وأجزلتَ همتَكَ للملوكِ الأرضِ الهدايا ، كأنكَ لم تَعْرِضِ الجنودَ ، ولم تَنْشُرِ البُنودَ^(۵) ، ولم تَبْسُطِ العدلَ المحدودَ ، ولم تُوجِدِ الجودَ ، ولم تَزِينِ الرِكْعَ الشُّجُودَ ، فتوسَّدتِ الثرى ، وأطلتِ الكَرَى ، وشربتِ الكأسَ التى يشربها الوَرَى ، وأصبحتِ ضارِعَ^(۶) الحَدِّ ، كليلِ الحَدِّ ، سالِكًا سَنَنِ الأبِ والجدِّ ، لم تَجِدْ بعدَ انصرامِ أجلك ، إلا صالحَ عملِكَ ، ولا صَحِبْتَ لقبرِكَ ، إلا رابِحَ تَجْرِكَ^(۷) ، وما أسلفتَ من رضاكَ وَصَبْرِكَ ، فَنَسألُ اللهُ تعالى أنْ يُؤنِسَ اغْتِرابَكَ ، ويَجُودَ بِسحابِ الرِحمَةِ تُرابَكَ ، وينفَعَكَ بِصدقِ اليقينِ ، ويجعلَكَ مِنَ الأئمَّةِ المُتَّقِينَ ، وَيُعَلِّيَ دَرَجَتَكَ فى عَلِيَّينَ^(۸) ، ويجعلَكَ معَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم مِنَ النَبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ .

(۱) الحِصَلُ : الغنابة فى النضال . (۲) السرايا : جمع سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثمانية أو أربعمانه .

(۳) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

(۴) فرعت : علت ، والثنايا : جمع نذبة كهديه ، وهى العقبة ، أو الجبل ، أو الطريقة فيه .

(۵) البُنود جمع بند كشمس : وهو العلم الكبير .

(۶) ذليل . (۷) تاجر تجراً وتجارة .

(۸) اسم لأهل الجنة ، أو هو كتاب جامع لأعمال الخير .

وَأَيُّهَا أَنْ صَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، إِلَى نَيْرِ سَعْدِكَ ، وَبَارِقِ رَعْدِكَ ،
 وَمُنْجَزِ وَعْدِكَ ، أَرْضِي وَلَدِي ، وَرَيْحَانَةَ خَلْدِكَ ^(١) ، وَشِقَّةَ ^(٢) نَفْسِكَ ، وَالسَّرْحَةَ الْمُبَارَكَةَ
 مِنْ غَرَسِكَ ، وَنُورَ شَمْسِكَ ، وَمَوْصِلَ عَمَلِكَ الْبَرِّ إِلَى رَمْسِكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ دَعْوَاتِكَ
 فِي خَلْوَاتِكَ ، وَأَعْقَابِ صَلَوَاتِكَ ، فَكَلِمَتُكَ - وَاللَّيْنَةُ لِلَّهِ تَعَالَى - بَاقِيَةٌ ، وَحَسَنَتُكَ إِلَى مَحَلِّ
 الْقَبُولِ رَاقِيَةٌ ، يَرْعَى بِكَ الْوَسِيلَةَ ، وَيَتَمَّمُ مَقَاصِدَكَ الْجَمِيلَةَ ، أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبِرْكَةِ رِضَاكَ
 عَلَى مَا قَلَّدَهُ ، وَعَمَرَ بِتَقْوَاهُ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَأَبْعَدَ فِي السَّعْدِ أَمَدَهُ ، وَأَطْلَقَ بِالْخَيْرِ يَدَهُ ،
 وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَنْصَارَهُ وَالْأَقْدَارَ عُدَدَهُ .

وَإِنِّي أَيُّهَا الْمَوْلَى الْكَرِيمُ ، الْبَرُّ الرَّحِيمُ ، لَمَّا اشْتَرَانِي ، وَرَاشِي ^(٣) وَبَرَانِي ،
 وَتَعَبَّدَنِي بِإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي اسْتِخْلَاصِي خَطَّ بِنَانِهِ ، وَوَصِيَّةَ لِسَانِهِ ، لَمْ أَجِدْ مَكْفَأَةً
 إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَيْكَ وَإِلَيْهِ بِرِثَائِكَ ، وَإِغْرَاءَ لِسَانِي بِتَخْلِيدِ عُلْيَائِكَ ، وَتَعْفِيرِ الْوَجْنَةِ
 فِي حَرَمِكَ ، وَالْإِشَادَةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ بِمَجْدِكَ وَكَرَمِكَ ، فَفَتَحْتَ الْبَابَ فِي هَذَا الْغَرَضِ ،
 إِلَى الْقِيَامِ بِحَقِّكَ الْمَفْتَرَضِ ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَاتَّصَلَتِ الْغَفْلَةُ عَنْ أَدَائِهِ وَتَمَادَّتْ ، فَمَا يَبَسَّتْ
 الْأَلْسُنُ وَلَا كَادَتْ ، مُتَحَيِّرًا بِالسَّبْقِ ، إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْحَقِّ ، بَادئًا بِزِيَارَةِ قَبْرِكَ الَّذِي هُوَ
 رِحْلَةُ الْغَرْبِ ، مَا نُوَيْتَهُ مِنْ رِحْلَةِ الشَّرْقِ ، وَمَا أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَأَقْطَعَهُ أَثَرُ مَوَاقِعِ الْإِسْتِحْسَانِ
 وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالتَّنْوِيهِ وَالْإِحْسَانِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ عَمَلًا مَقْبُولًا ، وَيَبْلُغُ فِيهِ
 مِنَ الْقَبُولِ مَأْمُولًا ، وَيَتَغَمَّدُ مِنْ ضَاجِعَتِهِ مَنْ سَلَفَكَ الْكِرَامَ بِالْمَغْفِرَةِ الصَّيْبَةِ ، وَالتَّحِيَّاتِ
 الطَّيِّبَةِ ، فَنِعْمَ الْمَلُوكُ الْكِبَارُ ، وَالْخُلَفَاءُ الْأَبْرَارُ ، وَالْأَيُّمَةُ الْأَخْيَارُ ، الَّذِينَ كَرَّمَتْ مِنْهُمْ
 السَّيْرَ وَحَسَنَتِ الْأَخْبَارَ ، وَسَعِدَ بِعِزَمَاتِهِمُ الْجِهَادِيَّةُ الْمُؤْمِنُونَ وَشَقِيَ الْكُفَّارُ ، وَصَلَوَاتُ
 اللَّهِ تَعَالَى عَوْدًا وَبَدَأً ، عَلَى الرَّسُولِ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ فَهُوَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ ، وَعَلَى آلِهِ
 وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ السَّادَةُ الْأَبْرَارُ ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا .

(نفع الطيب : : ١٢٥)

(١) الخلد : النفس والقلب . (٢) الشقة : نصف الشيء إذا شق ، والسرحة : الشجرة العظيمة .
 (٣) راش السهم : ألزق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله .

۱۷ - وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده

« الحمد لله الذي لا يروِّعُهُ الحِمَامُ المَرْقُوبُ ، إِذَا شِمْ ^(۱) نَجْمُهُ المَقْبُوبُ ، وَلَا يَبْغَتُهُ الأَجَلُ المَكْتُوبُ ، وَلَا يَفْجُوهُ الفِرَاقُ للَعْتُوبُ ، مُلْهِمُ الهُدَى الذي تَطْمَئِنُّ بِهِ القُلُوبُ ، وَمَوْضِعُ السَّبِيلِ المَطْلُوبُ ، وَجَاعِلُ النَصِيحَةِ الصَّرِيحَةِ مِنْ قِسْمِ الوَجُوبِ ، لِاسْمًا لِلوَلِيِّ المَحْبُوبِ ، وَالوَلَدِ المَنْسُوبِ ، القَائِلُ فِي الكِتَابِ المُعْجِزِ الأَسْلُوبِ : « أُمُّ كُنْتُمْ شُهَدَاءُ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبُ ^(۲) » ، « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ^(۳) » ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ ، أَكْرَمَ مِنْ زُرَّتْ عَلَى نُورِهِ جُيُوبُ الفَيُوبِ ، وَأَشْرَفَ مَنْ خُلِعَتْ عَلَيْهِ حَالُ المَهَابَةِ وَالعِصْمَةِ ، فَلَا تَفْتَحِيهِ العَيُونَ ، وَلَا تَصِيهُ العَيُوبُ ^(۴) ، وَالرِضَاعُ عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ المَثَابِرِينَ عَلَى لِسَانِ ^(۵) الأَسْتِقَامَةِ بِالهَوَى المَغْلُوبِ ، وَالأَمَلِ المَسْلُوبِ ، وَالأَقْتِدَاءِ المَوْضِلِ إِلَى المَرْغُوبِ ، وَالعِزِّ وَالأَمْنِ مِنَ اللُّغُوبِ ^(۶) ، وَبَعْدُ : فَإِنِّي لِمَتَاعِلَانِي المَشِيبِ بِقِمَّتِهِ ^(۷) ، وَقَادِنِي الكِبَرِ بِرُمَّتِهِ ^(۸) ، وَآدَّ كَرَّتُ الشَّبَابِ

(۱) من شام البرق : نظر إليه ابن يقصد ، وابن يطر .

(۲) وتام الآية الكريمة :

« إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

(۳) وتام الآية الكريمة : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ،

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(۴) تزدرية وتحقره ، ووصفه : عابه . (۵) اللسان : الرسالة .

(۶) اللغوب : أشد الإعياء . (۷) القمة : أعلى كل شيء .

(۸) الرمة بالضم ويكسر : قطعة من حبل .

بعد أمته^(۱)، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رصفت، وتأكد
وجوب نصحي لمن لزمني رغيه، وتعلق بعيني سعيه، وأمات أن تتعدى إلى ثمرة
استقامته، وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت
عثاري، إن سلك - وعسى ألا يكون ذلك - على آثاري، فقلت أخاطب الثلاثة
الوالد، وثمرات الخلد^(۲) بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم،
وجمع تفريقهم، وأن يمن على منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن
يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو ولي ذلك، والهادي إلى خير المسالك:
اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضلال، وبرضاه ترفع الأغلال،
وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها
الشمال، أني موذعكم وإن سالمني الردي، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عداء مما
بدا، فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادي الرحيل يسمع، ولأقل للحبيب المودع،
من وصية محتضر، وعجالة مقتصر، ورثيمة^(۳) تقعد في خنصر، ونصيحة تكون
نشيدة وإع مبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدى، وتوضح لكم من
الشفقة والحنو قصدي، حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدي، فهي أربكم الذي
لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه مارف عايكم سقفه، وكأني بشبابكم قد شاخ،
وبراحلكم قد أناخ، وبنشاطكم قد كسل، واستبدل الصاب^(۴) من العسل،
ونصول^(۵) الشيب ترؤع بأسل، لا بل السام^(۶) من كل حدب قد نسل، والمعاد

(۱) الأمة هنا: الحين، اقتبسه من قوله تعالى: « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » .

(۲) الخلد: القلب والنفوس .

(۳) الرثيمة: خيط يعقد في الأصبع لتذكير .

(۴) الصاب: عصارة شجر مر . (۵) النصول جمع نصل: وهو حديدة الرمح والسيف .

(۶) السام: الموت: والحدب: ما ارتفع من الأرض، ونسل كضرب: أسرع .

والأسل: الرماح .

والمعاد: المرجع .

اللحدُ ولا تسَلْ ، فبالأمس كنتم فراخ حِجْر^(۱) ، واليوم أبناءُ عسکرِ حَجْرٍ ، وغداً
 شيوخ مَضِيعةٍ وَهَجْرٍ ، والقبورُ فَاغْرَةٌ^(۲) ، والنفوس عن المألوفات صاغرة ، والدنيا
 بأهلها ساخرة ، والأولى تَعْقُبُهَا الآخرة ، والحازم من لم يُتَعَطَّ به في أمر ، وقال :
 « بيدي لا بيدِ عمرو^(۳) » ، فاقتنوها من وصِيَّةٍ ، ومَرَامٍ^(۴) في النصح قَصِيَّةٍ ، خُصُوا
 بها أولادكم إذا عَقَلُوا ، ليجدوا زادها إذا انتقلوا ، وحَسْبِي وحسبكم اللهُ الذي لم يخلق
 الخلقَ هَمَلًا ، ولكن لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، ولا رَضِيَ الدنيا منزلاً ، ولا لَطَفَ
 بمن أصبح عن فئة الخير مُنْعَزِلًا ، ولتلقنوا تلقيناً وتعلموا علماً يقيناً ، أنكم لن تجدوا
 بعد أن أنفردَ بذنبي ، وَيَفْتَرِشَ الترابَ جنبي ، وَيَسُحَّ انسكابي ، وتهرول عن المصلَّى
 ركابي ، أحرصَ مني على سعادةٍ إليكم تُجَلِّبُ ، أو غاية كمال بسببكم تُرْتَادُ وتُطَلِّبُ ،
 حتى لا يكون في الدين والدنيا أَوْرَفُ^(۵) منكم ظِلًّا ، ولا أشرفَ مَحَلًّا ، ولا أغبَطَ
 نَهْلًا وَعَلًّا^(۶) ، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تُصِيخُوا^(۷) إلى قولي الآذان ، وتستامِحُوا

(۱) أي كالفراخ في حبر أمها وحضنها ، والمجر : الكثير من كل شيء ، وجيش مجر : كثير جدا .

(۲) أي فائمة أفواها للموت .

(۳) هو مثل قاله الزباه ملكة الجزيرة ، وذلك أنها كانت دعت جديمة الأبرش ملك ماعل شاطيء
 الفرات إلى زواجها . فلما استقر عندهما قتله فأرأى بابها - وكان جديمة قد قتله - فاحتال مولاه نصير الثائر
 منها ، فجدع أنفه وأثر آذناً بظهره ، ثم خرج إلى الزباه ، وأظهر أن عمرو بن عدي - ابن أخت جديمة -
 فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جديمة وغره من الزباه ، فلما استرسلت إليه ووثقت به ، زين لها
 أن تبثه إلى العراق ليحمل إليها من طرائفها وثيابها وطيبها ، وأنها ستصيب في ذلك أرباحاً عظيماً ، فأذنت
 له وقدم العراق ، وأتى الحيرة متنكراً ، وزوده عمرو بصنوف البز والامتعة ، ورجع إلى الزباه ، فأعجبها
 ما رأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهزته ثانية ، فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها ، ثم عاد
 الثالثة وجمع ثقات رجال عمرو ، وحملهم في الفرائر على الجمال ، وسار إلى الزباه ، ودخلت الإبل المدينة
 وكانت الزباه قد حذرت عمراً ، واتخذت نفقاً إلى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : إن فجأت أمر
 دخلت النفق إلى حصن - ودل نصير عمراً على باب النفق ، فلما خرجت الرجال من الفرائر صاحوا بأهل
 المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق ، وأقبلت الزباه تريد النفق ، فأبصرت عمراً فعرفته
 بالصورة التي صورت لها - فصت خاتمها وكان فيه السم ، وقالت : « بيدي لا بيد عمرو » فذهبت مثلاً ،
 وتلقاها عمرو فجللها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها ، وانكفأ راجعاً إلى العراق .

(۴) مرام جمع مرمي ، وقصية بعيدة .

(۵) ورف الظل : اتسع وطال وامتد .

(۶) النهل : الشرب الأول ، والعمل والعمل : الشرب

(۷) أصاخ له استمع .

الشافى أو الشرب بعد الشرب تباها .

صُبْحَ نُصْحِي فَقَدْ بَانَ ، وَسَأَعِيدُ عَلَيْكُمْ وَصِيَّةَ لُقْمَانَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ :
 « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ -
 يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ
 إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ^(۱) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ
 أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » وَأَعِيدُ وَصِيَّةَ خَلِيلِ اللَّهِ وَإِسْرَائِيلَ حُكْمَ^(۲)
 مَا تَضَمَّنَهُ حُكْمُ تَنْزِيلِهِ « يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ » وَالدِّينَ الَّذِي ارْتَضَاهُ وَأَصْطَفَاهُ ، وَأَكْمَلَهُ وَوَفَّاهُ ، وَقَرَّرَهُ مُصْطَفَاهُ ، مِنْ قَبْلِ
 أَنْ يَتُوفَّاهُ ، إِذَا أُعْمِلَ فِيهِ انْتِقَادٌ ، فَهُوَ عَمَلٌ وَاعْتِقَادٌ ، وَكِلَاهُمَا مُقَرَّرٌ ، وَمُسْتَمَدٌّ مِنْ
 عَقْلِ أَوْ نَقْلِ مُحَرَّرٍ ، وَالْعَقْلُ مُتَقَدِّمٌ ، وَبِنَاؤُهُ مَعَ رَفْضِ أَخِيهِ مُتَهَدِّمٌ ، فَاللَّهُ وَاحِدٌ أَحَدٌ ،
 فَرْدٌ صَمَدٌ^(۳) ، لَيْسَ لَهُ وَالِدٌ وَلَا وَلَدٌ ، تَنْزَهُ عَنِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَسَبَقَ وَجُودُهُ
 وَجُودَ الْأَكْوَانِ ، خَالِقُ الْخَلْقِ وَمَا يَعْمَلُونَ ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، الْحَيُّ
 الْعَلِيمُ الْمُدَبِّرُ الْقَدِيرُ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، أَرْسَلَ الرُّسُلَ رَحْمَةً
 لِنَدْعُو النَّاسَ إِلَى النَّجَاةِ مِنَ الشَّقَاءِ ، وَتَوَجَّهَ الْحُجَّةَ فِي مَصِيرِهِمْ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ، مُؤَيَّدَةً
 بِالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَا تَنْتَصِفُ أَنْوَارُهَا بِالْإِخْتِفَاءِ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَى تَوَاتُرِهَا دَعْوَى الْإِنْتِفَاءِ ،
 ثُمَّ خَتَمَ دِيْوَانَهُمْ بِنَبِيِّ مِلَّتِنَا الْمُرْعِيَةِ الْهَمَلِ ، الشَّاهِدَةَ عَلَى الْمِلَلِ ، فَتَلَخَّصَتْ الطَّاعَةَ ،
 وَتَعَيَّنَتْ الْإِمْرَةَ الْمُطَاعَةَ ، وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَهُ إِلَّا ارْتِقَابُ السَّاعَةِ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبَضَهُ
 إِذْ كَانَ بَشَرًا ، وَتَرَكَ دِينَهُ يَضُمُّ مِنَ الْأُمَّةِ نَشْرًا^(۴) ، فَمَنْ تَبِعَهُ لِحَقِّ بِهِ ، وَمَنْ تَرَكَهُ
 نُوطًا^(۵) عَنْهُ فِي مَنْسَبِهِ ، وَكَانَتْ نَجَاتُهُ عَلَى قَدَرِ سَبَبِهِ ، رُويَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(۱) صعر خده : أماله كبراً .

(۲) إسرائيل : يعقوب عليه السلام ، والحكم : الحكمة ، وهو بدل من وصية .

(۳) الصمد : السيد ، لأنه يصمد أي يقصد في قضاء الحوائج . (۴) النشر : المنتشر ، ومنه :

(۵) أي أبعد منه وطرد ، ويقال ناطت الدار : أي بعدت .

والهم انضم نشرى .

أنه قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدى ، كتاب الله وسنتي ، فعضوا عليهما بالنواجذ^(۱) . »

فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد ، ومُشفق شفقة والد ، واستشعروا حبه الذي توافرت دواعيه ، وعوامر أشد هديه ، فيافوز واعيهِ ! وصلوا السبب بسببه ، وآمنوا بكل ما جاء به ، مجملًا أو مفصلاً على حسبه ، وأوجبوا التجلّة لصحبه ، الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وفضلوا منهم أولى الفضل الشهير ، وتبرءوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داع ، ولاتع التشاجر بينهم أذن واعي ، فهو عنوان السداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة ، وأتمتها الجلّة^(۲) ، فهم صقلة نصولهم ، وفروع ناشئة من أصولهم ، وورثتهم وورثة رسولهم ، واعلموا أنني قطعت في البحث زماني ، وجعلت النظر شاني ، منذ براني الله تعالى وأنشاني ، مع نبل^(۳) يعترف به الشاني ، وإدراك يسلمه العقل الإنساني ، فلم أجد خابط ورق ، ولا مصبب عرق ، ولا نازع خطام ، ولا متكلف فطام ، ولا مقتحم بحر طام ، إلا وغايته التي يقصدها قد نضلتها الشريعة وسبقتها ، وفرعت^(۴) ثنيتها وارتقتها ، فعليكم بالتزام جادتها^(۵) السابلية ، ومصاحبة رفقتها الكاملة ، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة ، والله تعالى يقول ، وهو أصدق القائلين : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، وقد علت شرايعه ، وراع الشكوك رايه ، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين ، وابدلوا دونه النفوس فعل المهتدين ، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الأبد ، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلغت فانت خير الشاهدين ، فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعي شوة الوجوه ونضج الخلود ، واستعيذوا برضا الله من سُخطه ، وازبثوا بنفوسكم عن غمطه ، وارضوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع

(۱) أقصى الأضراس . (۲) جمع جليل . (۳) النبل : الذكاء والنجابة ، والشاني : المبغض .
(۴) فره : علاه ، والثنية : العقبة ، أو الجبل أو الطريقة فيه أو إليه .
(۵) الجادة : الطريق الواضح ، والسابلية من الطرق السلوكية .

أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العرّض الزائل اثتلافكم ، واقنعوا منه بما تيسر ،
 ولا تأسوا^(۱) على ما فات وتعذر ، فإنما هي دُجّة^(۲) ينسخها الصّباح ، وصّفقة يتعاقبها
 الخسار أو الرّباح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشدّوا بالنواجذ عليها ، وكفّفوا الشّبّه أن
 تدنو إليها ، واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفوه^(۳) عمل ، وكلّ ما سوى
 الراعى همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم أمل ، وتمسّكوا بكتاب الله تعالى حفظاً
 وتلاوة ، واجعلوا جملة على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في آياته ومعانيه ، وامتلوا
 أوامره ونواهيه ولا تتأولوه ولا تغلّوا فيه ، وأشربوا قلوبكم حبّ من أنزل على قلبه ،
 وأكثرُوا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التي
 يبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم ، الله في الصلاة ذريعة التّجلّي ، وخاصّة المِلّة ،
 وحاقنة الدم ، وغنى المستاجر المستخدم ، وأمّ العبادة ، وحافضة اسم المراقبة لعالم الغيب
 والشّهادة ، والناهية عن الفحشاء والمنكر ، إن عرّض الشيطان عرّضها ، ووطأ للنفس
 الأمّارة سماءها وأرضها ، والوسيلة إلى بلّ الجوانح ببرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى
 مريض الفكر ، وضامنة حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسالمة من الفجار ، والواسمة
 بسمة السلامة ، والشّاهدة للعبد برفع الملامة ، وغسول^(۴) الطبع إذا شانه طبع ، والخير
 الذي يكلّ ما سواه له تبع ، فاصبروا النفس على وظائفها ، بين بدء وإعادة ، فالخير عادة ،
 ولا تفضّلوا عليها الأشغال البدنيّة ، وتؤثروا على العليّة الدنيّة ، فإن أوقاتها المعينة
 بالانفلات تنبّس^(۵) ، والفلك بها من أجلكم لا يُحبّس ، وإذا قورنت بالشواغل
 فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يغيّره الغدوّ ولا الأصيل ، والوظائف بعد أدائها
 لا تفوت ، وأين حقّ من يموت من حقّ الحي الذي لا يموت ؟ وأحكوا أوضاعها
 إذا أقتموها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ، فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمرعاة

(۱) ولا تحزنوا . (۲) الدجّة: الظلمة . (۳) رفا الثوب كنع: لام تحرقه، وضم بعضه إلى بعض .

(۴) الغسول كصبور وتنور: الماء يفتسل به، وفي الأصل «غاسول» وهو تحريف، والطبع الشين والديب .

(۵) أي تذهب وتضيح ، يقال: انبس الرجل إذا ذهب ، وفي الأصل «نبس» وأراه محرفاً .

استحقت الكمال ، ولا شكرَ مع الإهمال ، ولا ربحَ مع إضاعة رأس المال ، وذلك أحرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل ، وشرط لمشروطه محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ، والحجول والغرر^(۱) فأطيلوها ، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف بمراسه ، واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال ، واستعاض صدأه بصقال^(۲) ، وإن تراخى قهقر^(۳) الباع ، وسرقت الطباع ، وكان لما سواها أضيع . فشمل الضياع ، والزكاة أختها الحبيبة . ولدتها القريبة . مفتاح السعادة بالعرض الزائل . وشكران المسئول على الضد من درجة السائل . وحق الله تعالى في مال من أغناه . لمن أجده في المعاش وعناه^(۴) من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه . ولا علة إلا القدر الذي يخفيه . وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه ، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها . في اختيار عرضها ونتاجها . واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل . وخالفوا الشيطان كلما عدل . واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرتون أين تسلكون . فوهب وأقدر . وأورد بفضلِهِ

(۱) الحجول : جمع حجل بالكسر والفتح وهو الخللخال ، والمراد بها هنا الأطراف ، وبإطالها استيعاب غسلها ، والغرر جمع غرة بالضم وهي الوجه ، والمراد بتطويلها في الوضوء : غسل مقدم الرأس مع الوجه ، وغسل صفحة العنق ، وجملة المعنى : أنه يأمر بإسباغ الوضوء ، وفي الحديث الشريف : « أُمَّتِي الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ » والغر جمع الأغر من الغرة ، وهي بياض في جبهة الفرس فوق الدرهم ، يقال : فرس أغر وغراء ، والمحجل : الفرس الذي يرتفع البياض في قوائمه في موضع القيء ، أي بياض مواضع الوضوء من الوجه الأيدي والأقدام ، استعار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه .

(۲) صواب العبارة واستعاض بصدنه صقالا ، يقل استبدل الشيء بغيره : إذا أخذه مكانه (ومنه ترى أن الباء داخل على المتروك) واعتاضه منه واستعاضه (والباء كن) .

(۳) قهقر وقهقرى : رجع القهقرى . (۴) أتعبه .

وَأُصْدِرَ . لِيَرْتَبَّ بِكَرَمِهِ الْوَسَائِلَ ، أَوْ يَقِيمَ الْحُجُجَ وَالِدَّلَائِلَ . فَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ بِمَالِهِ
وَاعْتَنِمُوا رِضَاهُ بِبَعْضِ نَوَالِهِ . وَصِيَامَ رَمَضَانَ عِبَادَةَ السِّرِّ الْمُقَرَّبَةَ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .
المَحْوُضَةُ^(۱) لِمَنْ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . مُؤَكَّدَةٌ بِصِيَامِ الْجَوَارِحِ عَنِ الْآثَامِ . وَالْقِيَامِ
بِإِبْرَاقِ الْقِيَامِ ، وَالْاجْتِهَادِ ، وَإِثَارِ الشَّهَادِ ، عَلَى الْإِهْمَادِ ، وَإِنْ وَسِعَ الْعَتَكُافُ فُهِمَ مِنْ سُنَنِهِ الْمَرْعِيَّةِ ،
وَلَوْ أَحَقَّهُ الشَّرْعِيَّةُ ، فَبِذَلِكَ تَحَسَّنَ الْوَجُوهُ ، وَتَحَصَّلَ مِنَ الرَّقَّةِ عَلَى مَا تَرَجَّوهُ ، وَتَذَهَبَ
قَسْوَةُ الطَّبَاعِ ، وَيَمْتَدُّ فِي مَيْدَانِ الْوَسَائِلِ الْبَاعِ ، وَالْحُجُجِ مَعَ الْإِسْتِطَاعَةِ الرُّكْنِ الْوَاجِبِ ،
وَالْفَرَضِ عَلَى الْعَيْنِ لَا يَحْجُبُهُ الْحَاجِبُ ، وَقَدْ بَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْرَهُ فِيمَا
فَرَضَ عَنْ رَبِّهِ وَسُنَّهَ ، وَقَالَ : « لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ » وَيَلْحَقُ بِذَلِكَ الْجِهَادُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ كَانَتْ لَكُمْ قُوَّةٌ عَلَيْهِ ، وَعِغْنَى لَدَيْهِ ، فَكُونُوا مِمَّنْ يَسْمَعُ نَفِيرَهُ
وَيُطِيعُهُ ، وَإِنْ عَجَزْتُمْ فَأَعِينُوا مَنْ يَسْتَطِيعُهُ . هَذِهِ عُمْدَةُ الْإِسْلَامِ وَفَرُوضُهُ ، وَنَقُودُ مَهْرِهِ
وَعَرُوضُهُ ، فَحَافِظُوا عَلَيْهَا تَعِيشُوا مَبْرُورِينَ ، وَعَلَى مَنْ يُنَاوِيكُمْ ظَاهِرِينَ^(۲) ، وَتَلَقُّوا اللَّهَ
لَا مُبَدِّلِينَ وَلَا مُغَيِّرِينَ ، وَلَا تَضِعُوا حَقُوقَ اللَّهِ فَتَهْلِكُوا مَعَ الْخَاسِرِينَ .

وَاعْمُوا أَنْ بِالْعِلْمِ تَسْتَعْمَلُ وَظَائِفَ هَذِهِ الْأَقْبَابِ ، وَتَجَلَّى مُحَاسِنُهَا مِنْ بَعْدِ الْإِنْتِقَابِ^(۳)
فَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ دَلِيلًا بَيْنَ يَدَيْ السَّامِعِ ، فَالْعِلْمُ مِفْتَاحُ هَذَا الْبَابِ ، وَالْمَوْصَلُ إِلَى الْبَابِ ،
وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ،
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » وَالْعِلْمُ وَسِيلَةُ النُّفُوسِ الشَّرِيفَةِ إِلَى الْمَطَالِبِ الْمُتَيْفَةِ ،
وَشَرْطُهُ الْخَشْيَةُ لِلَّهِ تَعَالَى وَالْخَيْفَةُ ، وَخَاصَّةُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وَصِفَةُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ الَّتِي تُتْلَى ،
وَالسَّبِيلُ فِي الْآخِرَةِ إِلَى السَّعَادَةِ ، وَفِي الدُّنْيَا إِلَى النَّجْلِ^(۴) عَادَةً ، وَالذُّخْرُ الَّذِي قَائِلُهُ
يَشْفَعُ ، وَكَثِيرُهُ يَنْفَعُ ، لَا يَغْلِبُهُ الْغَاصِبُ ، وَلَا يَسْلُبُهُ الْعَدُوُّ الْمُنَاصِبُ ، وَلَا يَبْتَرِزُهُ الدَّهْرُ
إِذَا نَالَ ، وَلَا يَسْتَأْثِرُ بِهِ الْبَحْرُ إِذَا هَالَ ، مَنْ لَمْ يَنْلَهُ فِيهِ ذَلِيلٌ ، وَإِنْ كَثُرَتْ آمَالُهُ ،

(۳) أَي بَعْدِ الْإِسْتِغْنَاءِ ،

(۲) بِمَادِيكُمْ ، وَظَاهِرِينَ : غَالِبِينَ .

(۱) الْخَالِصَةُ .

(۴) نَحْلُهُ : أَعْطَاهُ ، وَالْأَسْمُ النَّحْلَةُ .

مَنْ انْقَبَتِ الرَّأْيَةُ : لَبَسَتْ الْبُخْبَانَ .

وقليل ، وإن جمَّ ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وَتَحَطَّى حِسَابِكُمْ ،
فالتسوه لبنيكم ، واستدرِكُوا منه ما خرج عن أيديكم ، وأحْمِلُوهُمْ عَلَى جَمْعِهِ وَدَرَسِهِ ،
واجعلوا طباعهم ثَرَى لِعَرْسِهِ ، واستسهلوا ما ينالهم من نَعَبٍ مِنْ جَرَاهِ (۱) وَسَهَرِ
يهجر له الجفن كَرَاهِ ، تَعَقِدُوا لَهُمْ وَلَايَةَ عَزْ لَاتُعْزَلْ ، وَتُحِلُّوهُمْ مَثَابَةَ رِفْعَةٍ لَا يُحِطُّ
فَارِعُهَا وَلَا يُسْتَنْزَلْ ، واختاروا العلوم التي يتعقبها الوقت ، فلا ينالها في غيره (۲) المقت ،
وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنابها المرِيعَة (۳) ، من علوم لسان لا تستغرق
الأعمار فصولها ، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها ، فإنها هي آلات لغير ، وأسباب
إلى خير منها وخير ، فمن كان قابلاً للازدياد ، وألغى فهمه ذا انقياد ، فايخص تجويد
القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيم ، ثم الشروع في أصول الفقه
فهو العلم العظيم المنَّة ، المهدى كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء
الجلَّة ، والتدرج في طرق النظر بصحيح الأدلة ، وهذه هي الغاية القصوى في الملة ،
ومن قصر إدراكه عن هذا المرعى ، وتقاعد عن التي هي أسى ، فليرَوِ الحديث
بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم
والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً
ركيكاً ، ولا يُشمر في العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ، وتطويق الاحتقار
وسمة الصغار ، وضمول الأقدار ، والخسف من بعد الإبدار ، وجادة الشريعة أعرق
في الاعتدال ، وأوفق من قطع العمر في الجدال ، هذا ابن رشد (۴) قاضي مصر ومفتيه

(۱) يقال : فملت ذلك من جراه ومن جرائه بالتشديد ويخفان : ومن جريرته : أى من أجله ،
والكرى : النيم . (۲) غير الدهر : أحداثه المفيرة ، والضمير فيه يعود على الوقت . (۳) المخصصة .
(۴) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها ، ولد سنة ۵۲۰ هـ
ودرس علوم الدين والفلسفة والطب ، وانصل بيوسف بن عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وشرح له فلسفة
أرسطو ، وقد ولاء قضاء إشبيلية ؛ ثم استدعاه إلى المراكش ، وجعله طبيبه الخاص ، ثم جعله قاضي القضاة
بقرطبة ، ولما ولي بعده ابنه المنصور بالله علت مكانة ابن رشد عنده ، فأثار ذلك حقد خصومه ، فكادوا
له عند السلطان واتهموه أنه يجحد القرآن ، وبنشط الفلسفة وعلوم الأوائل بدلا من علوم الدين ، وينصر =

وملتصس الرشد وموليه ، عادت عليه بالسَّخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورط في ازدحامها ، ولا تخطوا جامكم^(۱) بجامها ، إلا ما كان من حساب ومِساحة ، وما يعود بجدوى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمَجْجور ، وَضَرَم^(۲) مَسْجُور ، وممقوت مهجور ، وأمرُوا بالمعروف أمراً رفيقاً ، وانهُوا عن المنكر نهياً حريماً بالاعتدال حقيقياً ، وَأَغْبَطُوا مَنْ كَانَ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ مُفِيقاً ، واجتنبُوا ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ حَتَّى لَا تَسْلُكُوا مِنْهُ طَرِيقاً ، وأطيعوا أمر من وِلاهُ اللهُ تعالى من أموركم أمراً ، ولا تَقْرَبُوا مِنَ الْفِتْنَةِ جَمْرًا ، ولا تُدْخِلُوا فِي الْخِلَافِ زَيْدًا وَلَا عَمْرًا ، وعليكم بالصدق فهو شعارُ المؤمنين ، وَأَهْمَ مَا أَضْرَى^(۳) عَلَيْهِ الْآبَاءُ أَلْسِنَةُ الْبَنِينَ ، وَأَكْرَمَ مَنْسُوبٍ إِلَى مَذْهَبِهِ ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَهُوَ الْعَوْرَةُ الَّتِي لَا تُؤَارَى ، وَالسَّوْءَةَ الَّتِي لَا يُرْتَابُ فِي عَارِهَا وَلَا يُتَمَارَى . وَأَقْلَ عَقُوبَاتِ الْكَذَابِ ، بَيْنَ يَدَيَّ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ ، أَنْ لَا يُقْبَلَ صِدْقُهُ إِذَا صَدَقَ ، وَلَا يِعْوَلُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِالْحَقِّ نَطَقَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْأَمَانَةِ فَالْخِيَانَةُ لُومٌ ، وَفِي وَجْهِ الدِّيَانَةِ كُلُّومٌ^(۴) ، وَمِنَ الشَّرِيعَةِ الَّتِي لَا يُعْذَرُ بِجَهْلِهَا ، أَدَاءُ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَحَافِظُوا عَلَى الْحِشْمَةِ وَالصِّيَانَةِ ، وَلَا تَجْزُوا مَنْ أَقْرَضَكُمْ دِينَ الْخِيَانَةِ ، وَلَا تَوْجِدُوا لِلْغَدْرِ قَبُولًا وَلَا تَقْرُوا عَلَيْهِ طَبْعًا مَجْبُولًا ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا ، وَلَا تَسْتَأْثِرُوا بِكَنْزٍ وَلَا حَزْنٍ ، وَلَا تَذْهَبُوا لِغَيْرِ مَنَاصِحَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَهْلٍ وَلَا حَزْنٍ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ ، وَاللَّهُ اللهُ أَنْ تُعِينُوا فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَلَوْ بِالْإِشَارَةِ أَوْ الْكَلَامِ ، أَوْ مَا يَرْجِعُ إِلَى وَظِيفَةِ الْأَقْلَامِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي فُسْحَةٍ مَمْتَدَّةٍ ،

مذهب القدماء في القول بأهمية بعض الكواكب . فنزله المنصور من قضاء قرطبة ، ثم عفا عنه ، واستدعاه إلى مراکش ، ولم يطل مقامه بها ، فات سنة ٥٩٥ هـ ، وقد ترجم أكثر كتبه إلى اللغات الأجنبية ، وعليها عول الأوربيون في نهضتهم الحديثة .

(١) الجام : إفا ، من فضا . (٢) جمع ضربة بالتحريك : وهي الجمرة والنار ، وصجر النور : أحماه

(٣) ضرى بالشئ : كتعب : اعتاده وأولع به ، ويعدى بالهمز والتضخيم ، فيقال : أضريته وضريته :

أي أغريته به . (٤) الكلوم جمع كلم بالفتح وهو الجرح .

وَسُبُّ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ مُنْهَدَّةٍ ، مَا لَمْ يَنْبِذْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَمَانِهِ ، وَيَمَسَّ الدَّمَ الْحَرَامَ بِيَدٍ أَوْ لِسَانِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : الَّذِي هَدَى بِهِ سَنَنًا قَوِيمًا ، وَجَلَّى مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ لَيْلًا بَهِيمًا : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا . وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » . واجتناب الزنا وما تعلق به ، مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ كَرُمَتْ طِبَاعُهُ ، وامتد في سبيل السعادة باعُهُ ، لو لم تتلق نورَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَهْدِ شُعَاعُهُ ، فَالْحَلَالُ لَمْ تَضِقْ عَنْ الشَّهْوَاتِ أَنْوَاعُهُ ، وَلَا عُدِمَ إِقْنَاعُهُ ، وَمَنْ غَلَبَتْ غَرَائِزُ جَهْلِهِ . فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يَحِبُّ أَنْ يُزْنِيَ بِأَهْلِهِ ؟ وَاللَّهُ قَدْ أَعَدَّ لِلزَّانِي عَذَابًا وَبِيلاً . وَقَالَ : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا » . وَالْمُحْرَمَاتُ الْكُبْرَى . وَمِفْتَاحُ الْجَرَائِمِ وَالْجَرَائِرِ ^(١) . وَاللَّهُ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ فِي الْحَيَاةِ شَرْطًا . وَالْمُحْرَمُ قَدْ أَغْنَى عَنْهُ بِالْحَلَالِ الَّذِي سَوَّغَ وَأَعْطَى . وَقَدْ تَرَكَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَقْوَامٌ لَمْ يَرْضَوْا لِعُقُوبِهِمْ بِالْفَسَادِ . وَلَا لِنَفْسِهِمْ بِالْمُضَرَّةِ فِي مَرَضَاتِ الْأَجْسَادِ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهَا رِجْسًا مُحْرَمًا عَلَى الْعِبَادِ : وَقَرَّنَهَا بِالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ فِي مُبَايَنَةِ السَّدَادِ ^(٢) . وَلَا تَقْرَبُوا الرَّبَّ . فَإِنَّهُ مِنْ مَنَاهِى الدِّينِ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : « وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرَّبِّ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وَقَالَ : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » فِي الْكِتَابِ الْمُبِينِ . وَلَا تَأْكُلُوا مَالَ أَحَدٍ بِغَيْرِ حَقٍّ يُبَيِّحُهُ . وَانزِعُوا الطَّعْمَ ^(٣) عَنْ ذَلِكَ حَتَّى تَذْهَبَ رِيحُهُ . وَاتَّمَسُوا الْحَلَالَ يَسْمَعِي فِيهِ أَحَدُكُمْ عَلَى قَدَمِهِ . وَلَا يَكِلْ خِيَارَهُ إِلَّا لِلثَّقَةِ مِنْ خَدَمِهِ . وَلَا تَلَجُّوا إِلَى الْمُتَشَابِهِ إِلَّا عِنْدَ عَدَمِهِ . فَهُوَ فِي السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَصْلٌ مُشْرُوطٌ . وَالْمُحَافِظُ عَلَيْهِ مَغْبُوطٌ . وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ . فَالظَّالِمُ مَمْقُوتٌ بِكُلِّ لِسَانٍ

(١) الحرائر جمع جريرة : وهى الجريمة .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

(٣) الطعم : الشهوة .

مُجَاهِرِ اللَّهِ تَعَالَى بِصَرِيحِ الْعِصْيَانِ ، « وَالظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » كما ورد في الصَّحاحِ الْحَسَنِ ، وَالنِّمِيعَةُ فِسَادٌ وَشَتَاتٌ ، لَا يَبْقَى عَلَيْهِ مُتَاتٌ^(۱) ، وَفِي الْحَدِيثِ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ^(۲) » وَأَطْرَحُوا الْحَسَدَ ، فَاسَادَ حَسُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغَيْبَةَ فَبَابِ الْخَيْرِ مَعَهَا مَسْدُودٌ ، وَالْبَخْلُ ، فَارْتَى الْبَخِيلُ وَهُوَ مَوْدُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَا يُعْتَدَّرُ مِنْهُ ، فَمَوَاقِعُ الْخُرْزِيِّ لَا تُسْتَقَالُ عَثْرَاتُهَا ، وَمَظَنَّنَاتُ الْفَضَائِحِ لَا تُؤْمَنُ غَمْرَاتُهَا ، وَتَفْقَدُوا أَنْفُسَكُمْ مَعَ السَّاعَاتِ وَأَفْشُوا السَّلَامَ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَرِقُّوا عَلَى ذَوِي الزَّمَانَاتِ^(۳) وَالْعَاهَاتِ ، وَتَاجِرُوا مَعَ اللَّهِ بِالصَّدَقَةِ يُرْمَحُ فِي الْبِضَاعَاتِ ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَحْدَهُ فِي الشَّدَائِدِ ، وَاذْكُرُوا الْمَسَاكِينَ إِذَا نَصَبْتُمْ الْمَوَائِدَ ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْيَسِيرِ مِنْ مَالِهِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ الْمُحْتَاطُ لِعِيَالِهِ ، وَارْعُوا حَقُوقَ الْجَارِ ، وَاذْكُرُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ ، وَتَعَاهَدُوا أَوْلَى الْأَرْحَامِ ، وَالْوَشَائِحِ^(۴) الْبَادِيَةَ الْإِلْتِحَامَ ، وَاحْذَرُوا شَهَادَةَ الزُّورِ : فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الظُّهْرَ ، وَتُفْسِدُ السَّرَّ وَالْجَهْرَ ، وَالرُّشَا ، فَإِنَّهَا تَحْطُّ الْأَقْدَارَ ، وَتَسْتَدْعِي الْمَذَلَّةَ وَالصَّغَارَ ، وَلَا تَسَاحُجُوا فِي لُغَبَةِ قَمَرٍ^(۵) ، وَلَا تَشَارِكُوا أَهْلَ الْبَطَالَةِ فِي أَمْرِ ، وَصُونُوا الْمَوَاعِيدَ مِنَ الْإِخْلَافِ ، وَالْأَيْمَانَ مِنْ حِنْثِ الْأَوْغَادِ وَالْأَجْلَافِ ، وَحَقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْإِزْدِرَاءِ وَالْإِعْتِسَافِ ، وَلَا تَلْهَجُوا بِالْأَمَالِ الْعِجَافِ^(۶) وَلَا تَكْلَفُوا بِالْكُهَانَةِ وَالْأَرْجَافِ ، وَاجْعَلُوا الْعَمْرَ بَيْنَ مَعَاشٍ وَمَعَادٍ ، وَخُصُوصِيَّةَ وَابْتِعَادٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ بِالْمِرْصَادِ ، وَأَنَّ الْخَلْقَ بَيْنَ زَرْعٍ وَحَصَادٍ ، وَأَقْلُوا بِغَيْرِ الْحَالَةِ الْبَاقِيَةِ الْهَمُومَ ، وَاحْذَرُوا الْقَوَاطِعَ عَنِ السَّعَادَةِ كَمَا تُحَذِّرُ السُّمُومَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ فِي الدُّنْيَا مُحَالٌ أَنْ يَدُومَ ، وَقَابِلُوا بِالصَّبْرِ أَذِيَّةَ الْمُؤْذِنِ ، وَلَا تَعَارِضُوا مَقَالَاتِ الظَّالِمِينَ ، فَاللَّهُ لِمَنْ يُغَيِّبْ عَلَيْهِ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ، وَلَا تَسْتَعْظَمُوا

(۲) القنات : المنام .

(۱) المتات : ما يمت به أي يتوسل .

(۳) الزمانه : العاهة .

(۵) قره : غلبه في لعب القمار .

(۴) الوشائج جمع وشيعة : وهي الذئب الكفرابة .

(۶) العجاف جمع عجفاء : وهي المهزولة .

حوادث الأيام كلما نزلت ، ولا تَضِجُوا للأمراض إذا أَعْضَلَتْ ، فكلُّ مُنْقَرِضٍ حقير ، وكلُّ مُنْقَضٍ وإن طال قصير ، وانتظروا الفَرَجَ ، وانتشِقُوا من جَنَابِ اللَّهِ تعالى الأَرَجَ^(١) ، وأوسعُوا بالرجاء الجوانح ، واجنحُوا إلى الخوف من الله تعالى فَطُوبَى لِعَبْدٍ إليه جَانِحٍ ، وتضرَّعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والَجَثُوا إليه في البأساء والضراء ، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ، وَيَعَذِّبُ الوارِدَ ، وَأَسْهِمُوا^(٢) منها للساكين وأفضلوا عليهم ، وعينُوا الحظوظ منها لديهم ؛ فمن الآثار : « يا عائشة أحسنى جوار نعم الله ، فإنها قلَّه أزلت عن قوم فعادت إليهم » ، ولا تطفوا في النعم وتقصروا عن شكرها ، وتغابكم^(٣) الجهالة بسكرها ، وتتوهموا أن سعيكم جلبها ، وَجِدَّكُمْ حَلَبَهَا ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نُظِرَ بعين اليقين ، والله الله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تذهبوا بذهابه زينكم ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به توأخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومراعاة في علانية وسر ، وللإنسان مزية لا تُجْهَلُ ، وحق لا يُهْمَلُ ، وأظهروا التعاضد والتناصر ، واصلوا التَّعَاهِدَ والتزاور ، تُرْغِمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة ، ولا تتهاوشوا تهاوش السباع على الجيفة . واعلموا أن المعروف يَكْدُرُ بالامتنان ، وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقروه ، والله الله لا تنسوا مُقَارَضَةَ سَجَلِي^(٤) ، وَبَرُّوا أهل مودتي من أجلى ، ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عُرْضَةً للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه - إن تغلب العدو على بلده -

(١) الأرج : توهج ريح الطيب . (٢) أسهم : أعطاه مهباً .

(٣) في الأصل : « وتغلبكم » ، وأراه محرفاً عن « وتغلبكم » .

(٤) السجل : النصيب . والمعنى : إنكم مدينون لي بما قدمت لكم من معروف ، فلا تنسوا أن تردوه

عليها إكراماً من أروده .

في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام النوب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ، ومن بلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقل من المال ، وليحذر معاداة الرجال ، ومزلات الإدلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ، وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، فإنه دأب الغر ، وليصن الديانة ، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة ، ويسر من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشبهه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان ، والزعارع تسالم اللدن^(١) اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الخطوب وغلاباً ، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار ، دايع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليه إكراهاً وإثارةً ، فليتلق وظائفها بسعة صدره ، ويبدل من الخمر فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فتنة ومحنة ، وأسر وإحنة ، وهي بين إخطاء سعادة . وإخلال بعبادة وتوقع عزل . وإدالة^(٢) بإزاء بيع جد بهزل ، ومزلة قدم ، واستتباع ندم . ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد . جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ومن لا ينقطع بسببه عمل أبيه . هذه - أسعدكم الله - وصيتي التي أصدرتها . وتجارتي التي لربحكم أدرتها . فتلقوها بالقبول لنصحها . والاهتداء بضوء صبحها . وبقدر ما أمضيت من فروعها . واستغشيت من دروعها . اقتنيت من المناقب الفاخرة . وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة . وبقدر ما أضعت لآلها النفيسة القيم . استكثرتم من بواعث الندم . ومهما شئتم إطالتم . واستغزرتهم مقاتلها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلك^(٣) الحكمة ، وضابط هذا الباب . كان الله خليفتي عليكم في كل حال . فالدنيا

(٢) الإدالة : الغلبة .

(١) اللدن : اللبن .

(٣) فذلك حسابه كدحرج : أهاء وفرغ منه ، محترمة من قوله إذا أجل حسابه : فذلك كذا وكذا .

مُنَاخِ ارْتِحَالٍ ، وَتَأْمِيلِ الْإِقَامَةِ فَرَضِ مُحَالٍ . فَالْمَوْعِدُ لِلالْتِقَاءِ دَارِ الْبَقَاءِ . جَعَلَ اللَّهُ مِنْ وِرَاءِ حُطَّتِهِ النِّجَاةَ ، وَنَفَقَ بَضَائِعَهَا الْمَرْجَاةَ^(١) بِلَطَائِفِهِ الْمَرْتَجَاةَ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ مِنْ حَبِيبِكُمُ الْمَوْدَعِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُبَلِّغُهُ^(٢) حَيْثُ شَاءَ مِنْ شَمَلٍ مُتَّصِدَعٍ . وَاللَّحْمُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .
(نفع الطيب ٤ : ٤١٩)

١٨ - خُطْبَةٌ وَعِظَةٌ لَهُ

وَصَدَرَ عَنْهُ عَلَى لِسَانِ وَعَظٍ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ . الْمَبْدِيُّ الْمَعِيدِ . الْبَعِيدِ فِي قُرْبِهِ مِنَ الْعَبِيدِ . الْقَرِيبِ فِي بَعْدِهِ . وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(٣) . نُحْنِي رُبُوعَ الْعَارِفِينَ بِتَحِيَّاتِ حَيَاةِ التَّوْحِيدِ . وَمُفْنِي نَفُوسَ الزَّاهِدِينَ بِكُنُوزِ احْتِقَارِ الْاِفْتِقَارِ إِلَى الْعَرَضِ الزَّهِيدِ . وَنُحَايِصَ خَوَاطِرِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ سَجُونِ دُجُونِ^(٤) التَّقْيِيدِ . إِلَى فُسْحِ التَّجْرِيدِ . نَحْمَدُهُ وَلَهُ الْحَمْدُ الْمُنْتَظِمَةُ دُرْرُهُ فِي سُلُوكِ الدَّوَامِ . وَسُمُوطِ^(٥) التَّأْيِيدِ . حَمْدًا مِنْ نَزْوَةِ أَحْكَامِ وَحْدَانِيَّتِهِ . وَأَعْلَامِ فَرْدَانِيَّتِهِ ، عَنْ مَرَابِطِ التَّقْيِيدِ ، وَنَحَابِطِ الطَّبَعِ الْبَلِيدِ ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مِنْ افْتِتَاحِ بَشْكْرِهِ أَبْوَابِ الْمَزِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ شَهَادَةً نَتَخَطَّى بِهَا مَعَالِمَ الْخَلْقِ ، إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ ، عَلَى كَبِدِ التَّفَرِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ قِلَادَةُ الْجَيْدِ الْمَجِيدِ ، وَهَلَالِ الْعِيدِ ، وَفَذَلِكَ الْحَسَابُ وَبَيْتِ الْقَصِيدِ ، الْمَخْصُوصُ بِمَنْشُورِ الْإِدْلَالِ^(٦) ، وَإِقْطَاعِ الْكَمَالِ ، بَيْنَ مَقَامِ الْمُرَادِ وَمَقَامِ الْمُرِيدِ ، الَّذِي جَعَلَهُ السَّبَبَ الْأَوْصَلَ فِي نَجَاةِ النَّاجِي وَسَعَادَةِ السَّعِيدِ ، وَخَاطِبِ الْخَلَائِقِ عَلَى لِسَانِهِ الصَّادِقِ نِحْجَتِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَكَانَ مِمَّا أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ الْمَلَكُ بِهِ عَلَيْهِ ، مِنَ الذِّكْرِ الْحَمِيدِ ، لِيَأْخُذَ

(١) بَضَاعَةُ مَرْجَاةٍ : رَدِيئَةٌ أَوْ قَلِيلَةٌ يَرُدُّهَا وَيُدْفَعُهَا مِنْ رَأْيِهَا رَغْبَةً عَنْهَا ، وَنَفَقَ السَّلْمَةَ تَنْفِيْقًا : رُوحَهَا . (٢) لَامُ الْجَرْحِ وَالصَّدْعِ كَقَطْعٍ ، وَالْأَمَةُ : سَدُّهُ .

(٣) مَرْقَى وَالمَنْقَى . (٤) أَيْ ظِلَامِ التَّقْيِيدِ ، وَالذُّجُونُ جَمْعُ دَجْنٍ بِالْفَتْحِ : وَهُوَ الْبَاسُ الْغَيْمُ الْأَرْضِ وَأَقْطَارُ السَّمَاءِ . (٥) سُمُوطٌ جَمْعُ سَمَطٍ بِالسُّمْرِ : وَهُوَ خَيْطٌ لِلنَّظْمِ . (٦) أَدَلُّ عَلَيْهِ : وَثَقُّ بِمَحَبَّتِهِ .

بِالْحَجَرِ (١) وَالْأَطْوَاقِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا نُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسَهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ. وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الأكيد ، وَتَسْرَى إِلَى تَرْبَتِهِ الزَّكِيَّةِ مِنْ ظُهُورِ الْمَوَاجِدِ الْجَائِيَةِ عَلَى الْبَرِيدِ :

قعدت لتذكير ، ولو كنت منصفاً لذكرت نفسى فهى أحوج للذكرى
إذا لم يكن منى لنفسي واعظ فياليت شعري كيف أفعال فى الأخرى؟

آه ، أى وعظ بعد وعظ الله تعالى يا أحبائنا يسمع ، وفى ماذا - وقد تبين الرشد من الغي - يطعم؟ يا من يعطى ويمنع ، إذا لم تقم الصنعة فماذا نصنع؟ أجمعنا بقلوبنا يا من يفرق ويجمع ، ولين حديدها بنار خشيتك ، فقد استعاذ نبيك صلى الله عليه وسلم من قلب لا يخشع ، ومن عين لا تندمع : اعلموا رحمكم الله أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه الملوآن (٢) ، فإن الحق نور لا يضره أن صدر من الحامل ، ولا يقصر بمحموله احتقار الحامل ، وأتم تدرؤن أنكم فى أطوار سفر لا تستقر لها دون الغاية رحلة ، ولا تتأتى معها إقامة ولا مهلة ، من الأصلاب إلى الأرحام إلى الوجود ، إلى القبور إلى النشور إلى إحدى دارى البقاء ، أفى الله شك؟ فلو أبصرتم مسافراً فى البرية بينى وبفرش ، ويمهد ويعرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وتعجبون من ركاكة عقله؟ ووالله ما أموالكم ولا أولادكم ، وشواغلكم عن الله ، التى فيها اجتهادكم ، إلا بقاء سفر (٣) فى قفر ، أو إعراس

(١) المعجز جمع حجة كفرصة : وهى معقد الإزار ، ومن السراويل موضع التنكة .

(٢) الملوآن : الليل والنهار .

(٣) السفر : جماعة المسافرين .

في ليلة نَفَرًا^(١) ، كأنكم بها مُطَّرَحَةٌ تَعْبُرُ فِيهَا الْمَوَاشِي ، وَتَنْبُو الْعَيْونُ عَنْ خَبَرِهَا
الْمُتَلَاشِي « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » مَا بَعْدَ الْمَقِيلِ
إِلَّا الرَّحِيلُ ، وَلَا بَعْدَ الرَّحِيلِ إِلَّا الْمَنْزِلُ الْكَرِيمُ ، أَوِ الْمَنْزِلُ الْوَبِيلُ ، وَإِنْكُمْ تَسْتَقْبِلُونَ
أَهْوَالًا ، سَكَرَاتُ الْمَوْتِ بَوَاكِرُ حَسَابِهَا ، وَعَتَبُ أَبْوَابِهَا ، فَلَوْ كَشَفَ الْغَطَاءَ
عَنْ ذَرَّةٍ مِنْهَا لَذَهَبَتِ الْعُقُولُ وَطَاشَتِ الْأَلْبَابُ ، وَمَا كُلُّ حَقِيقَةٍ يَشْرَحُهَا الْكَلَامُ ،
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ »
أَفَلَا أَعَدَدْتُمْ لِهَذِهِ الْوَرْطَةِ حِيَلَةً ، وَأَظْهَرْتُمْ لِلْإِهْتِمَامِ بِهَا مَخِيلَةً^(٢) ! أُنْعُو يَلَا عَلَى عَفْوِهِ
مَعَ الْمَقَاطِعَةِ ؟ وَهُوَ الْقَائِلُ فِي مَقَامِ التَّهْدِيدِ : « إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ، أَلَمْ نَأْمَنْ مِنْ مَكْرِهِ
مَعَ الْمُنَابَذَةِ ؟ « وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أَطْمَعًا فِي رَحْمَتِهِ مَعَ الْمُخَالَفَةِ ؟
وَهُوَ يَقُولُ : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » ، أَمْشَاقَةٌ وَمَعَانِدَةٌ ؟ « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ
فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » ، أَشَكَا فِي اللَّهِ ؟ فَتَعَالَوْا نُعِيدِ الْحِسَابَ ، وَنُقَرِّرِ الْعُقْدَ ،
وَنَتَّصِفِ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ (أَوْ غَيْرِهَا) مِنَ الْيَوْمِ ، يُفْقَدُ الْعُقْدُ الْعَقَائِدَ عِنْدَ التَّسَاهُلِ
بِالْوَعِيدِ^(٣) ، فَالْعَامِيُّ يُدْمِي الْأَصْبِعَ الْوَجِيعَةَ ، وَالْعَارِفُ يَضْمُدُ لَهَا مَبْدَأَ الْعَصَبِ :

هكذا هكذا يكون التعامى هكذا هكذا يكون الفرور

« يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »
وَمَا عَدَا مَا بَدَا ، وَرَسُولُكُمْ الْحَرِيصُ عَلَيْكُمْ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ يَقُولُ لَكُمْ : « الْكَيْسُ
مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَتَمَلَّحَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ؛ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ
الْأَمَانِي » فَعَلَامَ بَعْدَ هَذَا الْعَوَّلِ ، وَمَاذَا يَتَأَوَّلُ ؟ اتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى فِي نَفْسِكُمْ وَأَنْصَحُواهَا
وَاعْتَنِمُوا فُرْصَ الْحَيَاةِ وَارْتَجُّوْهَا ، « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ

(١) أعرس القوم وعرسوا : نزلوا في آخر الليل للاستراحة ، ونفر الحاج من منى كضرب نفرأ ونفورا .

(٢) الخيلة : الخان . (٣) أى أن المرء إذا لم يحسب لوعيد الله حسابا ، واستغسل في انقراض المعاصي والموبقات ، أفضى به ذلك إلى زلزلة العقيدة ، ولو أنه كان خالص الإيمان لارعى عما نهى عنه .

فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ « ، وتنادى أخرى : « هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » ، وتستغيث أخرى : « يَا لَيْدَنَا نَرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، وتقول أخرى : « رَبِّ أَرْجِعُونِي » ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ ، قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِهِ وَقَدَّمَ لِعَدِهِ مِنْ أَمْسِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَجْرُؤُ إِلَى الْمَوْتِ ، وَالغَفْلَةَ تَقُودُ إِلَى الْفَوْتِ ، وَالصَّحَّةَ مَرَّ كَبِّ الْأُمِّ ، وَالشَّبِيهَةَ سَفِينَةَ تَقْطَعُ إِلَى سَاحِلِ الْهَرَمِ .

وإن شاء قال بعد الخطبة :

« إِخْوَانِي ، مَا هَذَا التَّوَانِي ؟ وَالْكَفُّ بِالْوَجُودِ الْفَانِي ، عَنِ الدَّائِمِ الْبَاقِي ، وَاللَّهْرُ يَقْطَعُ الْأَمَانِي ، وَهَادِمُ اللَّذَاتِ قَدْ شَرَعَ فِي نَقْضِ الْمَبَانِي ، أَلَا مَعْتَبِرٌ فِي عَالَمِ هَذِهِ الْمَعَانِي ، أَلَا مَرْتَحِلٌ عَنِ مَعَابِنِ هَذِهِ الْمَفَانِي ^(١) ؟

أَلَا أُذُنٌ تُصْفِي إِلَى سَمِيعَةٍ أَحَدَّثَهَا بِالصَّدْقِ مَا صَنَعَ الْمَوْتُ
مَدَدْتُ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَّاهُ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَا مِنْكُمْ فَلَمْ يُسْمَعْ الصَّوْتُ
هُوَ الْقَدَرُ الْآتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتَوَبُوا سِرَّاعًا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْفَوْتُ

يَا كَلِيفًا بِمَا لَا يَدُومُ ، يَا مَفْتُونًا بِغُرُورِ الْوَجُودِ الْمَعْدُومِ ، يَا صَرِيحَ جِدَارِ الْأَجْلِ الْمَهْدُومِ ، يَا مُشْتَفِلًا بَيْنَانِ الطَّرِيقِ قَدْ ظَهَرَ الْمُنَاخُ وَقَرَّبَ الْقُدُومِ ، يَا غَرِيبًا فِي بَحَارِ الْأَمْلِ مَا عَسَاكَ تَعُومُ ! يَا مُعَلَّلَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَلْعَ السَّرَابِ ^(٢) ، لَا بَدَّ أَنْ تَهْجُرَ الْمَشْرُوبَ وَتَتْرَكَ الْمَطْعُومَ ، دَخَلَ سَارِقُ الْأَجْلِ بَيْتَ عَمْرٍكَ فَسَلَبَ النَّشَاطَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ ، وَطَوَى الْبَسَاطَ وَأَنْتَ تُكْرَبُ ^(٣) ، وَاقْتَلَعَ جَوَاهِرَ الْجَوَارِحِ ، وَقَدْ وَقَعَ بِكَ التَّهْبُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ الْوَسَادَةَ عَلَى أَنْفِكَ وَيَقْعُدَ :

لَوْ خُفِّفَ الْوَجْدُ عَنِّي دَعَوْتُ طَالِبَ ثَارِي
« كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ، كَيْفَ التَّرَاخِي وَالْفَوْتُ مَعَ الْأَنْفَاسِ يُنْتَظَرُ ،

(١) المغانى : جمع مغنى وهو المنزل .

(٢) السراب : ما يرى وسط النهار كأنه ماء .

(٣) كربه الدم كنصر : اشتد عليه .

كيف الأمان وهاجم الموت لا يُبقي ولا يذر ، كيف الركون إلى الطمع الفاضح
وقد صحَّ الخبر؟ من فكر في كرب الخمار^(۱) تنفست عنده لذة النيذ ، من أحسَّ
بلفظ^(۲) الحريق فوق جداره ، لم يصغ بصوته لنعمة العود ، من تيقن بذل العزلة ،
هان عليه ترك الولاية .

ما قام خيرك يا زمان بشره أولى لنا ما قل منك وما كفى
أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه : أن ضع يدك على متن ثور
فبعدد ما حاذته من شعره تعيش سنين ، فقال : يارب وبعد ذلك؟ قال : تموت ، قال :
يارب فالآن .

رأى الأمر يُفِضِي إلى آخرِ فصير آخره أولاً
إذا شعرت نفسك بالميل إلى شيء فأعرض عليها غصة فراقه « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ
عَنْ بَيْنَةٍ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ » فالفروح به هو المحزون عليه ، أين الأحباب
مروا؟ فياليت شعري أين استقروا؟ استكانوا والله واضطروا ، واستغاثوا من
سبقت^(۳) بأوليائهم ففروا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضروا ، فالنازل من بعدهم خالية
خاوية ، والعروش ذابطة زاوية ، والعظام من بعد التفاصيل متشابهة متساوية ، والمساكن
تندب في أطلالها الذئاب العاوية .

صحتُ بالرَّبع فلم يستجيبوا ليت شعري أين يمضي الغريب؟
ويجنب الدار قبرٌ جديدٌ منه يستسقى المكان الجدب
غاض قلبى فيه عند التماحيى قات : هذا القبر فيه الحبيب^(۴)
لا تسأل عن رجعتى كيف كانت إن يوم البين يوم عصيب

(۱) الخمار: صواع الخمر وأذاها . (۲) أى برمي . (۳) هكذا فى الأصل ، وكان يمكن أن
يقول : « واستغاث من سبقت بأوليائهم » إلا أن يخرج على أن « من » مبتدأ مؤخر كما فى قوله تعالى :
« مُنَّمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » وقوله : « وَأَسْرَوْا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أو « من »
بدل من وار الجماعة . (۴) لمح والهم والنمحة : إذا أبصره بنظر خفيف .

باقتراب الموت عللتُ نفسي بعد إلفي ، كلُّ آتٍ قريبُ
 أين المعمّر الخالد ، أين الولد أين الوالد ، أين الطارف أين التالد ، أين المجادل
 أين المجالِد؟ « هلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً؟ »^(١) وجوه علاهِنَّ
 اللّثرى ، وصحائفُ تفضّ ، وأعمال على الله تُعرَض ، بَحَثَ الزُّهَّادِ وَالْعُبَّادِ ، والعارفون
 والأوتاد ، والأنبياء الذين يُهْدَى بِهِم العباد ، عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده ،
 فلم يجدوا إلا البُعدَ عن الله تعالى ، وسببه حُبُّ الدنيا ، « لن تجتمع أمتى
 على ضلالة » .

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلِي فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلِي مِنْ حَبِيبِ
 وَمَاذَا أُرْتَجَى مِنْ وَصْلِ لَيْلِي سَتَجْزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبِ
 وقالوا : ما أوردَ النفسَ الموارِدَ ، وَفَتَحَ عَلَيْهَا بَابَ الْخُتْفِ إِلَّا الْأَمَلَ ، كما
 قَوْمَهَا مِثَاقِ الْخُدُودِ ، فَتَحَ لَهَا أَرْكَانَ الرُّخَصِ . كما عَقَدَتْ صَوْمَ الْعَزِيمَةِ ،
 أَهْدَاهَا طُرْفَ الْغُرُورِ فِي أَطْبَاقِ « حَتَّى وَإِذَا وَلَكِنْ وَرُبَّمَا » فَأَفْرَطَ الْقَلْبُ فِي تَقْلِيمِهَا
 حَتَّى أَفْطَرَ :

مَا أَوْبَقَ الْأَنْفَسَ إِلَّا الْأَمَلُ وَهُوَ غُرُورٌ مَا عَلَيْهِ عَمَلُ
 يَفْرُضُ مِنْهُ الشَّخْصُ وَهَمًّا مَالَهُ حَالٌ ، وَلَا مَاضٍ ، وَلَا مُسْتَقْبَلُ
 مَا فَوْقَ وَجْهِ الْأَرْضِ نَفْسٌ حَيَّةٌ إِلَّا قَدْ انْقَضَ عَلَيْهَا الْأَجَلُ
 لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِهَا قَدْ كَوَّنُوا لِأَمْتَلَاءِ السَّهْلِ بِهِمِ وَالْجَبَلُ
 مَا نَمَّ إِلَّا لَقَمٌ قَدْ هَيْئَتْ لِلْمَوْتِ ، وَهُوَ الْأَكْلُ الْمُسْتَعَجِلُ
 وَالْوَعْدُ حَقٌّ ، وَالْوَرَى فِي غَفْلَةٍ قَدْ خُودِعُوا بِعَاجِلٍ وَضَلُّوا
 أَيْنَ الَّذِينَ شَيَّدُوا وَاغْتَرَسُوا وَمَهَّدُوا وَافْتَرَشُوا وَظَلَّلُوا؟

(١) الرِّكْزُ : الصَّوْتُ الْخَفِيُّ .

أين ذوو الراحة زادت حسرة
لم تدفع الأحباب عنهم غير أن
إذ جنبوا إلى الثرى وانتقلوا^(١)
بكوا على فراقهم وأعولوا
الله في نفسك أولى من له
ذخرت نصحا وعتابا يقبل^(٢)
لا تتركها في عمى وخبيرة
عن هول ما بين يديها تغفل
حقر لها الفاني، وحاول زهداها
وشوقها إلى الذي تستقبل
وفد إلى الله بها مضطرة
حتى ترى السير عليها يسهل^(٣)
هو الفناء، والبقاء بعده
والله عن حكمته لا يسأل
يا قرّة العين ويا حسرتها
يوم يوفى الناس ما قد عملوا

باطرد^(٤) المخالفة، إنكم مدرّكون، قاستبقوا باب التوبة . فإن ربّ تلك الدار
يُجبر ولا يُجار عليه « فإذا أمنتهم فاذكروا الله كما هداكم » . ياطفيلية الهمة ،
دشوا أنفسكم بزمر التائبين ، وقد دعوا إلى الله دعوة الخبيب ، فإن لم يكن أكل فلا
أقل من طيب الوليمة ، قال بعض العارفين : إذا عقد التائبون الصلح مع الله تعالى ،
انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال ، « وأشرقّت الأرض بنور ربّها . ووُضِعَ
الكتابُ » معاني هذا المجلس والله نسيم سحر ، إذ استنشقه مخمور الغفلة أفاق ،
سعوط^(٥) هذا الوعظ ينقض^(٦) إن شاء الله زكمة البطالة، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء،
إكسير^(٧) هذا الكتاب يلقب بحكمة جابر^(٨) ، القلوب المنكسرة عين من كان له قلب

(١) جنبه : دفعه . (٢) أي اتق الله في نفسك التي هي أولى . . . الخ .
(٣) فد : أمر من وفد أي اقدم . (٤) الطريدة : ما طردت من صيد أو غيره .
(٥) في الأصل « سوط » وأراه محرّفا من « سعوط » كما يدل عليه سياق الكلام ، وال«سعوط» : الدواء
يصب في الأنف . (٦) في الأصل « ينقض » وأراه « ينقض » أي يذهب .
(٧) الإكسير : الكيمياء .

(٨) يريد جابر بن حيان . قال ابن القفطي في تاريخ الحكماء في ترجمته « هو جابر بن حيان الصوفي
الكوفي ، وكان متقدما في العلوم الطبيعية ، وفي صناعة الكيمياء . . . الخ » وذكره ابن زيدون في
رسالة الهزلية ، فقال : « وأظهرت جابر بن حيان هل سر الكيمياء » قال ابن نباتة في شرح العميون :
« وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة في كتاب يعتمد عليه ، وهذا دليل على قول =

« إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » إلهي دُلْنَا مِنْ حَيْرَةٍ يَضِلُّ فِيهَا - إِلَّا إِنْ هَدَيْتَ - الدليل ، وَأَجْرِنَا مِنْ غَمْرَةٍ (١) وَكَيْفَ - إِلَّا بِإِغَاثَتِكَ - السبيل ، نفوسٌ صَدِيٌّ مِنْ مَرَّةٍ الْأَزْمَانِ مِنْهَا الصَّقِيلُ ، وَنَبَأٌ يُجْنُوبُهَا عَنِ الْحَقِّ الْمَقِيلُ - وَأَذَانٌ أَنْهَضَهَا الْقَوْلَ الثَّقِيلَ ، وَعَثْرَاتٌ لَا يَقْبَاهَا إِلَّا أَنْتَ يَا مُقِيلَ الْعَثْرَاتِ يَا مُقِيلَ ، أَنْتَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ (٢) الْوَكِيلُ . (نفع الطيب ٤ : ٨٥)

١٩ - وصية موسى بن سعيد العنسي (٣) لابنه

قال أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي :
لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة ، أول وصولي إلى الإسكندرية رأيت أبي أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربية ، فبقي فيها أياماً إلى أن كتبتها عنه ، وهي هذه :

أودِعْكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ مُرْتَقِباً رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ

= أكثر الناس إزاه اسم موضوع وضعه المصنفون في هذا الفن : وزعموا أنه كان في زمن جعفر الصادق ، وأنه إذا قول في كتبه : قال لي سيدي ، وسمعت من سيدي ، فإنه يعني به جعفر الصادق ، وقد قدمنا أن جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ . (٢) أورد المقرئ في نفع الطيب لسان الدين عقب ذلك كلاماً آخر في الوعظ (١) الغمرة : الشدة .

وهو على نمط ما أوردناه لك فانظره هناك إن شئت .
(٣) هو الكاتب الشهير أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، من سلالة عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه ، وقد نوه به ابن هود ملك الأندلس ، وولاه الجزيرة الخضراء ، وهو ممن رحل من علماء الأندلس إلى المشرق ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٤٠ هـ عن ٦٧ عاماً . وكان أبوه محمد وزيراً جليلاً بعيد للصيت ، عالي الذكر ، رفيع الهمة ، كثير الأموال ، وكان ذا حظوة لدى الموحدين ، وولى لهم أعمالاً كثيرة بمراكش وإشبيلية وغرناطة ، واتصلت ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من شيوخها وأعيانها .

وكان جده عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين ملك البربر ، إلى أن استبد بها سنة ٥٣٩ هـ .

وابنه أبو الحسن علي هو ممتهم كهاب : « المغرب في أخبار المغرب » ، وكان السبب في تأليفه هو جده عبد الملك بن سعيد ، ثم تهمه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم تهم ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ، ثم أربي على الجميع في إتمامه علي بن موسى ، وقد ذكر في خطبته أنه بدأ فيه من سنة ٥٣٠ هـ ، ومنتهاه إلى غرة سنة ٦٤١ هـ ، وكان مولد أبي الحسن بقرناطة سنة ٦١٠ هـ ، ووفاته بقرناط سنة ٦٨٥ هـ .

وما اختياري كان طوعَ النوى لكنني أُجْرِي على بُفَيْتِكَ^(١)
 فلا تطلُ حَبْلَ النوى ، إنني واللهِ أَشْتاقُ إلى طَلْعَتِكَ
 من كان مفتوناً بأبنائه فَإِنِّي أَمَعَنْتُ في خَبْرَتِكَ
 فاختصرِ التوديعَ أَخْذاً ، فما لي ناظِرٌ يَقْوَى على فِرْقَتِكَ
 واجعل وصاتي نُصْبَ عين ، ولا تَبْرَحْ مَدَى الأيام من فِكْرَتِكَ
 خلاصةَ العمر التي حُنَّكَتْ في ساعةٍ زُفَّتْ إلى فِطْنَتِكَ^(٢)
 فلتجاريب أمورٍ إذا طالَعْتَهَا تَشَجَّدُ من غفلتك
 فلا تسمَ عن وعيها ساعةً فإنها عَوْنٌ إلى يَقْظَتِكَ^(٣)
 وكل ما كابدته في النوى إياك أن يكسِرَ من هَمَّتِكَ
 فليس يُدْرِي أصلُ ذي غُرْبَةٍ وإنما تُعْرَفُ من شِيمَتِكَ
 وكل ما يُفْضِي لِعُذْرٍ فلا تجعله في الغربة من إِرْبَتِكَ^(٤)
 ولا تجالسَ مَنْ فُشَّ جِلالُه وأقْصِدْ لِمَنْ يَرْغَبُ في صِنْعَتِكَ
 ولا تجادلْ أبداً حاسِداً فإنه أَدْعَى إلى هَيْبَتِكَ
 وامشِ الهويئِي مُظْهِراً عِفَّةً وأبغِ رِضا الأعين عن هَيْبَتِكَ
 أفسِ التحياتِ إلى أهلها وَنَبِّهِ النَّاسَ على رُبَّتِكَ
 وأنطقْ بحيثُ العِيُ مستقبَحٌ وأصمْتُ بحيثُ الخَيْرِ في سَكَّتِكَ
 ولا تزلْ مُجْتَمِعاً طالِباً من دهرِكَ الفُرْصَةَ في وَثْبَتِكَ
 وكلما أَبْصَرْتَهَا أُمَكَّتْ نِبْ واثِقاً بالله في مَكْنَتِكَ^(٥)
 وَبِجْ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بابِهِ وأقْصِدْ له ماعِشَتَ في بُكْرَتِكَ

(١) النوى : للبعد . (٢) حنكت : أحكت . (٣) الليقظة بالعحريرك وسكنه للشعر .
 (٤) الإربة : الحاجة .
 (٥) المكنة بفتح فكسر : التمكن والقدرة ، وسكنه الشعر .

وَأَيَّاسٌ مِنَ الْوَدِّ لَدَى حَاسِدٍ .
 وَوَفْرٌ الْجُهْدِ ، فَمَنْ قَصَدَهُ
 وَوَفٌّ كَلًّا حَقَّهُ ، وَلَتَكُنْ
 وَلَا تَكُنْ تَحْقِرُ ذَا رُتْبَةٍ
 وَحَيْثَا خِيَمْتَ فَأَقْصِدْ إِلَى
 وَلِلرَّزَايَا وَثْبَةٌ ، مَا لَهَا
 وَلَا تَقُلْ : (أَسْلَمُ لِي وَحَدَّثِي)
 وَالْتَزِمِ الْأَحْوَالَ وَزَنَا وَلَا
 وَلِتَجْعَلَ الْعَقْلَ مَحْكَاً ، وَخَذْ
 وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِالْفَاطِمِ
 بَعْدَ اخْتِبَارِ مَنْكَ يَقْضِي بِمَا
 كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مَظْهَرٍ نَصِيحَةٍ
 إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ ، إِنْهُ
 وَاقْنَعْ إِذَا مَا لَمْ تَجِدْ مَطْمَعًا
 وَأَنْتُمْ نَمُوَ النَّبْتُ قَدْ زَارَهُ
 وَإِنْ نَبَا دَهْرٌ فَوَطَّنْ لَهُ
 فَكُلْ ذِي أَمْرٍ لَهُ دَوْلَةٌ
 وَلَا تُضَيِّعْ زَمَانًا مُمَكِّنًا
 وَالشَّرَّ مَهْمَا أُسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ

ضِدُّ ، وَنَافِيسُهُ عَلَى خُطْبَتِكَ^(١)
 قَصْدُكَ لَا تَعْتَبِهِ فِي بَغْضَتِكَ
 تَكْسِيرٌ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حَدَّثِكَ
 فَإِنَّهُ أَنْفَعُ فِي غُرْبَتِكَ
 صُحْبَةٌ مِنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكَ
 إِلَّا الَّذِي تَذَخَّرَ مِنْ عُدَّتِكَ
 فَقَدْ تَقَاسَى الذَّلَّ فِي وَحْدَتِكَ
 تَرْجِعْ إِلَى مَا قَامَ فِي شَهْوَتِكَ
 كَلًّا بَمَا يَظْهَرُ فِي نَقْدَتِكَ
 وَأَصْحَبٌ أَخَا يَرْغَبُ فِي صُحْبَتِكَ
 يَحْسُنُ فِي الْآخِذِ مِنْ خِلْطَتِكَ^(٢)
 وَفِي كَرَاهِيئِهِ وَقْفٌ عَلَى عَشْرَتِكَ
 عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كُرْبَتِكَ
 وَأَطْمَعٌ إِذَا أَنْعَشْتَ مِنْ عُسْرَتِكَ
 غَيْبُ النَّدَى ، وَأَسْمُ إِلَى قَدْرَتِكَ
 جَبَاشَتِكَ ، وَانظُرْهُ إِلَى مَدَّتِكَ
 فَوْفٌ مَا وَافَاكَ فِي دَوْلَتِكَ
 تَذَكَارُهُ يَدٌ كِي لَطَى حَسْرَتِكَ
 فَإِنَّهُ حَوْزٌ عَلَى مَهْجَتِكَ^(٣)

* * *

(١) في الأصل « وأس من الود » وقد أصلحته وإيأسه « وبه يستقيم المعنى .

(٢) الخلطة مثل العشرة وزنا ومعنى ، والخلطة بالضم : اسم من الاختلاط ، مثل الفرقة من الافتراق .

(٣) حازه حوزا : جمعه وضه ، وامتلكه كاحتازه احتيازاً ، والمعنى : أنك إن أتيت الشر استحوذ على

نفسك وتملكك .

يا بُنَيَّ الذي لا ناصح له مثلي ، ولا منصوح لي مثله ، قد قدمت لك في هذا النظم ما إن أخطرتَه بخاطرك في كل أوان ، رجوتُ لك حسن العاقبة إن شاء الله تعالى ، وإن أخفَّ منه للحفظ ، وأعلقَ بالفكر ، وَأَحَقَّ بالتقدم قول الأول :

يَزِينُ الْغَرِيبَ إِذَا مَا اغْتَرَبَ ثَلَاثٌ ، فَمَنْ : حُسْنُ الْأَدَبِ
وَتَانِيَةٌ : حُسْنُ أَخْلَاقِهِ وَثَالِثَةٌ : إِجْتِنَابُ الرَّيْبِ

وإذا اعتبرت هذه الثلاثة ، ولزمتها في الغربة ، رأيتها جامعة نافعة ، لا يُلْحَقُكُ إن شاء الله مع استعمالها ندمٌ ، ولا يفارقك برٌّ ولا كرمٌ ، والله درُّ القائل :
يُعَدُّ رَفِيعَ الْقَوْمِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْمِهِ بِحَسِيبِ
إِذَا حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيهَا بِعَقْلِهِ وَمَا عَاقِلٌ فِي بَلَدَةٍ بِغَرِيبِ
وَمَا قَصَّرَ الْقَائِلُ حَيْثُ قَالَ :

وَاصْبِرْ عَلَى خُلُقِ مَنْ تَعَاشِرُهُ وَدَارِهِ ، فَالْيَبِ مَنْ دَارَى
وَأَتَّخِذِ النَّاسَ كُلَّهُمْ مَسْكَنًا وَمَثَلِ الْأَرْضِ كُلَّهَا دَارًا
وَأَضْعِ يَا بُنَيَّ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ الدَّهْرِ^(۱) ، وَسَلِّمِ الْكِرْمَ وَالصَّبْرَ :

وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ الدِّيَارِ نَبَتْ بِكُمْ لَسَكَنْتُمْ الْأَخْلَاقَ وَالْآدَابَ^(۲)

إذ حَسُنُ الْخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلِ ، وَالْأَدَبُ أَرْحَبُ مَنْزِلِ ، وَلِتَكُنْ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي أَدِيبِ مَتَغْرِبِ : « وَكَانَ كَلِمًا طَرَأَ^(۳) عَلَى مَلِكٍ ، فَكَأَنَّهُ مَعَهُ وُلْدٌ ، وَإِلَيْهِ قَصْدٌ ، غَيْرَ مُسْتَرِيبٍ بِدَهْرِهِ ، وَلَا مُنْكَرٍ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ » ، وَإِذَا دَعَاكَ قَلْبُكَ إِلَى صَحْبَةِ مَنْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ هَوَاهُ^(۴) ، فَاجْعَلِ التَّكْلُفَ لَهُ سُلْمًا ، وَهَبْ فِي رَوْضِ أَخْلَاقِهِ هَيْبَةَ النَّسِيمِ ، وَحُلَّ بِطَرَفِهِ حُلُولَ الْوَسَنِ^(۵) وَأَنْزِلْ بِقَلْبِهِ نَزُولَ الْمَسْرَةِ ، حَتَّى يَتِمَّ لَكَ وَدَادُهُ ، وَيَخْصُصَ فِيكَ اعْتِقَادُهُ ، وَطَهَّرْ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ لِسَانَكَ ، وَأَغْلِقْ سَمْعَكَ ، وَلَا تُرَخِّصْ

(۱) يقال : درة يتيمة : أي لانظير لها ، وكل شيء مفرد يبرز نظيره فهو يتيم .
(۲) نابه منزله : إذا لم يوافق . (۳) طرأ عليهم كنع : أتاهم من مكان ، أو خرج عليهم منه فجأة .
(۴) التفسير فيه يعود على قلبك . (۵) الوسن : النعاس .

في جانبه لحسودٍ لك منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعته ، أو حسود له يَفَارُ لتجمُّله بصحبتك
وَمَعَ هذا فلا تَفْتَرَّ بطول صحبته ، ولا تتمهَّد بدوام رَقَدته ، فقد يذمُّه الزمان ، ويُغَيِّرُ
منه القلبَ واللِّسانَ ، ولذا قيل : « إذا أُحِبِّتَ فَأَحْبِبْ هَوْنًا مَّا ، ففي الممكن أن ينقلب
الصديق عدوًّا ، والعدو صديقًا » وإنما العاقل من جعل عقله معيارا ، وكان كالمرآة
يَلْقَى كلَّ وجه بمثاله ، وجعل نُصب ناظره قول أبي الطَّيِّب :

ولما صار ودَّ الناس خِبًّا جزيتُ على ابتسام بابتسام^(١)

وفي أمثال العامة : « من سَبَقك بيوم فقد سبقك بعقل » ، فاحْتَدِ بِأَمْثَلِهِ من جَرَّب ،
واستمعْ إلى ما خَلَدَ الماضون بعد جَهْدِهِم وتَعَبِهِم من الأقوال ، فإنها خُلَاصَةُ عَمَرِهِم ،
وزُبْدَةُ تِجَارِهِم ، ولا تَتَكَلَّمْ على عقلك ، فإن النظر فيما تَعِبَ فيه الناس طول أعمارهم ،
وابتاعوه غالِيًا بتجارهم ، يَرِيحُ بِحُكِّهِم ويقع عليك رخيصةً ، وإن رأيت مَنْ له مَرُوءَةٌ
وَعَقْلٌ وَتَجْرِبَةٌ ، فاستفِدْ منه ، ولا تَضِيعْ قَوْلَهُ ولا فِعْلَهُ ، فإن فيما تلقاه تلقيحًا لعقلك ،
وَحَثًّا لك واهتداء .

وإياك أن تعمل بهذا البيت في كلِّ موضع : وَالْحُرُّ يُخَدِّعُ بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ :
فقد قال أحدهم : ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التَّجَمُّلِ ، وليس كل ما تسمع من
أقوال الشعراء يحسنُ بك أن تتبعه حتى تتدبره ، فإن كان موافقًا لعقلك ، مُصَلِّحًا
لحالك ، فراعِ ذلك عندك : وإلا قَانِئِدْهُ نَبَذَ النِّوَاةَ ، فليس لكل أحد يُتَبَسَّمُ ، ولا كل
شخص يُكَلِّمُ ، ولا الجود مما يُعْمُّ به ، ولا حُسْنُ الظنِّ وَطِيبُ النفس مما يعامل به كل
أحد ، والله درَّ القائل :

ومالي لا أوفى البرية قِسْطَهَا على قدر ما يُعْطَى وَعَقْلِي مِيزَانُ

وإياك أن تُعْطَى من نفسك إلا بِقَدَرٍ ، فلا تعامل الدُّونَ بِمعاملة الكفاء ، ولا

(١) الحب : الهداع والحبث .

الكفء بمعاملة الأعلى ، ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ، ويُثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، واسمع قول الأول :

وَبِعْ أَجْلاً مِنْكَ بِالْعَاجِلِ : وَأَقْبَلِ مِنْ زِيَارَةِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَجْفُهُمْ بِالْجَمَلَةِ ، وَاسْكُنْ يَكُونُ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَالٌ وَلَا ضَجْرٌ وَلَا جَفَاءٌ ، وَلَا تَقُلْ أَيْضاً : أَقْعُدُ فِي كِسْرِ بَيْتِي ، وَلَا أَرَى أَحَدًا ، وَأَسْتَرِيحُ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنْ ذَلِكَ كَسَلَ دَائِعَ إِلَى الذَّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَإِذَا عَلِمَ عَدُوُّكَ أَوْ صَدِيقُكَ مِنْكَ ذَلِكَ ، عَامَلَاكَ بِحَسَبِهِ ، فَازْدِرَاكَ الصَّدِيقَ ، وَجَسَرَ عَلَيْكَ الْعَدُوَّ ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَغْرُكَ صَاحِبُ عَنَنْ أَنْ تَدَّخِرَ غَيْرَهُ لِلزَّمَانِ ، وَتَطِيعَهُ فِي عِدَاوَةِ سِوَاهُ ، فِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَلَيْكَ ، فَتَطْلُبُ إِعَانَةَ غَيْرِهِ ، أَوْ اسْتِغْنَاءَ عَنْهُ ، فَلَا تَجِدُ ذَخِيرَةَ قَدَمَتَيْهَا ، وَكَانَ هُوَ فِي أَوْسَعِ حَالٍ ، وَأَعْلَى رَأْيٍ ، بِمَا دَبَّرَهُ بِحِيلَتِهِ فِي انْقِطَاعِكَ عَنْ غَيْرِهِ ، فَلَوْ اتَّفَقَ لَكَ أَنْ تَصْحَبَ مِنْ كُلِّ صِنَاعَةٍ وَرِيَاةٍ ، مَنْ يَكُونُ لَكَ عُدَّةً ، لَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى وَأَصْوَبَ ، وَسَأْنِي فَإِنِّي خَبِيرٌ ، طَالُ - وَاللَّهِ - مَا صَحَّيْتُ الشَّخْصَ أَكْثَرَ عَمْرَى ، لَا أَعْتَمِدُ عَلَى سِوَاهُ ، وَلَا أَعْتَدُّ إِلَّا إِيَّاهُ ، مِنْخَدَعًا بِسَرَّابِهِ ، مُوْتَوِقًا فِي حَبَائِلِ خِطَابِهِ ، إِلَى أَنْ لَا يَحْصُلَ لِي مِنْهُ غَيْرُ الْعَضِّ عَلَى الْبَنَانِ ، وَقَوْلٌ : لَوْ كَانَ وَلَوْ كَانَ ! وَلَا يَحْمِلَنَّكَ أَيْضاً هَذَا الْقَوْلُ أَنْ تَظُنَّه فِي كُلِّ أَحَدٍ ، وَتَعْجَلَ الْمَكَافَاةَ ، وَلَيْسَ حَسَنُ الظَّنِّ بِمَقْدَارٍ مَا ، وَالْفَظِنُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مَخَائِلُ الْأَحْوَالِ ، وَفِي الْوَجْهِ دَلَالَاتٌ وَعَلَامَاتٌ ، وَأَصْغَرَ إِلَى الْقَائِلِ :

لَيْسَ ذَا وَجْهِ مَنْ يَضِيفُ وَلَا يَقْدِرُ وَلَا يَدْفَعُ الْأَذَى عَنْ حَرِيمٍ^(١)
فَمَنْ يَكُنْ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ هَذَا الْوَجْهِ فَوَلِّ وَجْهَكَ عَنْهُ قَبْلَةَ تَرْضَاهَا ، وَلْتَحْرَسْ جُهْدَكَ عَلَى أَنْ لَا تَصْحَبَ أَوْ تَخْدُمَ إِلَّا رَبَّ حِشْمَةٍ وَنِعْمَةٍ ، وَمَنْ نَشَأَ فِي رِفَاهِيَةِ وَمُرُوءَةٍ ، فَإِنَّكَ تَنَامُ مَعَهُ فِي مِهَادِ الْعَافِيَةِ ، وَإِنْ الْجِيَادُ عَلَى أَعْرَاقِهَا^(٢) تَجْرَى ، وَأَهْلُ الْأَحْسَابِ

(١) ضافه يضيفه : نزل به ذهباً ، وقمرى للضيف كرمى : أحسن إليه .

(٢) الأعراق : جمع هرق بالكسر وهو الأصل .

والمروءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وصمة ، وقد قيل في مجلس عبد الملك ابن مروان: أشرب مصعب الخمر؟ فقال عبد الملك - وهو عدو له محارب له على الملك - : لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه ؛ وَالْفَضْلُ مَا شَهَدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ .
يا بني ، وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وتغير ، وقد قيل : « أَصْحَابُ مَنْ شِئَتْ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » فمتى فارقت أحداً فعلي حسني في القول والفعل ، فإنك لا تدري : هل أنت راجع إليه ؟ فذلك قال الأول :

« وَلَمَّا مَضَى سَلْمٌ بِكَيْتٍ عَلَى سَلْمٍ » ، وَإِيَّاكَ وَالْبَيْتَ السَّائِرَ :

وَكَنتَ إِذَا حَلَلْتَ بَدَارَ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِحِزْبِيَّةٍ وَتَرَكَتَ عَارَا
وَاحْرَصْ عَلَى مَا جَمَعَ قَوْلَ الْقَائِلِ : « ثَلَاثَةٌ تُبْقِي لَكَ الْوَدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ : أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ، وَتَوْسَعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ » ، وَاحْذَرِ كُلَّ مَا بَيْنَهُ لَكَ الْقَائِلُ : « كُلُّ مَا تَغْرِسَهُ تَجْنِيهِ إِلَّا ابْنَ آدَمَ ، فَإِنَّكَ إِذَا غَرَسْتَهُ يَقْلَعُكَ » وَقَوْلُ الْآخِرِ : « ابْنَ آدَمَ يَتَمَسَّكُنُ حَتَّى يَتِمَّ كُنَّ » وَقَوْلُ الْآخِرِ : « ابْنَ آدَمَ ذَنْبٌ مَعَ الضَّعْفِ ، أَسَدٌ مَعَ الْقُوَّةِ » .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَثْبُتَ عَلَى صُحْبَةِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تُطِيلَ اخْتِبَارَهُ ، فَيُحْكِيَ أَنَّ ابْنَ الْمُقْفَعِ خَطَبَ مِنَ الْخَلِيلِ صُحْبَتَهُ ، فَجَاوَبَهُ : « إِنْ الصُّحْبَةُ رِقٌّ ، وَلَا أُضْعِرُ رِقِّي فِي يَدِكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتْكَ ^(١) » ، وَأَسْتَمَلِ ^(٢) مِنْ عَيْنِ مَنْ تَعَاشَرَهُ ، وَتَفَقَّدْ فِي فَلَتَاتِ الْأَلْسِنِ وَصَفَحَاتِ الْأَوْجِهَةِ ، وَلَا يَحْمَلِكِ الْحَيَاءُ عَلَى السُّكُوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ أَنْ لَا تَبَيِّنَهُ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ سِلَاحَ السَّلْمِ ، وَبِالْأَيْنِ يُعْرَفُ أَلْمُ الْجُرُوحِ ، وَاجْعَلِ الْكُلَّ أَمْرًا أَخَذْتَ فِيهِ غَايَةَ تَجْعَلُهَا نِهَايَةَ لَكَ .

(١) ملكة ملكة بالتحريك ، وملكها ملكها الهم ، وملكة مثلث اللام . احتواء قادراً على الاستبداد به .
(١) من استملته الكتاب : سألته أن يمليه على ، والمعنى : استرشد وتبين من نظرات عينه أحبيب لك هو أم عدو .

وَأَكْدُ مَا أُوصِيكَ بِهِ أَنْ تَطْرَحَ الْأَفْكَارَ ، وَتَسَلِّمَ لِلْأَقْدَارِ .

وَاقْبَلْ مِنْ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّرَ عَيْنًا بَعِيشَهُ نَفْعَهُ

إِذَا الْأَفْكَارَ تَجَلَّبَبَ الِهْمُومُ ، وَتَضَاعَفَ الْغُمُومُ ، وَمَلَاذِمَةُ الْقُطُوبِ ، عُنْوَانُ الْمَصَائِبِ
وَالْحُطُوبِ ، يَسْتَرِيبُ بِهِ الصَّاحِبُ ، وَيَشْمَتُ الْعَدُوُّ الْمُجَانِبُ ، وَلَا تَضُرُّ بِالْوَسَاوِسِ إِلَّا
نَفْسَكَ ، لِأَنَّكَ تَنْصُرُ بِهَا الدَّهْرَ عَلَيْكَ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومُ

مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَةَ الْحَزْنَ ، وَلَا يَرْعَوِي بِطُولِ عَتَبِكَ الزَّمْنَ ، وَلَقَدْ
شَاهَدْتُ بَغْرًا نَاطَةً شَخْصًا قَدْ أَلْفَيْتَهُ الِهْمُومُ ، وَعَشِيقَتَهُ الْغُمُومُ ، مِنْ صَغَرِهِ إِلَى كِبَرِهِ ، لَا تَرَاهُ
أَبَدًا خَلِيًّا مِنْ فِكْرِهِ ، حَتَّى لُقِّبَ بِصَدْرِ الِهْمِ ، وَمَنْ أَعْجَبَ مَا رَأَيْتَهُ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَنَكَّدُ
فِي الشَّدَةِ ، وَلَا يَتَعَلَّلُ بِأَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا فَرَجٌ ، وَيَتَنَكَّدُ فِي الرِّخَاءِ خَوْفًا مِنْ أَنْ لَا يَدُومَ .
وَيُنْشِدُ : تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ ، وَيُنْشِدُ : وَعِنْدَ التَّنَاهِي بِقُصْرِ الْمُتَطَاوِيلِ .

وَلَهُ مِنَ الْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الشَّانِ عَجَائِبُ ، وَمِثْلُ هَذَا عَمْرُهُ مَحْسُورٌ يَمُرُّ ضِيَاعًا .

وَمَتَى رَفَعْتَ الزَّمَانَ إِلَى قَوْمٍ يَذُمُّونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تُحْسِنُهُ حَسَدًا لَكَ ، وَقَصْدًا لِتَصْغِيرِ
قَدْرِكَ عِنْدَكَ ، وَتَرْهِيدًا لَكَ فِيهِ ، فَلَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَرْهَدَ فِي عِلْمِكَ ، وَتَرَى كَنْ إِلَى
الْعِلْمِ الَّذِي مَدْحُوهُ ، فَتَكُونُ مِثْلَ الْغَرَابِ الَّذِي أَعْجَبَهُ مَشْيُ الْحَجَلَةِ^(١) فَرَامَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ
فَصَعُبَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَشْيِهِ فَدَسِيهِ ، فَبَقِيَ مُخْبَلًا الْمَشْيَ ، كَمَا قِيلَ :

إِنَّ الْغَرَابَ (وَكَانَ يَمْشِي مِشْيَةَ) فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَجْيَالِ^(٢)

حَسَدَ الْقَطَا ، وَأَرَادَ يَمْشِي مِشْيَهَا فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقَالِ^(٣)

(١) الحجلة بالتحريك : طائر على قدر الحمام كالقطا أحمر المنقار والرجلين ، والواحدة حجلة واسم جمعه

حجل بكسر فسكون ففتح ولا نظير له سوى ظربي (ومفرده ظربان يفتح فكسر وهو دويبة مستنة الريح)

(٢) هذا البيت ليس مثبتاً في الأصل ، وقد أورده الدهري مع البهتين بمسده في حياة الحيوان

الكبرى ٢ : ٢٤٤ . (٣) العقال : داء في رجل الدابة إذا مشى ظلع ساعة ثم انبط .

فَأُضِلَّ مِشِيَّتَهُ ، وَأَخْطَأَ مَشِيَّهَا فَلَذَاكَ سَمَّوَهُ أَبَا مِرْقَالٍ^(١)
 وَلَا يُفْسِدُ خَاطِرَكَ مَنْ جَعَلَ يَدُومَ الزَّمَانِ وَأَهْلَهُ ، وَيَقُولُ : « مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا
 كَرِيمٌ وَلَا فَاضِلٌ ، وَلَا مَكَانٌ يُرْتَاحُ فِيهِ » ، فَإِنَّ الَّذِينَ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ ، أَكْثَرُ
 مَا يَكُونُونَ مِنْ صَحْبِهِ الْحَرَمَانِ ، وَاسْتَحَقَّتْ طَلْعَتُهُ لِلْهَوَانِ ، وَأَبْرَمُوا^(٢) عَلَى النَّاسِ
 بِالسُّؤَالِ فَمَقْتُوهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنْ طَلَبِ الْأُمُورِ مِنْ وَجْهِهَا ، فَاسْتَرَا حُوا إِلَى الْوُقُوعِ
 فِي النَّاسِ ، وَإِقَامَةِ الْأَعْدَارِ لِأَنْفُسِهِمْ بِقَطْعِ أَسْبَابِهِمْ ، وَتَعْذِيرِ أُمُورِهِمْ ، وَلَا تُزِيلُ هَذِينَ
 الْبَيْتِينَ مِنْ فِكْرِكَ :

لِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ بَايِنُ
 فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

وَقَوْلِ الْآخِرِ :

تِهْ وَارْتَفِعْ إِنْ قِيلَ أَقْتَرُ ، وَانْحَفِضْ إِنْ قِيلَ أُثْرَى^(٣)
 كَالْفِصْنِ يَسْفُلُ مَا أُكْتَسِيَ ثَمْرًا ، وَيَعْلُو مَا تَعَرَّى

وَلَا قَوْلِ الْآخِرِ :

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ

وَاعْتَقِدْ فِي النَّاسِ مَا قَالَهُ الْقَائِلُ :

وَمَنْ بَاقٍ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَفْوَ لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَىِّ لَأَمَّا

وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ :

بِقَدْرِ الصُّعُودِ يَكُونُ الْهَبُوطُ فَإِيَّاكَ وَالرُّتَبَ الْعَالِيَةَ

وَكَانَ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطَتْ تَقُومُ وَرِجْلَاكَ فِي عَافِيَةٍ

وَتَحْفَظُ بِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُ الْآخِرِ :

(١) من أرققت الدابة : إذا أسرعت . (٢) أورد الشعر لازمًا وهو متعد ، جاء في كعب اللغة :

(٣) أقر : انقض .

• أبرمه فبرم كفرح وتبرم : أملاه فل .

ومن دعا الناس إلى ذمِّه ذمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

ولله درة القائل :

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً فإذا قنعت فكلّ شيء كافي
والأمثال يضربها لذي اللبِّ الحكيم ، وذو البصرِ يمشی على الصراط المستقيم ،
والفطن يقنع بالقليل ، ويستدلّ باليسر ، والله سبحانه خليفتي عليك ، لا ربَّ سواه .

(نفع الطيب ۱ : ۱۹۳)

۲۰ - خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف (توفي سنة ۷۲۸ هـ)

وخطب أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات^(۱) خطبة ألغيت الألف من حروفها على
كثرة ترددها في الكلام ، وهي :

« حَمِدْتُ رَبِّي جَلًّا مِنْ كَرِيمٍ مَحْمُودٍ ، وَشَكَرْتُهُ عَزًّا مِنْ عَظِيمٍ مَعْبُودٍ ، وَرَزَّهْتُهُ
عَنْ جَهْلٍ كُلِّ مُلْجِدٍ كَفُورٍ ، وَقَدَّسْتُهُ عَنْ قَوْلِ كُلِّ مُفْسِدٍ غَرُورٍ . كَبِيرٌ لَوْ تَقَوَّمَ
فِي فَهْمٍ لُحْدًا^(۱) ، قَدِيرٌ لَوْ تَصَوَّرَ فِي رَسْمٍ لُحْدًا^(۲) ، لَوْ عَرَّتَهُ^(۳) فِكْرَةٌ تَصَوَّرَ لَتَصَوَّرَ
وَلَوْ حَدَّتَهُ فِكْرَةٌ لَتَقَدَّرَ^(۴) ، وَلَوْ فَهِمْتَ لَهُ كَيْفِيَّةً لِبَطَلٍ قَدَّمَهُ ، وَلَوْ عَامَتْ لَهُ كَيْفِيَّةٌ
لَحَصَلَّ عَدَمُهُ ، وَلَوْ حُصِرَ فِي ظَرْفٍ لَقُطِعَ بِتَجَسُّمِهِ ، وَلَوْ قَهَرَ وَصَفَ لَصُدِعَ^(۵)
بِتَقْسَمِهِ ، وَلَوْ فُرِضَ لَهُ شَبَحٌ لَرَهِقَهُ^(۶) كَيْفٌ . عَظِيمٌ مِنْ غَيْرِ تَرْكِيْبٍ قَطْرٌ ، عَلِيمٌ مِنْ

(۱) هو أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الخطيب المتصوف ، من أهل بلش ما لقة ولد سنة ۶۴۹ هـ ،
وتوفي سنة ۷۲۸ هـ . قال فيه لسان الدين بن الخطيب : « كان بفتح محالسه أكثر الأحيان بخطب غريبة ،
يطبق بها مفاصل الأغراض التي بشرح فيها ، وينظم الشعر دائماً في مراجعته ومخاطبته وإجازته من غير
تأن ولا روية ، حتى اعتاده ملكة ، واستعمل في السفارات بين الملوك لدحض سخائم ، وإصلاح الأمور ،
فكانوا يوجبون حقه ، ويلتمسون بركته ودعاه » وله تصانيف ، كثيرة ذكرها ابن الخطيب .

(۱) أي لعرف ، من الحد : وهو التعريف . (۲) من التحديد ، أي لصارت له ذات محدودة ،
ولو أنه قال : « قديم » بدل « قدير » لناسب أن يقول بعده : « لحد » بالجيم المفتوحة أي لصار
جديداً حادثاً . (۳) عرته : أي اضرته وتناوت ، وفي الأصل « عدته » بالدال وأراه محرفاً ،
وتصور أي تمثل في صورة ، يقال : صورته فتصور . (۴) لتقدر : أي صار له قدر مجسم ، وفي
الأصل « لتذر » وأراه محرفاً . (۵) صدح به : جهر . (۶) رهقه : غشيه ولحقه .

غير ترتيب فكر، موجود من غير شيء يُمَسِكُه، معبود من غير وهم يُدْرِكُه، كريم من غير عَوْض يَلْحَقُه، حكيم من غير عَرْض يَلْحَقُه^(۱)، قوي من غير سَبَب يَجْمَعُه، على من غير سبب يرفعُه، لو وُجِد له جنس لِعورِض في قِيَوْمِيَّتِه^(۲)، ولو ثَبَت له حِس لِنوزع في دِيْمُوْمِيَّتِه^(۳).

ومنها: تقدس وعز فعله، وتنزه عز اسمه وفضله، جل قاهر قدرته، وعز باهر عزته، وعظمت صفته، وكثرت منته، فتق ورتق، وصور وخلق، وقطع ووصل، ونصر وخذل، حمدته حمد من عرف ربه، ورهب ذنبه، وصفت حقيقة يقينه قلبه، وزكك^(۴) بصيرة دينه لبه، ربط سلك سلوكه وشده^(۵)، وهدم صرح عتوه وهده، وحرس معقل عقله وحدد، وطرده غرور غرته^(۶) ورذله^(۷)، علم علم تحقيق فنحاحوه، نقر له عز وجل بثبوت ربوبيته وقدمه، ونعتقد صدور كل جوهر وعرض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه وسلم عليه، رسوله وخير خلقه، ونعلن بنهوضه في تبين فرضه، وتبليغ شرعه، ضرب قبة شرعه ففسخت كل شرع، وجدد عزيمته فقمع عدوه خير قمع، قوم كل مقوم بقويم سنته، وكريم هديه، وبين لقومه كيف يركونون^(۸)، ففازوا بقصده وسديده سعيه، بشر مطيعه فظفر برحمته، وحذر عاصيه فشقي بنقمته.

وبعد: فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتكم لو كنتم تعلمون، بصرتكم لو كنتم تبصرون، وذكركم لو كنتم تذكرون، ظهرت لكم حقيقة نشركم،

(۱) واحفه الأول: أي يناله ويأخذه، ويلحقه الثاني بمعنى يتصف به.

(۲) القيوم: من أسماء تعالى، أي الذي لا نله. (۳) الديمومة: الدوام.

(۴) زكك: طهرت.

(۵) في الأصل «وشيد» وأراه محرفاً عن «شد» إذ هي التي تلائم قوله قبلها «وربط».

(۶) الغرة: الغفلة. (۷) رذله وأرذله: عده رذلاً.

(۸) ركن إلى الشيء ركوناً: مال إليه واطمأن، أي بين طم كيف يركنون إلى الحق والصواب،

وقد كانوا من قبله يمهون في ضلالتهم ويخبطون.

وَبَرَزَتْ لَكُمْ حَقِيقَةُ حَشْرِكُمْ ، فَكَمْ تَرَكُضُونَ فِي طَلْقٍ ^(١) غَفَلْتُمْ ، وَتَغْفُلُونَ عَنْ يَوْمِ بَعْثِكُمْ ، وَلِلْمَوْتِ عَالِيكُمْ سَيْفٌ مُسَلُولٌ ، وَحُكْمٌ عَزِيمٌ غَيْرٌ مَعْلُولٌ ، فَكَيْفَ بِكُمْ يَوْمَ يَأْخُذُ كُلُّ بَدَنِهِ ، وَيُخَبَّرُ بِجَمِيعِ كَسْبِهِ ، وَيَفْرَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَحْبِهِ ، وَيَعْدَمُ نُصْرَةَ حِزْبِهِ ، وَيَسْتَفِلُّ بِهِمْ وَكَرْبِهِ ، عَنْ صَدِيقِهِ وَتَرْبِهِ ، وَتُنْشَرُ لَهُ رُقْعَةٌ ، وَتَعَيَّنُ لَهُ بُقْعَةٌ ؟ فَرَبِّحْ عَبْدٌ نَظَرَ وَهُوَ فِي مَهَلٍ لِنَفْسِهِ ، وَتُرْسَلْ فِي رَضِيٍّ عَمَلٍ جَنَّةٍ لِحُلُولِ رَمْسِهِ ^(٢) وَكَسَّرَ صَنَمَ شَهْوَتِهِ ، لِيَقَرَّ فِي بُحْبُوحَةٍ ^(٣) قُدْسِهِ .

ومنها : فَتَنَّبَهُ - وَيَحْكُ - مِنْ سِنَتِكَ وَنَوْمِكَ ، وَتَفَكَّرَ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ وَقَوْمِكَ ، هَتَفَ بِهِمْ مَنْ تَعَلَّمَ ، وَشَبَّ عَلَيْهِمْ مِنْهُ حَرَقٌ ^(٤) مُظْلِمٌ ، فَخَرِبَتْ بِصِيحَتِهِ رِبْوَعُهُمْ ، وَتَفَرَّقَتْ لَهْوَلِهِ جُمُوعُهُمْ ، وَذَلَّ عَزِيزُهُمْ ، وَخَسِيَ رَفِيعُهُمْ ، وَصَمَّ سَمِيعُهُمْ ، فَخَرَجَ كُلُّ مِنْهُمْ عَنْ قَصْرِهِ ، وَرُمِيَ غَيْرَ مُؤَسَّدٍ فِي قَبْرِهِ ، فَهَمَّ بَيْنَ سَعِيدٍ فِي رَوْضَةٍ مُقَرَّبٍ ، وَبَيْنَ شَقِيٍّ فِي حُفْرَةٍ مَعْدَبٍ ، فَتَسْتَوْهَبُ مِنْهُ عِزٌّ وَجَلٌّ عِصْمَةٌ مِنْ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَخُصُوصِيَّةٌ تَقِي مِنْ كُلِّ نَفْسٍ جَرِيئَةٍ ^(٥) .

(الإحاطة ، في أخبار غرناطة ١ : ١٥٤)

٢١ - خطبة القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن

وخطب القاضي أبو الفضل عياض ^(٦) خطبة ضمنها سور القرآن ، فقال :

« الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه ، وَبَيَّنَّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَحْكَامَهُ ، وَوَدَّ

(١) يقال : جرى الفرس طلقاً أو طلقين : أي شوطاً أو شوطين . (٢) الرمس : القبر .

(٣) بحبوحة المكان : وسطه . (٤) الحرق : النار ولهبها .

(٥) يلاحظ أن في الخطبة خمس كلمات فيها ألف وهي : قاهر . باهر . عاصيه . ففازوا . فنحا

(٦) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ولد سنة ٤٧٦ هـ ، بسبته - بلد بمرآكش على الساحل الشمالي ودخل الأندلس طالباً للعلم ، فأخذ بقربطية عن جماعة ، وجمع من الحديث كثيراً ، وكان له به كبير عناية ، وكان إمام وقته فيه ، ووقى للنحو واللغة ، واستقضى ببلده سبته ، ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة ، وتوفي بمرآكش سنة ٥٤٤ هـ ، قال المقرئ بعد أن أورد هذه الخطبة : « وقى نفسى من نسبها له شيء » ، لأن نفس القاضي في البلاغة أهل من هذه الخطبة ، وواقه تعالى أعلم .

فی آلِ عِمْرَانَ والنِّسَاءِ مَائِدَةَ الْأَنْعَامِ لِيَتِمَّ إِعْنَامَهُ ، وَجَعَلَ فِي الْأَعْرَافِ أَنْفَالَ تَوْبَةٍ
يُونُسَ وَالرُّكْتَابَ أَحْكَمَتِ آيَاتُهُ ، بِمَجَاوِرَةِ يَوْسُفَ الصِّدِّيقِ فِي دَارِ الْكِرَامَةِ ،
وَسَبَّحَ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَجَعَلَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، لِيُؤْمِنَ أَهْلُ الْحِجْرِ^(۱)
أَنَّهُ إِذَا أَتَى أَمْرُ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ فَلَا كَهْفَ وَلَا مَاجَأَ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا يُظَاهَمُونَ قَلَامَةً ، وَجَعَلَ
فِي حُرُوفِ كَهَيْعَةِ سِرًّا مَكْنُونًا ، قَدَّمَ بِسَبَبِهِ طَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ
لِيُظَهِّرَ إِجْلَالَهَ وَإِعْظَامَهُ ، وَأَوْضَحَ الْأَمْرَ حَتَّى حَجَّ الْمُؤْمِنُونَ بِنُورِ الْفُرْقَانِ ، وَالشُّعْرَاءُ
صَارُوا كَالنَّمْلِ ذُلًّا وَصَفَارًا لِعِظَمَتِهِ ، وَظَهَرَتِ قِصَصَ الْعَنْكَبُوتِ فَآمَنَ بِهَ الرُّومُ ،
وَأَيَقِنُوا أَنَّهُ كَلَامُ الْحَيِّ الْقَيُّومِ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى زَيْنٍ مِّنْ وَاقِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
وَأَوْضَحَ لِقَمَانَ الْحِكْمَةَ بِالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ لِرَبِّ الْأَحْزَابِ ، فَسَبَّأَ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ أَهْلَ
الطَّاغُوتِ ، وَأَكْسَبَهُمْ ذُلًّا وَخِزْيًا وَحَسْرَةً وَنَدَامَةً ، وَأَمَدَّ إِسْرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِتَأْيِيدِ الصَّافَّاتِ^(۲) ، فَصَادَ الزُّمَرُ يَوْمَ بَدْرِهِ ، وَأَوْقَعَ بِهِمْ مَا أَوْقَعَ صِنَادِيدَهُمْ فِي الْقَلِيبِ^(۳)
مَكْدُوسٍ وَمَكْبُوبٍ ، حِينَ شَالَتْ بِهِمُ النَّعْمَةُ^(۴) ، وَغَفَرَ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ
لِلْبَدْرِيِّينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ حِينَ فَصَلَّتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، فَذَلَّ مِنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
كَلِمَةُ الْعَذَابِ وَأَيْسَ مِنَ السَّلَامَةِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ أَمْرَهُمْ سُورَى بَيْنَهُمْ ، وَشَغَلَهُمْ زُخْرُفُ
الْآخِرَةِ عَنْ دُخَانِ الدُّنْيَا ، فَجُمُوا أَمَامَ الْأَحْقَافِ^(۵) لِقِتَالِ أَعْدَاءِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ وَخَلْفَهُ وَأَمَامَهُ ، فَأَعْطُوا الْفَتْحَ وَبَوَّؤُوا حُجْرَاتِ الْجِنَانِ ، وَحِينَ تَلَّوْا :
قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَتَدَبَّرُوا جَوَابَ قَسَمِ الدَّارِيَّاتِ^(۶) وَالطُّورِ ، لَاحَ لَهُمْ نَجْمُ الْحَقِيقَةِ
وَانشَقَّ لَهُمْ قَمَرُ الْيَقِينِ ، فَنَافَرُوا السَّامَةَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَمَّنَّهُمُ الرَّحْمَنُ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ،

(۱) واد بين المهينة والشام ، وهو منازل حمود .

(۲) الملائكة تصف نفوسها للعبادة . (۳) القليب : البئر .

(۴) شالت نعمتهم : خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم ، أو ذهب هزمهم .

(۵) واد باليمن به منازل عاد . (۶) الداريات : الرياح تذر والتراب وغيره .

واعترف بالضعف لهم الحديد ، وهزم المجادلون ، وأخر جوا من ديارهم لأول الخسر ،
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، حين نافروا السلامة .

أحمدته حمد من امتحنته صفوف الجموع في نفق التغابن ، فطلق الحرّات حين
اعتبر الملك وعامه ، وقد سمع صريف القلم وكأنه بالحاقّة^(۱) والمعارج يمينه وشماله وخلفه
وأمامه ، وقد ناح نوح الجن فزمل^(۲) وتدثر فرقا من يوم القيامة ، وأنس بمرسلات
النبا ، فزغ العبوس من تحت كور العمامة ، وظهر له بالانفطار التطفيف ، فانشقت
بروج الطارق بتسبيح الملك الأعلى وغشيتة الشهامة ، فورب الفجر والبلد والشمس
والليل والضحي ، لقد انشاحت صدور المتقين ، حين تلووا سورة التين ، وعلق الإيمان
بقلوبهم ، فكل على قدر مقامه يبين ، ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ، ليله ونهاره
وصيامه وقيامه ، إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات^(۳) ليطفئوا نور القارعة ، ولم
يلهم التكائر حين تلووا سورة العصر والهمزة ، وتمثلوا بأصحاب الفيل فليعبدوا رب
هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . أرايتهم كيف جعلوا على
رءوسهم من الكور عمامة ؟ فالكوثر^(۴) مكتوب لهم ، والكافرون خذلوا ، وهم
نصروا ، وعدل بهم عن هب الطامة ، وبسورة الإخلاص قرؤوا وسعدوا ، وبرب
الفلق^(۵) والناس ، استعاذوا فأعيدوا من كل حزن وهم وغم وندامة ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، شهادة تنال بها
منازل الكرامة صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غرّدت في الأيك حمامة .

(نفع الطيب ۴ : ۳۹۱)

(۱) الحاقّة : القيامة التي فيها بحق ما أنكر من البعث والجزاء .

(۲) زمّل بشيابه : تلفف بها ، وكذا تدثر .

(۳) الخيل قعدو في الغزو ، والقارعة التي تفرع القلوب بأهوالها .

(۴) الكوثر : نهر في الجنة . (۵) الفلق : الصبح .

۲۲ - خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن

وخطب سعيد بن أحمد المقرئ^(۱) خطبة على هذا النمط نصها :

« الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ، ليصطفى من آل عمران رجالا ونساء ، وفضلهم تفضيلا ، ومدد مائدة إنعامه ورزقه ، ليعرف أعراف أنفال كرمه حقه على أهل التوبة ، وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلا ، ونجى هوداً من كربته وحزنه ، كما خاص يوسف من جبهه وسجنه ، وسبح الرعد بحمده ويمنه ، واتخذ الله إبراهيم خليلا ، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً نوع باختلاف ألوانه ، وأوحى إليه بخفي لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفاً قد شيد بنيانه ، وأرسل روجه إلى مريم فتمثل لها تمثيلاً ، وفضل طه على جميع الأنبياء ، فأتى بالحج والكتاب المكنون ، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون ، إذ جعل نور الفرقان دليلاً ، وصدق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي كجزت الشعراء في صدق نعته ، وشهدت النمل بصدق بعته ، وبين قصص الأنبياء في مدة مكثه ، ونسج العنكبوت عليه في الغار سترًا مسدولاً ، وملئت قلوب الروم رعباً من هيئته ، وتعلم لقمان الحكمة من حكيمته ، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته ، وهزم الأحزاب وسبأهم وأخذهم أخذاً وبيلاً ، فأقبه فاطر السموات والأرض بيس ، كما نفذ حكمه في الصافات وبين صدقه بإظهار المعجزات ، وفرق زمر المشركين ، وصبر على أقوالهم ومجرمهم حجراً جميلاً ، ففقر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم ، وزخرف منار الإسلام ، وخفي دخان الشرك ، وخرت المشركون جانية ، كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلاً ، وأذل الذين كفروا بشدة القتال ،

(۱) هو سعيد بن أحمد المقرئ عم أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب .

وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز، وحجر الحجرات الحريز، وبقي القدرة قتل
 الخراصون^(۱) تقتيلاً، كلم موسى على جبل الطور، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلم،
 فاقتربت بطاعته مبادئ السرور، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور،
 فتعجب الحديد من قوته، وكثرة المجادلة في أمته، إلى أن أعيد في الحشر بأحسن مقيلاً
 امتحنه في صف الأنبياء وصلى بهم إماماً، وفي تلك الجمعة ملئت قلوب المنافقين من
 التغابن خسراً وإرغاماً، فطلق وحرّم، تبارك الذي أعطاه الملك، وعلم بالقلم، ورتل
 القرآن ترتيلاً، وعن علم الحاقّة كم سأل سائل فسأل الإيمان، ودعا به نوح فنجاه الله تعالى
 من الطوفان، وأنت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن، فأنزل عايه: « يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ
 فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا »، فكم من مدثر يوم القيامة شفقة على الإنسان إذا أرسل
 مرسلات الدمع، فعمّ يتساءلون أهل الكتاب، وما تقبل من نازعات المشركين
 إذا عبس عليهم مالك وتولاهم بالعذاب، وكوّرت الشمس وانفطرت السماء،
 وكانت الجبال كشيبياً مهيباً، فويل للطففين « إذا انشقت السماء بالغمام، وطويت
 ذات البروج، وطرق طارق الصّور بالنفخ للقيام، وعز اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر،
 فيومئذ لا بلد ولا شمس ولا ليل طويلاً، فطوبى للمصابين الضحى عند انشراح
 صدورهم، إذا عابنوا التين والزيتون وأشجار الجنة، فسجدوا باقراً اسم ربك الذي
 خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر، وتبتلوا بتيلاً، ولم يكن
 للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم، وتسوقهم
 كالعاديات إلى سواء^(۲) الجحيم، وزلزلت بهم قارعة العقاب، وقيل لهم: أَلْهَاكُمْ
 التَّكَاثُرُ، هذا عصر العقاب الأليم، وحشيرة الهمة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون
 فتيلاً، وقالت قريش ما أمنت من هول الحشر، أرايت الذي يكذب بالدين كيف

(۱) الكلابون .

(۲) وسط .

طُرِدَ عَنِ الْكُوْثُرِ؟ وَسِيَقُ الْكَافِرُونَ إِلَى النَّارِ، وَجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، فَتَبَّتْ بَدَا
أَبِي لَهَبٍ: إِذْ لَا يَجِدُ إِلَى سُوْرَةِ الْإِخْلَاصِ سَبِيْلًا، فَنَعُوْذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ،
وَنَعُوْذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي فَسَقَ،
وَنَتُوْبُ إِلَيْهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» . (نفع الطيب ۴ : ۲۹۲)

۲۳ - خطبة الكفعمي التي ضمنها سور القرآن أيضا

وخطب الكفعمي (۱) خطبة على هذا النمط أيضا نصها :

« الحمد لله الذي شرف النبي العربي بالسبع المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنعام ،
وفضّل آل عمران على الرجال والنساء ، بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم
بأعراف الأنفال ، وكتب لهم برّاءةً من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، الذي نجّى يونس وهوذاً ويوسف من قومهم ، برّعد الانتقام ، وغدّى
إبراهيم في الحجر بأعاب النحل ذات الإسرار ، فضاهى كهف مريم عليها السلام ،
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء ، وحج المؤمنين ، ونور فرقان
الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضلته تُخْبِرُ ، واقصص العنكبوت الروم تذكّر ،
ولقمان في سجده يشكر ، والأحزاب كأيدى سبأ تُقَهَّرُ ، وفاطريس لصفاته يُنصَّرُ ،
وصاد مقلّة زمره تنظر الأعلام ، فالحمّ بقتال فتحه في حجرات قافه قد ظهرت ،
وذاريات طوره ونجمه وقره قد عطرت ، وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نصرت
وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حسرت (۲) ، وصَفَّ جمعته فائز إذ أجساد
المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحريم ومقام الملك والقلم ، فناهيك به من

(۱) قال صاحب نفع الطيب في ترجمته : هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كافر
عنا قرية من قرى أعمال صفد كما نقول في النسبة إلى بني عبد الدار عبدي ، وإلى حسن كيفاً : حصكوف .
(۲) حشر البصر كضرب : كل فهو حسير .

مقام ، وفي الحاقة ، أَعْلَى اللهُ له المعارج نوح المطهر ، وخصه من بين الإنس والجن
بِأَيِّهَا الْمَزْمَلُ ، وَبِأَيِّهَا الْمُدَّثَّرُ ، وَشَفَعَهُ فِي الْقِيَامَةِ إِذَا دَمَّوعُ الْإِنْسَانِ مُرْسَلَاتٌ كَالْمَاءِ
الْمُتَفَجِّرِ ، وَوَجْهُهُ عِنْدَ نَبَا النَّازِعَاتِ وَقَدْ عَبَسَ الْوَجْهَ كَالْهَلَالِ الْمُنَوَّرِ ، وَيَوْمَ التَّكْوِينِ
وَالْإِنْفِطَارِ وَهَلَاكِ الْمَطْفِينِ وَانْشِقَاقِ ذَاتِ الْبُرُوجِ بِشَفَاعَتِهِ غَيْرِ مُتَضَجِّرٍ ، وَقَدْ حُرِّسَتْ
لِمَوْلَاهِ السَّمَاءُ بِالطَّارِقِ الْأَعْلَى ، وَتَمَّتْ غَاشِيَةَ الْعَذَابِ إِلَى الْفَجْرِ عَلَى الْمَرَدَّةِ اللَّثَامِ ، فَهُوَ الْبَلَدُ
الْأَمِينُ ، وَشَمْسُ اللَّيْلِ وَالضُّحَى الْمَخْصُوصِ بِإِنْشِرَاحِ الصُّدْرِ ، وَالْمَفْضَلُ بِالْتِينِ وَالزَّيْتُونِ ،
الْمُسْتَخْرَجُ مِنْ أَمْشَاجٍ ^(١) الْعَلَقِ ، الطَّاهِرِ الْعَلِيِّ الْقَدْرِ ، شَجَاعِ الْبَرِيَّةِ يَوْمَ الزَّلْزَالِ ،
إِذْ عَادِيَاتُ الْقَارِعَةِ تَدُوسُ أَهْلَ التَّكَاثُرِ وَمَشْرُكِي الْعَصْرِ ، أَهْلَكَ اللهُ بِهِ الْهَمَزَةَ وَأَصْحَابَ
الْفِيلِ إِذْ مَكَرُوا بِقُرَيْشٍ وَلَمْ يَتَوَاصَرُوا بِالْحَقِّ وَلَمْ يَتَوَاصَرُوا بِالصَّبْرِ ، الْمَخْصُوصِ بِالْبَدِينِ
الْحَنِيفِيِّ وَالْكُوْثِرِ السَّلْسَالِ ، وَالْمُؤَيَّدِ عَلَى أَهْلِ الْجَحْدِ بِالنَّصْرِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ مَا تَبَّتْ يَدَا مُعَادِيهِ ، وَنَعَمَ بِالتَّوْحِيدِ مُوَالِيهِ ، وَمَا أَفْصَحَ فَلَاقُ الصَّبْحِ بَيْنَ النَّاسِ
وَأَمْتَدِ الظَّلَامَ .

(فتح الطيب ٤ : ٣٩٥)

(١) مشج بينهما كضرب : خلط ، والشئ مشيج ، والجمع أمشاج كيتيم وأيتام .

الباب الثاني

في

خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

١ - خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة

لما ولى أبو بكر بن عبد الله المدينة^(١) وطال مكثه عليها ، كان يبلغه عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإسعاف من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهل البيوتات ووجوه الناس في يوم الجمعة أن يقربوا من المنبر ، فلما فرغ من خطبة الجمعة قال :

« أيها الناس : إني قائل قولاً ، فمن وعاه وأداه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يعه فلا

(١) لا أعرف صاحب هذا الاسم والياً على المدينة ، وإنما الذي قرأته في تاريخ الطبري أن أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري ولى المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ في خلافة سليمان بن عبد الملك ومحمد بن عبد العزيز . انظر تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ، حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ . وذكر أيضاً القلقشندي في صبح الأمشي ج ٤ : ص ٢٩٦ . أن أبا بكر بن محمد هذا ولى المدينة أيام سليمان بن عبد الملك ، والظاهر أنه صاحب هذه الخطبة ، وإني لأستأنس في ذلك بقوله : « وطال مكثه عليها » فقد تولاهما خمس سنين ، وبالفرض الذي قيلت فيه الخطبة ، وأنت تذكر ما كان في العهد الأموي من اتساع دائرة الاختلاف الحزبي ، والفضال السيامي البعيد المدى ، وربما كان « عبد الله » اسماً آخر لأبيه محمد ، تسمى به تواضعاً ، وكان ذلك من عادة السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيراً ، انظر مثلاً كتاب عمر في صلح أهل إيليا . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان . . (الطبري ٤ : ١٥٩) .

بَعْدُ مِنْ ذِمَامِهَا^(۱) إِنْ قَصَّرْتُمْ عَنْ تَفْصِيلِهِ ، فَلَنْ تَعْجِزُوا عَنْ تَحْصِيلِهِ ، فَأَرْعَوْهُ أَبْصَارَكُمْ ، وَأَوْعَوْهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَشْعِرُوهُ^(۲) قُلُوبَكُمْ ، فَاَلْمُوعِظَةُ حَيَاةٌ ، وَالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ^(۳) السَّبِيلِ » ، « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » فَأَتُوا الْهَدَى تَهْتَدُوا ، وَاجْتَنَبُوا الْغَى تَرْتَشِدُوا ، « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، أَمْرُكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ، وَرَضِيهَا لَكُمْ ، وَنَهَاكُمْ عَنِ الْفُرْقَةِ ، وَسَخَطَهَا مِنْكُمْ ، فِ « مَا تَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ^(۴) وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » ، وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(۵) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِنْ تَبِعِ رِضْوَانِهِ ، وَتَجَنَّبِ سُخْطَهُ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ .

وَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْدِينِ ، وَاخْتَارَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابًا عَلَى الْحَقِّ ، وَوَزَّرَ أَدْوَانَ الْخَلْقِ اخْتَصَمَهُمْ بِهِ ، وَانْتَخَبَهُمْ لَهُ ، فَصَدَّقُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَعَزَّرُوهُ^(۶) وَوَقَّرُوهُ ، فَلَمْ يُقَدِّمُوا إِلَّا بِأَمْرِهِ ، وَلَمْ يُخْجِمُوا إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ ، وَكَانُوا أَعْوَانَهُ بِعَهْدِهِ ، وَخُلَفَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَوَصَفَهُمْ فَأَحْسَنَ صِفَتِهِمْ ، وَذَكَرَهُمْ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ - وَقَوْلُهُ الْحَقُّ - : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُكُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ^(۷) ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ

(۱) أى فلا يخرج عن حرمتها ، وتأنيت للضمير في « ذمامها » باعتبار الموعظة أو المقالة .

(۲) أى الزقوه به . (۳) القصد : استقامة الطريق ، أى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق .

(۴) التقوى : التقوى ، وجمعها تقى كرطوبة ورطب ، وأصلها رقية قلبت واؤها المضمومة تاء كما في تودة ونخمة ، والياء ألفاً . (۵) الشفا : حرف كل شيء .

(۶) التقزير : التذخيم والتعظيم وهو أيضاً أشد الضرب . ضد .

(۷) أى ذلك مثلهم في الكتاب ، والشط : فراخ الزرع ، فأزره أى فقواه ، فاستوى على سوته : أى فاستقام على أصواته وسبقاته .

فَازَرَهُ ، فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ ، لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » ، فمن غاظه كفر وخاب، وفجر وخسر، وقال الله عز وجل: « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ سَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (۱) ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فمن خالف شريطة الله عليه لهم، وأمره إياه فيهم، فلا حق له في النفي ولا سهم له في الإسلام، في آي كثيرة من القرآن .

فمرقت مارقة من الدين، وفارقوا المسلمين، وجعلوهم عِضِينَ (۲)، وتشعبوا أحزابا، أشابات وأوشابا (۳)، فخالفوا كتاب الله فيهم، وثناءه عليهم، وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة « ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » . « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ؟ » مالي أرى عيوننا خزرًا (۴)، وورقًا صعرًا (۵) وبطونًا بجرًا (۶) شجًا لا يسيفه الماء (۷)، وداء لا يشرب فيه الدواء « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ؟ » كلا والله، بل هو الهناء (۸) والطلاء، حتى يظهر العذر، ويُبوح السر، ويضح الغيب،

(۱) يؤثرون : يفضلون ويقدمون والخصاصة : الحاجة والفقر .

(۲) جمع عضة كعدة : وهي للفرقة والقطعة . (۳) أشابات جمع أشابة : وهي الأخلاط ، وأشبه

كضربه : خلطه ، والأوشاب جمع وشب كحمل ، والأوباش جمع وبش كسبب : الأخلاط والسفلة .

(۴) جمع خزراء مؤنث أخزر وصف من الخزر بالتحريك ، وهو النظر في أحد الشقين

(۵) الصعر بالتحريك : ميل في الوجه ، أو في أحد الشقين ، أو داء في البعير يلوى عنقه منه ، صعر

كفرح فهو أصعر . (۶) بجر بطنه كفرح أيضاً فهو بجر : عظم ، والجمع بجر كحمر .

(۷) الشجاء : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه ، لا يسيفه : أي لا يجعله سائناً مهمل المدخل في الحلق .

(۸) الهناء : القطران ، يريد أنه يعالجهم كما تطل الإبل الجربي بالقطران لداوتها .

وَيُسَوِّسُ الْجَنْبُ (۱) ، فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخَلِّقُوا عَبَثًا ، وَلَمْ تُتْرَكُوا سُدًى ، وَيُنْحَكُم ! إِنْ لَسْتُ
 أَنَاوِيًّا (۲) أَعْلَمَ ، وَلَا بَدْوِيًّا أَفْهَمَ ، قَدْ حَلَبْتُكُمْ أَشْطُرًا (۳) ، وَقَلَّبْتُكُمْ أَبْطُنًا وَأَظْهَرًا ،
 فَعَرَفْتُمْ أَنْحَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّنَنِهِمْ ، وَأَسْرَثُوا الْكُفْرَ
 فِي قُلُوبِهِمْ ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُ ، وَوَلَدُوا الرِّوَايَاتِ
 فِيهِمْ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، وَوَجَدُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا
 يَأْذَنُونَ لَهُمْ (۴) ، وَيُصْغُونَ إِلَيْهِمْ ، مَهْلًا مَهْلًا قَبْلَ وَقُوعِ الْقَوَارِعِ (۵) ، وَطُولِ الرِّوَايَةِ ،
 هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا (۶) ، فَلَسْتُ أَعْتَشِ (۷) آثِبًا وَلَا تَائِبًا ، « عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ
 عَادَ قَيْنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » ، فَأَسْرَثُوا خَيْرًا وَأَظْهَرُوا ، وَأَجْهَرُوا
 بِهِ وَأَخْلَصُوا ، فَطَالَمَا مَشَيْتُمُ الْقَهْقَرَى نَا كِصِينَ ، وَلَيْعَلَّ مِنْ أَدْبَرٍ وَأَصَرَ أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ
 بَيْنَ يَدَي نِقْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوكُمْ إِلَى أَهْوَاءٍ تُتَّبَعُ ، وَلَا إِلَى رَأْيٍ يُبْتَدَعُ ، إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى
 الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ، الَّتِي فِيهَا خَيْرُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، فَمَنْ أَجَابَ فإِلَى رَشْدِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعِنَ
 قَصْدِهِ ، فَهَلُمَّ إِلَى الشَّرَائِعِ الْجَدَائِعِ (۸) ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَسْتَبَدِّلُوا

(۱) باح للسر : ظهر ، وباح بمره : أظهره ووضع يضح وانضح واحد ، ويسوس : أى يروض
 ويذال : مضغف ساسه يسوسه . يقال : سوس له أمرأ إذا روضته وذالته ، والجنب : الصعب الذى
 لا ينتاد . (۲) الأناوى : الغريب عن القوم . (۳) اتبسه من المثل المشهور : « حلب الدهر
 أشطره » ولناقة شطران ، قادمان وآخران ، فكل خلفين شطر بفتح الشين - والحلف للناقة كالضرع
 للبقرة - وأشطره منصوب على البدله ، فكأنه قال : حلب أشطر الدهر ، والمعنى : اختبر الدهر وعرف
 خيره وشره (۴) أذف له وإليه كفرح : استمع . (۵) القوارع جمع قازعة : وهى الداهية
 الفاجئة ، وللروائع جمع رائعة ، وهى المفزعة . (۶) أى هذا الذى أتهدكم به من القوارع والروائع ،
 لهذا الذى تخوضون فيه ، ومقرون به .
 (۷) اعتشه : ظلمه .

(۸) الذى فى كتب اللغة : « جداع كسحاب وقطام : السنة الشديدة تجدع بالمال وتذهب به » وهذه
 الكلمة هى التى يسوغ أن تجمع على جدائع ، ولكنها لا تناسب المقام هنا ، فلعل الأصل « الجوادع »
 جمع جادعة : وهى القاطمة ، يريد الشرائع الصحيحة الحققة لأنها تقطع الباطل وتزهقه كأنه يقول : اتبعوا
 الحطة الحاسمة ، أو الجدائع جمع جدوع كمجوز صيغة مبالغة من جادعة ، وفى التعلوق على نهاية الأرب
 « ولعل الجوامع : أى التى تجمع الناس على اتباعها ، كما يدل عليه ما بعده » .

الذى هو أدنى^(۱) بالذى هو خير « بئس للظالمين بدلاً » .

إياكم وبنيات^(۲) الطريق ، فعندها الترنيق والرهب^(۳) ، وعلیکم بالجادة ، فهى أسد^(۴) وأورد ، ودعوا الأمانى فقد أرادت من كان قبلكم ، وليس للإنسان إلا ما سعى ، والله الآخرة والأولى ، و « لا تفتروا على الله كذباً فيسحقكم^(۵) » بعذاب وقد خاب من افترى . « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

(نهاية الأرب ۷ : ۲۵۶ ؛ وصبح الأضی ۱ : ۲۲۰)

۲ - وصية أعمى من الأزدي لشاب يقوده

عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : رأيت ببيشة^(۶) رجلاً من أزدي السراة أعمى ، يقوده شاب جميل ، وهو يقول له : « يا سمى ، لا يفرئك أن فسح الشباب خطوك ، وخلي سربك ، وأرفه وردك^(۷) ، فكأنك بالكبر قد أرب ظوفك ، وأثقل أوقك ، وأوهن طوقك^(۸) ، وأتعب سوقك ، فهدجت بعد المملجة ، ودججت بعد الدعلجة^(۹) ، نخذ من أيام الترفيه لأيام الأزعاج ، ومن ساعات المهملة لساعة

(۱) أى أخس وأدون قدراً ، وأصل اللنو : القرب فى المكاف استعير للخمسة كما استعير البعد للشرف والرفعة ، أو هو مسهل عن أدنا من اللدانة ، وقد قرئ فى الآية الكريمة : « أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . (۲) بنهات الطريق : الترهات (جمع ترهة كقبرة وهى الطريق

الصغيرة المشعبة من الجادة ، أى اسلكوا الطريق العام طريق الجماعة ، ولا تعرجوا فى سواه . (۳) الترنيق : الضعف فى الأمر وفى البصر واليد أيضاً ، والرهب : السفه والحمق والخفة ، وركوب الشر والغالم ، وغشيان المحارم . (۴) أفل ، من السداد . (۵) أسحته : استأصله . (۶) ببيشة : واد بطريق اليمامة . (۷) العرب : الطريق والوجه ، ورفهت الإبل كنع : وردت الماء من شامت ، وقد أرفهتها ورفهتها بالتشديد . (۸) أرب العقدة : شدة ، والأربة بالضم : العقدة ، وظاف البعير يظوفه : إذا دافى بين قينيه ، والقينان بفتح القاف موضعاً القيد من الوظوف ، والأوق : الثقل ، والطارق : الوسع والعاقة . (۹) الهدجان كخفتان وغراب : مشية الشيخ ، هدى كضرب ، والمملجة : سرعة فى المشى ، ودى كضرب دجيجاً ، مرمر اضيفاً ، والدعلجة : ضرب من المشى ، والتردد فى الذهاب والمجيء ، والدرجة .

الإعجال^(١) ، يابن أخى : إن اغترارك بالشباب ، كالتذاذك بِسَمَادِير^(٢) الأحلام ، ثم تنقشع فلا تتمسك منها إلا بالحسرة عليها ، ثم تُعَرِّى راحلة الصبا ، وتشرب سلوة^(٣) عن الهوى . واعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قَدَمِ ذخيرة ، وأشدَّهم اغتباطاً يوم الحسرة من أحسن سريرة . « (الأمال : ٢١٦ : ٢١٦) »

٣ - وصية رجل لآخر وقد أراد سفراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يوصى آخر وأراد سفراً ، فقال : « آثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك رشادك ، وليكن عقلك وزيرك الذى يدعوك إلى الهدى ، ويعصمك من الردى ، ألجم هواك عن الفواحش ، وأطلقه فى المكارم ، فإنك تبرئ بذلك سلفك ، وتشد شرفك . « (الأمال : ١ : ٢٠٠) »

٤ - وصية رجل لابنه وقد أراد الزواج

وقال بعضهم لولده وقد أراد الزواج :

« يا بنى : لا تتخذها حنانة ، ولا أنانة ، ولا منانة^(٤) ، ولا عشبة الدار^(٥) ،

(١) رفه عيشه كسكرم فهو رفيه ورافه : مستريح متنعم ، وأرفهه الله ورفهه ترفهها ، ومن ساعات المهمة أى الدنيا المهمة : أى التى ستملها وتغادرها ، وربما كانت « المهمة »

(٢) السمادير : ما يتراعى للإنسان فى نومه من الأباطيل ، وما يتراءاه للسكران فى سكره .

(٣) السلوة : اسم السلوان . قال الأصمعى : يقول الرجل لصاحبه : « سقيتنى سلوة (بالفتح) وسلوانا (بالضم) أى طيبت نفسى هناك ، وذكروا أيضاً أن السلوة والسلوانة : خرزة شمانية تدفن فى الرمل فتسود فيبحث عنها ، ويسقاها الإنسان فتسليه .

(٤) الحنانة : التى لها ولد من سواه فهى تحن عليهم . والأنانة : التى مات عنها زوجها ، فهى إذا رأت الزوج الثانى أنت ، وقالت : رحم الله فلانا ، أزوجها الأول . والمنانة : التى لها مال ، فهى تمن على زوجها ، كلما أهوى إلى شىء من ماله . (٥) عشبة الدار : يريد الهجيننة ، وعشبة الدار : التى تلعب فى دمنة الدار ، وحولها عشب فى بياض الأرض ، فهى أفخم منه وأضخم ، لأنها غذتها الدمنة ، وذلك (أى العشب) أطيب للأكل رطباً ويبساً ، لأنه نبت فى أرض طيبة ، وهذه نبتت فى دمنة ، فهى بمنقنة رطبة ، وإذا يبست صارت حنانا (بالضم) وذهب قفها فى الدمنة فلم يمكن جمعه ، وذلك يجمع قفه لأنه فى أرض طيبة (والقف بالضم : ما يبس من البقل ، وسقط على الأرض فى موضع نباته) .

(الأُمالي ٢ : ٢٦)

وَلَا كُبَّةَ الْقَفَا^(١) .

٥ - وصية بعض العلماء لابنه

وأوصى بعض العلماء ابنه فقال :

« أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَلِيَسَعَكَ بَيْتُكَ ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَابْكْ

(البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

عَلَى خَطِيئَتِكَ . »

٦ - وصية لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء :

« لَا يَكُونَنَّ مِنْكُمْ الْمُحَدَّثُ وَلَا يُنصَتُ لَهُ ، وَالِدَاخِلُ فِي سِرِّ اثْنَيْنِ لَمْ يَدْخُلَاهُ ،
وَلَا آتَى الدَّعْوَةَ لَمْ يَدْعَ إِلَيْهَا ، وَلَا الْجَالِسُ الْمَجْلِسَ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَلَا الطَّالِبُ الْفَضْلَ
مِنْ أَيْدِي اللَّثَامِ ، وَلَا الْمُتَعَرِّضُ لِلْخَيْرِ مِنْ عِنْدِ عَدُوِّهِ ، وَلَا الْمُتَحَمِّقُ فِي الدَّالَّةِ^(٢) . »

(البيان والتبيين ٢ : ٥٨)

٧ - وصية أخرى

وقال بعض الحكماء :

« إِيَّاكَ وَالْعِجْلَةَ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَكْنِيهَا : أُمَّ النَّدَامَةِ » لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَقُولُ
قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ، وَيُجِيبُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ ، وَيَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يَفْكُرَ ، وَيَقْطَعُ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّرَ ،
وَيَحْمَدُ قَبْلَ أَنْ يُجَرِّبَ ، وَيَذُمُّ قَبْلَ أَنْ يَخْبُرَ ، وَلَنْ يَصْحَبَ هَذِهِ الصِّفَةَ أَحَدٌ إِلَّا صَحِبَ
النَّدَامَةَ ، وَاعْتَزَلَ السَّلَامَةَ . »

(زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

(١) كبة القفا : هي التي يأتي زوجها أو ابنها القوم ، فإذا انصرف من عندهم ، قال رجل من جنات

القوم : قد والله كان بيني وبين امرأة هذا المولى أر أمه أمر .

(٢) الدالة : ما تدل به على حومك .

٨ - وصية أخرى

وقال ابن دُرَيْد : أوصى بعض الحكماء رجلاً ، فقال :

« أَمْرُكَ بِمُجَاهِدَةِ هَوَاكَ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ الْهَوَى مِفْتَاحُ السَّيِّئَاتِ ، وَخَصِيمُ الْحَسَنَاتِ وَكُلُّ أَهْوَاؤِكَ لَكَ عَدُوٌّ ، وَأَهْوَاؤُهَا ^(١) هَوَى يَكْتُمُكَ فِي نَفْسِهِ ، وَأَعْدَاؤُهَا هَوَى يَمِثُّ لَكَ الْإِثْمَ فِي صُورَةِ التَّقْوَى ، وَلَنْ تَفْصَلَ بَيْنَ هَذِهِ الْخُصُومِ إِذَا تَنَاظَرْتَ لَدَيْكَ إِلَّا بِحَزْمٍ لَا يَشُوبُهُ وَهَنٌ ، وَصِدْقٍ لَا يَطْمَعُ فِيهِ تَكْذِيبٌ ، وَمَضَاءٍ لَا يَقَارِبُهُ التَّثَبُّطُ ^(٢) ، وَصَبْرٍ لَا يَغْتَالُهُ جَزَعٌ ، وَنِيَّةٍ لَا يَتَقَسَمُهَا التَّضْيِيعُ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٩ - عظة لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : بلغني أن بعض الحكماء كان يقول :

« إِنِّي لَأَعْظِمُكُمْ ، وَإِنِّي لَكَثِيرُ الذَّنُوبِ مُسْرِفٌ عَلَى نَفْسِي ، غَيْرٌ حَامِدٌ لَهَا ، وَلَا حَامِلٌ عَلَيْهَا عَلَى الْمَكْرُوهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَدْ بَلَوْتَهَا فَلَمْ أَجِدْ لَهَا شُكْرًا فِي الرَّخَاءِ وَلَا صَبْرًا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَوْ أَنَّ الْمَرْءَ لَأَيْعِظُ أَخَاهُ حَتَّى يُحْكِمَ أَمْرَ نَفْسِهِ ، لَتَرِكَ الْأَمْرُ بِالْخَيْرِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَكِنْ مَحَادِثَةُ الْإِخْوَانِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَجِلَاءٌ لِلنَّفُوسِ ، وَتَذَكِيرٌ مِنَ النِّسْيَانِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا سُرُورٌ وَأَحْزَانٌ ، وَإِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ ، وَآخِرُ حَيَاتِهَا الْمَوْتُ ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَقْبِلٍ يَوْمًا لَا يَسْتَكْمِلُهُ ، وَمُنْتَظِرٍ غَدًا لَا يَبْلُغُهُ ، وَلَوْ تَنْظُرُونَ إِلَى الْأَجَلِ وَمَسِيرِهِ ، لَأَبْغَضْتُمُ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ » .

(الأمل ٢ : ٥٧)

(١) أى وأشدها . (٢) التوقف والإبطاء .

۱۰ - نصيحة لبعض الحكماء

وَحَذَّرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ صَدِيقًا لَهُ صَاحِبَهُ رَجُلٌ فَقَالَ :

« أَحْذَرِ فَلَانًا ، فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْمَسْأَلَةِ ، حَسَنُ الْبَحْثِ ، لَطِيفُ الْاسْتِدْرَاجِ ، يَحْفَظُ أَوَّلَ كَلَامِكَ عَلَى آخِرِهِ ، وَيَعْتَبِرُ مَا أَخْرَجْتَ بِمَا قَدِمْتَ ، فَلَا تُظْهِرَنَّ لَهُ الْخَافَةَ ، فَيَرَى أَنَّكَ قَدْ تَحَرَّرْتَ . وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ بَقِيَّةِ الْفِطْنَةِ إِظْهَارَ الْغَفْلَةِ مَعَ شِدَّةِ الْحَذَرِ ، فَبِائِهِ مِبَائَةُ الْأَمَنِ ، وَتَحْفَظُ مِنْهُ تَحْفَظُ الْخَائِفَ ، فَإِنَّ الْبَحْثَ يُظْهِرُ الْخَفِيَ الْبَاطِنَ ، وَيُبْدِي الْمُسْتَكِينَ الْكَامِنَ . »

(زهر الآداب ۳ : ۱۶۴)

۱۱ - كلمات شتى لبعض الحكماء

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ :

« مَنْ كَانَتْ فِيهِ سَبْعُ خِصَالٍ لَمْ يَعْدَمْ سَبْعًا : مَنْ كَانَ جَوَادًا لَمْ يَعْدَمْ الشَّرْفَ ، وَمَنْ كَانَ ذَا وِفَاءٍ لَمْ يَعْدَمْ الْمِقَّةَ ، وَمَنْ كُنَّ صَدُوقًا لَمْ يَعْدَمْ الْقَبُولَ ، وَمَنْ كَانَ شَكُورًا لَمْ يَعْدَمْ الزِّيَادَةَ ، وَمَنْ كَانَ ذَا رِعَايَةِ لِلْحَقُوقِ لَمْ يَعْدَمْ السُّؤْدُودَ ، وَمَنْ كَانَ مُنْصَفًا لَمْ يَعْدَمْ الْعَافِيَةَ ، وَمَنْ كَانَ مُتَوَاضِعًا لَمْ يَعْدَمْ الْكِرَامَةَ . »

(الأمل ۲ : ۳۹)

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ : كَيْفَ تَرَى الدَّهْرَ ؟ قَالَ : يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ الْأَمَالَ ، وَيُقَرِّبُ الْأَجَالَ ، قِيلَ لَهُ : فَمَا حَالُ أَهْلِهِ ؟ قَالَ : مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصِيبٌ ، وَمَنْ فَاتَهُ حَزْنٌ ، قِيلَ : فَأَيُّ الْأَصْحَابِ أَيْرٌ ؟ قَالَ : الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، قِيلَ : فَأَيُّهُمْ أَضْرَّ ؟ قَالَ : النَّفْسُ وَالْهَوَى ، قِيلَ : ففيم المخرج ، قَالَ : فِي قَطْعِ الرَّاحَةِ وَبِذَلِ الْمَجْهُودِ .

(الأمل ۲ : ۵۹)

وأخبر عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يقول :
« الحسد ماحق الحسَنَات ، وَالزَّهْوُ جَالِبٌ لِمَقْتِ اللَّهِ وَمَقْتِ الصَّالِحِينَ ، وَالْعُجْبُ
صَارِفٌ عَنِ الْإِزْدِيَادِ مِنَ الْعِلْمِ ، دَاعٍ إِلَى التَّخَمُّطِ ^(١) وَالْجَهْلِ ، وَالْبَخْلُ أَدَمُّ الْأَخْلَاقِ ،
وَأَجْلَبُهَا لِسُوءِ الْأَحْدُوثَةِ » .
(الأمل ١ : ٢٠٠)

وقال : قال بعض العرب :
« أَوْلَى النَّاسِ بِالْفَضْلِ أَعْوَدُهُمْ بِفَضْلِهِ ، وَأَعْوَنُ الْأَشْيَاءِ عَلَى تَذْكِةِ الْعَقْلِ التَّعَلُّمُ ،
وَأَدْلُ الْأَشْيَاءِ عَلَى عَقْلِ الْعَاقِلِ حَسَنُ التَّدْبِيرِ » .
(الأمل ١ : ٢١٧)

وقال الأصمعي : العرب تقول :
« لَا ثَنَاءَ مَعَ الْكِبَرِ ، وَلَا صَدِيقَ لَدَى الْحَسَدِ ، وَلَا شَرَفَ لِسَيِّئِ الْأَدَبِ » .
قال : وكان يقال : « شَرُّ خِصَالِ الْمَلُوكِ الْجُبْنُ عَنِ الْأَعْدَاءِ ، وَالْقَسْوَةُ عَلَى الضَّعْفَاءِ ،
وَالْبَخْلُ عِنْدَ الْإِعْطَاءِ » .
(الأمل ١ : ٢٠١)

وقال أبو علي القالي ، وأمل علينا أبو عبد الله قال : من كلام العرب ووصاياها :
« جَالِسُ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَإِنْ جَهِلْتَ عَمَّوْكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ قَوْمَوكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ
لَمْ يُفَنِّدُوكَ ^(١) ، وَإِنْ صَحَّبتَ زَانُوكَ ، وَإِنْ غَبَّتَ تَفَقَّدُوكَ . وَلَا تَجَالِسْ أَهْلَ الْجَهْلِ ،
فَإِنَّكَ إِنْ جَهِلْتَ عَنَّفُوكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ لَمْ يَقَوْمُوكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ لَمْ يَثْبُتُوكَ » .
(الأمل ٢ : ٧٢)

١٢ - رجل من العرب والحجاج

سأل الحجاج رجلاً من العرب عن عشيرته قال : أي عشيرتك أفضل ؟ قال :
أَتَقَاهُمْ لِلَّهِ ، بِالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، قال : فأيهم أسود ؟ قال : أَرْزَنُهُمْ
حِلْمًا حِينَ يُسْتَجْهَلُ ، وَأَسْخَاهُمْ حِينَ يُسْأَلُ ، قال : فأيهم أدهى ؟ قال : مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ

(١) تخمط : تكبر وغضب . (٢) فنده : ضعف رايه وخطاه .

من أحبّ ، مخافة أن يُشارَه يوماً ، قال : فأيهم أكيس ؟ قال : من يُصلِح ماله
ويقتصد في معيشته ، قال : فأيهم أرفق ؟ قال : من يعطى بِشَرِّ وجهه أصدقاءه ،
ويتلطف في مسأله ، ويتعاهد حقوق إخوانه ، في إجابة دَعَوَاتِهِمْ ، وعبادة مَرَضَاهُمْ ،
والتسليم عليهم ، والمشى مع جنازتهم ، والنصح لهم بالغيب ، قال : فأيهم أفطن ؟ قال :
من عَرَف ما يوافق الرجال من الحديث حين يجالسهم ، قال : فأيهم أصلب ؟ قال : من اشتدت
عارضته^(۱) في اليقين ، وَحَزْمٌ في التوكل ، ومنع جاره من الظلم . (مجمع الأمثال ۲ : ۱۷۸)

۱۳ - أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز

ووفد وافد على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال له : كيف تركت الناس ؟
فقال :

« تركت غنيهم موفوراً ، وفقيرهم محبوراً ، وظالمهم مقهوراً ، ومظلومهم منصوراً »
فقال : « الحمد لله ، لو لم تتم واحدة من هذه الخصال إلا بعضو من أعضائي ،
لكان يسيراً » .
(الأمل ۲ : ۳۹)

۱۴ - كاتب وأمير

ودخل بعض الكتاب على أمير بعد نكبة نابتة ، فرأى من الأمير بعض الازدراء
فقال له :

« لا يَضَعْنِي عندكُ خُمُولُ النَّبُوَّةِ ، وزوالُ الثروة ، فإن السيف العتيق إذا مَسَّه
كثيرُ الصَّدْدِ استغنى بقليل الجلاء ، حتى يعود حَدُّه ، ويظهر فِرْنُدُه ، ولم أصف نفسي
عُجْباً ، لكن شكراً ، قال صلى الله عليه وسلم : أنا أشرف ولد آدم ولا فخر » .
فجهر بالشكر ، وترك الاستطالة بالكبر » .
(زهر الآداب ۳ : ۹۱)

(۱) العارضة ، الجلد والصرامة واللحن .

١٥ - وصف الهلباجة

من أمثال العرب : « أعجز من هلباجة » وهو النُّوم الكسلان العُطل^(١) الجافى ، وقد سار في وصف الهلباجة فصل لبعض الأعراب المتفصِّحين ، وفصل آخر لبعض الحضريين ، فأما وصف الأعرابي ، فقد سئل ابن أبي كبدشة بن القبعثري عنه فقال : « الهلباجة : الضعيف العاجز ، الأخرق الأحمق ، الجلف^(٢) الكسلان ، الساقط لامعنى فيه ، ولا غناء^(٣) عنده ، ولا كفاية معه ، ولا عمل لديه . »

وأما وصف الحضري فإن بعض بُلغاء الأمصار سئل عن الهلباجة فقال :

« هو الذى لا يرعوى لِعَدَلِ العاذل ، ولا يُصغى إلى وعظ الواعظ ، ينظر بعين حَسُودٍ ، وَيُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُودٍ ، إِنْ سَأَلَ أَخْلَفَ^(٤) ، وَإِنْ سُئِلَ سَوَّفَ ، وَإِنْ حَدَّثَ حَلَفَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ زَجَرَ عَنَّفَ ، وَإِنْ قَدَّرَ عَسَفَ^(٥) ، وَإِنْ احْتَمَلَ أَسَفَ^(٦) ، وَإِنْ اسْتَغْنَى بَطِرَ ، وَإِنْ افْتَقَرَ قَنِطَ ، وَإِنْ فَرِحَ أَشِرَ^(٧) ، وَإِنْ حَزِنَ يَثِسَ ، وَإِنْ ضَحِكَ زَأَرَ ، وَإِنْ بَكَى جَأَرَ^(٨) ، وَإِنْ حَكَمَ جَارَ ، وَإِنْ قَدَّمَتْهُ تَأَخَّرَ ، وَإِنْ أَخَّرَتْهُ تَقَدَّمَ ، وَإِنْ أَعْطَاكَ مَنْ عَلَيْكَ ، وَإِنْ أَعْطَيْتَهُ لَمْ يَشْكُرْكَ ، وَإِنْ أَسْرَرْتَ إِلَيْهِ خَانَكَ ، وَإِنْ أَسَرَّ إِلَيْكَ اتَّهَمَكَ ، وَإِنْ صَارَ فَوْقَكَ قَهَرَكَ ، وَإِنْ صَارَ دُونَكَ حَسَدَكَ ، وَإِنْ وَثِقَتْ بِهِ خَانَكَ ، وَإِنْ انْبَسَطَتْ إِلَيْهِ شَانَكَ ، وَإِنْ أَكْرَمَتْهُ أَهَانَكَ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهُ الصَّدِيقُ سَالَاهُ ، وَإِنْ حَضَرَه قَالَاهُ^(٩) ، وَإِنْ فَاتَحَهُ لَمْ يُجِبْهُ ، وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ لَمْ يَبْدَأْهُ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالوَدِّ هَجَرَ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالْبِرِّ جَفَا ، وَإِنْ تَكَلَّمَ فَضَّحَهُ أَلْعَى ، وَإِنْ عَمِلَ قَصَرَ بِهِ

(١) عطل كفرج : عظم بدنه ، ومن المال والأدب : خلا فهو عطل كقفل وعنق .

(٢) الجافى . (٣) لاغناء : لا كفاية .

(٤) الخ . (٥) ظلم . (٦) من أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه ، أى لم يتطعم

النهوس بما حمل . (٧) أشر : مرح . (٨) صاح واستغاث .

(٩) أبغضه وكرهه غاية الكراهة .

الجهل ، وإن أوْثَمِنَ غَدْر ، وإن أجاز أخفر^(۱) ، وإن عاهد نكث ، وإن حلف حنث
لَا يَصْدُرُ عَنْهُ الْآمِلُ إِلَّا بِخَيْبَةٍ ، وَلَا يَضْطَرُّ إِلَيْهِ حُرٌّ إِلَّا بِمِجْنَةٍ .

قال خلف الأحمر : سألت أعرابياً عن الهلابة ، فقال : « هو الأحق الضخم
القدم^(۲) الأكل الذي والذي . . . ثم جعل يلقاني بعد ذلك ، ويزيد في التفسير
كل مرة شيئاً ، ثم قال لي بعد حين - وأراد الخروج - هو الذي جمع كل شر .
(مجمع الأمثال ۱ : ۲۳۶)

۱۶ - بعض البلغاء يصف رجلاً

ووصف بعض البلغاء رجلاً فقال :

« إنه بسيط^(۳) الكف ، رَحْبُ الصدر ، مُوَطَّأُ الأَكناف ، سَهْلُ الخلق ،
كَرِيمُ الطَّبَاع ، غَيْثُ مَغَوِّث^(۴) ، وَبِحَرِّ زَخُور ، ضَحُوكِ السن ، بِشِيرِ الوَجْهِ ،
بَادِي القَبُول^(۵) غير عبوس ، يَسْتَقْبَلُكَ بِطَلَاقَةٍ ، وَيَحْيِيكَ بِبِشْرِ ، وَيَسْتَدْبِرُكَ بِكْرَمِ
غَيْث ، وَجَمِيلِ بِشْرِ ، تُبْهَجُكَ طَلَاقَتُهُ ، وَيَرْضِيكَ بِشْرُهُ ، ضَحَّاكٌ عَلَى مَائِدَتِهِ ، عَبْدٌ
لضيفانه ، غير ملاحظ لأَكِيلِهِ ، بَطِين^(۶) من العقل ، خَمِيص^(۷) من الجهل ، راجح
الحلم ، ثاقب الرأي ، طَيِّبُ الخلق ، مُحْصَنُ الضَّرْبَةِ^(۸) مِعْطَاةٍ غير سآل ، كَاسٍ^(۹)
من كل مَنكَرُمة ، عار من كل مَلَأَمة ، إن سئِلْ بَدَل ، وإن قال فعل .
(زهر الآداب ۲ : ۲۰۵)

(۱) أخفّره وخفّره به : نقض سهده وغدره . (۲) القدم : العيسى عن الكلام في ثقل ورخاوة ،
وقلة فهم ، والغايظ : الأحق الجاني .
(۳) أي مبسوط الكف سخي . (۴) غوث تغويثاً : قال واغوثاه .
(۵) للقبول بالفتح وقد يضم : الحسن . (۶) أي يمتلي وأصله : عظيم البطن .
(۷) خميص : خال ، وأصله : الجائع . (۸) الضريبة : اللطيفة ، ومحصن : صف .
(۹) أي مكسو .

۱۷ - خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن

عن ابن الكلبي عن أبيه قال :

اجتمع خمسُ جَوَارٍ من العرب ، فقلن : هَلْمُنْ نَصِفِ خَيْلَ آبَائِنَا .
فقلت الأولى :

« فرسُ أبي وَرْدَةَ ، وما وردة ؟ ذات كَفَلٍ مُزْحَلِقٍ ، وَمَتْنٍ أَخْلَقٍ ، وَجَوْفٍ
أَخْوَقٍ ^(۱) ، وَنَفْسٍ مَرُوحٍ ، وَعَيْنٍ طَرُوحٍ ، وَرِجْلٍ ضَرُوحٍ ، وَوَيْدٍ سَبُوحٍ ^(۲) ،
بُدَاهَتَهَا إِهْدَابٌ ، وَعَقْبُهَا غِلَابٌ ^(۳) . »

وقالت الثانية :

« فرسُ أبي اللَّعَابِ ، وما اللَّعَابُ ؟ غَبِيَّةٌ سَحَابٌ ، واضطرامُّ غَابٍ ، مُتْرَصٌ
الأوصال ، أَشْمٌ الْقَدَالُ ، مُلَا حَكُ الْمَحَالِ ^(۴) ، فَارِسُهُ مُجِيدٌ ، وَصَيْدُهُ عَتِيدٌ ، إن أقبل
فَطَبِي مَعَاجٍ ، وإن أدبر فظَلِيمٌ هَدَاجٍ ، وإن أحضر فعَلِجٌ هَرَّاجٍ ^(۵) . »

وقالت الثالثة :

« فرسُ أُمَى حُدَمَةٍ ، وما حُدَمَةٌ ؟ إن أقبلتُ فَمَنَاءٌ مُقَوِّمَةٌ ، وإن أدبرتُ فَأَثْفِيَّةٌ

(۱) المزحلق : المملمس الذي كأنه زحلوقة (بالضم) وهي آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل ،
والأخلق : الأملس ، وأخوق : واسع . (۲) مروح : كثيرة المرح ، طروح بعيدة موقع النظر ،
ضروح : دفوع ، يريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا عدت ، سبوح : كأنها تسبح في عدوها
من سرعتها . (۳) بداهتها : فجاءتها ، والبداهة والبديهة واحد ، والإهداب : السرعة ، والعقب :
جرى بعد جرى ، وغلاب مصدر ، غالبته مغالبة وغلابا ، كأنها تغالب الجرى .

(۴) الغبية : الدفعة من المطر . والغاب جمع غابة : وهي الأجمة ، مترص : محكم ، أترصت الشيء : أحكته
أشم : مرتفع ، القدال : معقد العذار (والعذار من اللجام كسكباب : ما سال على خد الفرس) . ملاحك
مداخل (بفتح الخاء) كأنه يدخل بعضه في بعض ، والمحال جمع محالة : وهي فتر الظهر (كسحاب) جمع
فقارة وذكر الأصمى أنه رأى فقار فرس ميت ، فإذا ثلاث فقر من عظم واحد ، وكذا تكون العراب
فيما ذكروا . (۵) مجيد : صاحب جواد . هتيد : حاضر ، معج في سيره ومعج : إذا أسرع ،
والهدج كشمس : المثلج البرويد ويكون السريح . والعلج : حمار الوحش السمين القوي ، وهرج الفرس
: كضرب إذا كان كثير الجرى .

مَلْمَمَةٌ ، وَإِنْ أَعْرَضَتْ فَذِئْبَةٌ مُعْجَرِمَةٌ^(١) ، أُرْسَاغُهَا مُتْرَصَةٌ ، وَفُصُوصُهَا مُمَحَّصَةٌ ،
جَرِيئُهَا أَنْثَرَارٌ ، وَتَقْرِيْبُهَا أَنْكِدَارٌ^(٢) .

وقالت الرابعة :

« فَرَسُ أَبِي خَيْفَقٍ ، وَمَا خَيْفَقٌ ؟ ذَاتُ نَاهِقٍ مُعْرَقٍ ، وَشِدْقٍ أَشْدَقٍ ، وَأَدِيمٍ
مَمْلَقٍ^(٣) ، لَهَا خَلْقٌ أَشْدَفٌ ، وَدَسِيعٌ مُنْفَنَفٌ ، وَتَلِيلٌ مُسَيِّفٌ^(٤) وَثَابَةٌ زُلُوجٌ ،
خَيْفَانَةٌ رَهُوجٌ ، تَقْرِيْبُهَا إِهْمَاجٌ ، وَحُضْرُهَا ارْتِعَاجٌ^(٥) . »

وقالت الخامسة :

« فَرَسُ أَبِي هُذُلُولٍ ، وَمَا هُذُلُولٌ ؟ طَرِيْدُهُ مَحْبُولٌ ، وَطَالِبُهُ مَشْكُولٌ ، رَقِيْقٌ
مَلَاغِمٌ ، أَمِينُ الْمَعَاقِمِ^(٦) ، عَبْلُ الْمَحْزِمِ ، مَخْدٌ مِرْجَمٌ^(٧) ، مُنِفٌ الْحَارِكِ ، أَشْمٌ

(١) حذمة : فملة من الحلم وهو السرعة أو القطع ، ففناة مقومة تريد أنها دقيقة المقدم ، وهو ملح
في الإناث ، والألفية : الحجر توضع عليه القدر ، ملجمة : مجتمعة ، تريد أنها مدورة المؤخر ، لأن الأثافي
تختار مدورة ، معجرة بكسر الراء اسم فاعل من المعجرة ، وهي إسرار في مقاربة خطو . قال الشاعر :

أَمَّا إِذَا يَعْدُو فَتُعَابُ جَرِيَّةٌ أَوْ ذِئْبٌ عَادِيَةٌ يَعْجِرُ عَجْرَمَهُ

ويقال ناقة مصجرة بفتح الراء : أي شديدة . (٢) محصية : قليلة اللحم قليلة الشعر ! محص الجمل
كفرح ، إذا سقط شعره والاس . انثرار : انصباب ، كأنه يثره ثرا ، والتقريب : ضرب من العدو
أو أن يرفع يديه معاً ويضمهما معاً ، وانكدر : أسرع وانقض . وانكدر عليه القوم : انصبوا .

(٣) خيفق : فيعمل من الخفق كشمس : وهو السرعة . اللامتان : العظمان الشاخصان في خدي الفرس
معرق : قليل اللحم . أشدق : واسع الشدق . مملق : مملس . (٤) الأشدق : العظيم للشخص .
والشدق محرقة : الشخص . الدسيق : مغرز العنق في الكاهل . منفف : واسع من النفف كجعفر :
وهو الهواء بين السماء والأرض . التليل : العنق . مسيف : كأنه سيف .

(٥) زلوج : سريعة . الزايج والزجان بالتحريك : السرعة . الخيفانة : الجراة التي فيها نقط سود
تخالف سائر لونها . وإنما قيل للفرس : خيفانة لسرعتها لأن الجراة إذا ظهر فيها تلك النقط كان أسرع
لطيرانها . رهوج : كثيرة الريح . (والريح بالتحريك : الفبار) أمج الفرس إهماجا : إذا اجتهد
في عدوه . والحضر : ارتفاع الفرس في عدوه . الارتعاج : كثرة العرق وتتابعه .

(٦) محبول : في حباله . مشكول : موثق في شكال (للشكال ككتاب : الحبل تشد به قوائم الدابة)
الملاغم من الإنسان : ماحول الفم . أرادت هاهنا المحافل (والمحافل جمع جحفة بالفتح بمنزلة الشفة للخيل
البغال والحمير) والمعاقم ، المفاصل . (٧) عبلة غليظ . والمحزم موضع الحزام . مخد : يخذ الأرض
أي يجعل فيها أخاديد (والأخاديد : الشقوق جمع أخدود) . مرجم : يرجم الحجر بالحجر . أو يرجم
الأرض بموافره .

السَّنَابِكُ ، مَجْدُولُ الْخِصَائِلِ ، سَبَطُ الْفَلَائِلِ^(١) ، غَوْجُ التَّلِيلِ ، صَلْصَالُ الصَّهِيلِ ،
أَدِيمُهُ صَافٍ ، وَسَبِيئُهُ ضَافٍ^(٢) ، وَعَفْوُهُ كَافٍ . (الأمالي : ١٩٠)

١٨ - رجل من العرب يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جَدْبٍ فقال :

« نَشَأَ حَمَلًا^(٣) سُدًّا مَتَقَازِفَ الْأَحْضَانِ ، مَحْمُومِي الْأَرْكَانِ ، لَمَّاعَ الْأَقْرَابِ ،
مُكْفَهَرِ الرَّبَابِ ، تَحْنِ رُعودُهُ حَنِينَ اضْطِرَابِ ، وَتَزْمَجْرُ مَجْرَةَ اللَّيْثِ الْفِضَابِ ،
لِبِوَارِقِهِ التَّهَابِ ، وَوَرِوَاعِهِ اضْطِرَابِ ، فَجَاحَفَتِ^(٤) صَدُورُهُ الشَّعَافَ ، وَرَكِبَتْ
أَعْجَازُهُ الْقِفَافَ ، ثُمَّ أَلْقَى أَعْبَاءَهُ ، وَحَطَّ أَثْقَالَهُ ، فَتَأَلَّقَ وَأَصْعَقَ^(٥) ، وَانْبَجَسَ وَانْبَعَقَ ،
ثُمَّ أَنْجَمَ فَاَنْطَاقَ ، فَغَادَرَ النَّهَاءَ^(٦) مُتْرَعَةً ، وَالْفَيْطَانَ مُمْرِعَةً ، حَبَاءَ اللَّيْلَادِ ، وَرِزْقًا لِلْعِبَادِ .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٠)

(١) منيف : مرتفع ، والحارك : منبت أدنى للعرف إلى الظهر الذي يأخذ به من يركبه ، والسنايك : أطراف الخوافر جمع سنبك كقنفذ : مجدول : مفتول ، الخصائل : جمع خصيلة وهي كل قطعة من اللحم مستطيلة أو مجتمعة ، الفليل : الشعر المجتمع ، ويقال للقطعة من الشعر : الفليلة ، سبط : مسترسل .
(٢) الغوج : اللين المعطف ، والصلصلة صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسبيب : شعر الناصية : ضاف : سابع .

(٣) الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذي قد سد الأفق ، الحمومي : اسود ، والأقرب جمع قرب ككف وعنق وهو الخاصرة ، والرهباب : السحاب الأبيض . (٤) جاحفه : زاحه وداناه ، والشعاف جمع شعبة كرقبة : وهي رأس الجبل ، والقفاف جمع قف بالضم وهو ما غلظ من الأرض وارتفع لم يبلغ أن يكون جبلا . (٥) صمقهم السماء وأصمقهم : ألقت عليهم صاعقة ، وانجس : انفجر بالماء وانبعق السحاب : انبعج بالمطر واندفع ، والانبعاق : أن يندفع عليك الشيء فجأة وأنت لا تشمر ، وأنجمت السماء : أسرع مطرها . (٦) النهاء جمع نهى بالكسر والفتح : الغدير ، ومترعة : ملوثة ، والفيطان جمع غانظ : وهو المظلم الواسع من الأرض ، ممرعة : مخرصة ، حباء : عطاء .

الباب الثالث

في

نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية

١ - مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك ، فقال :

« إني مُكَاثِمٌ يا أمير المؤمنين بكلامٍ فيه بعض الغِلْظَةِ ، فاحتمِلْهُ إن كَرِهْتَهُ ،
فإنَّ وِراءَهُ ما تُحِبُّهُ إن قَبِلْتَهُ » ، قال : هاتِ يا أعرابي : إنا نجود بسعة الاحتمال على من
لا نرجو نُصْحَهُ ، ولا نأمنُ غِشَّهُ . وأرجو أن تكون الناصحَ جَيِّبًا ، المأمونَ غَيِّبًا ،
قال : « يا أمير المؤمنين أما إذ أمنت بادرَةَ غضبك ، فإني سأُطْلِقُ لسانِي بما خَرِسْتُ عنه
الألسن من عِظَتِكَ ، تَأْدِيَةً لِحَقِّ اللَّهِ وِحقِّ إمامتِكَ . إنه قد اِكتَنَفَكَ رجالٌ أساءوا
الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسُخْطِ ربهم ، خافوك في الله ،
ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، سَلِمٌ للدنيا ، فلا تَأْمَنُهم على ما ائتمنك الله عليه ،
فإنهم لا يَأْلُونكَ ^(١) خَبالًا ، والأمانة تَضِييعًا ، والأمة عَسْفًا وَخَسْفًا ^(٢) ، وأنت مسئول
عما اجترحوا ^(٣) ، وليسوا مسئولين عما اجترحتَ ، فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك ،
فإن أخسر الناس صَفْقَةً يوم القيامة ، وأعظمهم غَبْنًا من باع آخِرَتَهُ بدنيا غيره »

(١) ألا يَأُو : قصر وأبطأ ، والخبال : الفساد . (٢) العسف : الظلم ، والخسف : الذل .

(٣) اكتسبوا ، وفي رواية : اجترعوا .

قال سليمان : « أمّا أنت يا أعرابي ، فقد سلّلت لسانك ، وهو أقطع سيفيك » ، فقال :
« أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك » .

(عيون الأخبار م ۲ : ص ۳۲۷ ، والمعقد الفريد ۱ : ۳۰۷ ، ومروج الذهب ۲ : ۱۶۴ .
وزهر الآداب ۱ : ۲۷۷)

۲ - أعرابي يعظ هشام بن عبد الملك

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له : عِظْنِي يَا أَعْرَابِي ، فقال :
« كفى بالقرآن واعظاً ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ،
بسم الله الرحمن الرحيم : « وَيَلِّ اللَّهُ الْمُطَفِّفِينَ ^(۱) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ،
يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، ثم قال « يا أمير المؤمنين ، هذا جزاء من يُظَنَّفُ
في الكيل والميزان ، فما ظنك بمن أخذه كله ^(۲) ؟ » . (المعقد الفريد ۲ : ۸۴)

۳ - خطبة أعرابي ^(۳)

وولي جعفر بن سليمان ^(۴) أعرابياً بعض مياهم ^(۵) فخطبهم يوم الجمعة فقال :
« الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ،
أما بعد : فإن الدنيا دارٌ بَلاغٌ ^(۶) ، والآخرة دار قرار ، فخذوا لمقرّكم من ممرّكم ،
ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ،

(۱) ظف : نقص الحكيال . (۲) وروى صاحب المعقد أيضاً هذه العظة (ج ۱ ص ۳۰۶)
وذكر أنها لابن السباك وعظ بها الرشيد .

(۳) قد مرنا في الجزء الثاني ص ۸۲ أن هذه الخطبة متنازع فيها ، فهي تعزى تارة إلى الإمام علي
كرم الله وجهه ، وأخرى إلى سحبان وائل ، وثالثة إلى أعرابي . (۴) هو ابن عم أبي جعفر
المنصور ، وكان والياً على المدينة سنة ۱۴۶ - ۱۵۰ هـ . (۵) في مجمع الأمثال : « عن الأصمعي

قال : حدثني شيخ من أهل العلم قال : شهدت الجمعة بالضرية « ضرية كغنية : قرية بين البصرة ومكة »
وأمرها رجل من الأعراب ، فخرج وخطب ، وان ثيابه على رأسه ، وبیده قوس فقال . . . وأورد
هذه الخطبة ، وفي الكامل للمبرد : « قال الأصمعي فيما بلغني خطبتنا أعرابي بالبادية فحمد الله . . . »
(۶) وفي رواية الميداني ، و« عيون الأخبار » « بلاء » وفي رواية المعقد « دار مر والآخرة دار مقر »

قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حَيِّتُمْ ، ولغيرها خُلِقْتُمْ ، اليوم عملٌ بلا حساب ،
وغداً حسابٌ بلا عمل ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة :
ما قَدَّم؟ فله آباؤكم ! قَدَّمُوا بغضاً ، يكون لكم قرَضاً ، ولا تَخَفُوا كُلاً ، يكون
عليكم كَأْلاً^(١) ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ، والمحمود الله ، والمصلَّى
عليه محمد ، والمدعوُّ له الخليفة ، ثم إمامكم جعفر بن سليمان ، قوموا إلى صلاتكم .

(الأماك : ١ : ٧٤٨ ، والعقد الفريد : ٢ : ١٦٤ ، وتهذيب الكمال : ١ : ٢٨ وجمع الأمثال
١ : ٣١٨ ، وهيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، وزهر الآداب ٢ : ٤) .

٤ - خطبة أخرى

وخطب أعرابي فقال :

« الحمد لله الحميد المستحمد ، وصلى الله على النبي محمد .

أما بعد : فإن التعمُّق في ارتجال الخطب لم يكن ، والكلام لا يَنْثني حتى يُنْثني عنه ،
والله تبارك وتعالى لا يُدْرِكُ واصفٌ كُنْهَ صفته ، ولا يَبْلُغُ خطيبٌ مُنْتَهَى مدِّحته ، له
الجدُّ كما مدح نفسه ، فانْهَضُوا إلى صلاتكم » ثم نزل فصلَّى . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٥ - خطبة أخرى

وخطب أعرابي قومه فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى جميع الأنبياء ، ما أقبَحَ بِمِثْلِي أن يَنْهَى
عن أمرٍ ويرتكبهُ ، ويأمر بشيءٍ ويحتنبهُ ، وقد قال الأول :

وَدَعَّ مَا لُمْتَ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ فَذَمُّ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ تَلُومُ

أَلْهَمْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ تَقْوَاهُ ، وَالْعَمَلُ بِرِضَاهُ . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٦ - أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر

قال أَبَانُ بن تَغْلِبٍ - وكان عابداً من عبَاد أهل البصرة توفى سنة ١٤١ هـ -
شَهِدَتْ أعرابية وهي تُوصي ولداً لها يريد سفرأ وهي تقول له :

(١) الكل : النقل .

« أَيُّ بُنَى اجاس أَمْنَحُكَ وصيتي ، وبالله توفيقك ، فإن الوصية أجدى ^(١) عليك من كثير عقلك ، أَيُّ بُنَى . إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ^(٢) ، وخَلِيقُ أَنْ لَا يَثْبُتَ الْغُرُضُ عَلَى كَثْرَةِ السَّهَامِ ، وقلما اعتورت ^(٣) السَّهَامُ غُرُضًا إِلَّا كَلَمَتَهُ ^(٤) حَتَّى يَهِيَ ^(٥) ما اشتد من قوَّته ، وإياك والجودَ بدينك ، والبخلَ بمالك ، وإذا هزرتَ فاهزُرْ كَرِيمًا يابنَ لَهزرتك ، ولا تهزُرْ اللئيمَ فإنه صخرة لا يتفجر ماؤها ، ومثَّلَ لِنَفْسِكَ مِثَالَ ما استحسنْتَ من غيرك فأعملْ به ، وما استبجحتَ من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيبَ نفسه ، ومن كانت مودتُهُ بِشِرِّهِ ، وخالفَ ذلكَ منه فعلُهُ ، كان صديقُهُ منه على مِثْلِ الرِّيحِ في تصرُّفِها » ثم أمسكت ، فدنوتُ منها ، فقالت : بالله يا أعرابيةُ إِلَّا زِدْتِهِ فِي الْوَصِيَّةِ ، فقالت : أَوَقَدْ أَعْجَبَكَ كَلَامُ الْعَرَبِ يَا عِرَاقِي ؟ قلت : نعم ، قالت : وَالْفَذْرُ أَقْبَحُ مَا تَعَامَلُ بِهِ النَّاسُ بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ جَمَعَ الْحِلْمَ وَالسَّخَاءَ فَقَدْ أَجَادَ الْحُلَّةَ ^(٦) : رَیْطَها وَسِرِّبَها .

(الأمال ٢ : ٨١ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٥ ، وبلاغات النساء ص ٥٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٢١) .

٧ - أعرابية توصي ابنها

وقالت أعرابية لابنها :

« يَا بُنَى ، إِنْ سَأَلَكَ النَّاسَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ أَشَدِّ الْاِفْتِقَارِ إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ افْتَقَرْتَ إِلَيْهِ هُنْتَ عَلَيْهِ ، وَلَا تَزَالُ تُحْفَظُ وَتُكْرَمُ ، حَتَّى تَسْأَلَ وَتَرْغَبَ ، فَإِذَا أَلَحَّتْ عَلَيْكَ الْحَاجَةُ ، وَلَزِمَكَ سُوءُ الْحَالِ ، فَاجْعَلْ سَأَلَكَ إِلَى مَنْ إِلَيْهِ حَاجَةُ السَّائِلِ وَالْمَسْئُولِ ، فَإِنَّهُ يُعْطَى السَّائِلَ » .

(المعقد الفريد ٢ : ٨٥)

(١) انفع (٢) هدفا . (٣) تداوات . (٤) جرحه، وحطته .

(٥) وهي يهي : ضيف .

(٦) الحلة لا تكون إلا من ثوبين إزار ورداء ، والربطة : الملاحة كماها فـج واحد وقطعة واحدة ،

والسربال : القميص .

٨ - أعرابي يوصي ابنه

ووصى أعرابي ابنه فقال :

« ابذل المودة الصادقة تستفد إخواناً ، وتتخذ أعواناً ، فإن العداوة موجودة عتيده ، والصدقة مستعززة^(١) بعيدة ، جنب كرامتك اللثام ، فإنهم إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت شديدة لم يصبروا » .
(الأمال ١ : ٢٠١)

٩ - أعرابي ينصح لابنه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« لَا يَغْرَبَنَّكَ مَا تَرَى مِنْ خَفَضِ الْعَيْشِ ، وَلَيْنَ الرَّيَاشِ^(٢) ، وَلَكِنْ فَانظُرْ إِلَى سَوْءِ الظَّنِّ ، وَسَوْءِ الْمُنْقَلَبِ » .
(الأمال ٢ : ٥٩)

١٠ - أعرابي ينصح لابنه

وقال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« كُنْ لِلْعَاقِلِ الْمُدْبِرِ أَرْجَى مِنْكَ لِلْأَحْمَقِ الْمُقْبِلِ » ، ثُمَّ أَنْشَدَ :
عَدُوُّكَ ذُو الْحِلْمِ أَبْقَى عَلَيْكَ وَأَرْعَى مِنَ الْوَامِقِ الْأَحْمَقِ^(٣)
(ذيل الأمال ص ٣٤)

١١ - أعرابي ينصح لأخيه

ونصح أعرابي لأخيه ، فقال :

« اعلم أن الناصح لك ، المشفق عليك ، من طالع لك ما وراء العواقب برويته ونظره ، ومثل لك الأحوال المخوفة عليك ، وخاط الوعر بالسهل من كلامه ومشورته ليكون خوفك كفاً^(٤) رجائك ، وشكرك إزاء النعمة عليك ، وأن الغاش لك ،

(٢) الحصب والعاش .

(٤) مكافئاً .

(١) مستعززة : منقبضة شديدة .

(٣) الوامق : المحب .

والخاطب^(١) عليك، مَنْ مَدَّ لَكَ فِي الْاِغْتِرَارِ ، وَوَطَّأَ لَكَ مِهَادَ^(٢) الظُّلْمِ ، تَابِعاً لِمَرْضَاتِكَ
منقاداً لهواك .

(الأمالي ١ : ١٩٨)

١٢ - أعرابي يعظ أخاه

ووعظ أعرابي أخاه أفسد ماله في الشراب ، فقال :
« لا الدهرُ يَعْظُكَ ، ولا الأيِّمُ تُنْذِرُكَ ، ولا الشَّيْبُ يَزْجُرُكَ ، والساعاتُ تَحْصِي
عليك ، والأنفاسُ تُعَدُّ مِنْكَ ، والمنايا تُقَادُ إِلَيْكَ ، أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ ، أَعْوَدُهَا
بِالْمُضَرَّةِ عَلَيْكَ » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٥ ، والأمالي ١ : ١٩٨ ، وزهر الآداب ٣ : ١١٥)

١٣ - أعرابي يعظ صاحبه

وقال أعرابي لصاحبه :
« والله لئن هَمَلَجْتَ^(٣) إلى الباطل ، إنك لَتَقْطُوفُ^(٤) عن الحق ، ولئن أبطأتَ
لَيْسُرَ عَنَّا بِكَ ، وقد خسر أقوام وهم يظنون أنهم راجحون ، فلا تغرنك الدنيا ، فإن
الآخرة من ورائك » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٦)

١٤ - أعرابي يعظ أخاه

وقال أعرابي لأخيه :
« يا أخي : أنت طالب ومطلوب ، يَطْلُبُكَ مَا لَا تَفُوتُهُ ، وتطلب ما قد كَفَيْتَهُ .
فكأن ما غاب عنك ، قد كُشِفَ لَكَ ، وما أنت فيه قد نُقِلْتَ عَنْهُ ، فامهِّدْ^(٥) لنفسك ،
وأعدْ ذلك ، وخذ في جهازك » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٤)

(١) هو حجاب ليل : أي مخلط في كلامه . (٢) المهاد : الفرائس .

(٣) من هجاج البرذون : مشى مشية سهلة في سرعة .

(٤) من قطفت الدابة كنصر وضرب : ضاق مشياً ، فهي قطوف .

(٥) أي مهّد وأعد .

۱۵ — أعرابي يعظ رجلا

وقال أعرابي لرجل :

« أَيْ أَخِي : إِنْ يَسَّارَ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ يَسَّارِ الْمَالِ ، فَإِنْ لَمْ تُرْزَقْ غِنًى فَلَا تُحْرَمْ تَقْوَى ، فَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ النَّعْمِ ، عُرْيَانٌ مِنَ الْكُرْمِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عَلَى خَيْرٍ : تُرَحَّبُ بِهِ الْأَرْضُ ، وَتُسْتَبْشَرُ بِهِ السَّمَاءُ ، وَلَنْ يُسَاءَ إِلَيْهِ فِي بَطْنِهَا ، وَقَدْ أَحْسَنَ عَلَى ظَهْرِهَا . »
(المعتمد الفريد ۲ : ۸۵)

۱۶ — أعرابي يعظ رجلا

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يعظ رجلاً وهو يقول :

« وَيَحْكُ ! إِنْ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَلَئِنْ أَظْهَرَ الشَّفَقَةَ عَلَيْكَ ، إِنْ عَقَّارَبَهُ كَلَّسَرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عِلَانِيَتِكَ ، فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ . »
(زهر الآداب ۳ : ۱۶۴)

۱۷ — أعرابي يعظ رجلا

وَسَمِعَ أَعْرَابِي رَجُلًا يَقَعُ فِي السَّلْطَانِ ، فَقَالَ :

« إِنْكَ غَفْلٌ لَمْ تَسْمَعْ التَّجَارِبُ ، وَفِي النَّصِيحِ لَسَعُ الْعُقَارِبُ ، كَأَنِّي بِالضَّاحِكِ إِلَيْكَ ، وَهُوَ بَاكِ عَلَيْكَ . »
(زهر الآداب ۳ : ۱۶۴)

۱۸ — كلام أعرابي لابن عمه

وَشَاوَرَ أَعْرَابِي ابْنَ عَمِّهِ لَهُ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِرَأْيِهِ ، فَقَالَ :

« قَدْ قَلَّتْ بِمَا يَقُولُ بِهِ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ الَّذِي يَخْلُطُ حُلُوَّ كَلَامِهِ بِمُرَّةٍ ، وَحَزَنَهُ بِسَمِّهِ . وَيَحْرُكُ الْإِشْفَاقُ مِنْهُ مَا هُوَ سَاكِنٌ مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ وَعَيْتُ النَّصِيحَ مِنْهُ وَقَبِلْتَهُ ، إِذْ كَانَ مَصْدَرُهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ لَا شَكَّ فِي مَوَدَّتِهِ ، وَصَافِي غَيْبِهِ ، وَمَا زِلْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى الْخَيْرِ مَنَهَجًا وَاضِحًا ، وَطَرِيقًا مَهِيئًا ^(۱) . »
(الأملال ۲ : ۸۲)

(۱) طريق مهيج : بين واضح .

۱۹ - کلمات حکیمه للأعراب

قيل لأعرابي : مَالِكَ لَا تَشْرَبِ النَّبِيذَ ؟ قَالَ : « لثَلَاثِ خِلَالٍ فِيهِ : لِأَنَّهُ مُتَلَفٌ لِلْمَالِ ، مُذْهَبٌ لِلْعَقْلِ ، مُسَقِّطٌ لِلْمَرْوَةِ » .

وقال أعرابي : « الدِّرَاهِمُ مِيَّاسِيمٌ ^(۱) ، تَسِيمٌ حَمْدًا وَذَمًّا ، فَمَنْ حَبَسَهَا كَانَ لَهَا ، وَمَنْ أَنْفَقَهَا كَانَتْ لَهُ ، وَمَا كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ مَالًا أُعْطِيَ حَمْدًا ، وَلَا كُلُّ عَدِيمٍ ذَمِيمٌ » .

وقال أعرابي لأخ له . « يَا أَخِي إِنْ مَالِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ كُنْتَ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ تُفْنِهِ أَفْنَاكَ ، فَكُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَكَ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْمَوْفِقَ مَنْ تَرَكَ أَرْفَقَ الْحَالَاتُ بِهِ ، لِأَصْلَاحِهَا لِدِينِهِ ، نَظَرًا لِنَفْسِهِ ، إِذَا لَمْ تَنْظُرْ نَفْسُهُ لَهَا » .

وقال أعرابي : « إِنْ اللَّهُ مُخْلِفٌ مَا أَتَلَفَ النَّاسُ ، وَالدهرُ مُتَلِفٌ مَا أَخْلَفُوا ، وَكَمْ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَيْهَا طَلَبَ الْحَيَاةَ ، وَكَمْ مِنْ حَيَاةٍ سَبَّبَهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْأَمَالَ قَطَعْتَ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ ، كَالسَّرَابِ غَرَّ مَنْ رَأَاهُ . وَأَخْلَفَ مِنْ رَجَاهُ » .

وقال أعرابي لصاحب له : « أَصْحَبٌ مِنْ يَتَنَاسَى مَعْرُوفَهُ عَلَيْكَ ، وَيَتَذَكَّرُ حَقُوقَكَ عَلَيْهِ » .

وقال أعرابي : « لَا تَسْأَلْ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَلَكِنْ سَلْ مَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى » .

وقال أعرابي : « مَا بَقَاةُ عُمُرٍ تَقْطَعُهُ السَّاعَاتُ ، وَسَلَامَةُ بَدَنِ مَعْرَاضٍ لِلآفَاتِ ؟ وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنَ الْمُؤْمِنِ ! كَيْفَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ وَهُوَ يَنْقُلُهُ إِلَى الثَّوَابِ الَّذِي أَحْيَا لَهُ لَيْلَهُ وَأَظْمَأَ لَهُ نَهَارَهُ » .

(۱) مياسم جمع ميسم بالكسر : وهو المكروء .

وذُكِرَ أَهْلُ السُّلْطَانِ عِنْدَ أَعْرَابِيٍّ فَقَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لئن عَزَّوَا فِي الدُّنْيَا بِالْجَوْرِ ، لَقَدْ ذَلَّوْا فِي الْآخِرَةِ بِالْعَدْلِ ، وَلَقَدْ رَضُوا بِقَائِلٍ فَاِنَّ ، عِيَّوَضًا عَنْ كَثِيرٍ بَاقِي ، وَإِنَّمَا تَزِلُّ الْقَدَمُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « مِنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، سَارَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ ، وَبَلَّغَا بِهِ

وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا مِفْتَاحُ الرِّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَالزَّهَادَةُ فِي الْآخِرَةِ

مِفْتَاحُ الرِّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا » .

وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ وَقَدْ مَرَضَ : إِنَّكَ تَمُوتُ ! قَالَ : « وَإِذَا مِتُّ فَاِلَى أَيْنَ يُذْهَبُ

بِي ؟ » قَالُوا : « إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » ، قَالَ : « فَمَا كَرِهْتِي أَنْ يُذْهَبَ بِي إِلَى مَنْ لَمْ

أَوْ الْخَيْرِ إِلَّا مِنْهُ ؟ » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « مَنْ خَافَ الْمَوْتَ بَادَرَ الْمَوْتَ ، وَمَنْ لَمْ يُنَحِّ النَّفْسَ عَنِ

الشَّهَوَاتِ ، أَسْرَعَتْ بِهِ إِلَى الْهَلَكَاتِ ، وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَكَ » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْحَيَاةِ مَا إِذَا فَقَدْتَهُ أَبْغَضْتَ لَهُ الْحَيَاةَ ، وَشَرٌّ مِنْ

الْمَوْتِ مَا إِذَا نَزَلَ بِكَ أَحْبَبْتَ لَهُ الْمَوْتَ » .

وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِالرَّحْمَةِ ؟ قَالَ : « الْكَرِيمُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ اللَّئِيمَ ،

وَالْعَاقِلُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ الْجَاهِلُ » .

وَقِيلَ لَهُ : أَيُّ الدَّاعِينَ أَحَقُّ بِالْإِجَابَةِ ؟ قَالَ : الْمَظْلُومُ ، وَقِيلَ لَهُ : فَأَيُّ النَّاسِ أَغْنَى

عَنِ النَّاسِ ؟ قَالَ : « مَنْ أَفْرَدَ اللَّهُ بِحَاجَتِهِ » .

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ : « إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ ، فَانظُرْ أَيَّهُمَا

أَقْرَبُ مِنْ هَوَاكَ نَخَالَفَهُ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ الْخَطَأَ مَعَ مَتَابَعَةِ الْهَوَى » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « الشَّرُّ عَاجِلُهُ لَذِيذٌ ، وَآجِلُهُ وَخِيمٌ » .

وقال أعرابي : « من ولد الخير أنتج له فراخاً تطير بأجنحة السرور ، ومن غرس الشر أنبت له نباتاً مرّاً مذاقه ، وقضبانُه الغيظُ ، وثمرته الندم » .

وقال أعرابي : « من كساء الحياء ثوبه ، حفي على الناس عيبه » وقال : « بش الزاد ، التعدّي على العباد » ، وقال : « التاطف بالحيلة ، أنفع من الوسيلة » ، وقال : « من ثقل على صديقه ، خف على عدوه ، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون » .

وقال أعرابي : « أعجزُ الناس مَنْ قَصَرَ في طلب الإخوان ، وأعجزُ منه من ضيَع من ظفر به منهم » .

وقال أعرابي لابنه : « لا يسرك أن تغلب بالشر ، فإن الغالب بالشر هو المغلوب » .
وقال أعرابي لأخ له : « قد نهيتك أن تُربق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه ، فإن حظك من عطيته السؤال » .

وقال أعرابي : « إن حب الخير خير وإن عجزتُ عنه المقدرة ، وبغض الشر خير وإن فعلت أكثره » .

وقال أعرابي : « والله لولا أن المروءة ثقيلٌ محملها^(۱) ، شديدة مؤنتها ، ما ترك اللئام للكرام شيئاً » .

واحتضر أعرابي ، فقال له بنوه : عِظْنَا يَا أَبَتِ ، فقال : « عاشروا الناس معاشرة ، إن غبتم حننوا إليكم ، وإن متم بكوا عليكم » .

ودخل أعرابي على بعض الملوك في شملة^(۲) شعر ، فلما رآه أعرض عنه ، فقال له : « إن الشملة لا تكامك ، وإنما يكامك من هو فيها » .

وقال أعرابي : « زبَّ رجل سيره منشور على لسانه ، وآخر قد التحفَ عليه قلبه التحافَ الجناح على الخوافي » .

(۱) العمل في الأصل : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان . (۲) كساء دون التغطية وشعمل به .

وقيل لأعرابي : كيف كتمانك للسرّ ؟ قال : « ما جوفى له إلا قَبْرٌ » .
ومرّ أعرابيان برجل صلبه بعض الخلفاء ، فقال أحدهما : أَنْبَتَتْهُ الطّاعَةُ ، وَحَصَدَتْهُ
المعصية ، وقال الآخر : « من طَلَّقَ الدّنيا فالآخرة صاحِبته ، ومن فارق الحق
فالجذعُ راحلته » .

وقال أعرابي : « إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوامَ عهده ، فانظر إلى حنينه
إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه » .

وقال أعرابي : « إذا كان الرأى عند من لا يُقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ،
والمال عند من لا ينفقه ، ضاعت الأمور » .
(العقد الفريد ۲ : ۸۵ - ۸۷)

وقال أعرابي : « إن الدنيا تنطق بغير لسان ، فتخبر عما يكون بما قد كان » .
(العقد الفريد ۲ : ۸۰)

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « غَفَلْنَا ولم يَغْفُلِ الدهرُ عنا ، فلم نَتَعِظْ
بغيرنا ، حتى وُعِظَ غيرُنا بنا ، فقد أدركت السعادةَ من تنبّه ، وأدركت الشقاوة من
غفَل ، وكفى بالتجربة واعظاً » .
(زهر الآداب ۲ : ۵)

وقال أعرابي لرجل : « اشكُرْ للمنعِمِ عليك ، وَأَنْعِمِ على الشاكر لك ، تستوجبُ
من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَه » .
(زهر الآداب ۲ : ۶)

وتذاكر قوم صِلَةَ الرَّحِمِ ، وأعرابيٌّ جالس ، فقال : « مَنْسَأَةٌ ^(۱) في العمر ، مرّضَةٌ
للربّ ، محبّة في الأهل » .
(الأمل ۱ : ۲۱۷)

وقال أعرابي : « لا أعرف ضُرّاً أوْصَلَ إلى نياط القلب ، من الحاجة إلى من لم
تَثِقْ بإسعافه ، ولا تَأْمَنَ رَدّه ، وَأَكَلَمُ المصائب فَقْدُ خايلٍ لا عِوَضَ منه » .
وقيل لأعرابي : أي شيء أمتع ؟ فقال : « مُمازحةُ المُحبِّ ، ومحادثة الصديق ،
وأمانى تقطع بها أيامك » .

(۱) إطالة .

وقال أعرابي : « من لم يرضَ عن صديقه إلا بإيثاره على نفسه ، دام سَخَطُهُ ،
وَمَنْ عَاتَبَ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ كَثُرَ عَدُوُّهُ ، وَمَنْ لَمْ يُؤَاخِرْ مِنَ الْإِخْوَانِ إِلَّا مَنْ لَا عَيْبَ
فِيهِ قَلَّ صَدِيقُهُ . » (الأُمَالُ ١ : ٢١٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي ما تقول في المرء ؟ قال : « ما عسى
أن أقول في شيء ، يُفْسِدُ الصِّدَاقَةَ الْقَدِيمَةَ ، وَيَحُلُّ الْعُقْدَةَ الْوَثِيقَةَ ، أَقَلُّ مَا فِيهِ أَنْ يَكُونَ
دُرْبَةً لِلْمَغَالِبَةِ ، وَالْمَغَالِبَةُ مِنْ أَمْتِنِ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ . » (الأُمَالُ ١ : ٢٥٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « لَا يُوْجَدُ الْعَجُولُ مَحْمُوداً ،
وَلَا الْفَضُولُ مَسْرُوراً ، وَلَا الْمَلُولُ ذَا إِخْوَانٍ ، وَلَا الْحُرُّ حَرِيصاً ، وَلَا الشَّرُّ غَنِيّاً . »
وقال : سمعت أعرابياً يقول : « صُنْ عَقْلَكَ بِالْحِلْمِ ، وَمُرُوءَتَكَ بِالْعَفَافِ ، وَنَجِدْتِكَ
بِتَجَانِبَةِ الْخِيَالَاءِ ، وَخَلَّتْكَ ^(١) بِالْإِجْمَالِ فِي الطَّلَبِ . » (الأُمَالُ ٢ : ٣٢)

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « أَقْبَحُ أَعْمَالِ الْمُقْتَدِرِينَ الْإِنْتِقَامُ ، وَمَا اسْتَنْبِطَ
الصَّوَابُ بِمِثْلِ الْمَشَاوِرَةِ ، وَلَا حُصِّلَتِ النِّعَمُ بِمِثْلِ الْمَوَاسَاةِ ، وَلَا اكْتَسَبَتِ الْبِفَضَاءِ
بِمِثْلِ الْكِبَرِ . » (الأُمَالُ ٣ : ٣٢ ، وَزَمَرَ الْأَدَابِ ٢ : ٣)

وقال أعرابي : « خَيْرُ الْإِخْوَانِ مَنْ يُنِيلُ عُرْفًا ، أَوْ يَدْفَعُ ضُرًّا . »

(الأُمَالُ ٢ : ٤١)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « الْعَاقِلُ حَقِيقٌ أَنْ يُسَخَى
بِنَفْسِهِ عَنِ الدُّنْيَا ، لَعَلَّهُ أَنْ لَا يَنْالَ أَحَدٌ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا قَلَّ إِمْتَاعُهُ بِهِ ، أَوْ كَثُرَ عَنَاؤُهُ
فِيهِ ، وَاشْتَدَّتْ مَرَزِيَّتُهُ ^(٢) عَلَيْهِ عِنْدَ فِرَاقِهِ ، وَعَظَمَتِ التَّبِعَةُ فِيهِ بَعْدَهُ . »

(الأُمَالُ ٢ : ٤١)

وقال أعرابي : « خَصَلْتَانِ مِنَ الْكِرَامِ : إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمَوَاسَاةُ
الْإِخْوَانِ . » (الأُمَالُ ٣ : ٧٣)

(١) المرزونة والرزء والرزيئة : المصيبة .

(٢) الخلة : الفقر

وقال أعرابي : « ما غُبِنْتُ قَطُّ حَتَّى يُغَبِّنَ قَوْمِي » ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال :
« لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

وقال أعرابي لرجل مَطَّلَه في حاجة : « إن مثل الظفر بالحاجة تعجيل اليأس منها ،
إذا عَسِرَ قضاؤها ، وإن الطاب وإن قلَّ ، أعظمُ قدراً من الحاجة وإن عَظُمَتْ ، والمطلُّ
من غير عَسِرٍ آفةُ الجود » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

وقال أعرابي : « وَعَدَ السَّكْرِيمُ نَقْدًا وَتَعْجِيلًا ، وَوَعَدَ اللَّئِيمُ مَطْلًا وَتَعْلِيلًا » ..
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

وقال أعرابي : « اعتذارٌ من مَنَع ، أَجْمَلُ من وَعَدٍ مَمْطُول » .
(الأمل ٢ : ١٩٨)

وقال أعرابي : « عَوَّدَ لِسَانِكَ الْخَيْرَ ، تَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ » .
(ذيل الأمل ص ٢٩)
وقال أعرابي : « خرجت ليلة حين انحدرت أيدي النجوم ، وشالت^(١) أرجلها ،
فما زلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر ، فإذا بجارية كأنها علم ، فعملت أغازلها ، فقالت :
يا هذا : أَمَّا لَكَ نَاهٍ مِنْ كَرَمٍ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ زَاجِرٌ مِنْ عَقْلِ ؟ قال : والله ما يراني إلا
الكواكب ! قالت : فأين مَكْوَرُ كَيْهًا ؟ » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥١ ، وزهر الأدب ٢ : ٦)

أجوبة الأعراب

٢٠ - مجاوبة أعرابي للحجاج

خرج الحجاج ذات يوم فأصْحَرَ^(٢) ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من يتغدي
معي ، فطلبوا ، فإذا أعرابي في شِمْلَةٍ : فَأَتَى بِهِ ، فقال السلام عليكم ، قال : هَلُمَّ أَيُّهَا
الأعرابي ، قال : قد دعاني من هو أكرم منك فأجبتُه ، قال : ومن هو ؟ قال : دعاني

(١) ارتفعت : من شالت الناقة بذنها وأشالته : رفعته ، فشال هو .

(٢) أصهر : برز في الصحراء .

الله ربّي إلى الصوم ، فأنا صائم ، قال : وصومٌ في مثل هذا اليوم الحارّ ؟ قال : صمت ليومٍ هو أحرُّ منه ، قال : فأفطر اليومَ وَضُمَّ غداً ، قال : وَيَضْمَنَ لي الأميرُ أني أعيش إلى غدٍ ؟ قال : ليس ذاك إليه ، قال : فكيف تسألني عاجلاً بأجلٍ ، ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيب ، قال : والله ما طيبه خَبَّازك ولا طبَّاخك ، قال : فمنَ طيبه ؟ قال : العافية ، قال الحجاج : تالله إن رأيت كالليوم ! أخرجوه عني .

(البيان والتبيين ۳ : ۲۳۴ ، والعقد الفريد ۲ : ۸۷)

۲۱ - مسأله الحجاج أعرابيا فصيحاً

وقال الحجاج لأعرابي كلمه فوجده فصيحاً : كيف تركت الناس وراءك ؟ فقال : « تركتهم - أصاح الله الأمير - حين تفرقوا في الغيطان ، وأخذوا النيران ، وتَشَكَّت النساء ، وَعَرَضَ الشاء ، وَمَاتَ الكلبُ » ، فقال الحجاج لجاسائه : « أَخِصْباً نَعَتَ أمَ جَدِّباً ؟ قالوا : بل جَدِّباً ، قال : بل خِصْباً ، قوله : تفرقوا في الغيطان ^(۱) ، معناه : أنها أعشبت ، فإبيلهم وغنمهم ترعى ، وأخذوا النيران ، معناه : استغنوا باللبن عن أن يشتروا لحوم إبابهم وغنمهم ويأكلوها ، وتَشَكَّت النساء أعضاءهن ، من كثرة ما يَمَخَضُن ^(۲) الألبان ، وَعَرَضَ الشاء : استن ^(۳) من كثرة العُشْب والمرعى ، ومات الكلب : لم تَمِتْ أغنامهم وإبابهم فياً كل جيفها » . (ذيل الامال ص ۸۷)

۲۲ - مجاوبه أعرابي لعبد الملك بن مروان

ودخل أعرابي على عبد الملك بن مروان ، فقال له : يا أعرابي صف الخمر ، فقال : شمولٌ إذا شُجَّتْ ، وفي الكأس مُزَّةٌ لها في عظام الشاربين دَبِيبٌ ^(۴)

(۱) جمع غائظ : وهو المظمن الواسع من الأرض . (۲) مخض اللبن من باب قطع ونصر وضرب أخط زبده . (۳) استن : سمن ، سن الإبل كنصر : إذا رهاها فأسمنها . (۴) الشمول : الخمر أو الباردة منها ، لأنها تشمل بريحها للناس ، أو لأن لها عصفه كعصفه الشمال ، وشيح الشراب : مزجه .

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونَهُ لَوْجَهُ أَخِيهَا فِي الْإِنَاءِ قُطُوبٌ^(١)
 فقال : ويحك يا أعرابي ! لقد أتتكم عندي حُسْنُ صِفَتِكُمْ لَهَا ، قال : « يا أمير
 المؤمنين ، وآتتكم عندي معرفتكم بحسن صفتي لها » .
 (ميون الأخبار م ٢ : ص ٢١٥)

٢٣ - مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري

وخطب خالد بن عبد الله القسري فقال :
 « يا أهل البادية : ما أحسن بلدكم ، وأغلظ معاشكم ، وأجنى أخلاقكم ،
 لا تشهدون الجمعة ، ولا تجالسون علما ، فقام إليه رجل منهم دميم ، فقال :
 « أما ما ذكرت من خشونة بلدنا ، وغلظ طعامنا ، فهو كذلك ، ولكنكم معشر
 أهل الخضرة ، فيكم ثلاث خصال ، هي شرٌّ من كل ما ذكرت » ، قال له خالد :
 وما هي ؟ قال : « تنقبون الدور ، وتنبشون القبور ، وتنكحون الذكور » ، قال :
 « قبحك الله ، وقبح ما جئت به » .
 (المقدم الفريدي ٢ : ١٢٧)

٢٤ - أجوبة شتى

وقدّم أعرابي إلى السلطان ، فقال له : قل الحق ، وإلا أوجعتك ضرباً ،
 قال له : « وأنت فأعمل به ، فوالله ما أوعدك الله على تركه ، أعظم مما تُوعِدُنِي به » .
 ونظر عثمان إلى أعرابي في شملة ، غائر العينين ، مشرف الحاجبين ، ناتيء الجبهة ،
 فقال له : أين ربك ؟ قال : بالمرصاد !
 وقيل لأعرابي : إنك تحسن الشارة^(٢) ، قال : « ذلك عنوان نعمة الله عندي » .

(١) القدي : ما يقع في الشراب ، قطب كضرب قطباً وقطوباً : زوى ما بين عينيه وكلح ، وأخوها :
 هو نبيذ الزبيب ، والمعنى : أن الشاربين يفضلونها عليه فيشربونها دونه ، فهو يقطب من أجل ذلك ، وفي
 أخيها يقول الشاعر :

دع الخمر يشربها الفواة فإني رأيت أخاها مغنياً بمكانها
 فلا يكنها أو تسكنه فإنه أخوها غدته أمه بلبانها

(٢) الشارة : اللباس والهيئة والزينة .

وقيل لأعرابي : « كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرقه بالمعاصي ، وأرقعه بالاستغفار » .

وسئل أعرابي عن القدر فقال : « الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس ، يعرف ضوءها ، ولا يقف على حدودها » .

وسئل آخر عن القدر ، فقال : « علم اختصمت فيه العقول ، وتناول فيه المختلفون ، وحق علينا أن يرد إلينا ما التبس علينا من حكمه ، إلى ما سبق علينا من علمه » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٦ - ٨٧)

وقيل لأعرابي : من أبلغ الناس ؟ قال : « أحسنهم لفظاً وأسرعهم بديهة » .
وقيل لأعرابي : مالك لا تطيل الهجاء ؟ قال : « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعتق » .

وقال معاوية لأعرابية : هل من قرى ؟ قالت : نعم ، قال : وما هو ؟ قالت : « خبز خمير ، ولبن فطير ، وماء نمير ^(١) » .

وقيل لأعرابي : فيم كنتم ؟ قال : « كنا بين قدر تفور ، وكأس تدور ، وحديث لا يحور ^(٢) » .

وقيل لأعرابي : ما أعددت للبرد ؟ قال : « شدة الرعدة ، وقر فضاء القعدة ، وذرب المعدة ^(٣) » .

وقيل لأعرابي : « ما لك من الولد ؟ قال : قليل خبيث » قيل له : ما معناه ؟ قال : « إنه لا أقل من واحد ، ولا أخبث من أنثى » .

وقيل لأعرابي - وقد أدخل ناقته في السوق ليبيعهها - صف لنا ناقتك ، قال :

(١) الخمير : الذي اختمر ، وماء نمير : ناجع ، عذبا كان أو غير عذب .
(٢) أي لا ينقص ، وربما كان لا يحور بالجم . (٣) القر فضاء : أن يجلس على أليته ، ويصق فخذه ببطنه ، ويحتبى بيديه يضعهما على ساقيه ، أو يجلس على ركبتيه منكبا ، ويلصق بطنه بفخذه ، ويتأبط كفيه ، والذرب : الحدة ، والمعدة ككلمة وكسرة .

مَا طَلَبْتُ عَلَيْهَا قَطُّ إِلَّا أَدْرَكْتُ ، وَلَا طَلَبْتُ إِلَّا فُتُّ ، وَقِيلَ لَهُ : فَلِمَ تَبِيعَهَا ؟
قال : لتقول الشاعر :

وقد تُخْرِجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ عَامِرٍ كِرَائِمَ مِنْ رَبِّ بَهْنٍ ضَنِينِ
وقيل لأعرابي : ما عندكم في البادية طيب ؟ قال : « حُرُّ الْوَحْشِ لِاتِحْتِاجِ
إِلَى بَيْطَارٍ » .

وقيل لِشَرِيحِ الْقَاضِي : هل كلك أحد قطُّ فلم تُطِقْ له جواباً ؟ قال : ما أَعْلَمُهُ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَعْرَابِيًّا ، خَاصِمٌ عِنْدِي وَهُوَ يَشِيرُ بِيَدَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَمْسِكْ ، فَإِنَّ
لِسَانَكَ أَطْوَلَ مِنْ يَدِكَ ، قَالَ : « أَسَامِرِيٌّ أَنْتَ لَا تَمْسُ ؟ ^(١) » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقيل لأعرابي : أيُّ الألوان أحسن ؟ قال : « قُصُورٌ بِيضٌ » ، فِي حَدَائِقِ
خُضْرٍ » .

وقيل لآخر : أيُّ الألوان أحسن ؟ قال : « بَيْضَةٌ ^(٢) » ، فِي رَوْضَةٍ ، عَنِ غِيبِ
سَارِيَةٍ ، وَالشَّمْسِ مُكَبَّدَةٌ » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٦)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ » ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ،
قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ » .

والسامري : هو موسى بن ظنر السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها : السامرة ، وكان
من قوم يعبدون البقر ، وقع في مصر ، فدخل في بني إسرائيل ، وآمن بموسى ، وكان منافقاً لا يزال في قابه
عبادة البقر ، فلما ذهب موسى لمناجاة ربه فتن بني إسرائيل ، وكانوا حين خرجوا من مصر حملوا معهم من
حل القبط التي أخذوها منهم رهائن على ما يقرضونهم من المال - فاتخذ لهم منها حجلاً جسداً له خوار . . .
إلى آخر ما هو معروف في القصة ، من أثر الرسول : أي من أثر حافر الرسول وهو جبريل ، والأثر :
التراب الذي تحت حافره ، والمساس مصدر ماس ، وهو نفي أريد به النهي ، أي لا تمسني ولا أمسك .

(٢) البيضة : ساحة التورم ومجتمعهم ، والسارية : السحابة تسمى ايلا ، وكبدت الشمس السماء : صارت
في كبدتها أي وسطها ، وفي الأصل « مكيدة » بالياء وهو تصحيف .

وخطب أعرابي إلى قوم فقالوا : ما تبذل من الصداق ؟ وارتفع السَّجْفُ^(١)
فرأى شيئاً كرهه فقال : « والله ما عندي نقد ، وإني لأكره أن يكون عليَّ دين » .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٠٠)

وقيل لأعرابية مات ابنها : « ما أحسن عزاءك عن ابنك ! » ، قالت :
« إن مصيبتَه آمنتني من المصائب بعده » .

وقال محمد بن حرب الهلالي : قلت لأعرابي : « إني لك لَوَادٌّ » ، قال : « وإن لك
من قلبي لرائدًا » . (البيان والتبيين ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٢)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً أمامه شاةٌ ، فقلت لمن هذه الشاة ؟ قال :
« هي لله عندي » . (العقد الفريد ٢ : ٨٦ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٠٩)

قولهم في الاستمناح والاستجداء

٢٥ - أعرابي يجتدي عتبة بن أبي سفيان

اعترض أعرابي لعتبة بن أبي سفيان ، وهو على مكة ، فقال : أيها الخليفة ، فقال :
لستُ به ، ولم تُبعِد ، قال : يا أخاه ، قال : أسمعُ فقل ، قال :

« شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة ، ويختص بالخلوة ، ويشكو إليك
كثرة العيال ، ووطأة الزمان ، وشدة فقر ، وترادف ضر ، وعندك ما يسعه ويصرف
عنه بؤسه » قال : « أستغفر الله منك ، وأستعينه عليك ، قد أمرت لك بعفائك ،
فليت إسراعنا إليك ، يقوم بإبطائنا عنك » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١)

(١) السجف بالفتح والكسر : التمر .

٢٦ - أعرابي يجتدي عمر بن عبد العزيز

وأتى أعرابي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« رجل من أهل البادية ، ساقته إليك الحاجة ، وبلغت به الغاية ، والله سألتك عن مقامى غداً ، فقال عمر : « والله ما سمعتُ كلمة أبلغ من قائل ، ولا أوعظ لمقولٍ له منها » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٣ ، والأمالى ٢ : ١٧٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١) .

٢٧ - خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك

وكانت الأعراب تنتجع هشام بن عبد الملك بأخطب كل عام ، فتقدم إليهم الحاجب يأمرهم بالإيجاز ، فقام أعرابي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى جعل العطاء محبةً ، والمنع مَبْغِضَةً ،
فَلَا نَحْبَبُ خَيْرَ مِنْ أَنْ نُبَغِضَكَ^(١) ، فأعطاه وأجزل له . (العقد الفريد ٢ : ٨٣)

٢٨ - مقام أعرابي بين يدي هشام

وقام أعرابي بين يدي هشام فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أتت على الناس ثلاث سنين ، أمّا الأولى : فلدحت^(٢) اللحم ،
وأما الثانية : فأكلت الشحم ، وأما الثالثة : فهاضت^(٣) العظم ، وعندكم فضولُ
أموالٍ ، فإن كانت لله فاقسموها بين عباده ، وإن كانت لهم فقيم تحظر^(٤) عنهم ؟
وإن كانت لكم فتصدقوا عليهم بها ، إن الله يجزي المتصدقين ، قال هشام : هل من
حاجة غير هذه يا أعرابي ؟ قال : « ما ضربتُ إليك أ كبادَ الإبل ، أدرعُ الهجير ،
وأخوضُ الدجى لخاصّ دون عام » ، فأمر هشام بمال ، فقسم بين الناس ، وأمر

(١) يروى هذا لمحمد بن أبي الجهم المدري ، قاله في حضرة هشام أيضاً . انظر الجزء الثاني ص ٤٢٢ .

(٢) من لحا الشجرة : أخذ لحاءها (بالكسر) وهو قشرها . (٣) هاض العظم : كسره بعد

الجبور فهو مبيض ، وفي رواية : « رعام أنق العظم » أي وصل إلى نقيه (بالكسر) وهو مخ العظم .

(٤) تحجب وتمنع .

للأعرابي جمال ، فقال « أكلُّ المسلمين له مثل هذا؟ » قالوا : « لا ، ولا يقوم بذلك بيتُ مال المسلمين » ، قال : « فلا حاجة لي فيما يَبْعَثُ لِأُمَّةِ النَّاسِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ »
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨ والمفرد الفريد ٢ : ٨٢)

٢٩ - أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد

وقال العُتْبِيُّ : وقف أعرابي بباب عُبَيْدِ اللَّهِ بن زياد فقال :
« يَا هَلِ الْغَضَارَةُ ^(١) ، حَقَبَ ^(٢) السَّحَابُ ، وَاَنْقَشَعَ الرَّبَابُ ، وَاسْتَأْسَدَتِ الذَّنَابُ
وَرُدِمَ الثَّمَدُ ^(٣) ، وَقَلَّ الْحَفْدُ ^(٤) ، وَمَاتَ الْوَالِدُ ، وَكُنْتُ كَثِيرَ الْعُقَاةِ ^(٥) ، صَخِبَ ^(٦)
السُّقَاةُ ، عَظِيمِ الدَّلَاةِ ^(٧) لِاتِّصَالِ الزَّمَانِ ، وَغَفَلَ ^(٨) الْحِدْثَانُ ، حَى حِلَالٍ ^(٩) ، وَعَدَدُ
وَمَالٍ ، فَتَفَرَّقْنَا أَيْدِي سَبَأٍ ^(١٠) ، بَيْنَ فَقْدِ الْأَبْنَاءِ وَالْآبَاءِ وَكُنْتُ حَسَنَ الشَّارَةِ ^(١١) ،
خَصِيبِ الدَّارَةِ ^(١٢) سَلِيمِ الْجَارَةِ ^(١٣) ، وَكَانَ مَحَلِّي حَمِي ، وَقَوْمِي أُسَى ^(١٤) ، وَعَزِي جَدًّا ^(١٥) »

(١) الغضارة : النعمة والسعة والخصب ، وفي الأصل : الغضاضة وهو تحريف - والغضاضة للذلة والمنقصة - . (٢) حقب المطر وغيره : احتبس ، والرباب : السحاب الأبيض .
(٣) التمد كشمس وسبب : الماء القليل لامادة له . (٤) الحفد : الأعوان جمع حافد .
(٥) العقاة جمع عاف : وهو الوارد والضيف ، وكل طالب فضل أو رزق .
(٦) وصف من الصخب بالتحريك وهو شدة الصوت ، والعقاة جمع ساق كقماض ، وفي الأصل « صخب السقاء » وأراه محرفاً . (٧) في الأصل : « عظيم للزلات » وأراه محرفاً عن « الدلاة » ، والدلاة كقضاة جمع دال كقماض ، وهو النازع في الدلو المستقي به الماء من البئر . يقال : أدليت الدلو ودأيتها : إذا أرسلتها في البئر . ودأوتها أدلوها فأنا دال ، إذا أخرجتها . (٨) الغفل بالتحريك : الغفلة ، والحدثنان : نوب الدر وحوادثه ، وفي الأصل : « ولا أعقل الحدثنان » وأراه محرفاً ، وربما كان الأصل « ولا غفال الحدثنان » بتكرير لام الجر . (٩) الحلة بالكسر : اتقوم النالون ، والجمع حلال وحال ككتاب وعتب ، وتطلق الحلة على البيوت مجازاً تسمية للمحل باسم الحال ، وهي مائة بيت فافوقها .
(١٠) يقال : ذهبوا أيدي سبأ ، وتفرقوا أيدي سبأ ، وأيادي سبأ : أي تبعدوا ، شهبوا بأهل سبأ لما مزقهم الله في الأرض كل ممزق ، فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة ، واليد : الطريق . يقال ، أخذ القوم يد بجر ، فتبل القوم إذا تفرقوا في جهات مختلفة : ذهبوا أيدي سبأ : أي فرقهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبأ في مذاهب شتى والرب لا تهز سبأ في هذا الموضع ، لأنه كثر في كلامهم فاستثقلوا فيه الحمزة وإن كان أصله مهموزاً ، وقد بنوا أيدي سبأ ، وأيادي سبأ على السكون لكونه مركباً تركيب خمسة عشر .

(١١) الشارة : الهيئة والملابس والزينة والجمال . (١٢) الدارة : الدار .
(١٣) الجارة ، من معانيها : الزوجة . (١٤) الأسي جمع أسوة : وهي القدوة .
(١٥) الجدا : العطية ، والمطر الذي لا يعرف أقصاه .

قضى الله - ولا رُجَعَانَ لما قَضَى - بِسَوَافٍ^(١) المال ، وَشَتَاتِ الرجال ، وَتَغْيِيرِ الحال
فَأَعِينُوا مَنْ شَخَّصَهُ شَاهِدُهُ ، وَلِسَانُهُ وَافِدُهُ ، وَفَقْرُهُ سَائِقُهُ وَقَائِدُهُ .
(زهر الآداب ٣ : ٣٠٧)

٣٠ - أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكر

ودخات أعرابية على عبد الله بن أبي بكر بالبصرة ، فوفقت بين السَّاطِينِ^(٢)
فَقَالَتْ :

• أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ وَأَمْتَعَ بِهِ ، حَدَرْتَنَا إِلَيْكَ سَنَةً اشْتَدَّ بِلَاؤُهَا ، وَانْكَشَفَ
غِطَاؤُهَا ، أَقْوَدُ صَبِيَّةً صَغَارًا ، وَآخِرِينَ كِبَارًا ، فِي بَلَدَةِ شَاسِعَةٍ ، تَخْفِضُنَا خَافِضَةً ،
وَتَرْفَعُنَا رَافِعَةً ، لِمِائَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ ، بَرِّينَ عَظْمِي ، وَأَذْهَبِينَ لِحْمِي ، وَتَرَكْنِي وَالهَةَ ،
أَدُورَ بِالْحَضِيضِ ، وَقَدْ ضَاقَ بِي البَلَدُ العَرِيضُ ، فَسَأَلْتُ فِي أَحْيَاءِ العَرَبِ : مَنْ الكَامِلَةُ
فَضَائِلُهُ ، المُعْطَى سَائِلُهُ ، المَكْفِي نَائِلُهُ ؟ فَدَلَّيْتُ عَلَيْكَ - أَصْلَحَكَ اللهُ تَعَالَى - وَأَنَا امْرَأَةٌ
مِنْ هَوَازِنَ ، قَدِمَاتِ الوَالِدِ ، وَغَابَ الرَافِدُ ، وَأَنْتَ بَعْدَ اللهِ غِيَاثِي ، وَمُنْتَهَى أَمَلِي ، فَافْعَلْ
بِي إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي ، أَوْ تُحْسِنَ صَفْدِي^(٣) ، أَوْ تَقِيمَ أَوْدِي
فَقَالَ : بَلْ أَجْمَعُهُنَّ لَكَ ، فَلَمْ يَزَلْ يُجْرِي عَلَيْهَا كَمَا يُجْرِي عَلَى عِيَالِهِ حَتَّى مَاتَتْ .
(زهر الآداب ٣ : ٣٠٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

قال الأصمعي : وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى
عنه فقالت :

• إِنِّي أَتَيْتُ مِنْ أَرْضِ شَاسِعَةٍ ، تَخْفِضُنِي خَافِضَةً ، وَتَرْفَعُنِي رَافِعَةً ، فِي بَوَادِي

(١) السواف بالضم وبفتح : مرض الإبل ، وساف المال يسوف ويساف : هلك ، أو وقع فيه السواف .

(٢) الساطين : العطاء .

(٣) الجانبان .

بَرَّيْنٍ لِحِي ، وَهَضُنٌ ^(۱) عَظْمِي ، وَتَرَكَنِي وَآلِهَةً ، قَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ ، بَعْدَ الْأَهْلِ وَالْوَالِدِ ،
وَكثْرَةِ مِنَ الْعَدَدِ ، لَا قَرَابَةَ تُؤْوِينِي ، وَلَا عَشِيرَةَ تَحْمِينِي ، فَسَأَلْتُ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ،
مَنْ الْمُرْتَجَى سَيِّبُهُ ^(۲) ، الْمَأْمُونُ عَيْبُهُ ، الْكَثِيرُ نَائِلُهُ ، الْمَكْفِيُّ سَائِلُهُ ، فَدَلَّيْتُ عَلَيْكَ ،
وَأَنَا امْرَأَةٌ مِنْ هَوَازِنَ ، فَقَدْتُ الْوَالِدَ وَالْوَالِدَ ، فَاصْنَعْ فِي أَمْرِي وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ
تُحْسِنَ صَفْدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَقِيمَ أَوْدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي « ، قَالَ : بَلْ أَجْمَعُهُنَّ
لَكَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهَا . (المقدم الفريد ۲ : ۸۲)

۳۱ - أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري

وَدَخَلَ أَعْرَابِي عَلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ ، فَقَالَ :
« أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ : شَيْخٌ كَبِيرٌ ، حَدَّثَنِي إِلَيْكَ بَارِيَةَ الْعِظَامِ ^(۳) ، وَمُورِثَةَ
الْأَسْقَامِ ، وَمُطَوَّلَةَ الْأَعْوَامِ ، فَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُ ، وَذُعِدَعَتْ ^(۴) آبَالُهُ ، وَتَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهُ ،
فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرَ أَنْ يَجْبُرَهُ بِفَضْلِهِ ، وَيَنْعَشُهُ بِسَجْلِهِ ^(۵) ، وَيُرِدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ ! » فَقَالَ :
كُلَّ ذَلِكَ ، وَأَمْرُهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ . (الامال ۲ : ۴۹)

۳۲ - أعرابي يستجدي معن بن زائدة

وَقَدِمَ أَعْرَابِي مِنْ بَنِي كِنَانَةَ عَلَى مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ وَهُوَ بِالْحِمَنِ فَقَالَ :
« إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ سَبَبًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَالرَّحِمِ ، أَقْوَى مِنْ رِحْلَةٍ مِثْلِي مِنْ أَهْلِ
السَّنِّ وَالْحَسَبِ إِلَيْكَ مِنْ بِلَادِهِ ، بَلَا سَبَبٍ وَلَا وَسِيَلَةَ ، إِلَّا دَعَاكَ إِلَى الْمَسْكَرِ ،
وَرَغْبَتِكَ فِي الْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَضَعَنِي مِنْ نَفْسِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتَ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ
فَأَفْعَلْ « فَوَصَلَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ . (المقدم الفريد ۲ : ۸۰)

(۱) هاضن العظام : كسره بعد الجبور . (۲) السهب : المعطاء .
(۳) حدته : سافته ، وبارية العظام : أى الزكيات التى تبرى العظام ، مؤرثة : مهيجته ، من التارث
وهر إبتاد النار .
(۴) ذعذعت : فرقت ، وآبدل جمع إبل . (۵) السجل فى الأصل : الدلو المظيعة بماوثة .

٣٣ - خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام

عن أبي زيد قال : بَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِذْ وَقَفَ عَلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ :

« يَا مُسْلِمُونَ ، إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، وَالصَّلَاةَ عَلَى نَبِيِّهِ ، إِنْ أَمْرٌ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْمِلْطَاطِ
الشَّرِيقِيِّ الْمُوَاصِيِ أَسْيَافَ تِهَامَةَ^(١) ، عَكَفَتْ عَلَى سِنُونِ مُحَشٍّ^(٢) ، فَاجْتَبَتِ الذُّرَى ،
وَهَشَمَتِ الْعُرَى^(٣) ، وَجَمَشَتِ النَّجْمَ ، وَأَعْجَتِ الْبَهْمَ^(٤) ، وَهَمَّتِ الشَّحْمَ ، وَالتَّجَبَّتِ
اللَّحْمَ ، وَأَحْجَنَتِ الْعَظْمَ^(٥) ، وَغَادَرَتِ التَّرَابَ مَوْرَأً ، وَالْمَاءَ غَوْرًا ، وَالنَّاسَ أَوْزَاعًا^(٦) ،
وَالنَّبْطَ قُعَاعًا ، وَالضَّهْلَ جُرَاعًا ، وَالْمَقَامَ جَعَجَاعًا^(٧) ، يُصَبِّحُنَا الْهَآوِي ، وَيَطْرُقُنَا
الْعَاوِي^(٨) ، فَخَرَجْتُ لَا أَتَلْفَعُ بِوَصِيدَةٍ ، وَلَا أَتَفَوْتُ هَبِيدَةً^(٩) ، فَالْبَخَصَاتُ وَقِعَةٌ ،
وَالرُّكْبَاتُ زَلِيعَةٌ ، وَالْأَطْرَافُ قَفِيعَةٌ^(١٠) ، وَالْجِسْمُ مُسْلَهَمٌ ، وَالنَّظَرُ مُدْرَهَمٌ^(١١) ، أَعْشَوُ
فَأَغْطِشُ ، وَأَضْحَى فَأَخْفِشُ^(١٢) ، أَسْهَلُ ظَالِعًا ، وَأُحْزِنُ رَاكِعًا^(١٣) فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ

(١) المِلطاط : كل شفير نهر أو واد ، والمواصي والمواصل واحد ، يقال تواصى النبت : إذا انصل

بعضه ببعض ، وأسياف جمع سيف بالكسر : وهو ساحل البحر . (٢) عكفت : أقامت ، والسنون
الجدوب ، ومحش جمع محوش كصبور ، وهي التي تمحش (بضم الحاء) الكلا أي تحرقه .

(٣) اجتبت : فطمت واستأصلت ، وهشمت : كسرت ، والعري جمع عروة ، والعروة : القطعة من

للشجر لا يزال باقياً على الجلب نرعاه أموالهم . (٤) جمشت : احتلقت ، والنجم : ما نجم ولم يستقل

على ساق ، وأعجت : أي جعلها عجايباً ، والعجى : السيء . الغذاء المهزول .

(٥) همت : أذابت ، والعرب تقول : وهمك ما أهمك ، أي أذابك ما أحزنك ، والتجبت اللحم : أي

عرقته من العظم ، وأحجنت العظم : أي عوجته فصيرته كالمحجن . (٦) مار موراً : اضطرب وماج ،

والغور : الغائر ، أوزاع : فرق . (٧) النبط : الماء الذي يستخرج من البئر أول ما تحفر ، والقعاع

الماء المالح المر : والضهل : القليل من الماء ، والجزعاع : أشد المياه مرارة ، والجمعجاع : المكان الذي

لا يطمئن من قعد عليه . (٨) الهاوي : الجراد ، والعاوي : الذئب .

(٩) التلفع : الاشتغال ، والوصيدة : كل نسيجة ، والهبيد : حب الحنظل يعالج حتى يطيب فيختبز .

(١٠) البخصات جمع بخصه ، وهي لحم باطن القدم ، ووقعة : من قولهم : وقع الرجل كفرح إذا اشكى

لحم باطن قدمه ، وزلعه : متشققة ، وقفة ومقفة واحد : وهي التي قد تقبضت ويبت .

(١١) المصلهم : الضامر المتغير ، والمدرهم : الضعيف للبصر الذي قد ضعف بصره من جوع أو مرض .

(١٢) أعشو : أنظر : فأغطش : أصير غطشاً (بكسر الطاء) والغطش محركة : ضعف في البصر ، وضحي

للشمس كفرح وسمى : برز لها ، وأخفش بالتحريك : ضعف البصر خلقة ، أو فساد في الجفون بلا وجع

أو أن يبصر بالليل دون النهار . (١٣) أسهل ظالماً : أي إذا مشيت في السهول ظلمت ، وظلع كنع :

غمز في مشيه ، وأحزن راكعاً : أي إذا علوت الحزن ركعت أي كبوت لوجهي .

بِمَيْرٍ^(١) ، أو دَاعٍ بَخِيرٍ ؟ وَقَاكُمُ اللَّهُ سَطْوَةَ الْقَادِرِ ، وَمَلَكَهَ الْكَاهِرِ^(٢) ، وَسُوءَ الْمَوَارِدِ ، وَفُضُوحَ الْمَصَادِرِ ، قال : فَأَعْطَيْتَهُ دِينَاراً وَكَتَبْتَ كَلَامَهُ ، وَاسْتَفْسَرْتَهُ مَا لَمْ أَعْرِفْهُ . (الأمالي ١ : ١١٣)

٣٤ - خطبة الأعرابي السائل في المسجد الجامع بالبصرة

وروى الجاحظ قال :

قال أبو الحسن : سمعت أعرابياً في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة ثلاث وخمسين ومائة : وهو يقول :

« أما بعد : فَإِنَّا أَبْنَاءُ سَبِيلٍ ، وَأَنْضَاءُ^(٣) طَرِيقٍ ، وَفَلَّ^(٤) سَنَةٍ ، تَصَدَّقُوا عَلَيْنَا ، فَإِنَّهُ لَا قَلِيلَ مِنَ الْأَجْرِ ، وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ ، وَلَا تَعْمَلْ بَعْدَ الْمَوْتِ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنَّا لَنَقُومُ هَذَا الْمَقَامَ ، وَفِي الصَّدْرِ حَزَازَةٌ^(٥) ، وَفِي الْقَلْبِ غُصَّةٌ^(٦) . (البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٥ - صورة أخرى

وروى أبو علي القالي هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما كها :

عن يونس قال : وقف أعرابي في المسجد الجامع في البصرة فقال :

« قَلَّ النَّيْلُ ، وَنَقَصَ الْكَيْلُ ، وَعَجِيفَتِ^(٦) الْخَيْلُ ، وَاللَّهُ مَا أَصْبَحْنَا نَنْفَخُ فِي وَضَحِ^(٧) ، وَمَا لَنَا فِي الدِّيْوَانِ وَشِمَّةٌ^(٨) ، وَإِنَّا لَعِيَالٌ جَرَبَةٌ^(٩) ، فَهَلْ مِنْ مُعِينٍ ، أَعَانَهُ اللَّهُ ، يُعِينُ ابْنَ سَبِيلٍ ، وَنِضْوَ طَرِيقٍ ، وَفَلَّ سَنَةٍ ؟ فَلَا قَلِيلَ مِنَ الْأَجْرِ ، وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ ، وَلَا تَعْمَلْ بَعْدَ الْمَوْتِ . (الأمالي ٢ : ١٩٧)

(١) المير : العطية ، من قولهم : مارهم بميرهم ميراً . (٢) الكاهر والقاهر : واحد ، وقد قرأ بعضهم (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَكْهَرْ) .

(٣) أنضاء جمع نضو كقرد : وهو المهزول ، أي قد هزلنا وأضننا ساوك الماريق .

(٤) السنة : الجذب والقحط ، وقوم قل : منهزمون ، والجمع فلول وأفلال ، أي هزلنا القحط .

(٥) الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه . (٦) هزلت . (٧) للوضوح : اللبن ، سمى

وضوحاً لبياضه . (٨) للشامة : مثل الوشم في الذراع ، يريد الخط .

(٩) الجربة : الكثير ، أو العيال يأكلون ولا ينفعون .

٣٦ - صورة أخرى

ورواها صاحب العقد فقال : وقف أعرابي على حلقة يونس فقال :
« الحمد لله ، وأعوذ بالله ، أن أذكر به وأنساه ، إنا أناس قدمنا المدينة ثلاثون رجلاً
لا ندفن ميتاً ولا نتحول من منزل وإن كرهناه ، فرحم الله عبداً تصدق على ابن سبيل ،
ونضو طريق ، وفلّ سنة ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد
الموت ، يقول الله عز وجل : (مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً) إن الله
لا يستقرض من عوز ، ولكن إيبألو خيار عباده » . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣٧ - أعرابي يستجدي

وقال المدائني : سمعت أعرابياً يسأل وهو يقول :
« رحم الله امرأ لم تمجّ أذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذة^(١) من سوء مقامي ، فإن
البلاد مجدية ، والدار مضيعة ، والحال سيئة^(٢) ، والحياء زاجر ينهي عن كلامكم ،
والعدم عاذرٌ يعملني على إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمر
بمير^(٣) ، أو دعا بخير » ، فقال له بعض القوم : ممن الرجل ؟ فقال : « ممن لا تنفعكم
معرفة ، ولا تضرّكم جهالته ، ذلك الاكتساب ، يمنع من عز الانتساب » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١ ، والأمال ١ : ١٣٨)

٣٨ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : أصابت الأعراب أعوام جدبة وشدة وجهد ، فدخلت طائفة منهم
البصرة وبين يديهم أعرابي وهو يقول :
« أيها الناس ، إخوانكم في الدين ، وشركاؤكم في الإسلام ، عابرو سبيل ،

(١) المعاذة والمعاذ والعياذ : الالتجاء . (٢) وفي الأمال « والحال سيئة » أي مجيبة .
(٣) مار عياله ميراً : جلب لهم الميرة (بالكسر) وهي الطعام ، وفي العقد : « فرحم الله امرأ يمير ،
وداعياً يمير » .

وأفلال بُؤس ، وَصَرَ عَى جَدْب ، تتابعت علينا سِنُون ثلاثة ، غَبَرَتِ (١) النَّعْم ، وأهلكت النَّعْم ، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعالاً بذلك أنفسنا ، وَنَمَنِي بِالغَيْثِ قَلوبَنَا ، حتى عاد مُخْنَأَ عِظَامًا ، وَعَاد إِشْرَاقَنَا ظِلَامًا ، وَأَقْبَانَا إِلَيْكُمْ يَصْرَعَنَا الوَعْر ، وَيُكِنِّنَا (٢) السَّهْل ، وهذه آثار مصائبنا لأثمة في سَمَاتِنَا ، فرحم الله متصدقاً من كثير ، وَمَوَاسِيًّا من قليل ، فاقد عظمت الحاجة ، وكسف البال ، وبلغ الجهود ، والله يَجْزِي المتصدقين .

٣٩ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : كنت في حَاقَّة بالبصرة إذ وقف علينا أعرابي سائلاً ، فقال : « أيها الناس ، إن الفقر يهتك الحجاب ، وَيُبْرِزُ الكَعَاب (٣) ، وقد حملتنا سِنُون المصائب ، وَنَكَبَات الدهور ، على مركبها الوَعْر ، فواسوا أبا أيتام ، وَنِضْوَ زمان ، وَطَرِيدَ فاقَةٍ ، وَطَرِيحَ هَلكَةٍ ، رحمكم الله . »

٤٠ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : وقف أعرابي علينا فقال : « يا قوم : تتابعت علينا سِنُون بتغير وانتقاص ، فما تركت لنا هَبَعًا ولا رُبَعًا (٤) ، ولا عافطة ، ولا نَافِطَةَ (٥) ، ولا ثَاغِيَّةً ولا رَاغِبَةً ، فأماتت الزرع ، وقتلت الضَّرْع ، وعندكم من مال الله فضلٌ نِعْمَةٌ ، فأعينوني من عطية ما آتاكم الله ، وَارحموا أبا أيتامٍ ، وَنِضْوَ زمان ، فلقد خلفت أقبامًا يمرضون ولا يكفنون مبيهم ، ولا ينتقلون من منزل ، وإن كَرِهوه ، ولقد مشيت حتى انتعلت الدَّماء ، وَجَعْتُ حتى أكلت الثَّرَى . »

(١) غبره لطحه بالغبار : أو هي « غبرت » بالياء . (٢) أي يسترنا . (٣) جارية كعاب : نهدي ثديها . (٤) الربيع : الفصل ينتج في آخر الشتاء ، والربيع : الفصل ينتج في الربيع ، وهو أول الشتاء . (٥) النافطة : النعجة ، من العفط : وهو الضرب ، هفطت كضرب : ضربت فهي هافطة ، والعفط أيضاً : نثر الضأن تنثر بأثرفها كما ينثر الحمار ، والنافطة : العنز ، من النقط ، نطقت العنز كضرب : نثرت بأثرفها أو عطست فهي نافطة ، أو لأنها تنفط بيولها : أي تدفعه دفماً ، أو النافطة إتباع للنافطة : أو العافطة : الأمة الرابعة ، والنافطة : الشاة .

٤١ - أعرابية تستجدي

وقال الأصمعي : وقفت أعرابية فقالت :

« يا قوم سنّة جرّدت ، وأيدٍ جمّدت ، وحال جهّدت^(١) ، فهل من فاعلٍ لخير ،
وآمرٍ بمَيْرٍ؟ رَحِمَ اللهُ من رَحِمَ ، فأقرَضَ من لا يظلم » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ - ٨٤)

٤٢ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :

« أشكو إليكم أيها المملأُ زماناً ، كَلَحَ في وجهه ، وأناخَ على بَكَاسِكَلَه ، بعد
نعمة من المال ، وثروة من المال ، وَغِبْطَةَ من الحال ، اعتورتني جدّاًئده^(٢) ، بِنَبْلٍ
مصائبه ، عن قِسيّ نوائبه ، فما تركألى ثاغية^(٣) أجتدي ضرعها ، ولا رَاغِيَةً أرتجى
نفعها ، فهل فيكم من مُعينٍ على صَرْفه ، أو مُعدٍ^(٤) على حَتْفه ؟ » ، فرد القوم عليه ،
ولم يُنبيلوه شيئاً ، فأنشأ يقول :

قد ضاع من يأكل من أمثالكم جوداً ، وليس الجودُ من فعالكم
لا بارك الله لكم في مالكم ولا أزاح السوء عن عيالكم
فالفقر خيرٌ من صلاح حالكم

٤٣ - أعرابي يستجدي

وسَمِعَ عَدِيّ بن حاتم رجلاً من الأعراب وهو يقول :

« يا قوم تصدّقوا على شيخ مُعيل ، وعابر سبيل ، شهِدَ له ظاهره ، وَسَمِعَ شكواه

(١) جهده المرض كنع : هزله .

(٢) سنة جداء : محلة مجدبة ، والجداء من كل حلوبة : الذاهبة اللبن عن هيب ، والحدودة :

القليلة اللبن من غير هيب ، والجمع جدائد وجداد . (٣) للثاغية : الشاة من الشفاء بالضم ، وهي صوت

الغنم ، والراغية : الناقة ، من الرغاء ، وهو صوت الإبل .

(٤) معدٍ ، أهداه عليه : فصره وأغلفه وقواه .

خالقهُ ، بَدَنُهُ مَطْلُوبٌ ، وَثُوبُهُ مَسْلُوبٌ » ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَعْدِ
فِي دِيَةِ كَزِمَتِنِي ، قَالَ : فَمَنْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةٌ بَعِيرٌ ، قَالَ : دُونَكَهَا فِي بَطْنِ الْوَادِي .
(المَعْدُ الْفَرِيدُ ۲ : ۸۲ - ۸۳)

٤٤ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فقال :

« إِنَّا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - أَبْنَاءُ سَبِيلٍ ، وَأَنْضَاءُ طَرِيقٍ وَقَاسِيَةٌ ^(١) ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً
أَعْطَى مِنْ سَعَةٍ ، وَوَأَسَى مِنْ كِفَافٍ » .

فَأَعْطَاهُ رَجُلٌ دَرَاهِمًا فَقَالَ : « آجَرَكَ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْتَلِيكَ » .

٤٥ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :

• يَا قَوْمَ : تَتَابَعْتَ عَلَيْنَا سِنُونَ جَمَادٍ ^(٢) شِدَادٌ ، لَمْ يَكُنْ لِلسَّمَاءِ فِيهَا رَجْعٌ ^(٣) ،
وَلَا لِلْأَرْضِ فِيهَا صَدْعٌ ^(٤) ، فَنَضَبَ الْعِيدُ ^(٥) ، وَنَشَفَ الْوَشَلُ ، وَأَمْحَلَ الْخِصْبُ ،
وَكَلَّحَ الْجُدْبُ ، وَشَفَّ ^(٦) الْمَالُ ، وَكَسَفَ الْبَالُ ، وَشَطَفَ الْمَعِاشُ ، وَذَهَبَ الرَّيَاشُ ،
وَطَرَحَتْنِي الْأَيَّامُ إِلَيْكُمْ غَرِيبَ الدَّارِ ، نَائِيَ الْحَلَا ، لَيْسَ لِي مَالٌ أَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَا
عَشِيرَةٌ أَلْحَقُ بِهَا ، فَارْحَمِ اللَّهُ امْرَأً رَحِمَ اغْتَرَابِي ، وَجَعَلَ الْمَعْرُوفَ جَوَابِي •

(المَعْدُ الْفَرِيدُ ۲ : ۸۰)

(١) أى وحال قاسية ، وربما كان الأصل « وفلسنة » . (٢) الجهاد : السنة التي لامطر فيها .

(٣) الرجوع : المطر ، لعوده كل حين (٤) أى انشقاق عن النبات ، اقتبسه من الآية الكريمة :

(وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ)

(٥) الند : الماء الجارى الذى له مادة لاتنقطع كما العين ، ونضب الماء : غار ، والوشل : الماء القليل

يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، ونشف الماء فى الأرض : ذهب • ونشف الحوض الماء شربه • وأمحل : أجاب .

(٦) شف : رق ، والشطف بالتحريك : يبس العيش وشده ، والرْيَاشُ : المال والخصب والمعاش

۴۶ - أعرابية تستجدي

وخرج المهدي يطوف بعد هداة^(۱) من الليل ، فَسَمِعَ أعرابية من جانب المسجد ، وهي تقول :

« قوم متظالمون ، نبت^(۲) عنهم العيون ، وفدحتهم الديون ، وعصتتهم السنون ، بادت رجالهم ، وزهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وصية الله ووصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل من امرئ يجير ؟ كالأه الله في سفره ، وخائفه في أهله . »

فأمر نصيراً الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

(العقد الفريد ۲ : ۸۰ ، وزهر الآداب ۳ : ۲۴۴)

۴۷ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي في شهر رمضان على قوم فقال :

« يا قوم : لقد ختمت هذه الفريضة على أفواهنا من صُبح أمس ، ومعى بنتان لي ، والله ما علمتُهما تحللتنا بحلال ، فهل رجل كريم يرحم اليوم مقامنا ، ويرد حُشاشتنا^(۳) ؟ منعه الله أن يقوم مقامه ، فإنه مقام ذل وعار وصغار . »

فافترق القوم ولم يعطوه شيئاً ، فالتفت إليهم حتى تأملهم جميعاً ، ثم قال :

« أشدُّ والله على من سوءِ حالٍ وفاقتي ، توهمي فيكم المواساة ، أنتعأوا الطريق ،

(العقد الفريد ۲ : ۸۲)

لا صحبكم الله ! » .

(۱) أي حين هدا الليل ، أو هو أول الليل إلى ثلثه .

(۲) اقتحمتهم وازدرتهم ، وفدحتهم : أثقلتهم .

(۳) الحشاشة : بنية الروح في المريض ، والصغار : الذل .

٤٨ - أعرابي يستجدي

وقام أعرابي ليسأل فقال :

« أين الوجوهُ الصُّباح^(١) ، والعقول الصُّحاح ، والألسُنُ الفِصَّاح ، والأنساب الصُّراح^(٢) ، والمكارم الرِّياح ، والصدور الفِيساح ؟ تُعيذني من مَقَامِي هذا » .

(للبيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

٤٩ - أعرابي يستجدي

ودعا أعرابي في طريق مكة فقال :

« هل من عائدٍ بفضل ، أو مؤاسٍ من كفاف^(٣) ؟ » ، فأُمسِك عنه فقال :
« اللهم لا تَكِلْنَا إلى أنفسنا فنعجز ، ولا إلى الناس فنضيع » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

٥٠ - أعرابي يستجدي

وقف أعرابي فسأل قوماً فقالوا له : عمايك بالصيَّارفة ، قال : هُنَاك واللهِ قرَّارةُ المؤمن !

(البيان والتبيين ٢ : ٤٨)

٥١ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ناساً فقال : « جعل الله حظَّكم في الخير ، ولا جعل حظَّ السائل منكم عِذرة^(٤) صادقة » .

(للبيان والتبيين ١ : ٢١٥)

٥٢ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ، فقال له صبي من جوف الدار : « بُورك فيك ، فقال : قَبِّحَ الله هذا الفم ، لقد تعلم الشرَّ صغيراً » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

(١) جمع صبيحة: وهي الجميلة من الصباحة كفصاحة أي الجمال . (٢) جمع صريحة: وهي المحضة الخالصة .
(٣) الكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٤) العذرة : اسم من العذر .

٥٣ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فمنعوه ، فقال :

« اللهم اشغلنا بذكرك ، وأعدنا من سُخْطِكَ ، وأولجنا إلى عفوك ، فقد ضنَّ
خَلْقُكَ برزقك ، فلا تَشْغَلْنَا بما عندهم عن طلب ما عندك ، وآتينا من الدني
الْمُنْعَانِ^(١) ، وإن كان كثيرها يُسْخِطُكَ ، فلا خيرَ فيما يُسْخِطُكَ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

٥٤ - أعرابي يستجدي

وقال أبو الحسن : وقف عاينا أعرابي فقال :

« أخ في كتاب الله ، وجار في بلاد الله ، وطالبٌ خيرٍ من رزق الله ، فهل فيكم
من مؤاسٍ في الله » .

وسأل أعرابي رجلاً ، فاعتلّ عليه فقال : « إن كنت كاذباً ، فجعلك الله صادقاً » .

(المقدم الفريد ٢ : ٨٤)

٥٥ - أعرابي يسأل رجلاً حاجة له

أتى أعرابي رجلاً (لم تكن بينه وبينه حرمة) في حاجة له ، فقال :

« إني امتطيتُ إليك الرجاء ، وسيرت على الأمل ، ووفدت بالشكر ، وتوسلت
يحسن الظن ، فحقق الأمل ، وأحسِنِ المَثُوبَةَ ، وأكرمِ القصد ، وأتمِّمِ الودَّ ،

(المقدم الفريد ٢ : ٨٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

وَعَجَّلِ المُرَادَ » .

(١) القنمان : القناعة .

قولهم في بكاء الموتي

٥٦ - أعرابية تبكي ابنها

وَحَجَّتْ أَعْرَابِيَّةٌ وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا فَأُصِيبَتْ بِهِ ، فَلَمَّا دُفِنَ قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ وَجِعَةٌ

فَقَالَتْ :

« وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ غَدَوْتُكَ رَضِيْعًا ، وَفَقَدْتُكَ سَرِيْعًا ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَالِيْنَ مَدَّةٌ أَلْتَدُّ بِمَيْشِكَ فِيهَا ، فَأُصْبِحْتَ بَعْدَ النَّضَارَةِ وَالْفَضَارَةِ ^(١) ، وَرَوْتُكَ الْحَيَاةَ ، وَالتَّنَسُّمَ فِي طَيْبِ رَوَائِحِهَا ، تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى جَسَدًا هَامِدًا ، وَرُفَاتًا سَحِيْقًا ، وَصَعِيدًا جُرُزًا ^(٢) .

أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ سَحَبْتَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ أَذْيَالَ الْفَنَاءِ ، وَأَسْكَنْتَكَ دَارَ الْبَلِيِّ ، وَرَمَتْنِي بِعَدِكَ نَكْبَةَ الرَّدَى ، أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ أَسْفَرَ لِي عَنْ وَجْهِ الدُّنْيَا صَبَاحُ دَاجٍ ظَلَامُهُ ^(٣) ،

ثُمَّ قَالَتْ :

أَيُّ رَبِّ ، وَمَنْكَ الْعَدْلُ ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجَوْرُ ، وَهَبْتَهُ لِي قُرَّةَ عَيْنٍ ، فَلَمْ تَمْتَعْنِي بِهِ كَثِيرًا ، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيكًا ^(٤) ، ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ ، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ الْأَجْرَ ، فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضِيْتُ قَضَاءَكَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ مِنْ تَرَخَّمٍ عَلَيَّ مِنْ أَسْتَوْدَعْتَهُ الرَّدْمَ ^(٥) ، وَوَسَدْتُهُ الثَّرَى ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ غُرْبَتَهُ ، وَأَنْسِ وَحْشَتَهُ ، وَأَسْتَرْعُورَتَهُ ، يَوْمَ تَنْكَشِفُ الْهَنَاتُ ^(٦) وَالسَّوْءَاتُ .

(١) النضارة : النعمة والحسن والنعى ، والفضارة أيضاً : النعمة والسعة والخصب :

(٢) أطباق جمع طبق : وهو وجه الأرض ، والرفات : الحطام ، وسحيقاً : مسحوقاً ، والصعيد : التراب ، أو وجه الأرض وأرض جرز : لانبت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصبها مطر .

(٣) أسفر الصبح وسفر كضرب : أضاء وأشرف ، داج : قال الأصمعي : دجا الليل ، وإنما هو أليس كل شيء ، وأليس هو من الظلمة ، قال : ومنه قولهم : دجا الإسلام أي قوى ، وأليس كل شيء .

(٤) سريعاً . (٥) الردم : السد ، وما يسقط من الجدار المتهدم . (٦) السيئات .

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره فقالت :

أى بنى : إني قد تزودت لسفري ، فليت شعري ، ما زادك لبعد طريقك ،

ويوم معادك ! اللهم إني أسألك له الرضا برضاي عنه ، ثم قالت :

استودعتك من استودعتك في أحشائي جنيناً ، وائسكل الوالدات !

ما أمض^(١) حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقصر نهارهن ،

وأقل أنسهن ، وأشد حشتهن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن من الأحزان .

فلم تزل تقول هذا ونحوه ، حتى أبكت كل من سمعها ، وحمدت الله عز وجل ،

وأسترجت وصات ركعات عند قبره وانطلقت . (زهر الآداب : ٢ : ٧)

٥٧ - حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها

وروى أبو علي القالي : عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« دَفَعْتُ يَوْمًا فِي تَهْشِي بِالْبَادِيَةِ إِلَى وَادٍ خَلَاءٍ لَا أُنِيسَ بِهِ إِلَّا بَيْتٌ مُعْتَمِرٌ ^(٢) ،

بِفِنَائِهِ أَعْزُ ، وَقَدْ ظَمِئْتُ فَيَمَّمْتُهُ ، فَسَمَّتُ فَإِذَا عَجُوزٌ قَدْ بَرَزَتْ ، كَأَنَّهَا نَعَامَةٌ

رَاحِمٌ ^(٣) ، فَقَالَتْ : هَلْ مِنْ مَاءٍ ؟ فَقَالَتْ : أَوْ لَبَنٍ ، فَقُلْتُ : مَا كَانَتْ بُغِيَّتِي إِلَّا الْمَاءُ ،

فَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ اللَّبَنَ فَإِنِّي إِلَيْهِ فَقِيرٌ ، فَقَامَتْ إِلَى قَعْبٍ ^(٤) فَأَفْرَغَتْ فِيهِ مَاءً ، وَنَظَّفَتْ

غَسَلَهُ ، ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى الْأَعْزُ ، فَتَغَبَّرْتَهُنَّ ^(٥) حَتَّى احْتَلَبْتُ قُرَابَ ^(٦) مِلءِ الْقَعْبِ ،

ثُمَّ أَفْرَغْتُ عَلَيْهِ مَاءً حَتَّى رَغَا وَطَفَّتْ ثَمَالَتَهُ ^(١) ، كَأَنَّهَا نَعَامَةٌ بَيْضَاءُ ، ثُمَّ نَاولَتْنِي إِيَّاهُ ،

فَشَرِبْتُ حَتَّى تَحَبَّبْتُ ^(٢) رِيًّا وَاطْمَأَنَّتُ ، فَقَالَتْ :

(١) مضه الشيء : يملغ من قلبه الحزن به كما مضه .

(٢) منفرد . (٣) الراحم : التي تحضن بيضها ، أرخت الدجاجة على بيضها ورخته ، ورخت عليه

فهي مرخم وراخم . (٤) القعب : قدح إلى الصقر ، ويشبه به الحافر .

(٥) أي احتلبت الغبر (كقفل) : وهي بقية اللبن في الضرع ، وجمعه أغبار .

(٦) قراب وقريب واحد ، مثل كبار وكبير وجسام وجسيم .

(١) الثمالة : للرغوة وهي مثلثة الرأ . (٢) امتلأت .

إني أراك معتزلة في هذا الوادي الموحش ، وَالْحِلَّةُ^(١) منك قريب ، فلو انضمت
إلى جنابهم فَأَنْسَتْ بِهِمْ ! فقالت :

« يابن أخي ، إني لآتسُ بِالْوَحْشَةِ ، وأستريح إلى الوَحْدَةِ ، ويطمئن قلبي إلى هذا
الوادي الموحش ، فأتذكر مَنْ عَهِدْتُ ، فكأنني أخطب أعيانهم ، وَأَتَرَاءِي أَشْبَاهَهُمْ^(٢)
وَتَتَخَيَّلُ لِي أُنْدِيَةَ رَجَالِهِمْ ، وَمَلَاعِبُ وَلَدَانِهِمْ ، وَمُنْدَى^(٣) أموالهم ، والله يابن أخي
لقد رأيت هذا الوادي بَشِعِ اللَّيْدِينَ^(٤) بأهل أدواح وقباب ، وَنَعَمٍ كَالْهَضَابِ ،
وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، وَيَحْمُونَ الصَّبَاحَ^(٥) فأحال عليهم
الجلال قَمًا بِغَرْفَةٍ^(٦) فأصبحت الآثارُ دَارِسَةً ، وَالْمَحَاكُ طَامِسَةً ، وكذلك سيرة
الدهر فيمن وثق به . »

ثم قالت : أرمِ بعينك في هذا المَلَا المَتْبَاطِنِ^(٧) ، فَانظُرْتُ فَإِذَا قُبُورٌ نَحْوَ أَرْبَعِينَ
أَوْ خَمْسِينَ ، فقالت : ألا ترى تلك الأجدات ؟ قلت نعم ، قالت : ما انطوت إلا على
أخٍ أو ابن أخٍ ، أو عمٍ أو ابن عمٍ ، فأصبحوا قد أَلْمَأَتْ^(٨) عليهم الأرضُ ،
وأنا أترقب ما غالمهم ، انصرف راشداً رَحِمَكَ اللهُ . (الأمالي ٢ : ٧)

٥٨ — حديث امرأة مات ابنها بين يديها

عن عبد الرحمن عن عمه قال : دخلتُ على امرأة من العرب بأعلى الأرض
في خِباء لها ، وبين يديها بُنْيٌ لها ، قد نزل به الموت ، فقادت إليه فأغضته وَعَصَبَتْهُ
وَسَجَّتْهُ^(٩) ، ثم قالت :

(١) الحلة : جماعة بيوت الناصب والجمع حلال ككتاب . (٢) أشخاص جمع شيع كشمس وسبب .
(٣) الغندية : أن يورد الرجل إبله ، ثم يرعاها ، ثم يوردها ، ثم يرعاها ، والمندى : المكان الذي
يندى فيه المال . (٤) بشع : ملاك ، اللديان : الحانبان ، والدوحة : الشجرة العظيمة .
(٥) الصباح جمع صبيحة : وهي الجميلة من الصبابة كحجابه : الجمال .
(٦) قم البيت قما : كمنه والمقامة : المسكنة ، والقمامة : الكناسة ، والغرفة الواحدة من
الغرف : وهي ضرب من الشجر . (٧) الملا : الفضاء ، والمتباطن : المتطامن .
(٨) أي احتوت بما بهم ، وغالمهم : أهلكتهم . (٩) تصجية الميت : قنطية .

« يابن أخي ، قلت : ما تشائين ؟ قالت : ما أحق من ألبس النعمة ، وأطيلت له النظرة^(١) ، أن لا يدع التوثق من نفسه ، قبل حل عقده^(٢) ، والحلول بعقوته^(٣) ، وللحال بينه وبين نفسه » ، قال : وما يقطر من عينها قطرة صبراً واحتساباً ، ثم نظرت إليه فقالت : والله ما كان مالك لبطنك ، ولا أمرك لعرسك^(٤) ، ثم أنشدت تقول :
رَحِيبُ الذراعِ بالتي لا تشينهُ وإن كانت الفحشاء ضاق بها ذرعاً^(٥)
(الأمل ٢ : ٢٨٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

قولهم في الشكوى

٥٩ - أعرابي يشكو حاله

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« قديم علينا البصرة رجل من أهل البادية شيخ كبير ، فقصدته فوجدته يخضب لحيته ، فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : بلغني ما خصك الله به ، فجئتك أقتبس من علمك ، فقال : أتيتني وأنا أخضب ، وإن الخضاب لمن علامات الكبر ، وطال والله ما غدوت على صيد الوحوش ، ومشيت أمام الجيوش ، واختلت بالرداء ، وهوت^(٦) بالنساء ، وقربت الضيف ، وأرويت السيف ، وشربت الرّاح ، ونادمت الجحجّاح^(٧) ، فاليوم قد حناني الكبر ، وضعف مني البصر ، وجاء بعد الصفو الكدر ، ثم قبض على لحيته ، وأنشأ يقول :

شَيْبٌ تُغَيِّبُهُ كَيْمَا تُقَرِّبُهُ كَبَيْعِكَ الثَّوْبَ مَطْوِيًّا عَلَى حَرَقِ
قَد كُنْتُ كَالْفُصْنِ تَرْتَاخُ الرِّيحُ لَهُ فَصِرْتُ عُوْدًا بِلَا مَاءٍ وَلَا وَرَقِ

(١) النظرة : الإمهال . (٢) كناية عن الموت .
(٣) العقوة : المحلة ، أي بقبره . (٤) العرس : امرأة الرجل .
(٥) ضاق بالأمر ذرعاً : ضمدت طاقته ، ولم يجد من المكره فيه مخلصاً .
(٦) هوت به : فرحت به . (٧) الجحجج : السيد .

صبراً على الدهر ، إن الدهر ذو غيرِ وأهلُه منه بين الصفو والرنقِ (١)
(الأمالي ٢ : ٩٤)

٦٠ - كلمات شتى في الشكوى

قيل لأعرابية أصيبت بابنها : ما أحسنَ عَزَاءِكِ ! قالت : « إن فَقْدِي إِيَاهِ أَمَّنِي
كلَّ فَقْدٍ سِوَاهِ ، وَإِنْ مَصِيبَتِي بِهِ هَوَّنتَ عَلَيَّ الْمَصَائِبَ بَعْدَهُ » ، ثم أنشأت تقول :

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمَتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَازِرُ
لَيْتَ الْمَنَازِلَ وَالِدِيَا رَ حَفَاثِرُ وَمَقَابِرُ

* * *

وقيل لأعرابي : كيف حزنك على ولدك ؟ قال « ماترك همُّ الغداء والعشاء
لي حُزْنًا » .

* * *

وقيل لأعرابي : ما أنحلَّ جِسْمُكَ ؟ قال : « سِوَى الْغِدَاءِ ، وَجُدُوبَةِ الْمَرْعَى ،
واختلاف الهموم في صدري » ، ثم أنشأ يقول :

الهِمُّ مَالِمٌ تَمْضِيهِ لِسَبِيلِهِ دَاوِلًا تَضَمَّنَهُ الضَّلُوعُ عَظِيمٌ
وَلَرَبَّمَا اسْتِيَأَسْتُ ثُمَّ أَقُولُ : لَا إِنْ الَّذِي تَضَمَّنَ النَّجَاحَ كَرِيمُ

* * *

وقيل لأعرابي قد أخذ به السنُّ : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحتُ تَقِيدُنِي
الشَّعْرَةُ ، وَأَعَثْرُنِي الْبَعْرَةُ ، قَدْ أَقَامَ الدَّهْرُ صَعْرِي ، بَعْدَ أَنْ أَقَمْتُ صَعْرَهُ » .

* * *

(١) الرنق : السكر .

وقال أعرابي : « لقد كنتُ أنكرُ البيضاء ، فصيرتُ أنكرُ السوداء ، فيا خير مبدول ، ويا شرَّ بَدَل ! » .

* * *

وذكر أعرابي منزلاً بآد أهله فقال : « مَنْزِلٌ وَاللَّهِ رَحَلَتْ عَنْهُ رَبَّاتُ الْخُدُورِ ، وَأَقَامَتْ فِيهِ رَوَاحِلُ^(۱) الْقُدُورِ ، وَقَدْ اِكْتَسَى بِالنَّبَاتِ كَأَنَّمَا أَلْبَسَ الْحَلَالَ ، وَكَانَ أَهْلُهُ يَعْفُونَ^(۲) فِيهِ آثَارَ الرِّيحِ ، وَأَصْبَحَتْ الرِّيحُ تَعْفُو آثَارَهُمْ ، فَالْعَهْدُ قَرِيبٌ ، وَالْمَلْتَقَى بَعِيدٌ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت أحوالهم فقال : « أَعْيُنُ وَاللَّهِ كُحِلَتْ بِالْعَبْرَةِ بَعْدَ الْحَبْرَةِ^(۳) ، وَأَنْفُسٌ لَبِسَتْ الْحَزْنَ بَعْدَ السُّرُورِ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت حالهم فقال : « كَانُوا وَاللَّهِ فِي عَيْشٍ رَقِيقِ الْحَوَاشِي ، فَطَوَّاهُ الدَّهْرُ بَعْدَ سَعَةٍ ، حَتَّى لَبَسُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْقُرِّ^(۴) ، وَلَمْ أَرَ صَاحِبًا أَغْرَّ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا ظَالِمًا أَغْشَمَ^(۵) مِنَ الْمَوْتِ ، وَمَنْ عَصَفَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَرْدِيَاهُ^(۶) ، وَمَنْ وَكَلَّ بِهِ الْمَوْتَ أَفْنَاهُ » .

* * *

ووقف أعرابي على دار قد باد أهلها فقال : « دَارٌ وَاللَّهِ مُعْتَصِرَةٌ لِلدَّمُوعِ ، حَطَّتْ بِهَا السَّحَابُ أَثْقَالَهَا ، وَجَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ أَذْيَالَهَا » .

* * *

(۱) الرواحل جمع راحلة : وهي في الأصل : الناقة الصالحة لأن ترحل ، والمراد هنا الحوامل التي تحمل القدور ، أي الأثافي . (۲) عفا المنزل : درس ، وعفته الريح ، يتعدى ويلزم ، وبأيهما عدا ، وعفته للريح أيضاً بالتشديد للعبارة . (۳) الحبرة : السرور . (۴) القر مثلث القاف : البرد . (۵) أغم : أهلكه . (۶) أردياه : أهلكه .

وذكر أعرابي رجلاً تغيرت حاله فقال : « طَوَّيْتُ صَحيفَتُهُ ، وَذَهَبَ رِزْقُهُ ، فَالْبَلَاءُ مُسْرِعٌ إِلَيْهِ ، وَالْعَيْشُ عَنْهُ قَابِضٌ كَفَيْهِ » .

وذكر أعرابي رجلاً ضاق عيشه بعد سعة فقال : « كَانَ وَاللَّهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ مَمْدُودٍ ، فَقَدِحَتْ عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ زَنْدٌ غَيْرُ كَابِيَّةٍ ^(۱) » .

(العقد الفريد ۲ : ۷۹ - ۸۰)

وذكر أعرابي مصيبة نالته ، فقال : « مُصِيبَةٌ وَاللَّهِ تَرَكْتُ سُودَ الرِّءُوسِ بَيْضًا ، وَبَيْضَ الْوُجُوهِ سُودًا ، وَهَوَّنتُ الْمَصَائِبَ بَعْدَهَا » .

(العقد الفريد ۲ : ۷۹ ، وزهر الآداب ۲ : ۵)

وذكر أعرابي قطيعة بعض إخوانه فقال : « صَفَرْتُ عِيَابٌ ^(۲) الْوُدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بَعْدَ امْتِلَائِهَا ، وَأَقْفَرْتُ وَجُوهُ كَانَتْ بِمَائِهَا ، فَأَدْبَرَ مَا كَانَ مُقْبِلًا ، وَأَقْبَلَ مَا كَانَ مَدْبِرًا » .

(العقد الفريد ۲ : ۷۹ ، وزهر الآداب ۲ : ۴)

وقيل لأعرابي : ما أذهب شبابك ؟ قال : « مِنْ طَالَ أَمَدُهُ ، وَكَثُرَ وُلْدُهُ ، وَوَدَفَ عَدَدُهُ ، وَذَهَبَ جِلْدُهُ ذَهَبَ شَبَابُهُ » .

(العقد الفريد ۲ : ۷۹ ، والبيان والعيبين ۲ : ۵۷)

وسئل أعرابي عن سفر أكدى ^(۳) فيه ، فقال : « مَا غَنِمْنَا إِلَّا مَا قَصَرْنَا فِي صَلَاتِنَا ، فَأَمَّا مَا أَكَلْتَهُ الْهَوَاجِرُ ^(۴) ، وَلَقِيْتَهُ مِنَّا الْأَبَاعِرُ ، فَأَمْرٌ اسْتَخْفَفْنَا لِمَا أَمَلْنَا » .

(۱) الزند : الود الذي يقمح به النار . وكبنا الزند : لم يخرج ناره . وفي الأصل « زند عين كابية » وهو تحريف . (۲) صفرت : خلت ، وهياج جمع هبة بالفتح : ما يجعل فيه الهياج . (۳) أصله من « حمر فأكدى » أي صادف السخدية - والسخدية كفرصة : الأرض الدليظة ، واعطفة العظيمة الشديدة . (۴) الهواجر جمع هاجرة ، وهي شدة الحر .

وقالت امرأة من الأعراب : « أصبحنا ما يرقد لنا فرس ، وما ينام لنا حرس » .
(البيان والتبيين ٢ : ٨٢)

• • •

وقال أعرابي « مضى لنا سلفٌ أهل تَوَاصُل ، اعتقدوا^(١) مِنَّنًا ، واتخذوا الأيادي
ذخيرةً لمن بعدهم ، يَرَوْنَ اصطناع المعروف عليهم فرضاً لازماً ، وإظهار البرِّ واجباً ، ثم
جاء الزمان بينين ، اتخذوا مِنّهم بضاعة ، وبرّهم مرابحة^(٢) ، وأيادهم تجارة ، واصطناع
المعروف مقارضةً ، كنفدٍ ، خذُ مني وهاتِ » .

• • •

وقيل لأعرابي في مرضه : ما تشكى ؟ قال : « تمام العِدَّة ، وانقضاء المدة » .

• • •

ونظر أعرابي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرِّ فقال : « يا هذا :
أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٥)

• • •

ووصف أعرابي الدنيا فقال : « هي رَنَقَةٌ^(٣) المشارب ، جَمَّة المصائب ، لا تُمتَعك
الدهرَ بصاحب » .

• • •

وقال أعرابي : « حَسْبُكَ من فساد الدنيا أنك ترى أَسِنَمَةً^(٤) تُوضَع ، وأخفافاً
تُرْفَع ، والخير يُطلَب عند غير أهله ، والفقير قد حلَّ غير محله » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٦)

• • •

(١) من اعتقد مالا ؛ افتناه . (٢) رابحة كل السلعة : إعطاء ربحاً .

(٣) كدرة . (٤) جمع سنام ، والمراد ما كان عاليًا .

وقيل لأعرابي : كيف ابنك - وكان به عاقاً - قال : « عذابٌ لا يقاومه الصبر »
وقائدة لا يجب فيها الشكر ، فليتنى قد استودعته القبر » . (العقد الفريد ٢ : ٩٧)

• • •

عن الأصمعي قال : قيل لأعرابي قديم الحضرة^(١) ، ما أقدمك ؟ قال : « الحنين^(٢) ،
الذي يُغَطِّي العَيْن » . (الأمل ١ : ٢٠٢)

• • •

وأصيب أعرابي بابن له ، فقال وقد قيل له أصبر : « أعلَى الله أتجلد ، أم في مصيبتى
أتبلد ؟ والله للجزع من أمره أحبُّ إلى الآن من الصبر ، لأن الجزع استكانة ، والصبر
قساوة ، ولئن لم أجزع من النقص لم أفرح بالمزيد » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

• • •

وقيل لأعرابي : لِمَ لا تَضْرِب في الأرض ؟ فقال : « يمتنعني من ذلك ، طفل
بَارِك ، وِلصّ سانِك ، ثم إنى لست بعد ذلك واثقاً بنُجْح طَلِبتى ، ولا معتقداً قضاء
حاجتى ، ولا راجياً عَطْف قرابتى ، لأنى أقدم على قوم أطغاهم الشيطان ، واستمالهم
الساطان ، وساعدهم الزمان ، وأسكرهم حدائثُ الأسنان » .
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

• • •

وقال بعض الأعراب : « نالنا وُسْمِي^(٣) ، وَخَلَفه وَليُّ ، فالأرض كأنها وُشِي^(٤) »

(١) الحضرة : خلاف البادية كالحضر بالعحريك . (٢) الهلاك .

(٣) الوسمى : مطر الربيع الأول ، والولح : المطر الذي يأتي بعد المطر .

(٤) الوشى : نقش الثوب ، والعبرى : المنقطع النظير ، نسبة إلى هبقر ، موضع تزعم العرب أنه من

أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من خلقه ، أو جودة صنعه .

عَبْقَرِيٌّ ، ثُمَّ أَتْنَا غَيُومَ جَرَادٍ ، بِمَنَاجِلَ حَوَادٍ^(١) ، نَفَرَّتْ بِلَادٍ ، وَأَهْلَكَتِ
الْعِبَادَ ، فَسَبَّحَانَ مِنْ يَهْلِكُ الْقَوَى الْأَكُولَ ، بِالضَّعِيفِ الْمَأْكُولِ .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦١ - قولهم في العتاب والاعتذار

عاتب أعرابي أباه فقال : « يا أبت ، إن عظيم حَقِّكَ عَلَيَّ لَا يَذْهَبُ صَغِيرَ حَقِّي
عَلَيْكَ ، وَالَّذِي تَمَّتْ بِهِ^(٢) إِلَى ، أُمَّتٌ مِثْلُهُ إِلَيْكَ ، وَلَسْتُ أُرْزِعُ أَنَا سِوَاهُ ، وَلَكِنِّي
أَقُولُ : لَا يَحِلُّ لَكَ الْاِعْتِدَاءُ . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، زهر الآداب ٣ : ١٠٠)

• • •

وقال أعرابي لصديق استبطأه فلأمه : « كَانَتْ بِي إِلَيْكَ زَلَّةٌ يَمْنَعُنِي مِنْ ذِكْرِهَا
مَا أَمَلْتُ مِنْ تَجَاوُزِكَ عَنْهَا ، وَلَيْسَ أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْهَا إِلَّا بِالْاِقْلَاعِ عَنْهَا . »

• • •

وقال آخر لابن عم له : « وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ تَقْصِيرًا فَأُقْلِعُ ، وَلَا ذَنْبًا فَأَعْتِبُ ،
وَلَسْتُ أَقُولُ إِنَّكَ كَذَبْتَ ، وَلَا إِنِّي أَذْنَبْتُ . » (زهر الآداب ٣ ، ١٦٣)

• • •

وقال آخر لابن عم له : « سَأَتْمَخِطِي ذَنْبَكَ إِلَى عُدْرِكَ ، وَإِنْ كُنْتُ مِنْ أَحَدِهَا
عَلَى يَقِينٍ ، وَمَنْ الْآخِرُ عَلَى شَكٍّ ، وَلَكِنْ لَيْتِمُ الْمَعْرُوفُ مِنِّي إِلَيْكَ ، وَتَقُومَ الْحُجَّةَ
لِي عَلَيْكَ . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٤ ، والمعتمد للفريدي ٢ : ٨٥)

وَعَدَلَتْ أَعْرَابِيَّةٌ أَبَاهَا فِي الْجُودِ وَإِتْلَافِ مَالِهِ ، فَقَالَتْ : « حَبَسُ الْمَالِ ، أَنْفَعُ
لِلْعِيَالِ ، مِنْ بَدْلِ الْوَجْهِ فِي السُّؤَالِ ، فَقَدْ قَلَّ النَّوَالُ ، وَكَثُرَ الْبُخَالُ ، وَقَدْ أَتَلَفْتُ

(١) المناجل جمع منجل كبير : حديدة يقضب بها الزرع . وحواد جمع حادة : أي قاطعة ، وفي الأصل
• حراد • وأراه محرفا . (٢) تنوعل .

الطارف والتلاد ، وبقيت تطالب ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشك
أن يسعى فيما يضره . (زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦٢ - قولهم في المدح

دخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « رأيتني فيما أتعاطى من مدحك ، كالخبر
عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، الذي لا يخفى على الناظر ، وأيقنت أني حيث
انتهى بي القول ، منسوب إلى العجز ، مقصّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك ،
إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك ، إلى علم الناس بك » . (الأمل ٢ : ٧٣)

• • •

وأثنى أعرابي على رجل فقال : « إن خيرك لسريح^(١) ، وإن منعك لمريح ، وإن
رفدك لربيع » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بني كلاب يذكر رجلاً فقال :
« كان والله الفهم منه ذا أدنين ، والجواب ذا لسانين ، لم أر أحداً كان أرتق خلل
رأى منه ، ولا أبعد مسافة روية ، ومراد^(٢) طرف ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه
الكرم ، وما زال والله يتحسى مرارة أخلاق الإخوان ، ويسقيهم عذوبة أخلاقه » .
(الأمل ٢ : ١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩ : وزهر الآداب ٢ : ٣)

• • •

وقال : سمعت أعرابياً ذكر رجلاً فقال : « كان والله للإخاء وضولا ، وللمال
بدولا ، وكان الوفاء بهما عليه كفيلاً ، ومن فاضله كان مفضولاً » .
(الأمل ١ : ١١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩) *

• • •

(١) أي مطاء بلا مطل ولا إبطاء ، ومريح : أي من كد الطلب .
(٢) ريادة الإبل : اختلافها في المرعى مقبلة ومدبرة ، والموضع مراد ومستتراد .

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله ممن يَنْفَعُ سِلْمُهُ ، وَيَتَوَاصَفُ حِمْمُهُ ،
وَلَا يُسْتَمِرُّ^(١) ظُلْمَهُ ، إِنْ قَالَ فَعَلَ ، وَإِنْ وَلىَ عَدَلَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

• • •

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أدبهم الحكمة ، وأحكمتهم التجارب ، ولم تغررهم
السلامة المنظوية على الهلكة ، وجانبوا التسوية الذي به قطع الناس مسافة آجالهم ،
فَدَلَّتْ أَسْنَتُهُمْ بِالْوَعْدِ ، وَانْبَسَطَتْ أَيْدِيهِمْ بِالْإِنْجَازِ ، فَأَحْسَنُوا الْمَقَالَ ، وَشَفَعُوهُ بِالْفِعَالِ » .

(الأمل ٢ : ٢٣ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨)

• • •

عن عبد الرحمن عن عمه قال : وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها ،
فَقَالَتْ : « يَا أُمَّهُ ، مِنْ نَشَرَ ثَوْبِ الثَّنَاءِ ، فَقَدْ أَدَّى وَاجِبَ الْجَزَاءِ ، وَفِي كَيْتَانِ الشُّكْرِ
جُجُودٌ لِمَا وَجِبَ مِنَ الْحَقِّ ، وَدُخُولٌ فِي كُفْرِ النَّعْمِ » ، فَقَالَتْ لَهَا أُمُّهَا : « أَيُّ بُنْيَةٍ :
أَطَبَّتِ الثَّنَاءَ ، وَقَمَّتِ بِالْجَزَاءِ ، وَلَمْ تَدَّعِي لِلذَّمِّ مَوْضِعاً ، إِنِّي وَجَدْتُ مَنْ عَقَلَ ، لَمْ يَعْجَلْ
بِذَمِّ وَلَا ثَنَاءٍ إِلَّا بَعْدَ اخْتِبَارٍ » ، فَقَالَتْ : « يَا أُمَّهُ ، مَا مَدَحْتُ حَتَّى اخْتَبَرْتُ ،
وَلَا وَصَفْتُ حَتَّى عَرَفْتُ » .

(الأمل ١ : ٢٢٥)

ووصف بعض الأعراب أميراً فقال : « إِذَا أَوْعَدَ آخَرَ ، وَإِذَا وَعَدَ عَجَلٌ ،
وَعَيْدُهُ عَفْوٌ ، وَوَعْدُهُ إِجْزَارٌ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧)

• • •

ونعت أعرابي رجلاً فقال : « كَأَنَّ الْأَلْسَانَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ لَهُ ، فَمَا تَنْعَقِدُ إِلَّا عَلَى
وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

• • •

(١) لا يستمر ، من استمر الطعام : وجده مرهناً أي هينئاً حميد المغبة .

وذكر رجل عند أعرابي فوقع فيه قوم فقال : « أما والله إنه لا كلُّكم للمأدوم
وأعطاكم للمغروم^(١) ، وأكسبكم للمعدوم ، وأعطفكم على المحروم » .

(الأماي ٢ : ١٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٢)

* * *

وأعطى رجل أعرابياً فأكثر له ، فقال له الأعرابي : « إن كنت جاوزت قدرى
عند نفسي ، فقد بلغت أملي فيك » .

(الأماي ٢ : ٥٠)

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كان والله يُعَنِّي^(٢) في طلب المكارم ، غيرَ
ضالٍّ في معارج طرقها ، ولا متشاغل عنها بغيرها » .

(الأماي ٢ : ٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ودخل أعرابي على رجل من الولاة فقال : « أصاح الله الأمير : اجعلني زمماً
من أزممتك يُجربها الأعداء ، فأني مسعر حرب^(٣) ، ورَكَّابُ نُجُبٍ ، شديد على الأعداء ،
لئب على الأصدقاء ، منطوى الحصيلة^(٤) ، قليل الثميلة^(٥) ، غرار النوم ، قد غدَّتني الحرب
بأفاويقها^(٦) ، وحلبتُ الدهرَ أشطُرَه ، ولا تمنعك مني الدمامة^(٦) ، فإن من تحتها شهامة » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨٠)

* * *

(١) أي للعمال المغروم ، فن لزمه غرم حمله عنه . (٢) أي يهيب ويُنصب .
(٣) أي موقدها ، والنجب جمع نجيب . (٤) حصل الشيء تحصيلاً : جمعه . والاسم الحصيلة ،
والمعنى مكتم السر ، والثميلة في الأصل : ما يبقى في بطن الدابة من العلف والماء ، وما يدخره الإنسان من
طعام أو غيره ، وفي حديث عبد الملك قال الحجاج : « أما بعد فقد وليتكَ المرافين ، فسر إليها منطوى
الثميلة » والمعنى فسر إليها مخفاً ، والذرار : القليل من النون . (٥) الأفاويق جمع أفواق ، وهو جمع
خيفة بالكسر ، والفينة : اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين . (٦) الدمامة : قبح المنظر .

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فسيح الأدب ، مستحْكِمِ السبب ،
مِنَ أَيِّ أَقْطَارِهِ أَتَيْتَهُ ، تثنى عليه بكرمِ فِعَالٍ ، وَحُسْنِ مَقَالٍ » .
(زهر الآداب ٢ : ٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال « كان والله يَغْسِلُ مِنَ الْعَارِ وَجُوهًا مُسْوَدَّةً ، ويفتح
مِنَ الرَّأْيِ عَيْونًا مُنْسَدَّةً » .
(المعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

* * *

وذكر أعرابي قوماً عباداً فقال : « تركوا والله النعيم ليتنعموا ، لهم عبرات
متدافقة ، وزفرات متتابعة ، لا تراهم إلا في وجهٍ وجيهٍ عند الله » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « مارأيت أسرع إلى داجٍ بئيل ، على فرسٍ حسيب ،
وجمل نجيب^(١) ، ثم لا ينتظر الأولُ السابقُ ، الآخرُ اللاحقُ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « جعلوا أهوالهم مناديلَ أعراضهم ، فالخير بهم زائد ،
والمعروف لهم شاهد ، يُعْطُونَهَا بِطَبِيبَةٍ أَنْفُسِهِمْ إِذَا طُلِبَتْ إِلَيْهِمْ ، ويباشرون المعروف
بإشراق الوجوه إذا بُغِيَ لَدَيْهِمْ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « والله ما أنالوا شيئاً بأطراف أناملهم إلا وطيناهم
بأخماس^(٢) أقدامنا ، وإن أقصى همهم لأذنى فعالنا » .

* * *

(١) النجيب : الحمل السريع الخفيف في السير .
(٢) جمع أخصر كأحمر : وهو من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

وذكر أعرابي أميراً فقال : « إذا ولي لم يطابق بين جفونه ^(۱) ، وأرسل العيون على عيونه ، فهو غائب عنهم ، شاهد معهم ، فالحسن راج ، والمسيء خائف » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً ببراءة المنطق فقال : « كان والله بارع المنطق ، جزل الألفاظ ، عربياً اللسان ، فصيح البيان ، رقيق حواشي الكلام ، بليغ الريق ، قائل الحركات ، ساكن الإشارات » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « رأيت له حِلماً وَأَنَاةً ، يُحَدِّثُكَ الحديث على مقاطعه ، وَيُنشِدُ الشعر على مَدَارِجِهِ ^(۲) ، فلا تسمع له لَحْنًا وَلَا إِحَالَةَ ^(۳) » .

• • •

وذكر أعرابي قوماً فقال : « آلت ^(۴) سيوفهم أَلَّا تَقْضِي دِينًا عليهم ، ولا تَضِيع حَقًّا لهم ، فما أَخَذَ منهم مردودٌ إليهم ، وما أَخَذُوا متروكٌ لهم » .

• • •

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ما رأيت عيناً قَطُّ أَخْرَقَ لِظْمَةَ الليل من عينه ، وَلَحْظَةً أَشْبَهَ بلهب النار من لَحْظَتِهِ ، له هَزَّةٌ كَهَزَّةِ السيف إذا طَرَبَ ، وَجُرْأَةٌ كَجُرْأَةِ الليث إذا غَضِبَ » .

• • •

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كانت ظُلمة ليله كضوء نهاره ، آمراً بارتباد ، وناهياً عن فساد ، كحبيب السوء غير منقاد » .

• • •

(۱) أي لم ينم عن شئون رعيته ، والعيون : الخواصيس .

(۲) مدارج جمع مدرج ومدرجة : المذهب والمسلك . (۳) أحال الكلام إحالة : إذا أفسده ، والمحال من الكلام : ما عدل به عن وجهه ، وأحال : أتى بالمحال وتكلم به . (۴) حلفت .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « اشترى والله عرضة من الأذى ، فلو كانت الدنيا له
فأنفقها ، لرأى بعدها عليه حقوقاً ، وكان منهاجاً للأمور المشككة إذا تناجز
الناس باللائمة » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « يُفوق^(١) الكلمة على المعنى ، فتمرق مروق السهم
من الرمية ، فما أصاب قتل ، وما أخطأ أشوى^(٢) ، وما غطفت^(٣) له سهم منذ
تحرك لسانه في فيه » .

وذكر أعرابي أخاه فقال : « كان والله ركوباً للأهوال ، غير ألوف للحجال^(٤)
إذا أرعد^(٥) لقوم من غير قر ، يهين نفساً كريمة على قومها ، غير مبقية لغد
ما في يومها » .

• • •

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كان والله من شجر لا يخلف ثمره ، ومن بحر
لا يخاف كدره » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فتى رماه الله بالخير ناشئاً ، فأحسن لبسه ،
وزين به نفسه » .

• • •

(١) يسد ويصوب ، والرمية : ما يرمى . (٢) أشواه : أصاب شواه ، والشوى كعصا : اليدان
والرجلان والأطراف وقحيف الرأس وما كان غير مقتل . (٣) الغظطة : حكاية صوت القدر في الذليان
وما أشبهها ، وقد يكون الأصل : وما غظمطه أي ما اضطرب من الغظطة وهي اضطراب موج البحر .
(٤) الحجال جمع حجلة بالتحريك : اللقبة وموضع يزين بالذهب والستور للعروس ، والمراد النساء .
(٥) أرعد : أخذته رعدة .

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « يُصمُّ أذنيه عن استماع الخنا ، ويُخرس لسانه عن التكلم به ، فهو الماء الشَّريب^(١) ، والمصقع الخطيب . »

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك رجل سبق إلىَّ معروفه قبل طلبي إليه ، فالعرض وافر ، والوجه بمائه ، وما استقل^(٢) بنعمة إلا أقفلني بأخرى . »

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك رضيع الجود والمفطومُ به ، عقيم عن الفحشاء ، مُغتصم بالتقوى ، إذا حذفت^(٣) الألسن عن الرأي ، حذف بالصواب ، كما يحذف الأرنب ، فإن طالت الغاية ، ولم يكن من دونها نهاية ، تمهل أمام القوم سابقاً . »

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن جليسه لطيب عشرته أطرب من الإبل على الحداء ، والتمل على الغناء . »

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « كان له عِلْمٌ لا يخالطه جهل ، وصدق لا يشوبه كذب ، كأنه الوَبْلُ عند المحل^(٤) . »

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ما رأيتُ أعشَقَ للمعروف منه ، وما رأيتُ المنكر أبغضَ لأخذٍ بفضه له . »

• • •

(١) الشريب والشرب : ما يشرب . المصقع : البليغ ، أو العالى الصوت ، أو من لا يرتج عليه في كلامه ولا ينتفع . (٢) أي وما أحل . وأقفلني : أرجعني وردني . (٣) حذفت : رمت . (٤) الجذب .

وقدم أعرابي البادية وقد نال من بني برمك، فقيل له كيف رأيتهم؟ قال:
« رأيتهم وقد أنست بهم النعمة، كأنها من ثيابهم » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال: « ما زال يبني المجد، ويشترى الحمد، حتى بلغ
منه الجهد » .

* * *

ودخل أعرابي على بعض الملوك فقال: « إن جهلاً أن يقول المادح بخلاف
ما يعرف من الممدوح، وإني والله ما رأيت أعشق للمكارم في زمان اللوم منك،
وأنشد:

مالي أرى أبوابهم مهجورة؟ وكان بابك تجمّع الأسواق
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى بيدك فاجتمعوا من الآفاق
إني رأيتك للمكارم عاشقاً والمكرّمات قليلة العُشاق
(العقد الفريد ٢ : ٨٨ - ٩٠)

* * *

وَضَلَّ أَعْرَابِي الطَّرِيقَ لَيْلًا ، فَلَمَّا طَلَعَ الْقَمَرَ اهْتَدَى ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ فَقَالَ :
مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ ؟ أَأَقُولُ : رَفَعَكَ اللَّهُ ؟ فَقَدْ رَفَعَكَ ، أَمْ أَقُولُ : نَوَّرَكَ اللَّهُ ؟ فَقَدْ
نَوَّرَكَ ، أَمْ أَقُولُ : حَسَّنَكَ اللَّهُ ؟ فَقَدْ حَسَّنَكَ ، أَمْ أَقُولُ : عَمَّرَكَ اللَّهُ ؟ فَقَدْ عَمَّرَكَ ،
وَلَكِنِّي أَقُولُ : جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ .
(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

* * *

وذكر أعرابي قومه فقال: « كانوا والله إذا أصطفوا تحت القتام^(١) ، خَطَرَتْ
بينهم السِّهَامُ بِوُفُودِ الْحَمَامِ ، وَإِذَا تَصَاخَفُوا بِالسِّيُوفِ فَغَرَّتْ^(٢) الْمَنَايَا أَفْوَاهَهَا ، قَرُبَ

(١) القتام: النبار. والحمّام: الموت. ورواية للعقد: « كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام »
- سفر بين القوم كضرب ونصر: أصلح » . (٢) غرّت: فتحت .

يوم عارم^(١) قد أحسنوا أدبَهُ ، وحرِبَ عُبُوسٌ قد ضاحَكَمها أسنَّتُهُم ، وخطبَ شِزْ^(٢) قد ذلُّوا مَنَّا كِيبَهُ ، ويومَ عَمَّاسٍ^(٣) قد كَشَفُوا ظُلمَتَهُ بالصبرِ حتى ينجلي ، إنما كانوا البحرَ الذي لا يُنكشُ^(٤) غَمَارُهُ ، ولا يُنَهِنُهُ تِيَّارُهُ .

(الأمالي ١ : ١٣٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

• • •

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « هو أَطهرُ من الماء ، وأرقُّ طباعاً من الهواء ، وأمضى من السَّيل ، وأهدى من النِّجم » .

(زهر الآداب ٢ : ٣)

• • •

ووصف أعرابي قومه فقال : « لُيُوثُ حرب ، ولُيُوثُ جَدْب ، إن قاتلوا أُبِلُوا ، وإن بَدَلُوا أُنُوا » .

(زهر الآداب ٢ : ٤)

• • •

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إذا ثبتت الأصول في القلوب ، نطقت الألسنة بالفروع ، واللهُ يعلم أن قَلي لك شاكر ، ولساني ذا كر ، ومُحَالٌ أن يَظْهَرُ الوُدُّ المستقيم ، من الفؤاد السَّقِيم » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٥)

• • •

وسئل أعرابي عن قومه فقال : « يقتلون الفقير ، عند شدة القُرِّ^(٥) ، وأرواح^(٦) الشتاء ، وهبوب الجُرْبِيَاءِ^(٧) ، بأسنمة الجزور ، ومُتْرَعَاتِ^(٨) القُدُورِ ، تحسُنُ وجوههم عند طَلَبِ المعروف ، وتَعْبَسُ عند لمعان السيوف » .

• • •

(١) العرامة بالفتح والدرام بالضم : الشراسة والأذى ، عرم كنصر وضرب وكرم وعلم .
(٢) شيز : شديد مقلق . (٣) العماس من الليالي : المظلم الشديد ، وأمر لا يقيم له ولا يهتدى لوجهه .
(٤) لا ينكش : لا ينزع ، والغمار جمع غمر كشمس : وهو الماء الكثير ، ونهيه : كفه وزجره . وفي رواية العقد : « إنما قومي البحر ما القته للنقم » . ورواية زهر الآداب : « إذا اصطفاوا سفرت بينهم الدهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف ففره الحمام » .
(٥) القر بتثنية القاف : البرد . (٦) جمع ربيع كريحاح . (٧) ربيع الشمال أو بردها .
(٨) جمع ترعة : وهي الملوقة .

ووصف أعرابي قوماً فقال : « فم جود كرام اتست أحوالها ، وبأس ليوث
تتبعها أشبالها ، وهم ملوك انفسحت أمالها ، ونخر صميم آباء شرفت أحوالها » .
(زهر الآداب ٢ : ١٦٧)

٦٣ - قولهم في الذم

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أولئك سلخت أبقاؤهم بالهجاء ، ودبت وجوههم
باللؤم ، لباسهم في الدنيا الملامة ، وزادهم إلى الآخرة الندامة » .

• • •

وذكر أعرابي قوماً فقال : « لهم بيوت تَدْخَلُ حَبْوًا ، إلى غير نمارق^(١) ،
ولا وسائد ، فُصِحُّ الألسن برَدِّ السائل ، جِعَادُ الأَكْفِ عن النَّائِل^(٢) » .

• • •

وقال أعرابي : « لقد صَغَرَ فلانا في عيني عِظْمُ الدنيا في عينه ، وكأنما يَرَى السائل
إذا أتاه ، مَلَكَ الموتِ إذا رآه » .

• • •

وسئل أعرابي عن رجل فقال : « ما ظنكم بِسِكِّيرٍ لا يَفِيقُ ، يَتَّهَمُ الصديق ،
وَيَعْصِي الشفيق ، لا يكون في موضع إلا حرمت فيه الصلاة ، ولو أفلتت كلمة سوء
لم تَصِرْ إلا إليه ، ولو نزلت لعنة من السماء لم تقع إلا عليه » .

• • •

(١) النمارق جمع نمرقة (بالضم) : وهي الوصادة الصغيرة . (٢) النائل : العطاء ، وهو جمع النائلين
أو الأنامل (كشمس) : أي بخيل ، وقد جمعوا جمع الشعر على جمعاء ككتاب كافي اللسان ، فليكن هذا
مثله ، وقد جاء في الأصل « جمع » بدون ألف ، وأراه محرفاً ، إذ لا يجمع جمع (بالفتح) على جمع بضم
فمكون ، ولا على جمع بضمين .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن فلاناً ليعدي بأئمة ، من تسمى باسمه ، ولن خيبي فلرب باقية قد ضاعت في طلب رجل كريم » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « تغذو إليه مرّاً كب الضلالة ، فترجع من عنده ببذور الآثام ، مُعَدِمٌ مما تحب ، مُكثِرٌ مما تكره ، وصاحب السوء قطعة من النار » .

• • •

وقال أعرابي لرجل : « أنت وألله من إذا سأل أَلْف ، وإذا سُئِلَ سوِّف ، وإذا حَدَّثَ حَاف ، وإذا وعد أخاف ، تنظر نظر حَسُود ، وتُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُود » .

• • •

وسافر أعرابي إلى رجل فخرمه ، فقال لِمَا سُئِلَ عن سفره : « ما رَبِحْنَا في سفرنا إِلَّا مَا قَصَرْنَا من صلاتنا ، فأما الذي لقينا من الهواجر^(۱) ، وَلَقِيَتْ مِنَّا الْأَبَاعِرُ ، فَعُقُوبَةُ لَنَا فِيمَا أَفْسَدْنَا من حسن ظننا » ، ثم أنشأ يقول :

رَجَعْنَا سَالِمِينَ كَمَا خَرَجْنَا وَمَا خَابَتْ سَرِيَّةُ سَالِمِينَ

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « كان إذا رأني قرَّب من حاجبٍ حاجباً ، فأقول له : لا تقبِّح وجهك إلى قبحة ، فوالله ما أتيتك لطمعٍ راغباً ، ولا لخوفٍ راهباً » .

• • •

وذم أعرابي رجلاً فقال : « عَبْدُ الْفَعَالِ ، حُرُّ الْمَقَالِ ، عَظِيمُ الرِّوَاقِ ، دَنِيءُ الْأَخْلَاقِ ، الدَّهْرُ يَرْفَعُهُ ، وَنَفْسُهُ تَضَعُهُ » .

• • •

وقال أعرابي : « دَخَلَتِ الْبَصْرَةَ ، فَرَأَيْتُ ثِيَابَ أَحْرَارٍ عَلَى أَجْسَادِ عَبِيدٍ ، إِقْبَالُ

(۱) المواجر جمع هاجرة : وهي شدة الحر .

حَظَّهُمْ إِدْبَارُ حِظِّ الْكِرَامِ ، شَجَرٌ أَصُولُهُ عِنْدَ فُرُوعِهِ ، شَغَلَهُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ رَغْبَتُهُمْ
فِي الْمُنْكَرِ .

• • •

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَاكَ سُمُّ الْمَجَالِسِ ، أَعْيَا مَا يَكُونُ عِنْدَ جِلْسَانِهِ ،
أَبْلَغُ مَا يَكُونُ عِنْدَ نَفْسِهِ » .

• • •

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَلِكَ مَنْ يُدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْجَهْلِ ، أَحْوَجُ مِنْهُ إِلَى
مَنْ يُدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْمَرَضِ ، إِنَّهُ لَا مَرَضَ أَوْجَعُ مِنْ قِلَّةِ عَقْلٍ » .

• • •

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا لَمْ يَدْرِكْ بَثْرَهُ فَقَالَ : « كَيْفَ يُدْرِكُ بَثْرَهُ مَنْ فِي صَدْرِهِ
مِنَ الْبَلْغَمِ حَشْوٌ مُرَقَّعٌ ، لَوْ دُقَّتْ بِوَجْهِهِ الْحِجَارَةُ لِرَضَّهَا^(۱) ، وَلَوْ خَلَا
بِالْكَعْبَةِ لَسَرَقَهَا » .

• • •

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « تَسَهَّرَ وَاللَّهِ زَوْجَتَهُ جُوعًا إِذَا سَهَرَ النَّاسَ شَبَعًا ، نَمَّ
لَا يَخَافُ مَعَ ذَلِكَ عَاجِلَ عَارٍ ، وَلَا آجَلَ نَارٍ ، كَالْبَهِيمَةِ أَكَلَتْ مَا جَمَعَتْ ، وَنَكَحَتْ
مَا وَجَدَتْ » .

• • •

وَسَمِعَ أَعْرَابِي رَجُلًا يَزْعَقُ فَقَالَ : « وَيْحَكَ ! إِنَّمَا يَسْتَجَابُ لِمُؤْمِنٍ أَوْ مَظْلُومٍ ،
وَلَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَأَرَاكَ يَخِيفُ عَلَيْكَ ثِقَلُ الذَّنُوبِ ، فَيَحْسُنُ عِنْدَكَ مَقَابِحُ الْعَيُوبِ » .

• • •

(۱) رَضَّهَا : دَثَمَهَا .

وذکر أعرابی رجلاً بضعف فقال : « سيء الروية ، قليل التقيّة ، كثير السّعاية ،
ضعيف النكايّة » .

• • •

وذکر أعرابی رجلاً فقال : « عليه كلّ يوم من فعله شاهدٌ بفسّقه ، وشهاداتُ
الأفعال ، أعدل من شهادات الرجال » .

• • •

وذکر أعرابی رجلاً بذلّة فقال : « عاش خاملاً ، ومات مؤثوراً » .

• • •

وقال أعرابی لرجل شريف البيت ، دنىء الهمة : « ما أحوجك أن يكون عرّضك
لمن يصونه ، فتكون فوق ما أنت دونه » .

• • •

وذکر أعرابی رجلاً فقال : « إن حدّثته يسأبّك إلى ذلك الحديث ، وإن سكت
عنه أخذ في الترهات^(١) » .

• • •

وذکر أعرابی رجلاً راكباً هواه فقال : « والله لهو أقصدُ إلى ما يهواه ، من
الطُّرقِ إلى المياه ، أفقره ذلك أو أغناه » .

• • •

وقال أعرابی : « ليت فلاناً أقالني من حسن ظنّي به ، فأختم بصواب إذ بدأت
بخطأ ، ولكن من لم تُحكّمه التجارب ، أسرع بالمدح إلى من يستوجب الذم ، وبالذم
إلى من يستوجب المدح » .

• • •

(١) الترهات جمع ترهة : وهى الباطل .

وقال أعرابي لرجل : « هل أنت إلا أنت لم تَغَيَّرْ ؟ ولو كنتَ من حديدٍ مُحَمَّى
وَوُضِعَتْ عَلَى عَيْنِي لَمْ تَذُبْ » .

• • •

وقال أعرابي لأخيه : « قد كنتُ نهيتك أن تَدْنُسَ عِرْضَكَ بعرض فلان ، وأُعْلِمِكَ
أنه سمينُ المال ، مهزولُ المعروف ، مِنَ المرزوقين فَجَاءَ ، قصيرُ عمرِ الغني ، طويلُ
عمرِ الفقير » .

• • •

وقال أعرابي : « لا ترك الله مُحَا في سُلَامِي ^(١) ناقةٍ حملتني إليك ، وَلِلدَّاعِي عَلَيْهَا
أَحَقُّ بالدعاء عليه ، إذ كَلَّفَهَا المسيرَ إِلَيْكَ » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « لا يُؤْنَسُ جاراً ، ولا يُؤْهَلُ داراً ، ولا يَبْعَثُ ناراً » .

• • •

وذكر أعرابي امرأةً قبيحةً فقال : « تُرْخِي ذَيْلَهَا عَلَى عِرْقِ قُوبِي نَعَامَةً ، وَتُسَدِّلُ خِمَارَهَا
عَلَى وَجْهِهَا كَالْجَعَالَةِ ^(٢) » .

• • •

وقال أعرابي لامرأة : « وَاللهِ إِنَّكَ لَمُشْرِفَةُ الأذنين ، جَاحِظَةُ العَيْنين ، ذاتُ خَلْقٍ
مُتَضَائِلٍ : يُعْجِبُكَ الباطل ، إن شَبِعْتَ بطرت ، وإن جُعْتَ صَخَبْتَ ^(٣) ، وإن رأيتَ
حَسَنًا دَفَنْتَهُ ، وإن رأيتَ سَيِّئًا أَدْعَيْتَهُ ، تَكْرَمِينَ من حَقْرِكَ ، وَتَحْقِرِينَ من
أَكْرَمِكَ » .

(العند الفريدي ٢ : ٩٠ - ٩٣)

• • •

(١) السلاحيات : عظام الأصابع .

(٢) الجعالة : خرقة ينزل بها القدر .

(٣) الصخب : شدة الصوت .

وسأل أعرابي رجلا فخرمه ، فقال له أخوه : « نزلتَ وَاللَّهِ بِوَادٍ غَيْرِ مَمْطُورٍ ،
وَأَتَيْتَ رَجُلًا بِكَ غَيْرِ مَسْرُورٍ ، فَلَمْ تُدْرِكْ مَا سَأَلْتَ ، وَلَا نَلْتَ مَا أَمَلْتَ ، فَارْتَحِلْ
بِنَدَمٍ ، أَوْ أَقِمِ عَلَى عَدَمٍ » . (المقدم الفريد ۲ : ۹۲ ، وزهر الآداب ۲ : ۵)

• • •

ودخات أعرابية على حمدونة بنت المهدي ، فلما خرجت سألت فقالت : « وَاللَّهِ
لَقَدْ رَأَيْتَهَا فَمَا رَأَيْتَ طَائِلًا ، كَأَنَّ بَطْنَهَا قَرِيبَةٌ ، كَأَنَّ ثَدْيَهَا دُبَّةٌ ، كَأَنَّ اسْتِهَا
رُقْعَةٌ^(۱) ، كَأَنَّ وَجْهَهَا وَجْهُ دَيْكٍ قَدْ نَفَسَ عَفْرِيقَهُ^(۲) يِقَاتِلُ دَيْكًا » .
(المقدم الفريد ۲ : ۹۲ ، والامالي ۲ : ۱۵۶)

• • •

وذم أعرابي رجلا فقال : « أَفْسَدَ آخِرَتَهُ بِصَلَاحِ دُنْيَاهُ ، فَفَارَقَ مَا أَصْلَحَ غَيْرَ
رَاجِعٍ إِلَيْهِ ، وَقَدِمَ عَلَى مَا أَفْسَدَ غَيْرَ مَنْتَقِلٍ عَنْهُ ، وَلَوْ صَدَّقَ رَجُلٌ نَفْسَهُ مَا كَذَّبْتَهُ ، وَلَوْ
أَلْقَى زَمَامَهُ أَوْ طَاهُ رَاحِلَتَهُ » . (زهر الآداب ۲ : ۶)

• • •

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه : « وَاللَّهِ لَوْ ضَوَّرَ الْجَهْلُ لِأَظْلَمِ
مَعَهُ النَّهَارُ ، وَلَوْ ضَوَّرَ الْعَقْلُ لِأَضَاءِ مَعَهُ اللَّيْلُ ، وَإِنَّكَ مِنْ أَفْضَلِهِمَا لَمُعْدِمٍ نَخَفِ اللَّهِ ،
وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ وَرَائِكَ حَكْمًا لَا يَحْتَاجُ الْمُدَّعَى عِنْدَهُ إِلَى إِحْضَارِ بَيِّنَةٍ » .
(زهر الآداب ۲ : ۱۶۳)

• • •

وقال أعرابي يعيب قوماً : « هُمْ أَقْلُ النَّاسِ ذُنُوبًا إِلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ جُرْمًا
إِلَى أَصْدِقَائِهِمْ ، يَصُومُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيُنْظِرُونَ عَلَى الْفَحْشَاءِ » .
(البيان والتبيين ۳ : ۲۳۰ ، والمقدم الفريد ۲ : ۹۰)

• • •

(۱) شجرة عظيمة . (۲) عفرية الديك : ريش عنقه .

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « صَغِيرُ الْقَدْرِ ، قَصِيرُ الشَّبْرِ ^(١) ، ضَيِّقُ الصَّدْرِ ، لَثِيمُ النَّجْرِ ^(٢) ، عَظِيمُ الْكِبَرِ ، كَثِيرُ الْفَخْرِ » .

(البيان والتبيين ١ : ١٥٧ ، والمقد الفريد ٢ : ٩١)

وذكر أعرابي أميراً فقال : « يَقْضِي بِالْعَشْوَةِ ، وَيَطِيلُ الذَّشْوَةَ ، وَيَقْبَلُ الرِّشْوَةَ ^(٣) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٠ ، والمقد الفريد ٢ : ٩١)

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعرابياً يقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمَّ أَوْفَى » قال : « وَمَنْ أُمَّ أَوْفَى ؟ » ، قال . « امرأتى ، وإنيها لحَمَاءُ مِرْغَامَةٍ ^(٤) ، أ كُولُ قَامَةٍ ^(٥) لَا تَبْقَى لَهَا حَامَةٌ ^(٦) ، غير أنها حسناء فلا تُفْرَكُ ^(٧) ، وأم غلمان فلا تُتْرَكُ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول : « وَاللَّهِ إِنْ شُرِبَكَ لِأَشْتِفَافٍ ^(٨) ، وَإِنْ ضِجَّعْتِكَ لِأَنْجِعَافٍ ^(٩) ، وَإِنْ شِمَلْتِكَ لِأَلْتِفَافٍ ، وَإِنْكَ لَتَشْبَعُ لَيْلَةً تُضَافُ ، وَتَنَامُ لَيْلَةً تُخَافُ » ، فقال لها : « وَاللَّهِ إِنْكَ لَكَرْوَاءُ السَّاقِينَ ^(١٠) ، قَعَوَاءُ الْفَخْذِينَ ^(١١) ، مَقَاءُ الرُّفْعِينَ ^(١٢) ، مَفَاضَةُ الْكَشْحِينَ ^(١٣) ضَيْفُكَ جَائِعٌ ، وَشَرْكُ شَائِعٌ » .

(الأمل ١ : ١٠٤)

(١) الشبر : التد . (٢) النجر : الأصل . (٣) العشوة والنشوة والرشوة بثلاث في الثلاثة ، العشوة : ركوب الأمر على غير بيان ، والنشوة : السكر ، والرشوة : الجعل والبرطيل « بكسر الباء » . (٤) المرغامة : المغضبة لبعدها . (٥) قامة : اسم فاعل ، من قم : أى أكل ما على الحيوان كانه ، وقع : كنهه : (٦) الحامة : الحاصة . (٧) فرك زوجته وفركته كسمع ، وكنصر شاذ : أبغضته ، ورجل مفرك بالتشديد تبغضه النساء وامرأة مفركة : يبغضها الرجال . (٨) اشتف ما في الإناء : شربه كله . (٩) الانجماف : الانصراع . (١٠) الكرواء : الدقيقة الساقين . (١١) القعواء : الدقيقة ، أو الدقيقة الفخذين ، وقيل : هى المتباعدة ما بين الفخذين (كالفجاء) . (١٢) الرفغ : أصل الفخذ ، والمقاء : الدقيقة الفخذين ، أو الطويلة من المقق بالتحريك وهو الطول . (١٣) المفاضة : المسترخية ، والكشجان : الحاصرتان .

عن عبد الرحمن عن عمه قال : مرّ أعرابي برجل يكنى أبا الغمر - وكان ضخماً
جسيماً ، وكان بواباً لبعض الملوك - فقال : « أَعينَ الفقير الحسير ، فقال : ما أَلحفَ
سائلكم ، وأكثر جائقكم ، أراحنا الله منكم » ، فقال له الأعرابي : « لو فرّق
قوتُ جسمك في جِصوم عشرة منا ، لكفانا طعامك في يومٍ شهراً ، وإنك اعظيم
السَّرطَةَ^(١) ، شديد الضَّرطَةَ ، لو ذرّى بِمحبَّتكَ بَيدَرٌ ، لكفّته ریحُ الجُرَبِياءِ^(٢) » .
(الأماك ١ : ٢٢٦)

٦٤ - قولهم في الغزل

سئل أعرابي عن امرأة فقال : « هي أرقُّ من الهواء ، وأطيب من الماء ، وأحسن
من النِّعْماء ، وأبعد من السماء » .
(الأماك ١ : ٢٠١ ، والعقد الفريد ٢ : ٩٤)

وذكر أعرابي امرأة فقال : « لها جِلْدٌ من لؤلؤ ، مع رائحة المسك ، وفي كل عُضْوٍ
منها شمسٌ طالعة » .

وذكر أعرابي امرأة فقال : « كاد الغزال أن يكونها ، لولا ما تمَّ منها
وما نقصَ منه » .

وذكر أعرابي نسوة خرجن متنزهاتٍ فقال : « وجوة كالذنانير ، وأعناق
كأعناق اليعافير^(٣) ، وأوساطٌ كأوساط الزنابير ، أقبلن إلينا بِحُجُولٍ^(٤) تحفِقُ ،
وأوشحةٌ تُعلَقُ ، وكم أسيرٍ لهن وكم مُطَلَقٍ » .

(١) البلعة ، من سرطه كنصر وفرح : ابتلاءه . (٢) الحبقة : الضرطة ، والبيدر : الموضع الذي
تداس فيه الحبوب ، والجربياء : ريح الشمال الباردة . (٣) اليعافير جمع يعفور : وهو ولد البقرة
الروحشية . (٤) الحجول جمع حجل بالكسر والفتح : وهو الخللخال . والأوشحة جمع وشاح بالضم
والكسر : أديم هريص يرصع بالجواهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

ووصف أعرابي امرأة حسناء فقال : « تَبِيْمٌ عَنِ خَمَشٍ ^(۱) اللَّتَاتِ ، كَأَقَاحِي
النَّبَاتِ ، فَالسَّعِيدُ مِنْ ذَاقِهِ ، وَالشَّقِيُّ مِنْ رَاقِهِ » .

وذكر أعرابي امرأة فقال : « هِيَ السُّقْمُ الَّذِي لِابْرَاءٍ مِنْهُ ، وَالْبِرُّ الَّذِي لِاسْقَمٍ مَعَهُ
وَهِيَ أَقْرَبُ مِنَ الْحَشَاءِ ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّمَاءِ » .

ووصف أعرابي امرأة فقال : « بِيضَاءُ جَعْدَةٍ ^(۲) لَا يَمَسُّ الثَّوْبُ مِنْهَا
إِلَّا مُشَاشَةً ^(۳) كَتَفَيْهَا ، وَحَلْمَةً تُدِيبُهَا ، وَرَضْفِي رَكْبَتَيْهَا ، وَرَانِفَتِي أَلْيَتَيْهَا ،
وَأَنشُد :

أَبَتِ الرَّوَادِفِ وَالثَّدِيَّ لِقَمُصِهَا مَسَّ الْبَطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظَهْرًا
وَإِذَا الرِّيحُ مَعَ الْعَشِيِّ تَنَاوَحَتْ نَبَّهْنَ حَاسِدَةً وَهَجْنَ غَيُورًا

وذكر أعرابي امرأة فقال : « تَلَكُ شَمْسٌ بَاهَتْ بِهَا الْأَرْضُ شَمْسَ سَمَاءِهَا ،
وَإِيسَ لِي شَفِيعٌ فِي اقْتِضَائِهَا ^(۴) ، وَإِنْ نَفْسِي لَكَتُومٌ لِدَائِهَا ، وَلَكِنِّي تَفِيضٌ
عِنْدَ امْتِلَائِهَا » .

وقال أعرابي في امرأة ودَّعَهَا لِلْمَسِيرِ : « وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ دَمْعَةً تَرَقَّرَقُ مِنْ

(۱) خدش ، والأقاحي جمع أنحوان بالضم : وهو نبت طيب الريح حواله ورق أبيض ، ووسطه
صفر ، وراقه : أعجبه .

(۲) الجعد من الشعر : خلاف السبط ، أو القصير منه ، ورجل جعد الشعر والأنثى جمدة ، والجعد أيضا
الدمج الخلق لمجتمع بعضه إلى بعض ، والجعد إذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحبان : أحدهما أن
يكون مصوب الجوارح شديد الأمر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثاني أن يكون شعره جمدا غير
سبط لأن سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور المعجم من الروم والفرس ، وجمودة الشعر هي الغالبة على
شعور العرب . (۳) المشاشة : رأس المعظم ، والرضف : عظام في الركبة كالأصابع المضمومة قد أخذ
بعضها بعضا ، والرانفة : أسفل الألية عند القيام .

(۴) اقتضى دينه وتناضاه بمعنى .

عين بِإِثْمِدٍ^(۱) على ديباجة خَدَّ ، أحسن من عِبْرَةٍ أمطرتها عينها ، فأعشت
بها قلبي .

وقال أعرابي : « إن لي قلباً مَرُوعاً^(۲) ، وعيناً دَمُوعاً ، فماذا يصنع كل واحد
منهما بصاحبه ، مع أن داءهما دواؤهما ، وَسُقْمُهُمَا شفاؤُهُمَا ؟ » .

وقال أعرابي : « مَا أَشَدَّ جَوَلَةَ الرَّأْيِ عند الهوى ، وَفِطَامَ النَّفْسِ عن الصَّبَا !
ولقد تقطعت كبدى ! لَوْمُ العاذِلِينَ للعاشقين قِرْطَةً في آذانهم ، وَلَوْعَاتِ الحُبِّ
نيرانٌ في أبدانهم ، مع دموع على المغاني^(۳) ، كَغُرُوبِ السَّوَانِي . » .

وذكر أعرابي امرأة فقال « لقد نَعِمْتَ عَيْنٌ نَظَرَتْ إِلَيْهَا ، وَشَقِيَ قَلْبٌ تَفَجَّعَ
عليها ، ولقد كنت أزورها عند أهلها ، فَبِرَحْبِ بِي طَرَفُهَا ، وَبِتَجَمُّنِي لِسَانُهَا »
قيل له فما بلغ من حُبِّك لها؟ قال : « إني ذا كِرٍّ لها وبينى وبينها عَدُوَّةُ الطَّائِرِ ،
فأجد لذكرها ريحَ المسك . » .

وقال أعرابي : « أَلْهَوَى هَوَانٌ ، وَلَكِنْ غُلِطَ بِاسْمِهِ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ مِنْ يَقُولِ ،
مَنْ أَبْكَتْهُ المَنَازِلُ وَالطَّلُولُ . » .

وذكر أعرابي امرأة فقال : « إن لساني لِيَذِكُرُهَا لَدَلُولِ ، وَإِنْ حَبَّهَا لِقَلْبِي
لِقَتُولِ ، وَإِنْ قَصِيرَ اللَّيْلِ بِهَا لِيَطُولُ . » .

(۱) الإثمد : السكحل ، والديباجة : الخد .

(۲) مفره .

(۳) المغاني جمع مغنى : وهو المنزل ، والغروب جمع غرب كشمس : وهو الدلو العظيمة ، والحوافى

جمع سانية : وهى الزفة يسق عليها ، والغرب وأداته .

ووصف أعرابي نساء ببلاغة وجمال فقال : « كلامهن أقتل من النبل ،
وأوقع بالقاب من الوبل بالمجل ، فروعهن أحسن من فروع النخل » .
(العقد الفرید ٢ : ٩٣ - ٩٥)

• • •

وقال أعرابي : « دخلت البصرة ، فرأيت أعیناً دُعجاً^(١) ، وحوَاجِبَ زُجَا ،
يَسْحَبْنَ الثياب ، وَيَسْلُبْنَ الألباب » . (العقد الفرید ٢ : ٩٣ ، وزهر الآداب ٣ : ١٧)

• • •

وذكر أعرابي نساء فقال : « ظَعَانٌ^(٢) في سَوَالِفِهِنَّ طُولٌ ، غير قبيحات
الطُول^(٣) إذا مَشَيْنَ أسْبُلْنَ الذيولَ ، وإن رَكِبْنَ أثقلنَ الحُمُولَ^(٤) » .
(زهر الآداب ٣ : ١٧)

• • •

وقال أعرابي : « لقد رأيت بالبصرة بُرُوداً كأنها صُبغت بأنوار الرَبِيع ، فهي
تَرُوع^(٥) ، واللابس لها أروع » . (العقد الفرید ٢ : ٩٦)

• • •

وقال أعرابي : « شَيِّعْنَا الحَيَّ وفيهم أدوية السَّقَامِ^(٦) ، ففَرَّأْنَ بِالْحَدَقِ السَّلَامَ ،
وَحَرَسَتْ الألسن عن الكلام » . (الأمل ٢ : ٥٠)

• • •

وستات أعرابية عن أهوى فقالت : « لَامُتَّعَ الهوى بملكه ، ولا مُلِيَّ^(٧) »

(١) دُعجاء جمع دُعجاء ، وصف من الدهج بالتحريك : وهو سواد العين مع سعتها . وزجاء جمع زجاء من
الزجاج بالتحريك أيضاً : ودو دقة الحاجبين في طول .
(٢) ظَعَانٌ جمع ظعينة : والظعينة في الأصل وصف للمرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت
في بيتها لأنها تصير مظامونة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظمن بها ، والدوالم جمع سالفه :
وهي ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى نقرة الترقوة . (٣) عطلت المرأة كفرح مطلا
بالتحريك وهطولا : إذا لم يكن عليها حل . (٤) الحمول : الحوادج : أو الإبل عليها الحوادج جمع حمل
بالسكر ويفتح . (٥) تعجب .
(٦) أي المحجوبات المداوية للسقام .
(٧) ملاء الله حبيبه تمليية : مته به وأعاشه معه طويلا .

بسلطانه ، وَقَبَضَ اللهُ يده ، وأوهنَ عَضُدَهُ ، فإنه جائرٌ لا يُنصِفُ في حكم ، أعمى
لا ينطق بعديل ، ولا يُقَصِّرُ في ظلم ، ولا يرعوى لدم ، ولا ينقاد لحق ، ولا يُبقي
على عقل وفهم . لو ملكَ الهوى وَأَطِيع ، لردَّ الأمور على أدبارها ، والدنيا على أعقابها .

• • •

وسئل أعرابي عن الهوى فقال : « هو داء تدأوى به النفوس الصَّحَّاح ، وتَسَلُّ منه
الأرواح ، وهو سَقَمٌ مُسَكَّتَمٌ ، وَحَمِيمٌ ^(١) مُضْطَرَمٌ ، فالقلوب له مُنْضَجَةٌ ، والعيون ساكِبَةٌ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٨)

• • •

ووصف أعرابي امرأةً يحبها فقال : « هي زينة الحُضُور ، وباب من أبواب
السرور ، وَلَذِكْرُهَا في المغيب ، والبعدِ عن الرقيب ، أشهى إلينا من كل ولد
وَنَسِيب ، وبها عُرِفَ فضل الحور العين ، واشتبقَ بها إلهن يوم الدين . »
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

• • •

ووصف أعرابي نساءً فقال :

« يَلْتَمِثُنَ على السَّبَائِكِ ^(٢) ، وَيَتَشِحْنَ على النِّيَّازِكِ ^(٣) ، وَيَأْتِزِرْنَ على العَوَانِكِ ^(٤)
وَيَرْتَفِقْنَ على الأَرَانِكِ ^(٥) ، وَيَتَهَادِينَ على الدَّرَانِكِ ^(٦) ، ابتسامهن وميصرهن ،
عن وُلَيْعٍ كالإغْرِيبِضِ ^(٧) ، وهنَّ إلى الصَّبَا صُورٌ ، وعن أَخْلَافِ نُورٍ ^(٨) . »
(الأمل ١ : ٤٤ ، زهر الآداب ٣ : ١٨)

(١) الحميم : الماء الحار . وفي الأصل : « وحى » ، وأراه محرفاً عن حميم ، ويناسبه قوله بعد :
والعيون ساكية .

(٢) التام على الفم ، والذام على طرف الأنف ، تلثمت المرأة وتلغمت ، والسبائك هنا الأسنان شبيهها
لبياضها بالسبائك . (٣) النيازك جمع نيزك كجعفر : وهو الرمح القصير .

(٤) العوانك جمع عانك : وهو رمل منعقد يشق فيه البعير لا يقدر على السير .

(٥) الأرائك جمع أريكة : وهي السرور أو الفرش ، وارتفق : انكأ على مرفق يده ، أو على الخدة .

(٦) يتهادين : يمشين مشياً ضعيفاً ، والدرايك : الطنافس جمع درنوك كمصفور ، ودرنوك كزبرج .

(٧) الوبيض : العمعان الخلق ، والوليع : الطالع ، كأنه نظم اللوائ في شدة بياضه . قال الشاعر يصف
نفر امرأة : وتبسم عن نير كالوليع ، والإغريض : الطلع حين ينشق عنه كافوره ، والبرد (بتحرك للراء) .

(٨) صور : موائل ، ومنه قيل للمائل للمنق أصور ، ونور : فافرات من الريبة جمع نوار كحباب .

قولهم في الوصف

٦٥- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سئل أعرابي عن مطر فقال :

« استقلَّ سُدٌّ مع انتشار الطَّفْلِ^(١) ، فَشَصَا وَاحْزَأَل^(٢) ، ثم اكَفَهَرَّتْ أَرْجَاؤُهُ ،
وَاحْمَوَمَتْ أَرْحَاؤُهُ ، وَابْدَعَرَّتْ فَوَارِقُهُ^(٣) ، وَتَضَا حَكَّتْ بَوَارِقُهُ ، وَاسْتَطَارَ وَادِقُهُ ، وَارْتَمَّتْ
جُوبُهُ ، وَارْتَعَنَ هَيْدَبُهُ^(٤) ، وَحَشَكَّتْ أَخْلَافُهُ ، وَاسْتَقَلَّتْ أَرَادِفُهُ ، وَانْتَشَرَتْ
أَكْنَافُهُ^(٥) ؛ فَالرَّعْدُ مُرْتَجِسٌ ، وَالْبَرْقُ مُخْتَلِسٌ ، وَالْمَاءُ مُنْبَجِسٌ^(٦) ، فَاتْرَعَّ
الْقُدْرُ ، وَانْتَبَثَ الْوَجْرُ^(٧) ، وَخَلَطَ الْأَوْعَالَ بِالْأَجَالِ ، وَقَرَنَ الصَّيْرَانَ بِالرَّمَالِ^(٨) ،

(١) استقل : ارتفع ، والش : السحاب الذي يمد الأفق : والطفل : العشي إلى حد المغرب .

(٢) شصا : ارتفع ، واحزأل مثله . (٣) المكفهرة من السحاب : الذي يركب بعضه بعضا ،
وأرجازه : نواحيه جمع رجا كعصا ، واحومت : اسودت ، وأرجازه : أوساطه : جمع رجا كعصا ، وابدعرت
تفرقت : والفوارق جمع فارق ، وهو السحاب الذي ينقطع من معظم السحاب ، وأصله في الإبل ، يقال
ناقة فارق : وهي التي تندعن الإبل عند نتاجها .

(٤) استطار : انتشر ، والودق الذي يكون فيه الودق (كشمس) وهو المطر العظيم القطر ، وارتتمت
الأمات ، وجوبه : فرجه ، وارتعن : استرخى ، والهيدب : الذي يتدل ويدنو من الأرض مثل هذب للقطيفة
(٥) حشكت : امتلأت ، والأخلاف جمع خلف كحمل ، وهو للناقة كالفرع للبصرة ، أرفافه : مآخيره
والأكناف : النواحي .

(٦) مرتجس : مصوت من الرجس كحمل وهو الصوت ، مختلس : كأنه يختلس البصر لشدة لمعانه ،
منبجس : منفجر .

(٧) أترع : ملا والقدر جمع غدیر ، والوجر جمع وجار ككتاب وسحاب : وهو حجر الضيق والشعب ،
وانتبث : أخرج نبيثها وهو تراب البئر والقبر ، أي أنه لشدة هدم الوجر حتى أخرج ما بداخلها من التراب

(٨) الأوعال جمع وعل ، (كشمس وكتف ودئل) : التيس الجبل ، والآجال جمع أجل كحمل وهو
القطيع من البقر أي أنه لشدة جمع بين الوحول - وهي تسكن الجبال - وبين البقر - وهي تسكن للقيمان
والرمال ، والصيران جمع صوار كشجاع ، وصيار ككتاب وهو القطيع من البقر ، والرئال جمع رأل كشمس
فرخ النعام ، فالرئال تسكن الجبله (بالتحريك وهي الأرض الصلبة المستوية المتن) والصيران تسكن للرمال
والقيمان ، فقرن بينهما .

فلأودية هدير، وللشراج خريير، وللتلاع زفير^(١)، وحطّ النبع والعتم، من القلل
 الشم، إلى القيعان الصحم^(٢)، فلم يبق في القلل إلا معصم مجرّ نثم، أو داحض^(٣)
 مجرّ جم^(٤)، وذلك من فضل رب العالمين، على عباده المذنبين « .
 (الأمالي : ١ : ١٧٣)

٦٦- أعرابي يصف مطراً

عن الأصمعي قال : سمعت أعرابياً من غنيّ يذكّر مطراً أصاب^(٤) بلادهم في غيب
 جذب فقال :

« تدارك ربك خلقه ، وقد كلبت الأنحمال ، وتقاصرت الآمال ، وعكف
 الياس ، وكظمت الأنفاس ، وأصبح الماشي مضرباً^(٥) ، والمترب^(٦) مُعديماً ، وجفيت
 الحلائل ، وامتنت العقائل ، فأنشأ سحاباً ركاماً^(٦) ، كنهوراً سجّاماً ، بروقه
 متألقة ، ورعوده متقعقة ، فسح ساجياً^(٧) راكداً ، ثلاثاً غير ذى فواق ، ثم أمر
 ربك الشمال ، فطحرت^(٨) ركامه ، وفرقت جهامه ، فانقشع محموداً ، وقد أحيا

(١) هدير : أي صوت كهدير الابل ، الشراج جمع شرج كشمس وهو ميل الماء من الحرة إلى السهل .
 والتلاع : مسايل الماء من الجبال حتى ينصب في الوادي . (٢) النبع : شجر يعخذ منه القسي ينبت في
 الجبال ، والعتم : الزيتون الجبل كقفل وعتق ، والقلل : أعالي الجبال جمع قلة كفرصة ، والشم : المرتفعة
 جمع شماء والقيعان جمع قاع : وهي أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، والصحم : التي نعلوها
 حرة جمع اصحم . (٣) المعصم : الذي قد تمسك بالجبال وامتنع فيها (ويقال للرجل الذي يمسك بعرف فرسه
 خوف السقوط : معصم) مجرّ نثم : متقبض ، الداحض : الذي يفحص برجليه عند الموت ، والمجرّ جم : المصروع .
 (٤) صاب : جاد ، وكلبت : اشتدت ، والأنحمال جمع محل كشمس وهو القحط . وعكف : أقام .
 (٥) الماشي : صاحب الماشية ، مشي الرجل وأمشى : كثرت ماشيته ، والمصرم : المقارب المال المقل ،
 والمترب للنفي الذي له المال مثل التراب كثرة ، يقال : أترب الرجل إذا كثرت ماله (وقل أيضاً : ضد)
 وترب كفرح إذا افتقر كأنه لصق بالتراب ، وامتنت : استخدمت واعتملت ، والعقائل جمع عقيلة ، وأنشأ
 أحدث ، والنشر : للسحاب أول ما يخرج .

(٦) الركام : المتراكم ، والكنهور من السحاب قطع كأنها الجبال ، أو المتراكم منه ، واحده كنهورة ،
 وسجّام : صباب ، ومتألقة : لامة ، ومتقعقة : مصوقة .

(٧) سح : صب ، ساجياً : ساكناً ، راكداً : ثابتاً ، والفواق : أن يصب صبة ثم يسكن ، ثم يصب
 أخرى ثم يسكن مأخوذ من فواق الناقة وهو ما بين الحلبين ، كأنه يحلب حلبه ثم يسكن ، ثم يحلب أخرى
 ثم يسكن . (٨) طحرت : أذهبت وأهدمت ، والجهام : السحاب الذي قد هراق ماءه ، تكنت : تحصى .

وَأَغْنَى ، وَجَادَ فَارُوَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَأَنْكَتَ نِعْمَهُ ، وَلَا تَنْفَدَ قِسْمُهُ ، وَلَا يَخِيْبُ
سَأَلُهُ ، وَلَا يَنْزُرُ^(١) نَائِلُهُ .
(الأمالي ١ : ١٧٦)

٦٧- أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : « سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن مطر صاب
بلادهم فقال :

« نَشَأَ عَارِضاً^(٢) ، فَطَلَعَ نَاهِضاً ، ثُمَّ ابْتَسَمَ وَامِضاً ، فَأَعَسَ فِي الْأَقْطَارِ فَأَسْجَاهَا ، وَامْتَدَّ
فِي الْآفَاقِ فَغَطَّاهَا ، ثُمَّ ارْتَجَزَ^(٣) فَهَمَّهُمْ ، ثُمَّ دَوَى فَاظْلَمَ ، فَأَرَكَّ وَدَثَّ ، وَبَغَشَ وَطَشَّ
ثُمَّ قَطَّقَطَ^(٤) فَأَفْرَطَ ، ثُمَّ دَيْمَ فَأَغْمَطَ ، ثُمَّ رَكَدَ فَانْجَمَ ، ثُمَّ وَبَلَ فَسَجَمَ ، وَجَادَ فَأَنْعَمَ ،
فَقَمَسَ الرَّبَابَ^(٥) وَأَفْرَطَ الزُّبَى ، سَبْعاً تَبَاعَا ، مَا يَرِيدُ انْقِشَاعَا ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَتْ الْحُزُونُ^(٦)
وَتَضَحَّضَحَتِ الْمُتُونُ ، سَاقَهُ رَبُّكَ إِلَى حَيْثُ شَاءَ ، كَمَا جَلِبَهُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ . »
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٤٩)

- (١) ينزر : يقل ، ومنه قيل : امرأة نزور : إذا كانت قليلة الولد .
(٢) العارض : السحاب المعترض في الأفق ، وومض البرق كوعد : لمع خفيفاً ، ولم أجد في كتب اللغة
« أعس » وإنما الذي فيها « عمس السحاب : دنا من الأرض » وأسجاءها : غطائها ، وفي الأصل « أسجاءها »
بالماء وهو تصحيف . (٣) ارتجز الرعد : صات ، وارتجز السحاب : تحرك بطيئاً لكثرة مائه ،
وههم الرعد : إذا سمعت له دويماً ، والهمهمة : كل صوت معه جحج ، وأرك : أتى بالرك (بفتح الراء ويكسر)
وهو المطر القليل أو هو فوق الدث ، والدث بالفتح : المطر الضعيف ، والبغشة بالفتح : المطرة الضعيفة
وقد بغشت السماء كنع ، والطنش : المطر الضعيف وهو فوق الرذاذ ، طشت السماء كنصر وضرب .
(٤) القطقط بالكسر : المطر المتتابع العظيم القطر ، وقد قططت السماء ، والديمة بالكسر : مطر
يدوم في سكون بلا رعد وبرق ، أو يدوم أياماً ، وقد ديمت السماء . أغمط : دام ولازم ، وأنجمت
السماء : أسرع مطرها ودام ، واللويل : المطر الشديد الضخم القطر ، وقد وبات السماء كوعد : أمطرته ،
وسجم كدخل : سال وانصب . (٥) قس الربا : كصر وضرب : غوصها ، وأفرطها : ملاها
حتى فاضت ، والزبي جمع زبية كفرصة ، وهي للرابية لا يعلوها الماء ، وحفرة تحفر لصيد الأسد (وهو
المراد هنا) سميت بذلك لأنهم كانوا يحفرونها في موضع حال .
(٦) الحزون جمع حزن كشمس وهو الذليظ من الأرض ، والمتون جمع متن كشمس : وهو ماصلب من
الأرض وارتفع ، والتضحضح والتضحضح : الماء القليل ، وقيل هو مالا غرق فيه ، وقيل هو
الماء إلى السكبين أو إلى أنصاف السوق - وفي لغة هذيل الكثير - وقد تضحضح الماء ، والتضحضح
أيضاً جرى للسراب ، تضحضح إذا ترقرق .

٦٨ - ثلاثة غلّة من الأعراب يصفون مطرا

عن الأصمعي قال : مررت بِغِلْمَةٍ من الأعراب يتماقلون^(١) في غدير ، فقلت لهم : أياكم يصفلي الغيث وأعطيه درهما ؟ فخرجوا إلى فقالوا : كلنا ، وهم ثلاثة ، فقلت لهم : صِفُوا ، فأياكم ارتضيت ووصفه أعطيته الدرهم ، فقال أحدهم :

« عَنْ لَنَا عَارِضٌ قَصْرًا^(٢) ، تسوقه الصبَا ، وتحدّوه الجنُوب ، يحبو حَبُو الْمُعْتَنِكَ^(٣) ، حتى إذا ازَلَّامَتْ^(٤) صدوره ، وانتحت خُصُورُهُ ، وَرَجَّعَ هَدِيرُهُ ، وَصَعَقَ زَيْبِرُهُ ، واستقل نَشَاصُهُ^(٥) ، وتَلَامَّ خِصَاصُهُ ، وارتعج ارتعاصُهُ ، وأوفدت سِقَابَهُ^(٦) ، وامتدت أطنابه ، تدارك وَدَقُهُ ، وتَأَلَّقَ بَرَقُهُ ، وَحَفَزَتِ تَوَالِيَهُ^(٧) ، وانسَفَحَتِ عَزَالِيَهُ ، فغادر الثَّرَى عَمِدًا^(٨) ، والعَرَّازُ ثَمِدًا ، والحَثَّ عِقْدًا^(٩) ، وَالضَّحَاضِحَ مُتَوَاصِيَةً ، وَالشَّعَابَ مُتَدَاعِيَةً »

(١) يتماقلون في الماء . (٢) عن : مرض ، والقصر : العشى ، والصبأ : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . (٣) عنك الرمل كنصر : تعقد وارتفع فلم يكن فيه طريق ، ورملة هانك : فيها فتعقد لا يقدر البعير على المشي فيها إلا أن يجبو ، واعتنك البعير واستعنك : حبا في العانك فلم يقدر على السير . وقال رؤبة : أوديت إن لم تحب حبو المعتنك .

(٤) ازلامت : ارتفعت ، والحصور جمع خصر : وهو وهط الإنسان ، والترجيع : ترديد الصوت في الحلق . (٥) النشاص ككتاب وصحاب : السحاب المرتفع ، أو المرتفع بعضه فوق بعض وخصاصه : فرجه ، وأصله الفرج بين الأثافي والثقب الصغير وكل محلل أو خرق في باب ومنخل وبرقع ونحوه ، وارتعج : ارتعد ، وارتعص : تلوى وانفض ، وارتعص الرمح : اشتد اهتزازة .

(٦) أوفدت : أشرفت ، والسقاب جمع سقب كشمس وهو عمود الجباب ، والأطناب جمع طناب كعنق وهو جبل طويل يشد به الوتد . (٧) حفزه كضربه : دفعه من خلفه ، والتوالي : الأجزاء والمآخير ، والعزالي بكسر اللام وفتحها جمع عزلاء : وهي مصب الماء من الراوية ونحوها ، وانسفحت : انصبت ، من سفح الدم أراقه . (٨) عمد الثرى كفرح : بلله المطر حتى إذا قبضت عليه تعقد لندوته ، والعراز : الأرض الصلبة مكان ثند : ند من الشاد بالتحريك وهو الندى . (٩) الحث : اليابس الحشن من الرمل ، والعقد ككتف وجبل : ماتعد من الرمل وتراكم ، والضحاضح كجففر والضحاضح : الماء لليبير ، متواصية : متواصلة ، والشعاب : شعبة كفرصة : وهي المسيل في الرمل ، وما عظم من سواق الأودية ، وصدع في الجبل يأوى إليه المطر .

وقال الآخر : « تَرَءَتْ المَخَائِلَ ^(١) من الأقطار ، تَحْنِ حَنِينَ العِشَارِ ، وتترامي
بِشُهْبِ النَّارِ ، قَوَاعِدُهَا متلاحِكةٌ ^(٢) ، وَبَوَاسِقُهَا متضاحِكةٌ ، وأرجاؤها متقاذفةٌ ،
وأعجازها مُترادِفةٌ ، وأرجاؤها مُتراصِفةٌ ، فوصلت الغرب بالشرق ، والوَبْلُ بالوَدُقِ ،
سَحًّا دَرًّا كَأَنَّ ^(٣) ، متتابعاً لَكَا كَأَنَّ ، فَضَحَضَحَتِ الجفَاجِفَ ^(٤) ، وأنهرت الصَّفَاصِيفَ ،
وَحَوَّضَتِ الاَصَالِفَ ، ثم أقلمت محمودة الآثار ، مَوْمُوقَةَ الخِيَارِ » .

فقال الثالث : والله ما خِلْتُهُ بلغُ خُمسًا ، فقال : هَلُمَّ الدرهمَ أَصِفْهُ لَكَ ، فقلت :
لا ، أو تقول كما قالا ، قال : لَأَبْدَنَّهَما ^(٥) وَصَفًّا ، ولَأُوقِفَنَّهَما رَصْفًا ، فقلت : هاتِ
لَهُ أبوكَ ، فقال : « بينما الحَاضِرُ بين الباس والإِبلاس ، قد غمرهم الإِشفاق ، رَهْبَةً
الإِملاق ، وقد جفَّت الأنواء ^(٦) ، ورفرف البلاء ، واستولى القنوط على القلوب ،
وكثر الاستغفار من الذنوب ، ارتاح ربك لعباده ، فأنشأ سحاباً مُسْتَجْهَرًا ^(٧)
كَنَهْوَرًا مُعْنُونًا كَأَنَّ مُحَلُولًا كَأَنَّ ، ثم استقل واخزأل ، فصار كالسماء دون السماء ،

(١) مخايل جمع مخيلة « بضم الميم وكسر الخاء » والمخيلة والمخيلة « بتشديد الياء المكسورة » الصحابة
التي تحسبها ما طرة ، والعشار جمع عشاراء كنفساء : وهي الناقة التي مضى حملها عشرة أشهر أو ثمانية ،
أو هي كالنفساء من النساء ، والشهب جمع شهاب ككتاب : وهو شعلة من نار ساطعة .
(٢) قواعدها : أسافلها ، وأصله من قواعد البيت : أي أسامه ، متلاحكة : أي قد اشتد التثامها ،
والمتلاحكة : للناقة الشديدة الخلق ، وبواسقها : أعاليها جمع باسقة ، من بسق : أي طال وارتفع ، ومتضاحكة
أي يضحك فيها برقها ، متقاذفة : أي يقدف بعضها بعضا بالمطر ، وأرجاؤها : أوساطها ، متراصفة : متراكة
قد رصف بعضها فوق بعض . (٣) أي صبا متتابعة ، ولكا كَأَنَّ : مقزاحا من الككاك ككتاب وهو الزحام .
(٤) الجفاجف جمع جفجف كجعفر : وهي الأرض المرتفعة ليست بالغليظة ، وضحضحتها : جعلت فيها ضحاضح
والصفاصيف جمع صفصيف كجعفر : وهو المحتوى من الأرض ، وأنهر الماء : أماله ، والأصلف والصلفاء :
ما صلب من الأرض ، والجمع أصالف ، وحوضت جعلت فيها حياضاً .
(٥) بذة : فاته وغلبه ، والحاضر : ساكن الحضر ، والباس : العذاب والشدة ، والإبلاس : التنجير
والليأس : والاشفاق : الخوف ، والإملاق : الفاقة . (٦) الأنواء جمع نوء : وهو في الأصل سقوط
النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله في ساعته من المشرق ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح
والحر والبرد إليها . (٧) مستجهرأ : لم أجده هذه الكلمة في كتب اللغة ، وربما كان الأصل : « مستهراً »
من استهزأ الشيء إذا اتسع ، والمحاولك : الشديد للسواد ، وقد تقدم معنى اعتنك واستعنك : واعنونك
افعل من هذه المادة ، ولم أجده في كتب اللغة .

وكالأرض المدحوة^(١) في لوح الهواء ، فأحسب السهول وأتأق الهجول ، وأحيا
الرجاء ، وأمات الضراء ، وذلك من فضل رب العالمين .

قال : فلا والله أليفع صدري ، فأعطيت كل واحد درهما ، وكتبت كلامهم .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٢)

٦٩ - أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : سألت أعرابيا عن مطر صابهم بعد جذب فقال :

« ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون ، وخامر القلب القنوط ، فأنشأ
بنوء الجبهة^(٢) قزعة كالفرض من قبل العين ، فأخرألت عند ترجل النهار ،
لإزميم السرار^(٣) ، حتى إذا نهضت في الأفق طالعة ، أمر مسخرها الجنوب
فتسمت لها ، فانتشرت أحضانها ، وأحمومت أركانها ، وبسق عنانها^(٤) وا كفهرت
رحاها ، وانبعجت كلالها ، وذمرت أخراها أولاهها ، ثم استطارت عقائقها ،
وتفقت صوتا عبقها ، ثم ارتفعت^(٥) جوانبها ، وتداعت سوا كبتها ، ودرت حوالبها
فكانت الأرض طبقا^(٦) سح فهضب ، وعم فأحسب ، فقل القيعان ، وضحضح

(١) المبسوطة ، واللوح : الهواء وأحسبها : أرواها ، من أحسبه إذا أطعمه وسقاه حتى شبع
وروى ، وأتأق : ملأ ، والهجول جمع هجل كشمس : وهو المطمئن من الأرض ، واليفع واليباع :
الشاب .

(٢) الجبهة : منزل للقمر ، قزعة : قطعة من السحاب ، والفرض : الترس ، والعين : القبلة ، وترجل
النهار : ارتفع .

(٣) الإزميم : لياة من لياي الحاق - والحاق مثلثة : ثلاث لياي من آخر الشهر ، والسرار :
آخر ليلة من الشهر ، وأحضانها جمع حضان كحمل : وهو جانب الشيء وناحيته ، وأحمومت : اسودت .

(٤) بسق : ارتفع ، والعنان : السحاب ، رحاها : وسطها ، وانبعجت : انشقت ، والكلية من

السحاب : أسفلها - ومن المزايدة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وذمرت : حفت - وللندامر :
التحاض على القتال ، عقائقها بروقها المشبهة للعقائق .

(٥) ارتفع المطر : ثبت وجاد . (٦) غيث طبق : عام واسع يطبق الأرض ، وهضب كضرب :

مطر .

الْفَيْطَانِ ، وَجَوَّخِ الْأَضْوَاجِ^(۱) ، وَأَتْرَعِ الشَّرَاجِ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ كِفَاءً إِسَاءَتِنَا
إِحْسَانًا ، وَجَزَاءَ ظَلَمِنَا غُفْرَانًا . (بلوغ الأرب ۳ : ۲۵۳)

۷- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيا من بني عامر بن لؤي بن صعصعة
يصف مطراً فقال :

« نَشَأُ عِنْدَ الْقَصْرِ ، بِنَوَى الْغَفْرِ^(۲) ، حَبِيْبًا عَارِضًا ، ضَاحِكًا وَامِضًا ، فَكَلَّا وَلَا^(۳)
مَا كَانَ ، حَتَّى شَجَّيْتُ بِهِ أَقْطَارُ الْهَوَاءِ ، وَاحْتَجَبْتُ بِهِ السَّمَاءَ ، ثُمَّ أَطْرَقَ^(۴) فَكَفَهَرَ ،
وَتَرَاكُمْ فَادْلَهَمَ ، وَبَسَقَ فَازْلَامَ ، ثُمَّ حَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ، فَحَنَّ ، فَالْبَرْقُ مُرْتَبِعٌ ،
وَالرَّعْدُ مُتَبَوِّجٌ^(۵) ، وَالخُرْجُ مُتَبَعِّجٌ ، فَأَنْجَمَ ثَلَاثًا ، مُتَحَيِّرًا هَشَاهِنًا^(۶) ، أَخْلَافُهُ
حَاشِكَةٌ ، وَدَفَعَهُ مُتَوَاشِكَةٌ ، وَسَوَامُهُ مُتَعَارِكَةٌ ، ثُمَّ وَدَّعَ مُنْجِمًا^(۷) ، وَأَقْلَعَ مُتَهَمًا ،
مَحْمُودَ الْبَلَاءِ ، مُتْرِعَ النَّهَاءِ ، مُشْكُورَ النَّعْمَاءِ ، بِطَوَّلِ^(۸) ذِي الْكِبْرِيَاءِ . »
(بلوغ الأرب ۳ : ۲۵۴)

(۱) جَوْخُ السَّيْلِ الْوَادِي : إِذَا كَسَرَ جَنْبَيْهِ وَاقْتَلَعَ أَجْرَافَهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « جَوْخٌ » وَهُوَ تَصْحِيفٌ .
وَالْأَضْوَاجُ جَمْعُ ضَوْجٍ كَشَمْسٍ : وَهُوَ مَنْعُطٌ الْوَادِي ، وَالشَّرَاجُ جَمْعُ شَرَجٍ كَشَمْسٍ أَيْضًا : وَهُوَ مَسِيلُ الْمَاءِ
مِنَ الْحَرَّةِ (بِفَتْحِ الْحَاءِ) إِلَى الْمَهَلِ .

(۲) الْقَصْرُ : الْعَشِي ، وَالغَفْرُ : مَنْزِلُ الْقَمَرِ ، وَالْحَبِيْبِيُّ : السَّحَابُ يُشْرِفُ مِنَ الْأَفْقِ عَلَى الْأَرْضِ ، أَوِ الَّذِي
بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ . (۳) قَالَ فِي اللَّسَانِ : « وَالْعَرَبُ إِذَا أَرَادُوا تَقْلِيلَ مَدَّةِ فِعْلٍ أَوْ ظَهْوَرِ شَيْءٍ خَفِيَ
قَالُوا : كَانَ فِعْلُهُ كَلَاهُ وَرَبَّمَا كَرَّرُوا فَقَالُوا كَلَا وَلَا ، قَالَ الشَّاعِرُ : يَكُونُ نَزْوِلُ الْقَوْمِ فِيهَا كَلَا وَلَا : ،
وَالشَّجَا : مَا اعْتَرَضَ فِي الْخَلْقِ مِنْ عَظْمٍ وَنَحْوِهِ ، وَقَدْ شَجِيَ بِهِ كَرَضِي .

(۴) هُوَ مِنْ أَطْرَقَتِ الْإِبِلُ : تَبِعَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَادْلَهَمَ : اسْوَدَّ .
(۵) التَّبَوُّجُ : الصِّيَاحُ ، وَالخُرْجُ : السَّحَابُ أَوَّلُ مَا يَنْشَأُ ، مُتَبَعِّجٌ : مُتَشَقِّقٌ .
(۶) الْمُهْمَاتُ : السَّرِيعُ ، حَاشِكَةٌ : كَثِيرَةُ الْمَاءِ ، مُتَوَاشِكَةٌ : يَسَارِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَالسَّوَامُ : الْإِبِلُ الرَّابِعَةُ .
(۷) أَنْجَمَ الْمَطَرَ وَغَيْرَهُ : أَقْلَعَ ، وَتَهَمًا : أَي سَائِرًا نَحْوَ تَهَامَةٍ ، وَالنَّهَاءُ جَمْعُ نَهْيٍ بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ وَهُوَ الْقَدِيرُ .
(۸) أَي بِفَضْلِهِ وَقَدْرَتِهِ .

٧١ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : خرج النُّعْمَانُ فِي بَعْضِ أَيَامِهِ فِي عَقَبِ سَمَاءٍ ، فَلَقِيَ أَعْرَابِيًّا عَلَى نَاقَةٍ ، فَأَمَرَ فَأَتَى بِهِ ، قَالَ : كَيْفَ تَرَكْتَ الْأَرْضَ وَرَاءَكَ ؟ فَقَالَ :

« فَيُفِيحُ رُحَابٌ ^(١) ، مِنْهَا السُّهُولُ وَمِنْهَا الصَّعَابُ ، مَنْشُوطَةٌ بِجِبَالِهَا ، حَامِلَةٌ

لَأَثْقَالِهَا » ، قَالَ : إِنَّمَا سَأَلْتُكَ عَنِ السَّمَاءِ ! قَالَ :

« مُطَلَّةٌ ^(٢) مُسْتَقِلَّةٌ ، عَلَى غَيْرِ سِقَابٍ وَلَا أَطْنَابٍ ، يَخْتَلِفُ عَصْرَاهَا ، وَيَتَعَاقَبُ

سِرَاجَاهَا ، قَالَ : لَيْسَ عَنِ هَذَا أَسْأَلُكَ ! قَالَ : فَكَيْفَ مَا بَدَأَكَ ، قَالَ : هَلْ صَابَ الْأَرْضَ غَيْثٌ ؟ قَالَ :

« نَعَمْ : أَغْمَطْتُ ^(٣) السَّمَاءَ فِي أَرْضِنَا ثَلَاثًا رَهْوًا ، فَثَرَّتْ وَأَرْزَغَتْ ، وَرَسَّغَتْ ،

ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْ أَرْضِ قَوْمِي أَقْرُوها ^(٤) ، فَإِذَا هِيَ مُتَوَاصِيَةٌ ، لَا خَطِيئَةَ يَدِيهَا ، حَتَّى هَبَطْتُ

بِعِشَارٍ ، فَتَدَاعَى السَّحَابُ مِنَ الْأَقْطَارِ ، فَجَاءَنَا بِالسَّيْلِ الْخَرَّارِ ، فَعَفَا ^(٥) الْآثَارَ ، وَمَلَأَ

الْجِفَارَ ، وَقَوَّرَ عَلَى الْأَشْجَارِ ، فَأَجْرَرَ الْحَضَارَ ، وَمَنَعَ السُّفَارَ ، ثُمَّ أَقْلَعَ عَنِ نَفْعِ

وإِضْرَارٍ ، فَلَمَّا اتَّلَا بَتَّ ^(٦) لِي الْقَيْعَانَ ، وَوَضَحَتِ السُّبُلُ فِي الْأَغْيَاطِ ، وَفَاتِ الْأَعْنَانَ ،

مِنَ الْأَقْطَارِ الْأَعْنَانَ ، فَلَمْ أَجِدْ وَزْرًا إِلَّا الْغَيْرَانَ ، فَفَاتِ وَجَارِ الضُّبُعِ ، فَغَادَرْتُ السُّهُولَ

(١) فيح جمع فيحاء : واسعة ، وكذا رحاب ، منشوطة : مشدودة ، من نشط الجبل كنصر عقده (وأنشطه : حله) . (٢) مطلة : مرتفعة ، وكذا مستقلة ، والسقاب جمع سقب كشمس : وهو عمود الجباء ، والمصران : الليل والنهار ، وسراجاها : الشمس والقمر . (٣) أى دامت ولازمت ، والرهو : السكون والثرة من العيون : الغزيرة كالثرارة ، وقد ثرت هى ، والرزغة بالتحريك : الوحل ، وأرزغ المطر الأرض بلها ولم تسل ، ورسغ المطر : كثر وثرى الأرض حتى تبلغ يد الحافر عنه إلى أرساغه .

(٤) أنتبها ، والخطيطة : الأرض لم تمطر بين معطورتين ، أو التى مطر بعضها ، وعشار : موضع . (٥) محاه وطمسها ، والجفار جمع جفر كشمس : البر التي لم تطو ، وقورها : قطع من وسطها خرقا مستديرا ، وأجر ، من أجر الضب : أى أدخله فى جحره ، والحضار جمع حاضر وهو المقيم فى الحضر ، والسفار جمع سافر وهو المسافر لا فعل له . (٦) اسقامت ، والأعنان : السحاب ، والأعنان من السماء : نواحيها ، والوزر الملجأ ، والغيران جمع غار : وهو الكهف فى الجبل ، والوجار بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها .

كالبحار ، تتلاطم بالتيار ، والحزون متلفعة بالغيث^(١) ، والوحوش مقذوفة
على الأرجاء ، فما زلت أطأ السماء ، وأخوض الماء ، حتى وطيئت أرضكم .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٥٧)

٧٢ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : وقف أعرابي على قوم من الحاج فقال :
« يا قومي بدا شأني ، والذي ألفتجني^(٢) إلى مسألتكم ، إن الغيث كان قد قوى عنا
ثم تكرفنا^(٣) السحاب ، وشصا^(٤) الرباب ، وأدلهم^(٥) سيقه ، فارتجس ريقه ، وقلنا :
هذا عام^(٦) بكر الوسمى ، محمود السمي ، ثم هبت له الشمال ، فأحزأت^(٧) طخاريره^(٨) ،
وتفرزع^(٩) كرفته متباشرا ، ثم تتابع لمعان البرق ، حيث تشيمه الأبرار ، وتجدد النظار ،
ومرت^(١٠) الجنوب ماءه ، فقوض الحى^(١١) مزلثمين نحوه ، فسرحنا^(١٢) المال فيه وكان
ونحما^(١٣) وخيما ، فأساف^(١٤) المال ، وأضف^(١٥) الحال ، فرحم الله امرأ جاد^(١٦) بمير ، أو دل
على خير . »
(بلوغ الأرب ٣: ٢٥٨)

٧٣ - أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :
قال أبو مجيب - وكان أعرابيا من بني ربيعة بن مالك - : « لقد رأيتنا في أرض

(١) الغيث : البالي من ورق الشجر الخالط لزبد السيل .
(٢) ألفتجني ، وقوى المطر : احتبس ، وتكرفنا : تراكم ، وشصا : ارتفع ، والرباب : السحاب الأبيض
(٣) أدلهم : اسود ، والسيق : السحاب لا ماء فيه ، والريق : تردد الماء على وجه الأرض .
(٤) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والسمى جمع سماء : وهو المطر
أو المطرة الجيدة . (٥) الطخارير جمع طخروو كمصفور بالخاء والحاء : اللطخ من السحاب ، والكرفه :
السحاب المرتفع المتراكم ، وتفرزع : تفرق وإنقشع ، وشام البرق : نظر إليه أين يقصده .
(٦) هو من مري للناقة كرمي : مسح ضرعها اتدر ، مزلثمين : ماضين مرتحلين إليه ، وأساف المال :
أهلكه ، والسواف كجبان وشجاع : الموت في الناس والمال ، ساف سوا أي هلك ، وأسافه الله ، ويقال
أيضا أساف الرجل : وقع في ماله السواف أي الموت : وأضف من الضفف كسهب وهو الضيق والشدة ،
أصاهم من العيش ضفف أي شدة .

مَجْفَاءً^(۱) ، وزمان أَعْجَفَ ، وشجر أَعْسَمَ ، في قَفٍّ غَلِيظٍ ، فبينما نحن كذلك ، إذ أنشأ الله تعالى من السماء غيثاً مُسْتَكِيفاً^(۲) نَشُوهُ ، مُسْبِلَةً عَزَّالِيَهُ ، ضِيخاً مَاءً قَطْرُهُ ، جَوْدًا صَوْبُهُ زَاكِيًا ، أنزله الله تعالى رزقاً لنا ، فَعَيْشَ بِهِ أَمْوَالَنَا ، وَوَصَلَ بِهِ طَرَقَنَا ، وَأَصَابَنَا وَإِنَّا لَبِنُوطَةٌ^(۳) بَعِيدَةُ الْأَرْجَاءِ ، فَاهْرَمَعَ مَطْرُهَا ، حَتَّى رَأَيْتُنَا وَمَا نَرَى غَيْرَ السَّمَاءِ وَالْمَاءِ وَضَهَوَاتِ الطَّلْحِ^(۴) ، وَضَرَبَ السَّيْلُ النَّجَافَ ، وَمَلَأَ الْأُودِيَةَ فَرَزَعَهَا ، فَمَا لَبِئْنَا إِلَّا عَشْرًا ، حَتَّى رَأَيْتَهَا رَوْضَةً تَنْدَى .

(بلوغ الأرب ۳ : ۲۵۹)

۷۴- أعرابي يصف مطرا

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال :

« أصابتك سماءٌ في وجهك يا أعرابي » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، غير أنهم سَحَاءٌ طَحْنَاءٌ وَطَفَاءٌ^(۵) ، كَأَنَّ هَوَادِيَهَا الدَّلَاءُ ، مُرْجَجِنَةٌ النَّوَّاحِي ، مَوْصُولَةٌ بِالْأَكَامِ تَكَادُ تَمَسُّ هَامَ الرِّجَالِ ، كَثِيرٌ رَجَلُهَا^(۶) ، قَاصِفٌ رَعْدُهَا ، خَاطِفٌ^(۷) بَرَقِهَا ، حَثِيثٌ وَدَقِهَا ، بَطِيءٌ مَسِيرُهَا ، مُشْعَنْجِرٌ قَطْرُهَا ، مَظْلِمٌ نَوَّوْهَا ، قَدْ لَجِنْتُ الْوَحْشَ إِلَى أَوْطَانِهَا ، تَبَحُّثٌ عَنِ أَصْوَالِهَا بِأُظْلَافِهَا ، مَتَجَمِّعَةٌ بَعْدَ شَتَاتِهَا ، فَلَوْلَا اعْتِصَامُنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

(۱) ليس بها نبات ، وأصله من العجف بالتحريك وهو الخزال ، وأعسم : يابس ، وأصله من العسم بالتحريك وهو يابس في مفصل للرسغ تعوج منه اليد والقدم ، والقف ، ما غلظ من الأرض وارتفع ، لم يبلغ أن يكون جبلا : وأنشأ الله السحاب : رفعه . (۲) مستكيفا : مستديرا كالسكفة ، (والسكفة بالكسر وبضم كل مستدير) ، وصوبه : مطره . (۳) النوطة : الأرض يكثر بها الطلح (والطلح : شجر عظام) والموضع المرتفع من الماء ، أو ليس به واد ولا تلمة بل بين ذلك ، واهرمع : كثر وأسرع . (۴) الضهوة : بركة الماء ، والنجاف جمع نجف بالتحريك وبهاء : مكاف لا يعلوه الماء ، أو هي أرض مستديرة مشرفة على ما حولها ، وزعها : ملأها .

(۵) سحابة وطفاء : متاخية لكثرة ماؤها ، أو هي الدائمة السح الخثيثة ، هواديا : أوائلها ومقادمها ، مرجحنة : ثقيلة مهتزة (۶) الزجل : الجلبة ورفع الصوت ، مشعجر : سائل منسوب ، ولجا إليه كنع وفرح ، وأظلاف جمع ظلف بالكسر وهو للبقرة والشاة والغنم وشبهها كالقدم لنا ، والقتن جمع قنة ، وهي قنة الجبل . (۷) زدت هذه الكلمة كي يستقيم بها الكلام والظاهر أنها سقطت من الأصل في الطبع .

بِعِضَاهِ الشَّجَرِ ، وَتَعَلَّقْنَا بِقُنَنِ الْجِبَالِ ، لَكِنَّا جُفَاءً^(١) فِي بَعْضِ الْأَوْدِيَةِ ، وَلَقَمَ الطَّرِيقَ ،
فَأَطَالَ اللَّهُ لِلْأُمَّةِ بَقَاءَكَ ، وَنَسَأَ لَهَا فِي أَجَلِكَ بِرِكَتِكَ ، وَعَادَ اللَّهُ بِكَ عَلَى رِعِيَّتِكَ ،
وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ .

فَقَالَ سَلِيمَانُ : « لَعَمْرُؤُا أَبِيكَ لَئِنْ كَانَتْ بَدِيهَةٌ لَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِنْ كَانَتْ مُحَبَّرَةً
لَقَدْ أَجَدْتَ » قَالَ : بَلْ مُحَبَّرَةٌ مَهْدُورَةٌ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : « يَا غَلَامُ أَعْطِهِ ، فَوَاللَّهِ لَصِدْقُهُ
أَعْجَبُ إِلَيْنَا مِنْ صِفَتِهِ » .

(العقد الفرید ٢ : ٩٦)

٧٥- أعرابية تصف مطرا

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : « كَانَ شَيْخٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فِي خِبَائِهِ ، وَابْنَةٌ لَهُ بِالْفِنَاءِ^(٢) ،
إِذْ سَمِعَ رَعْدًا فَقَالَ : مَا تَرَيْنِ يَا بُنَيَّةُ ؟ قَالَتْ : أَرَاهَا حَوَاءَ قَرَحَاءَ^(٣) ، كَأَنَّهَا أَقْرَابُ
أَتَانٍ قَمْرَاءَ ، ثُمَّ سَمِعَ رَاعِدَةً أُخْرَى فَقَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : أَرَاهَا جَمَّةَ التَّرْجَافِ^(٤)
مَتَسَاقِطَةَ الْأَكْنَافِ ، تَتَأَلَّقُ بِالْبُرْقِ الْوَلَّافِ ، قَالَ : هَلُمِّي الْمِغْرَفَةَ ، أَنْتَنِي^(٥) نُؤْيَا » .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥١)

٧٦- أعرابية تصف مطرا

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : كَانَ أَعْرَابِيٌّ ضَرِيرٌ تَقْوَدُهُ ابْنَتُهُ ، وَهِيَ تَرَعِي غُنَيْمَاتَ لَهَا ،
فَرَأَتْ سَحَابًا فَقَالَتْ : يَا أَبْتَ جَاءَتْكَ السَّمَاءُ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهَا
فَرَسٌ دَهْمَاءٌ^(٦) تَجْرُ جِلَالَهَا ، قَالَ : ارْعَى غُنَيْمَاتِكَ ، فَرَعْتَ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَبْتَ
جَاءَتْكَ السَّمَاءُ ، قَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهَا عَيْنٌ جَمَلٌ طَرِيفٌ^(٧) قَالَ : ارْعَى

(١) الجفء : الزبد ، ولقم الطريق : معظمه ووسطه ، وفي الأصل : « لقم » وهو تحريف .
(٢) الفناء : ما اتسع أمام الدار . (٣) حواء : وصف من الحوة بالضم وهي حرة إلى السواد ،
والقرحة بالضم : وجه الفرس دون الفرة ، والوصف منه أفرح وقرحاء ، والأقرب جمع قرب كقفل
وعنق : وهو الخاصرة ، والقمرة بالضم : بياض فيه كدرة ، حمار أقر ، وأتان قرء .
(٤) كثيرة الاضطراب ، الولاف : المتتابع ، من واف البرق كوعده وانفا وولافا بالكسر : أتابع .
(٥) النؤى : الحفير حول الحباء يمنع السيل ، وانتأيه عملته . (٦) سوداء ، والجلال جمع جل
بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به . (٧) الجميل ينتقل من مرعى إلى مرعى .

غنياتك ، فرعت ملياً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟
قالت : سَطِحتُ وَابيضتُ ، قال : أدخل غنياتك ، قال : فجاءت السماء بشيء شطاً^(۱) له
الزرع وأينع ، وَخَصِرَ وَنَضِرُ « ، (بلوغ الأرب ۲۶۰۴)

۷۷ - أعرابي يصف أرضاً

ووصف أعرابي أرضاً أحدها فقال :

« خَلَع شَيْحُهَا ، وَأَبْقَلَ رِمْتُهَا ، وَخَضَبَ عَرَفَجُهَا^(۲) ، وَأَسَقَ نَبْتُهَا ، وَاخْضَرَّتْ
قُرْبَانُهَا ، وَأَخْوَصَتْ بَطْنَانُهَا^(۳) ، وَأَحْدَسَتْ أَكْمُهَا ، وَاعْتَمَّ نَبْتُ جَرَاثِيمِهَا^(۴) ،
وَأَجَرَتْ بَقْلَتَهَا وَذُرْقَتَهَا وَخُبَّازَتَهَا^(۵) ، وَاحْوَرَّتْ خَوَاصِرُ إِبِلِهَا ، وَشَكَرَتْ
حَلُوبَتُهَا ، وَسَمِنَتْ قَتُوبَتَهَا^(۶) ، وَعَمِدَ ثَرَاها . وَعَقِدَتْ تَنَاهِيها ، وَأَمَاهَتْ ثَمَارُها .
وَوَثِقَ النَّاسُ بِصَاثِرِهَا^(۷) » .

(البيان والتبيين ۲ : ۷۷)

(۱) شطاً الزرع : أخرج شطاه ، أى فراخه .

(۲) خلع الشيع : أورق (والخالع من الغضاه : الذى لا يسقط ورقه أبداً ، والغضاه ككتاب : كل شجر
له شوك) والرمث . مرعى للإبل ، وشجر يشبه الغضاه ، والعرفج : شجر مهلى ، وخضب الشجر كضرب
وسمع وعنى : اخضر . (۳) القرىان : مجارى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرى كنى ، وأخوص
العرفج : تقطر بورق ، أخوصت النخلة : أخرجت الخوص ، والبطنان جمع باطن وهو الغامض من الأرض
أى المظلم منها . (۴) أحلس النبات : غطى الأرض بكثرتة ، وأحلس الأرض فهى محلصة : صار
النبات عليها كالحلس كثرة الحلس كحمل كساء على ظهر البعير - والجراثيم جمع جرثومة بالضم ، وجرثومة
الغنى : أصله ، واعتم : أى كأنه ليس عمامة . (۵) أجرت البقلة : صارت لها جراء - وجراء ككتاب
جمع جرو بالثليلث وهو صغير كل شيء - والذرة واحدة الذرق وهو نبات مثل الكراث الجبل الدقاق فى
رأسه حب حلو يؤكل رطباً تجبه الرعاة يأتون به أهلهم : والحبازة والحبازى : النبات المعروف .

(۶) احورت : ابيضت وذلك من الشد على خواصرها لثلا تحبب (والحبب بالتحريك : انتفاخ بطنها بن
مرعى ترعاه) والحلوبة : المحلوبة ، وشكرت الناقة : امتلأ ضرعها ، والداية : سمت ، والقنوبة : الإبل
التي تقتبها (وأفتب الناقة : شد عليها القتب (بالتحريك) وهو إكاف صغير على قدر سنام البعير) .
(۷) عمد الثرى : بلاه المطر حتى إذا قبضت عليه عمقه لندوته ، والتناهى جمع تنهى : وهى مستقر السيل
حيث ينتهى الماء من الوادى ، وعقدت تناهيها : أن يمر السيل مقبلاً حتى إذا انتهى منها دار بالأبطح
حتى يلتقى طرفا السيل ، وأماهت ثمارها : أى كثر ماؤها ، والصائرة : المطر والسهلا .

٧٨ - رائد يصف أرضاً جذبة

قال أبو المجيب : وصف رائد أرضاً جذبة فقال :

« أُعْبِرَتْ جَادَتُهَا^(١) ، وَذَرَعَ مَرْتَعَهَا ، وَقَضِمَ شَجْرَهَا ، وَرَقَّتْ كَرِشَهَا ، وَخَوَّرَ عَظْمَهَا . وَالتقى سَرْحَاهَا^(٢) . وَتَمَيَّزَ^(٣) أَهْلِهَا . وَدَخَلَ قُلُوبَهُمُ الْوَهْلُ . وَأَمْوَالُهُمُ الْهَزْلُ^(٤) . »

(البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

٧٩ - رائد يصف أرضاً

عن محمد بن كُنَاسَةَ قَالَ : أَخْبَرَنِي بَعْضُ فَصْحَاءِ أَعْرَابِ طَيْيٍّ قَالَ :

« بَعَثَ قَوْمٌ رَائِدًا . فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : عُشْبٌ وَتَعَاشِيبٌ^(٥) ، وَكَنَازَةٌ مَتَفَرِّقَةٌ شَيْبٌ ، تَقْلَعُهَا بِأَخْفَافِهَا النَّيْبُ^(٦) ، قَالَوا : لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا ، هَذَا كَذِبٌ ! فَأَرْسَلُوا آخَرَ ، فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : « عُشْبٌ نَادٌ مَادٌّ مَوْلِيٌّ^(٧) وَعَهْدٌ . مَتَدَارِكٌ جَعْدٌ^(٨) ، كَأَنْحَازِ نِسَاءِ بَنِي سَعْدٍ ، تَشْبَعُ مِنْهُ النَّيْبُ وَهِيَ تُعَدُّ^(٩) . »

(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

(١) الجادة : الطريق إلى الماء ، وذرع المرتع : بعد عن الماء ، وقضم شجرها : تكسر ، يقال : سيف قضم كفرح : أي طال عليه الدهر فتكسر حده ، وقضم السن : انصدع وتثلث ، وإذا لم يكن للجمال مرعى إلا للشجر وحده رقت أكراشه . (٢) يعني أنه إذا أكل كل سارج ما يليه ، التقيا عند الماء .

(٣) تفرقوا في طلب الكلأ ، والوهل : الفزع ، والهزل : موت مواشي الرجل .

(٤) المشب : الكلأ الرطب ، والتعاشيب : القطع المتفرقة منه . (٥) النهب جمع ناب : وهو الناقة المسنة . (٦) جاء في اللسان : « قال الأصمعي : قيل لبعض العرب : أصب لنا موضعاً أي أطلب

فقال رائدهم : وجدت مكاناً ثلثاً مثلاً (بفتح فكسر) وقال زيد بن كثوة : بعثوا رائداً فجاء وقال : عشب نَادٌ مَادٌّ (بفتح فسكون) كأنه أسوق بني سعد ، وثند النبات كفرح : ندى فهو ثند ، وماد كنع اهتز وتروى وجرى فيه الماء وتنعم ولان والماد : الناعم من كل شيء ، والمولى : الذي أصابه الولي (والمولى : المطر الذي يأتي بعد المطر) ، والعهد : أول مطر الوسمى (والوسمي : أول مطر الربيع) .

(٧) من قولهم : زبد جمع : أي متراكب مجتمع قد صار بعضه فوق بعض .

(٨) يعني أن العشب قد طال وتم ، والنائب تشبع منه وهي تعد : لأنها تتناولوه وهي قائمة لا تبرج مكانها ولا تطأ رأسها .

٨٠ - رائد يصف أرضاً

وبعث رجل أولاده يرتادون في خِصْب . فقال أحدهم : « رأيتُ بَقْلاً . وماء غَيْلاً^(١) . يسيل سَيْلاً . وخُوصه تميل مَيْلاً ، يحسبها الرائد ليلاً » وقال الثاني : « رأيت دِيمة على دِيمة ، في عهدا غير قديمة . وَكَلًّا تشبع منه النَّاب قبل الفطيمة » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

• • •

وروى هذا الوصف عن ابن الكلبي بصورة أخرى قال :

« خطب هند بنته الخسَّ الإيادية ثلاثة نفر من قومها ، وارتضت أنسابهم وجاهلهم ، وأرادت أن تسبر عقولهم ، فقالت لهم : « إني أريد أن ترتادوا لي مرعًى ، فلما أتوها قالت لأحدهم : ما رأيت ؟ قال : رأيت بَقْلاً وَبُقَيْلاً ، وماءً غَدَقاً^(٢) سَيْلاً ، يحسبه الجاهل ليلاً ، قالت : أمرعت^(٣) ، قال الآخر : رأيت دِيمة بعد دِيمة ، على عهد غير قديمة ، فالناب تشبع قبل الفطيمة ، قال الثالث : رأيت غَيْثاً تُعَدُّ مَعْدًا^(٤) ، متراكماً جَعْدًا ، كأنخاذ نساء بني سعد ، تشبع منه النَّيب وهي تُعَدُّ » .

(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٦)

٨١ - أعرابي يصف أرضه وماله

عن أبي عمرو بن العلاء قال : لقيت أعرابياً بمكة فقلت له : ممن أنت ؟ قال : أسدي ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نهدي ، قلت : من أي البلاد ؟ قال : من عُمان ،

(١) الغيل : الماء الذي يجري بين الشجر .

(٢) الغدق : الماء الكثير . (٣) أمرعه أصابه مريماً كخصيب وزنا وهي .

(٤) الغيث : المطر والكلأ ، وقيل : الأصل المطر ثم سمي ما ينبت به غيثاً ، والمراد هنا الثاني ، وبقل

تعد معد : غض رطب رخص .

قلت: فأنتى لك هذه الفصاحة؟؟ قال: «إنا سكننا قُطْرًا لا نسمع فيه نَاجِحَةَ التِيَّارِ^(١)»
 قلت: صف لى أرضك، قال: «سيفٌ أفيح، وفضاءٌ صحصح، وجبلٌ صردح،
 ورملٌ أصبَح^(٢)»، قلت: فما مالك؟ قال: النخل، قلت: فأين أنت من الإبل؟
 قال: «إن النخل حملها غداء، وسعفها^(٣) ضياء، وجذعها بناء، وكربها صلاء،
 وليفها رشاء، وخوصها وعاء، وقرؤها إناء». (ذيل الأمالى ص ١٧)

٨٢ - أعرابى يصف بلدا

وذكر أعرابى بلداً فقال: «بلد كالترس، ما تمشى فيه الرياح إلا عابرات سبيل،
 ولا يمر فيه السَّفر إلا بأدل دليل». (العقد الفريد ٢ : ٨٠)
 وقال أعرابى: «مررت ببلد ألقى به الصَّيف^(٤) بقاعه، فأظهر غديراً يقصر
 الطرف عن أرجائه، وقد نقت الرياح القذى عن مائه، فكأنه سلاسل درع ذات
 فضول^(٥)». (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

وسئل أعرابى عن مسافة ما بين بلدين فقال: «عمر ليلة، وأديم^(٦) يوم».
 وقال آخر: «سواد ليلة، أو بياض يوم».

(البيان والتبيين ٢ : ٥١، والعقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقال آخر: «إن المسافر ومَتَاعَهُ لَعَلِي قَلَّتْ^(٧) إلا ما وقى الله».

(العقد الفريد ٢ : ٥٢)

الناجحة: الصوت، والتيار: الموج. (٢) السيف: ساحل البحر، وساحل الوادى، أو
 لكل ساحل سيف، أو إنما يقال ذلك لسيف عمان، وأفيح: واسع، والصحيح: ما استوى من
 الأرض، والصدح: الصلب، والأصبح: الذى يماو بياضه حمرة (٣) السعف: جريد النخل أو
 ورقه، والكرب: أصول السعف للغلاظ المراض، والرشاء: الحبل، والقرور: أسفل النخلة ينثر
 فينتبد فيه - أى يعخذ فيه للتبذ - .

(٤) الصيف كسيد ويخفف: المطر يهيم في الصيف أو بعد الربيع كالصيف.

(٥) جمع فضل: وهو الزيادة. (٦) أديم النهار: عامته أو بياضه. (٧) القلت: الهلاك.

۸۳ - أعرابي يصف أشد البرد

سئل أعرابي فقيل له : ما أشدُّ البرد ؟ قال : ریح جَرِيْبَاء ، فی ظلِّ سَمَاء ،
غِبِّ سَمَاء^(۱) . (البیان والعبین ۱ : ۱۶۳)

۸۴ - أعرابي يصف إبلا

وقال : سمعت أعرابياً يصف إبلاً فقال :
« إنها لعِظَامُ الحَنَاجِرِ ، سِبَاطُ المَشَافِرِ ، كُومٌ بَهَازِرٍ^(۲) ، نُكْدٌ حَنَاجِرٍ^(۳) ،
أجوافها رِغَابٌ^(۴) ، وأعطانها رِحَابٌ^(۵) ، تَمْنَعُ من البُهَمِ^(۵) وتُبَدِّلُ للجَمَمِ » .
(الأمالي ۱ : ۵۲)

۸۵ - أعرابي يصف ناقة

ووصف أعرابي ناقة فقال : « إذا اِكْحَلَّتْ عَيْنُهَا ، وَأَلَّتْ^(۶) أذُنُهَا ، وَسَجَّحَ^(۷)
خَدُّهَا ، وَهَدَلِ^(۸) مِشْفَرُهَا ، وَاسْتَدَارَتْ جُمُجُمَتُهَا ، فَهِيَ الكَرِيمَةُ » .
(الأمالي ۱ : ۲۱۷)

(۱) الجربياء : ریح الشمال الباردة ، أو الریح بین الجنوب والعباء ، وللعماء : السحاب المرتفع : أو
الكثيف ، أو المطر ، فی غب سماء : أي عقب مطر . (۲) الحنجرة والحنجور كعصفور : الحلقوم ،
وجمه حناجر ، والمشافر جمع مشفر كبير : وهو البعير كالشفة للإنسان ، والكوم : العظام الأسنمة جمع أكوم
وكوما ، والجهازر جمع بهزرة كبندقة : وهي العظيمة من التناق .
(۳) النكد : الغزيرات اللبن من الإبل (والتي لا لبن لها أيضا خد) ، والحناجر : الغزيرات اللبن
جمع خنجر كجعفر وبهاء وخنجورة بالضم . (۴) رغب : واسعة ، وأعطانها : مباركتها عند الماء جمع
عطن كسبب . (۵) البهم جمع بهمة كفرصة : وهو الشجاع الذي لا يدرى من أين يؤق ، من شدة
بأسه ، والجدم جمع جمة كقبة ، وهم للقوم يسألون فی اللديات .
(۶) ال البعير : نصب أذنيه وحدهما . (۷) سجح : سهل وحسن . (۸) هدل : استرخى .

۸۶ - أعرابي يصف خيلاً

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « خرجت علينا خيلٌ مستطيرةٌ النَّعَمُ ^(۱) ،
كأن هَوادِيهَا ^(۲) أعلام ، وآذانها أطرافُ أقلام ، وفرسانها أسودُ آجامٍ . »

۸۷ - أعرابي يصف خيلاً

وذكر أعرابي خيلاً فقال : « والله ما انحدرتُ في وادٍ إلا ملأتُ بطنه ،
ولا ركبتُ بطن جبلٍ إلا أمهلتُ حَزَنَهُ ^(۱) . » (المفرد الفريد ۲ : ۹۵)

۸۸ - أعرابي يصف خيلاً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يصف خيلاً فقال : « سِبَاطُ
الْحَصَائِلِ ^(۳) . ظِمَاءُ الْمَفَاصِلِ ، شِدَادُ الْأَبَاجِلِ ^(۴) ، قُبُ الْأَيَاطِلِ ، كِرَامُ النَّوَاجِلِ ^(۵) . »
(الأمال ۱ : ۵۲)

۸۹ - أعرابي يصف فرساً

ووصف بعض الأعراب فرساً فقال : « قد انتهى ضُمُورُهُ ، وَذَبُلُ فَرِيرُهُ ^(۶) ،
وَظَهَرَ حَصِيرُهُ ^(۷) ، وَتَفَلَّقَتْ غُرُورُهُ ^(۸) ، وَاسْتَرَحَّتْ شَاكِلَتُهُ ^(۹) ، يُقْبِلُ بَزُورِ
الْأَسَدِ ، وَيُدْبِرُ بِعَجْزِ الذُّبِّ . » (البيان والتبيين ۳ : ۲۳۳ ، والأمال ۲ : ۲۵۶)

(۱) للغبار . (۲) أوائلها . (۳) الحصائل جمع خصيلة : وهي كل قطعة من اللحم مستطيلة أو
مجتمعة ، وقيل : هي ما انماز من لحم الفخذ بفضه من بعض ، وسباط جمع سبط ككف وشمس ، رجل
سبط اللحم إذا كان حسن القد والاستواء : وظماء : ضمير . (۴) الأباجل جمع أبجل : وهو عرق
غليظ في الرجل أو في اليد ، يريد أنها شداد القوائم . (۵) الأياطل جمع أيطل : وهو الخاصرة ،
قب جمع أقب ، وصف من القبب كسبب وهو دقة الحصر وضمور البطن ، والنواجل جمع ناجلة ، من
نجلت : أي ولدته . (۶) الفرير : موضع الحجمة من معرفة الفرس .
(۷) الحصير : عرق يمتد معترضاً على جنب الدابة إلى ناحية بطنها ، أو لحمه كذلك .
(۸) الغرور : الفضون التي في جلده ، واحدها غر بالفتح . (۹) الشاكلة من الفرس : الملهدين
عرض الخاصرة والذفنة - والشفنة كفرحة : الركبة - .

۹۰ - أعرابي يصف خاتماً

وقال أعرابي يصف خاتماً : « شَفَّ^(۱) تقديرُ حَلَقَتِه ، وَدُوَّرَ كَرْسِي فَضْتِه ، وَأَحْكَمَ تَرْكِيْبِه ، وَأَتَقَنَ تَدْبِيْرِه ، فَبِهَ يَتِمُّ الْمُلْكُ ، وَيَنْفُذُ الْأَمْرُ ، وَيَكْرُمُ الْكِتَابُ ، وَيَشْرُفُ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ » . (العقد الفريد ۲ : ۹۷)

۹۱ - أعرابي يصف أطيب الطعام

وقال عبد الملك لأعرابي : « ما أطيبُ الطعام ؟ » ، فقال : « بَكْرَةٌ سِنَمَةٌ^(۲) ، مُعْتَبَطَةٌ غَيْرُ ضَمِنَةٍ ، فِي قُدُورٍ رَذِمَةٌ^(۳) ، بِشِفَارٍ خَدِمَةٌ^(۴) ، فِي غَدَاةٍ شَبِيمَةٍ^(۵) ، فقال عبد الملك : وَأَبِيكَ لَقَدْ أَطِيْبْتَ^(۶) . (البيان والتبيين ۱ : ۱۶۳)

۹۲ - أعرابي يصف السويق

وعاب رجل السويق^(۷) بحضرة أعرابي فقال : « لَا تَعْبِهْ ، فَإِنَّهُ عُدَّةُ الْمَسَافِرِ ، وَطَعَامُ الْعَجْلَانِ ، وَغِذَاءُ الْمُبَكَّرِ ، وَبُلْغَةٌ^(۸) الْمَرِيضِ ، وَيَسْرُو^(۹) فَوَادَ الْحَزِينِ ، وَيَرُدُّ مِنْ نَفْسِ الْمَحْدُودِ^(۱۰) ، وَجِيْدٌ فِي التَّسْمِيْنِ ، وَمَنْعُوْتُ فِي الطَّبِّ ، وَوَقْفَارُهُ^(۱۱) يَحْلُو

(۱) رق .

(۲) البكرة : الفتية من الإبل ، والسنة : العظيمة السنام ، وفعله كفرح ، عبط اللبيرة كفرح واعتبطها : نحرها من غير علة وهي سمينة فتية ، والضمنة : الزمنة والمبتلاة في جدها من السنة كفرصة وهي المرض . (۳) رذمت القصعة كفرح فهي رذمة ورذوم كصبور : امتلأت وتصببت جوانبها . (۴) شفار جمع شفرة « بالفتح » وهي للسكين العظيم ، وخدومه كفربه : قطعه ، وسيف خذم ككتف وصبور ومعظم : قاطع . (۵) الغداة : البكرة « بالضم » أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، وشبمة : باردة ، وفعلها كفرح . (۶) أطاب الشيء وأطيبه : وجده طيباً .

(۷) السويق : ما يعمل من الخنطة والشمير . (۸) ما يتبلغ به . (۹) يسرو : يكشف ما عليه .

(۱۰) المحدود : الذي قد حد أي قد ضرب الحد . (۱۱) القفار : الذي لم يلبث بشيء من آدم ،

لا زيت ولا سمن ولا لبن . يقال طعام قفار .

(۲۱ - جمهرة خطب العرب - ثالث)

الْبَلْغَمَ ، وملتوته يُصَفِّي الدَّم ، وإن شئت كان شراباً ، وإن شئت كان طعاماً ، وإن شئت فثر يداً ، وإن شئت فخبيصاً^(١) . (الأمالي ٢ : ١٩٧)

٩٣ - أعرابي يصف الجمال

وقيل لأعرابي ما الجمال ؟ قال : « طول القامة ، وضخم^(٢) الهامة ، ورُحْب^(٣) الشَّدق ، وبَعْد الصوت » . وسئل آخر : ما الجمال ؟ قال « غُثُور العينين ، وإشراف الحاجبين ، ورُحْب الشَّدقين » . (البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٤ - أبو المخش يصف ابنه

وسأل جعفر بن سليمان أبا المخش عن ابنه المِخْش^(٤) - وكان جزع عليه جزعاً شديداً - قال : صف لي المخش ، فقال : « كان أشدق خُرْطُمَانِيًّا^(٥) ، سائلاً لُعَابُهُ ، كأنما ينظر من قَلَتَيْن^(٦) ، كأن ترُقُوتَهُ بُوَانٌ ، أو خالِفَةٌ ، كأن منكبِهِ كِرْكِرَةٌ جملٍ ثَقَالٍ^(٧) ، فقا الله عيني إن كنت رأيتُ قبله أو بعده مثله » . (البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٥ - أعرابي يصف بنيه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي بِحَمِي الرَّبْدَةِ : أَلَاكَ بَنُونَ ؟ قال : نعم ، وخالقهم لم تقم عن مثلهم مُنْجِبَةٌ ، فقلت : صفهم لي ، فقال : « جهم ! وما جهم ؟

(١) الخبيص : نقي اللدقيق يخلط بالمسل .

(٢) ضخم ككرم ضخماً وضخامة فهو ضخم . (٣) رحب ككرم وسمع رحباً بالضم ورحابة فهو

رحب بالفتح . (٤) المخش في الأصل : الجري ، هل العمل في الليل .

(٥) أشدق : واسع الشدقين : خرطمانياً : طويلاً . (٦) القلت : للنفرة في الجبل .

(٧) البوان : عمود الخباء ، والخالفة : عمود من أعمدة البيت في مؤخره ، والكركرة : رحي زور

البعير وبير ثقالة : بطنه .

يُنْضِي الوَهْمَ ، وَيَصُدُّ الدَّهْمَ^(۱) ، وَيَفْرِي الصُّفُوفَ ، وَيَعْلُ السُّيُوفَ^(۲) ، قلت :
 ثم من قال : « غَشَمْتُمْ ! وما غَشَمْتُمْ ؟ مَالُهُ مُقَسَّمٌ ، وَقِرْنُهُ مُجْرَجَمٌ^(۳) ، جِذْلُ
 حِكَاكٍ^(۴) ، وَمِذْرَةُ لِكَاكَ^(۵) » ، قلت : ثم من قال : « عَشْرَبٌ ! وما عَشْرَبٌ ؟
 لَيْثٌ مُحَرَّبٌ ، وَسِمَامٌ مُقَشَّبٌ^(۶) ، ذِكْرُهُ بَاهِرٌ ، وَخَصْمُهُ عَائِرٌ ، وَفِنَاؤُهُ رُحَابٌ^(۷) ،
 وَدَاعِيهِ مُجَابٌ^(۸) » قلت : صف لي نفسك ، فقال : « لَيْثٌ أَبُو رِيَابِلٍ^(۸) ، رَكَابٌ مَعَاضِلٌ
 عَسَافٌ^(۹) ، مَجَاهِلٌ ، حَمَالٌ أَعْبَاءٌ ، نَهَاضٌ بِيَزْلَاءٍ^(۱۰) . » (الأمل ۲ : ۵۳)

۹۶ - أعرابي يصف أخويه

عن العُتْبِيِّ قال أَخْبَرَنِي أَعْرَابِيٌّ عَنْ إِخْوَةِ ثَلَاثَةٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِأَحَدِهِمْ : أَخْبِرْنِي
 عَنْ أَخِيكَ زَيْدٍ فَقَالَ : « أَزِيدٌ إِنِّيهِ^(۱۱) ؟ وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أُسْكِنَ فَوْرًا ، وَلَا أَبْعَدَ
 غَوْرًا ، وَلَا آخَذَ لِدَنْبٍ حُجَّةً قَدْ تَقَدَّمَ رَأْسُهَا مِنْ زَيْدٍ » ، فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَخِيكَ
 زَائِدٍ قَالَ : « كَانَ وَاللَّهِ شَدِيدَ الْعُقْدَةِ ، لَيِّنَ الْعَطْفَةِ ، مَا يُرْضِيهِ أَقْلٌ مِمَّا يُسْخِطُهُ ، فَقُلْتُ :
 فَأَخْبِرْنِي عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ إِنْ أَفْضَلَ مَا فِيَّ لَمْ أَعْرِفْتِي بِفَضْلَاهُمَا ، وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ
 لَفَيْرٌ مَنْتَشِرٌ^(۱۲) الرَّأْيِ ، وَلَا نَخْذُولُ الْعَزْمِ » . (الأمل ۲ : ۱۴)

- (۱) ينضي : يهزل ، والوهم : الضخم العظيم من الإبل ، والدهم : العدد الكثير .
 (۲) يفري : يشق ، ويعمل : أي يوردها للدماء ثانية ، مأخوذ من العلل في الشرب .
 (۳) المجرجم : المصروع . (۴) الجذل : أصل الشجرة ، وذلك أن الإبل الجرب تحنك به فتعجده
 له لذة ، والمعنى أنه من يستشق به في الأمور بمنزلة ذلك الجذل الذي تستشق به الإبل .
 (۵) المذرة : لسان القوم ، والمتكلم عنهم ، والدافع عنهم ، يقال : درهته هي ودرأته : أي دفعته ،
 واللكاز : الزحام . (۶) المحرب : المغضب الذي قد اشتد غضبه واحتد ، وحربت السكين : إذا
 أهدته ، ومقشب : مخلوط . (۷) باهر غالب ، ورحاب : متسع .
 (۸) رهايل جمع ريبال بالكسر يهمل ولا يهملز : وهو الأسد ، والمعاضل : الدوامي .
 (۹) العساف : الذي يركب الطريق على غير هداية ، والأعباء : الأثقال .
 (۱۰) البزلاء : الرأي الجيد الذي يهزل (يضم الزاي) عن الصواب : أي يشق منه .
 (۱۱) قال أبو علي القملي : « هذه الزيادة تلحق في الاستفهام في آخر الكلمة إذا أنكرت أن يكون
 رأي المتكلم على ما ذكر ، أو يكون على خلاف ما ذكر » انظر هذا المبحث في الأمل ۲ : ۱۵ .
 (۱۲) أي مفرقة .

قولهم في الدعاء

۹۷ - دعاء أعرابي

قال أبو حاتم : أُملي عايناً أعرابياً يقال له مرثد :

« اللهم اغفر لي ، واجلدُ بارد ، والنفسُ رَطْبَةٌ ، واللسانُ منطلق ، والصحفُ منشورة ، والأقلامُ جارية ، والتوبةُ مقبولة ، والأنفُسُ مِرْيَحَةٌ^(۱) ، والتضرعُ مرجو ، قبل أنِ الفراق ، وَحَشَكِ النَّفْسِ^(۲) ، وَعَلَزِ الصِّدْرِ^(۳) ، وَتَزَيْلِ الْأَوْصَالِ^(۴) ، وَنُصُولِ الشَّعْرِ ، واحتياف^(۵) التراب ، وقبل أن لا أقدر على استغفارك حينَ يَفْنَى العمل ، ويحضرُ الأجل ، وينقطع الأمل .

أَعْنِي على الموت وكُرْبَتِهِ ، وعلى القبرِ وَغَمَّتِهِ^(۶) ، وعلى الميزانِ وَخِفَّتِهِ ، وعلى الصِّراطِ وَوزَلَّتِهِ ، وعلى يومِ القيامةِ وَرَوْعَتِهِ ، اغفر لي مغفرةً عَزَمًا ، لا تغادرِ ذنبًا ، ولا تدعُ كَرْبًا ، اغفر لي جميع ما افترضتَ عليّ ولم أؤدّه إليك ، اغفر لي جميع ما تُبْتُ إليك منه ثم عدت فيه .

يا رب تظاهرت^(۷) عليّ منك النعمُ ، وتداركتَ عندك مني الذنوبُ ، فلك الحمد على النعم التي تظاهرت ، وأستغفرك للذنوب التي تداركت ، وأمسيتَ عن عذابي غنيًّا ، وأصبحتُ إلى رحمتك فقيرًا .

(۱) مرّح كفرّح : أشرب ويطر ونشط واختال وتبختر فهو مرّح ومرّيح .

(۲) الحشك : شدة النزح . (۳) العلز : قلق وخفة وهلع يصيب المريض والمحتضر .

(۴) تزيلت وتزايلت : تفرقت ، والأوصال : المفاصل . (۵) الاحتياف : افتعال من الحيف وهو

الجور ، والمراد أكل تراب القبر الجثة ، والذي في كتب اللغة « التحيف » تحيفت الشيء : إذا نقصته من حافاته .

(۶) فعله من غم الشيء : أي غطاه فالغم ، أو هي « غمته » بالضم : أي بلائه وكرب عذابه .

(۷) من تظاهروا إذا تعاونوا : أي تتابعت .

اللهم إني أسألك نجاح الأمل ، عند انقطاع الأجل ، اللهم اجعل خير عملي ما ولى
أجلى ، اللهم اجعلني من الذين إذا أعطيتهم شكروا ، وإذا ابتليتهم صبروا ، وإذا
أذكرتهم ذكروا ، واجعل لي قلباً تواباً أو أبياً ، لا فاجراً ولا مرتاباً ، اجعلني من
الذين إذا أحسنوا ازدادوا ، وإذا أساءوا استغفروا .

اللهم لا تحقق عليّ العذاب^(١) ، ولا تقطع بي الأسباب ، واحفظني في كل ما تحيط
به شفقتي ، وتأني من ورائه سبحتي^(٢) ، وتعجز عنه قوتي ، أدعوك دعاء ضعيفٍ عمله ،
متظاهراً ذنوبه ، ضنينٍ على نفسه ، دعاء من بدنه ضعيفٌ ، ومُنته^(٣) عاجزة ، قد
انتهت عدته ، وخلقت^(٤) جدته ، وتمّ ظمؤه . اللهم لا تخيبي وأنا أرجوك ، ولا
تعذّبي وأنا أدعوك ، والحمد لله على طول النسيئة^(٥) ، وحسن التباعة^(٦) ، وتشنج
العروق ، وإساعة الريق ، وتأخر الشدايد ، والحمد لله على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه
بعد قدرته ، والحمد لله الذي لا يودى^(٧) قتيله ، ولا يخيب سؤله ، ولا يرّد رسوله ،
اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذلّ إلا لك ، وأعوذ بك أن أقول
زوراً ، أو أغشى فجوراً ، أو أكون بك مغروراً ، وأعوذ بك من شماتة الأعداء ،
وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة .

(العقد الفريد ٢ : ٧٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٢٤ - ١٣٧ - ١٣٨)

(١) يشير إليه قوله تعالى : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » .

(٢) فعلة من لسبح : وهو الثقلب والانتشار في الأرض ، والإبعاد في السير ، والتصرف في المعاش .

(٣) المنّة : القوة .

(٤) خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى ، والظم : ما بين الشربتين والوردتين .

(٥) الإمهال والتأخير . (٦) التباعة مثل التبعة بفتح فكسر . قال للشاعر :

أكلت حنيفة ربهما زمن التقحم والمجاعة

لم يحدروا من ربهما سوه العواقب والتباعة

• لأنهم كانوا قد اتخذوا إلهاً من حيمس فعبدوه زمناً ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه • - والحيمس كشمس :

تمر يخلط بالسمن والابن الخيضر فيمجن شديداً ، ثم يندر منه نواه .

(٧) ودى للقتيل كوصى : أعطى ديتة ، والسول : وهو ما سأك .

٩٨ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي وهو يَطُوف بالكعبة فقال :

« إلهي مَنْ أَوْلَى بالتقصير والزلل مني وأنت خلقتني ؟ وَمَنْ أَوْلَى بالعفو منك عني
وعلمك بي ماضٍ ، وقضاؤك بي مُحِيط ؟ أظعتك بقوتك وَالْمِنَّةُ لك ، وَعَصَيْتُكَ بعلمك ،
فأسألك يا إلهي - بوجوب رحمتك وانقطاع حجتي ، وافتقاري إليك وغناك عني -
أن تغفر لي وترحمني .

إلهي لم أحسن حتى أعطيتني ، فتجاوزت عن الذنوب التي كتبت عليّ ، اللهم إنا
أظعنك في أحبِّ الأشياء إليك : شهادة أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ،
ولم نعصك في أبغض الأشياء إليك : الشرك بك ، فاعفِرْ لي ما بين ذلك .

اللهم إنك آانسُ المؤمنين لأولياك ، وأحضرهم للمتوكلين عليك ، إلهي أنت
شاهدُهم وغائبُهم ، والمطلع على ضمائرهم ، وسرّي لك مكشوف ، وأنا إليك ملهوف ،
إذا أوحشتني الغربة أنسنى ذكرك ، وإذا أكبّت عليّ الغموم لجأت إلى الاستجارة
بك ، علماً بأن أزمة الأمور كلها بيدك ، ومصدرها عن قضائك ، فأقللني^(١) إليك
مغفوراً لي ، معصوماً بطاعتك بقية عمري ، يا أرحم الراحمين .

٩٩ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : حجّجت فرأيت أعرابياً يطوف بالكعبة ويقول :

يا خير موفودٍ سعى إليه الوُفد^(٢) ، قد ضعفت قوتي ، وذهبت منّي ، وأتيت
إليك بذنوب لا تغسلها الأنهار ، ولا تحملها البحار ، أستجير برضاك من سُخطك ،
وبعفوك من عقوبتك ، ثم التفت فقال : « أيها المشفقون ، ارحموا من سَمَلته الخطايا ،

(١) أقله : حله . (٢) وفه إليه وعليه : قدم ، وهم وفود روفد كشمس وركع وأوفاد .

وَعَمَّرْتَهُ الْبَلَايَا ، اِرْحَمُوا مِنْ قَطْعِ الْبِلَادِ ، وَخَلَّفَ مَا مَلَكَ مِنَ التَّلَادِ . اِرْحَمُوا مِنْ وَبَّخْتِهِ
الذُّنُوبِ ، وَظَهَّرْتَ مِنْهُ الْعِيُوبَ ، اِرْحَمُوا أُسِيرَ ضُرٍّ ، وَطَرِيدَ فَقْرٍ ، أَسْأَلُكُمْ بِالَّذِي
أَعْمَلْتُمْ الرَّغْبَةَ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ أَنْ يَهَبَ لِي عَظِيمَ جُرْمِي « ، ثُمَّ وَضَعَ فِي حَلْقَتِهِ
بِالْبَابِ خَدَّهُ وَقَالَ : ضَرَعَ خَدِي لَكَ ، وَذَلَّ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيْكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

عَظِيمُ الذَّنْبِ مَكْرُوبٌ مِنْ الْخَيْرَاتِ مَسْلُوبٌ
وَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا فَقْرٍ وَمَا عِنْدَكَ مَطْلُوبٌ

١٠٠ - دَعَاءُ أَعْرَابِي

وَسَمِعَ أَعْرَابِي بَعْرَفَاتٍ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَهُوَ يَقُولُ :

« اللَّهُمَّ إِنْ هَذِهِ عَشِيَّةٌ مِنْ عَشَايَا مَحَبَّتِكَ ، وَأَحَدُ أَيَّامِ زُلْفَتِكَ ^(١) ، يَا مُلِّ فِيهَا مِنْ
لَجَأٍ إِلَيْكَ مِنْ خَلْقِكَ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا ، بِكُلِّ لِسَانٍ فِيهَا يُدْعَى ، وَلِكُلِّ خَيْرٍ فِيهَا
يُرْجَى ، أَنْتَكَ الْعَصَاةُ مِنَ الْبَلَدِ السَّحِيقِ ^(٢) ، وَدَعْتِكَ الْعُنَاةُ ^(٣) مِنْ شَعْبِ الْمُضِيقِ ،
رَجَاءً مَا لَا خُلْفَ لَهُ مِنْ وَعْدِكَ ، وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ مِنْ جَزِيلِ عَطَائِكَ ، أَبَدَتْ لَكَ وَجُوهَهَا
الْمَصُونَةَ ، صَابِرَةً عَلَى وَهَجِ السَّمَائِمِ ^(٤) ، وَبَرْدِ اللَّيَالِي ، تَرْجُو بِذَلِكَ رِضْوَانَكَ ،
يَا غَفَّارُ ، يَا مُسْتَزَادًا مِنْ نِعْمَةٍ . وَمُسْتَعَاذًا مِنْ نِقَمَةٍ ، اِرْحَمْ صَوْتَ حَزِينٍ دَعَاكَ
بِرَفِيرٍ وَشَهِيْقٍ . »

ثُمَّ بَسَطَ كِلْتَا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ بَسَطْتُ يَدِيَّ إِلَيْكَ دَاعِيًا

(١) الزلفة : القربة . (٢) البعيد . (٣) العنائة جمع هان من عنا : أى ذل وخضع ، وفق
رواية الأماي : « أنتك الضوامر من الفج العميق ، ورجابت إليك المهارق من شعب المضيق » والضوامر
الإبل المهزولة ، والمهارق جمع مهرق (بضم الميم وفتح الراء) : الصحراء الملصاء .

(٤) السمائم جمع سموم كصبور : وهى الريح الحارة تكون غالباً بالنهار ، وفق رواية الأماي : « على لفتح
السائم ، وبرد ليل التمام » - وليل التمام (ككعباب) وليل تسمى : أطول ليالى الشتاء - وفق رواية
الأماي : « نعمتك تظاهرها على هند القفلة ، فكيف أياس منها عند الرجعة » - وأصل القفل
(التحريك) : والرجوع من السفر : ويطلق على الابتداء فى السفر كما هنا تفاؤلا بالرجوع .

فطالما كَفَيْتَنِي سَاهِيًا ، بنعمتك التي تظاهرتُ عليَّ عِنْدَ الغفلة ، فلا أياسُ بها عند
التوبة ، لا تقطعُ رجائي منك لما قدّمت من اِقْتِرَافٍ^(١) آثامك ، وإن كنت لا أصِلُ
إليك إلا بك ، فهب لي ياربُّ الصلاحِ في الولد ، والأمنَ في البلد ، والعافيةَ في الجسدِ
وعافني من شرِّ الحسدِ ، ومن شرِّ الدهرِ النَّكَدِ^(٢) .

(العقد الفرید ٢ : ٧٧ ، والأمالی ٢ : ٢٢٣)

١٠١ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي فقال : « يَا عِمَادَ مَنْ لَاعِمَادَ لَهُ ، وَيَارُ كُنَّ مِنْ لَارُ كُنَّ لَهُ ،
وَيَا مُجِيرَ الضَّعْفَى^(٣) ، وَيَا مُنْقِذَ الْهَلَكَى ، وَيَا عَظِيمَ الرَّجَاءِ ، أَنْتَ الَّذِي سَبَّحَ لَكَ سَوَادُ
الليل ، وبياضُ النهار ، وضوء القمر ، وشُعاع الشمس ، وحَفِيفُ الشجر ، وَدَوِيَّ المَاءِ^(٤) ،
يَا مُحْسِنَ ، يَا مُجْمِلَ ، يَا مُفْضِلَ ، لَا أَسْأَلُكَ الْخَيْرَ بِخَيْرِهِمْ عِنْدَكَ ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ
بِرَحْمَتِكَ ، فَاجْعَلِ العافيةَ لي شِعَارًا وَدِثَارًا^(٥) ، وَجَنَّةَ دُونَ كُلِّ بَلَاءٍ . »

١٠٢ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً في فلاة من الأرض ، وهو يقول في دعائه :
« اللَّهُمَّ إِنْ اسْتِغْفَارِي إِيَّاكَ مَعَ كَثْرَةِ ذُنُوبِي لِلْوَيْمِ ، وَإِنْ تَرَكِي الاسْتِغْفَارَ مَعَ
مَعْرِفَتِي بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ لَعَجْزٍ ، إِلَهِي كَمْ تَحَبَّبْتَنِي إِلَيْكَ بِنِعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنِّي ، وَكَمْ
أَتَبَغَّضْتَنِي إِلَيْكَ بِذُنُوبِي ، وَأَنَا فَقِيرٌ إِلَيْكَ ، سُبْحَانَ مَنْ إِذَا تَوَعَّدَ عَفَا ، وَإِذَا وَعَدَ وَفَى . »

(١) اقتراف اللذنب : أتاه وفعله .

(٢) يقال : رجل نكد ككثف وسبب وشمس وأنكد : شؤم صر .

(٣) الضعق جمع ضعيف . (٤) المعنى : أن هذه الكائنات تدعو المتأمل فيها إلى تسبيحه جل شأنه .

(٥) الشعار : ما يلبس على شجر الجسد ، والدثار : ما يلبس فوق الشعار ، والجنة : الوقاية .

۱۰۳ - دعاء اعرابي

قال : وسمعت اعرابيا يقول في دعائه : « اللهم ان ذنوبي إليك لاتضرک ؛ وان رحمتک إياي لاتنقصک ، فاغفر لی مالا یضرک ، وهب لی مالا ینقصک » .

۱۰۴ - دعاء اعرابي

وقال : سمعت اعرابيا وهو يقول في دعائه : « اللهم انی أسألك عمل الخائفین ، وخوف العاملين حتی أتتعم بترك النعم^(۱) طمعا فيما وعدت . وخوفا مما أوعدت اللهم أعذنی من سطاواتک ، وأجرنی من نِقَمَاتک ، سبقت لی ذنوبٌ ، وأنت تفر لمن یحوب^(۲) ، إلیک بک أتوسلُ ، ومنک إلیک أفرُّ » .

۱۰۵ - دعاء اعرابي

وقال : سمعت اعرابيا يقول : « اللهم ان قوما آمنوا بک بالسنتم ، لیحققنوا دماءهم ، فأدر کوا ما أمَلُوا ، وقد آمنَّا بک بقلوبنا ، لتُجیرنا من عذابک ، فأدرک منا ما أمَلناه » .

۱۰۶ - دعاء اعرابي

قال : ورأيت اعرابيا متعلقا بأستار الکعبة ، رافعا يديه إلى السماء ، وهو يقول : « ربَّ أترک معذبنا ، وتوحیدک فی قلوبنا ؟ وما إخالک تفعل ! ولئن فعلت لَتَجْمَعُنَا مع قوم طالبا أبغضناهم لک » .

(۲) حاب یحوب : اثم .

(۱) أي فی الدنيا

۱۰۷ - دعاء أعرابي

وقال: سمعت أعرابياً يقول في صلاته: « الحمد لله حمداً لا يبلى جديده ،
ولا يُحصَى عديده ^(۱) . ولا يُبلَّغ حدوده ، اللهم اجعل الموت خيراً غائب نتظره ،
واجعل القبر خيراً بيئت نعمره ، واجعل ما بعده خيراً لنا منه . اللهم إن عيني
قد أغرورقتا دموعاً من خشيتك ، فاغفر الزلة ، وعدّ بحلمك ، على جهل من لم
يرج غيرك » .

۱۰۸ - دعاء أعرابي

وقال: رأيت أعرابياً أخذ بحلقتي باب الكعبة وهو يقول:
« سائلك عند بابك ، ذهبَت أيامه ، وبقيت آثامه ، وانقطعت شهوته ، وبقيت
تباعته ، فارض عنه ، وإن لم ترض عنه فاعف عنه غير راض » .

۱۰۹ - دعاء أعرابي

قال: ودعا أعرابي عند الكعبة فقال: « اللهم إنه لاشرف إلا بفعال ، ولا فعال
إلا بمال ، فأعطني ما أستعين به على شرف الدنيا والآخرة » .

۱۱۰ - دعاء أعرابي

عن طاووس قال: « بينا أنا بمكة إذ دفعت إلى الحجاج بن يوسف ، فثنى لي مساداً
فجاست ، فبينما نحن نتحدث إذ سمعت صوت أعرابي في الوادي رافعاً صوته بالتلبية ،

(۱) عده .

فقال الحجاج . على بالملسي . فأُتِيَ به فقال : مَنْ الرَّجُلُ ؟ قال : مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ (۱) .
 قال : ليس عن هذا سألتك . قال : نَعَمْ سَأَلْتَنِي . قال : من أى البلدان أنت ؟
 قال : من أهل اليمن . قال له الحجاج . فكيف خلفت محمد بن يوسف - يعنى أخاه .
 وكان عامِلَه عَلَى اليمن - قال : خلفته عظيمًا جسيمًا خَرَّاجًا وَوَلَّاجًا . قال . ليس عن هذا
 سألتك ، قال : نَعَمْ سَأَلْتَنِي ، قال : كيف خلفت سيرته فى الناس ؟ قال : خَلَفْتُهُ ظُلُومًا
 غَشُومًا (۲) ، عاصيا للخالق ، مُطِيعًا للمخلوق ، فازور (۳) من ذلك الحجاج ، وقال .
 ما أقدمك لهذا ، وقد تعلم مكانته منى ! فقال له الأعرابي : أفترأه بمكانة منك أعز منى
 بمكانتى من الله تبارك وتعالى ، وأنا وَافِدُ بيته ، وقاضى دِينِهِ ، ومصدق نبيه
 صلى الله عليه وسلم ؟ فَوَجَمَ (۴) لها الحجاج ، ولم يُجِرْ له جوابا (۵) ، حتى خرج الرجل
 بلا إذن .

قال طاوس : فتبعته حتى أتى الملتزم فتعلق بأستار الكعبة ، فقال : بك أعوذ ،
 وإليك أأوذ ، فاجعل لى فى الألف إلى جوارك ، والرّضا بضمّانك ، مندوحة (۶) ،
 عن منع الباخلين ، وَرَغْنَى عما فى أيدي المستأثرين ، اللهم عدّ بفرّجك القريب ، ومعروفك .
 القديم ، وعادتك الحسنّة .

قال طاوس : ثم اختفى فى الناس ، فألفيته بعرفات قائمًا على قدميه وهو يقول :
 « اللهم إن كنت لم تقبل حجّى وَنَصَبِى (۷) وَتَعْبِى ، فلا تحرمنى أجر المصاب على
 مصيبته ، فلا أعلم مصيبةً أعظم ممن ورد حوضك ، وانصرف محرومًا من
 وجه رغبتك » .

(۱) يقال « هو من أفناء الناس » إذا لم يعلم من هو ، واحده فنو كحمل أو فنا كعصا .
 (۲) ظلوما . (۳) ازور : انصرف وما ل : أى غضب منه . (۴) وجم : سكت على غيظ .
 (۵) أى لم يردده . (۶) أى متسعاً .
 (۷) فى الأصل « ونسبى » وأراه محرفاً عن « نصبى » ، ويؤيده قوله بعد « وتعبى » .

۱۱۱ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي . رأيت أعرابياً يطوف بالكعبة وهو يقول :

« إلهي عَجَّتْ^(۱) إليك الأصواتُ ، بضروبٍ من اللغات ، يسألونك الحاجات
وحاجتي إليك إلهي أن تذكرني على طول البكاء ، إذا نسيني أهلُ الدنيا ، اللهم هب لي
حقك ، وأرض عني خلقك ، اللهم لاتُعِينِي في طلب مالم تقدره لي ، وما قدرته لي
فيسره لي . »

۱۱۲ - دعاء أعرابي

قال : ودعت أعرابية لابن لها وجهته إلى حاجة فقالت : « كان الله صاحبك
في أمرك ، وخليفتك في أهلك ، ووليُّ نَجْحِ طَلِبَتِكَ^(۲) ، امضِ مُصَاحِبًا مَكْلُوءًا^(۳) ،
لا أشمت الله بك عدوًّا ، ولا أرى مُحِبِّكَ فيك سوءًا . »

(العقد الفريد ۲ : ۷۶ - ۷۹)

۱۱۳ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : خرجت أعرابية إلى ميني فقَطَع بها الطريقُ فقالت :

« يارب . أعطيت وأخذت ، وأنعمت وسأبت ، وكلُّ ذلك منك عدلٌ وفضلٌ ،
والذي عظامٌ على الخلائق أمرك ، لا بَسَطْتُ لسانِي بِمَسْأَلَةٍ أَحَدٍ غَيْرِكَ ، ولا بَدَلْتُ
رغبتِي إلا إليك ، يا قُرَّةَ أعين السائلين : أغنني بِجُودٍ مِنْكَ أَتَجَبَّحُ^(۴) في فراديس

(۱) حج يعج بكسر العين وفتحها : صاح ورفع صوته .

(۲) النجح : النجاح ، والطلبية : ما طلبته . (۳) من كلاء كنهه : حرسه .

(۴) أتجبح : تمكن في المقام والحلول ، وتجبح الدار : توسطها ، والفراديس جمع فردوس

وهو البستان .

نِعْمَتِهِ ، وَأَتَقَلَّبَ فِي رُؤَاقٍ نَضْرَتَهُ^(۱) أَحْمَلَنِي مِنَ الرَّجْلَةِ^(۲) ، وَأَغْنَيْتَنِي مِنَ الْعَيْلَةِ ،
وَاسْتَدَلَّ عَلَيَّ سِتْرَكَ الَّذِي لَا تَخْرِقُهُ الرِّمَاحُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الرِّيحُ ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدَّعَاءِ .

(البيان والتبيين ۲ : ۷۸ ، والعقد الفريد ۳ : ۱۳۸)

۱۱۴ - أدعية شتى

ومات ابن لأعرابي فقال : « اللهم إني وهبتُ له ما قَصَّرَ فيه من برِّي ، فهَبْ لي
ما قَصَّرَ فيه من طاعتك ، فإنك أجود وأكرم . »

(العقد للفريد ۲ : ۷۹ ، والبيان والتبيين ۳ : ۱۳۸)

• • •

ووقف أعرابي في بعض المواسم فقال : « اللهم إن لك عَلَيَّ حَقَوًّا فَتَصَدَّقْ بِهَا عَلَيَّ ،
وَلِلنَّاسِ تَبِعَاتٍ قَبْلِي فَتَحْمَلْهَا عَنِّي ، وَقد أَوْجِبْتَ لِكُلِّ ضَيْفٍ قَرِيًّا^(۳) ، وَأَنَا ضَيْفُكَ
الليلة ، فَاجْعَلْ قِرَايَ فِيهَا الْجَنَّةَ . »

(العقد الفريد ۲ : ۷۸ ، والبيان والتبيين ۲ : ۴۸)

• • •

وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ :
« اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي خَيْرَ مَا عِنْدَكَ لِشَرِّ مَا عِنْدِي ، وَإِنْ لَمْ تَتَقَبَّلْ تَعْمِي وَنَصِي ،
فَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمُصَابِ عَلَيَّ مَصِيبَتِهِ . »

(زهر الآداب ۳ : ۱۶۳)

• • •

وقال الأصمعي : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لِرَجُلٍ : « أَطْعَمَكَ اللَّهُ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي لَهُ ،
فَقَدْ أَحْيَيْتَنِي بِقَتْلِ جَوْعِي ، وَدَفَعْتَ عَنِّي سُوءَ ظَنِّي ، حَفِظْتَكَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ جَنْبٍ ، وَفَرَّجَ
عَنكَ كُلِّ كَرْبٍ ، وَغَفَرَ لَكَ كُلَّ ذَنْبٍ . »

(العقد الفريد ۲ : ۸۴)

• • •

(۱) في الأصل « راووق » وهو المصفاة ، وأراه محرفاً عن « رواق » وهو الفسطاط ، والنضرة :
النعمة والنسي . (۲) رجل كفرح فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهر يركبه ، والرجلة بالفتح
ويكسر : شدة المشي ، والعيلة : الفقر .

(۳) قرى الضيف كرمى ، قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .

عن الأصمعي قال : رأيت أعرابيا يصلي وهو يقول : أسألك الغفيرة^(١) .
والناقة الغزيرة ، والشرف في العشيرة ، فإنها عليك يسيرة . (الأمالي ۲ : ۲۳)

• • •

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يدعو لرجل فقال : « جَنَّبَكَ اللهُ
الأمريين^(٢) ، وكفأك شرَّ الأجوفين^(٣) ، وأذأك البردین^(٤) » .
(الأمالي ۲ : ۷۲ ، والبيان والتبيين ۳ : ۱۳۷)

• • •

ودعا أعرابي فقال : اللهم إني أسألك البقاء ، والنماء ، وطيب الإتياء^(٥) ،
وَحَطَّ الأعداء ، ورفع الأولياء . (البيان والتبيين ۱ : ۱۶۳)

• • •

وقال أعرابي : « اللهم لَا تُنْزِلْني ماء سَوَاء ، فَأَكُونَ أَمْرًا سَوَاءً » وقال أعرابي .
« اللهم قِنِي عَثْرَاتِ الكرام » . (البيان والتبيين ۱ : ۲۱۵)

• • •

ووهب رجل لأعرابي شيئاً فقال : « جعل الله للمعروف إليك سبيلاً ، وللخير
عليك دليلاً ، وجعل عندك رِفْدًا^(٦) جَزِيلاً ، وأبقاك بقاء طويلاً ، وأبلاك^(٧)
بلاء جميلاً » .

• • •

وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يدعو وهو يقول : اللهم ارزقني مالا أ كَبِتَ^(٨)
به الأعداء ، وَبَنِينَ أصول بهم عَلَى الأقوياء . (البيان والتبيين ۳ : ۲۲۴)

(١) الغفيرة : المغفرة . (٢) الأمران : الفقر والحرم ، أو الجوع والعري . (٣) الأجوفان :
البطن والفرج . (٤) البردان : برد العين وبرد العافية . (٥) الإتياء : الرزق ، من أتت الشجرة
أتوا وإتياء : طلع ثمرها ، أو بدا صلاحها ، أو كثر حملها . (٦) الرfid : العطاء والصلة .
(٧) الإهلاء : الإنعام والإحسان ، أبليت عنده بلاء حسنا ، وأبلاه الله بلاء حسنا .
(٨) كَبِتَ : صرعه وأذله ، ورد العدو بغيظه .

ودعت أعرابية على رجل فقالت : « أمكن الله منك عدوًّا حسودا ، وَفَجَعَ بِكَ صَدِيقًا وَدُودًا ، وَسَلَطَ عَلَيْكَ هَمًّا يُضْنِيكَ ، وَجَارًا يُؤْذِيكَ » .
(العقد الفريد ۲ : ۹۱)

• • •

ودعا أعرابي فقال : « أعوذ بك من الفَوَاقِرِ ^(۱) والبواقر ، ومن جارٍ السوء ، في دارِ الْمُقَامَةِ وَالظُّعْنِ ، وَمِمَّا يَنْكُسُ رَأْسَ الْمَرْءِ ، وَيُغْرِى بِهِ لثَامَ النَّاسِ » .

• • •

وقال أعرابي : « أعوذ بك من سَقَمٍ ، وعداوة ذى رَحِمٍ وَدَعْوَاهِ ، ومن فاجرٍ وَجَدَّوَاهِ ^(۲) ، وعمل لا ترضاه » .
(البيان والتبيين ۳ : ۱۳۶)

• • •

ودعت أعرابية لرجل فقالت : « كَبَيْتَ اللَّهُ كُلَّ عَدُوِّكَ إِلَّا نَفْسَكَ » .
ودعا أعرابي فقال : « اللَّهُمَّ هَبْ لِي حَقَّكَ ، وَأَرْضِ عَنِّي خَلْقَكَ » .
وقال أعرابي : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا أَنْ نَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمْنَا ، وَقَدْ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا فَاعْفُ عَنَّا » .
(البيان والتبيين ۳ : ۱۳۷)

• • •

وقال أعرابي : « مَنْحَكُمُ اللَّهُ مَنِجَّةً لَيْسَتْ بِجَدَّاءٍ ، وَلَا نَكْدَاءٍ ، وَلَا ذَاتِ دَاءٍ » .
وقال أعرابي : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ حَبَسْتَ عَنَّا قَطْرَ السَّمَاءِ ، فَذَابَ الشَّحْمُ ، وَذَهَبَ اللَّحْمُ وَرَقَّ الْعِظْمُ ، فَارْحَمِ أُنِينَ الْآئِنَةِ ، وَحَنِينَ الْحَائِنَةِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ تَحِيرَهَا فِي مَرَاتِعِهَا ، وَأُنِينَهَا فِي مَرَابِضِهَا » .

• • •

(۱) الفواقير جمع فاقرة : وهى الداهية ، والبواقر جمع باقرة : وهى الفتنة الصالحة للألفة الشاقة للمصا .
(۲) الجدوى : العطية .

وحج أعرابي فقال : « اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان نائياً فقرّبهُ ، وإن كان قريباً فيسرّه » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٢٨)

• • •

ومات ولد لرجل من الأعراب فصرى عليه ، فقال : « اللهم إن كنت تعلم أنه كريم الجدّين ، سهّل الخدين ، فاغفر له وإلا فلا » .

(الأمان ١ : ٢٠٢)

• • •

وقالت أعرابية لرجل : « رماك الله بايلة لا أخت لها » أي لا تعيش بعدها .

(الأمان ١ : ٢١٧)

• • •

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غناك ، أو أضلّ في هداك ، أو أذلّ في عزك ، أو أضام في سلطانك ، أو أضطهد والأمر إليك » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

• • •

وقال الأصمى : سمعت أعرابية تقول : « اللهم ارزقني عمل الخائفين ، وخوف العاملين ، حتى أنعم بترك التنعم ، رجاء لما وعدت ، وخوفاً مما أوعدت » .

وقال آخر : « اللهم من أراد بنا سوءاً فأحطه به كإحاطة القلائد ، بأعناق

الولائد^(١) ، وأرسيخه على هامته كرسوخ السجيل^(٢) ، على هام أصحاب الفيل » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

(١) الولائد جمع وليدة : وهي الصبية . (٢) السجيل : طين مطبوخ ، يشير إلى قوله تعالى :

« وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » . وأبابل أي جماعات .

۱۱۵ - نوادر وملح لبعض الأعراب

«غزا أعرابي مع النبي صلى الله عليه وسلم فقبل له : ما رأيت مع رسول الله في غزاتك هذه ؟ قال : وَضَعْنَا نِصْفَ الصَّلَاةِ^(۱) ، وَأَرْجُو فِي الْغَزَاةِ الْآخَرَى أَنْ يَضَعَ النِّصْفَ الْبَاقَى .»

• • •

وَدَخَلَ أَعْرَابِي الْمَسْجِدَ ، وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا ، فَقَامَ يَصَلِّي ، فَلَمَّا فَرَغَ ، قَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا ، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا ، « فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لَقَدْ تَحَجَّرَتْ^(۲) وَاسِعًا يَا أَعْرَابِي .»

• • •

وَخَرَجَ الْحِجَابُ مُتَّصِدًا بِالْمَدِينَةِ ، فَوَقَفَ عَلَى أَعْرَابِي يَرَعَى إِبْلَاءً لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَعْرَابِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ سِيرَةَ أَمِيرِكُمُ الْحِجَابِ ؟ قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِي : غَشُومٌ ظَلُومٌ ، لَا حَيَّاهُ اللَّهُ ، فَقَالَ : فَلِمَ لَا تَشْكُوهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ قَالَ : فَأُظْلَمُ وَأُغْشَمُ ! فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا أَحَاطَتْ بِهِ الْخَيْلُ ، فَأَوْمَأَ الْحِجَابُ إِلَى الْأَعْرَابِي ، فَأُخِذَ وَحِيلَ ، فَلَمَّا صَارَ مَعَهُ ، قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا لَهُ : الْحِجَابُ ، فَحَرَّكَ دَابَّتَهُ حَتَّى صَارَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ ، ثُمَّ نَادَاهُ يَا حِجَابُ ، قَالَ : مَا تَشَاءُ يَا أَعْرَابِي ؟ قَالَ : السِّرُّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَحِبَّ أَنْ يَكُونَ مَكْتُومًا ، فَضَحِكَ الْحِجَابُ ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ .

• • •

« وَخَرَجَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ مُتَنَزِّهًا بِالْأَنْبَارِ ، فَأَمَعَنَ فِي نَزْهَتِهِ ، وَانْتَبَذَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، خَوْفَى خِبَاءً لِأَعْرَابِي ، فَقَالَ لَهُ الْأَعْرَابِي : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : مِنْ كِنَانَةَ ، قَالَ : مِنْ أَى كِنَانَةَ ؟ قَالَ : مِنْ أَبْغُضِ كِنَانَةَ إِلَى كِنَانَةَ ، قَالَ : فَأَنْتَ إِذَنْ مِنْ قَرِيشٍ ؟ قَالَ :

(۱) یعنی صلاة التصر . (۲) أى ضیقت ما وسعه الله وخصصت به نفسك دون غیرك .

(۲۲ - جہرۃ خطب العرب - ثالث)

نعم ، قال : فمن أى قريش ؟ قال : من أبغض قريش إلى قريش ، قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : فمن أى ولد عبد المطلب ؟ قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب ، قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ووثب إليه ، فاستحسن ما رأى منه ، وأمر له بجائزة .

• • •

وولى يوسف بن عمر الثقفى صاحب العراق أعرابياً على عمل له ، فأصاب عليه خيانة فعزله ، فلما قدم عليه ، قال له : يا عدو الله ، أكلت مال الله ، قال الأعرابي : فقال من آكل إذا لم آكل مال الله ؟ لقد راودت إبليس أن يعطينى فلساً واحداً فما فعل ، فضحك منه وخلق سبيله .

• • •

وأخذ الحجاج أعرابياً لصاً بالمدينة فأمر بضربه ، فلما قرعه بسوط قال : يا رب شُكراً ، حتى ضربه سبعمائة سوط ، فلقية أشعب ، فقال له : تدرى لم ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟ قال : لماذا ؟ قال : لكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول : « ائِنَّ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » ، قال : وهذا فى القرآن ؟ قال : نعم ، فقال الأعرابي :

يا رب لا شُكراً فلا تَزِدني أسأتُ فى شكري فاعفُ عني
باعدُ ثوابَ الشاكرين مني

• • •

ونزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة ، وقد دجنت^(۱) عندها ، فذبحتها وجاءت بها إليه ، فقالت : يا أبا جعفر هذه دجاجة لى كنت أدجنها وأعلفها من قوتي ، وألمسها فى آناء الليل ، فكأنما أمس بنتى زلت عن كبدى ، فنذرتُ لله أن

(۱) دجن الحمام والشاة وغيرهما كنصر : ألفت البيوت .

أدفعها في أكرم بقعة تكون ، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك ، فأردت أن أدفعها فيه ، فضحك عبد الله بن جعفر ، وأمر لها بخمسة درهم .

• • •

وسمع أعرابي وهو يقول في الطواف : « اللهم اغفر لأمي » ، فقيل له : مالك لا تذكر أباك ؟ قال : أبي رجل يحتال لنفسه ، وأما أمي فبأسة ضعيفة .

• • •

« وقال أبو زيد : رأيت أعرابياً كأن أنفه كوز ، من عظمه ، فرآنا نضحك منه ، فقال : ما يضحككم ؟ فوالله لقد كنت في قوم ، ما كنت فيهم إلا أفتس ! » .

• • •

« وجرى بأعرابي إلى السلطان ومعه كتاب قد كتب فيه قصته ، وهو يقول : « هاؤم أقرءوا كتابيه » ، فقيل له يقال هذا يوم القيامة ، قال : « هذا والله شر من يوم القيامة ، إن يوم القيامة يؤتى بحسناتي وسيئاتي ، وأنتم جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي » .

• • •

« واشترى أعرابي غلاماً فقيل للبائع : هل فيه من عيب ؟ قال : لا ، إلا أنه يبول في الفراش ، قال ، هذا ليس بعيب ، إن وجد فراشاً فليبل فيه » .

• • •

ومر أعرابي بقوم وهو ينشد ابناً له ، فقالوا له ، صبه ، قال : كانه دنينير ، قالوا : لم نره ، ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي ، وعلى عنقه جعل^(١) ، فقالوا ، هذا الذي قلت فيه دنينير ؟ قال ، القرني^(٢) في عين أمها حسناء .

• • •

(١) الجمل : الحرباء .

(٢) القرني : دويبة من خشاش الأرض فولد الخنفساء إذا مصها أحدت قبضت فصارت مثل النكرة .

وقيل لأعرابي ، ما يمنعك أن تغزو ؟ قال ، والله إني لأبغض الموت على فراشي ،
فكيف أن أمضى إليه رَكُضًا ؟ » .

• • •

« وخرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له ، فلما كان ببعض الطريق راجعاً يريد أهله ،
لقيه ابن عم له ، فسأله عن أهله ومنزله ، فقال ، اعلم أنك لما خرجت ، وكانت لك
ثلاثة أيام ، وقع في بيتك الحريق ، فرفع الأعرابي يديه إلى السماء ، وقال : ما أحسنَ
هذا يارب ! تأمرنا بعمارة بيتك أنت ، وتخرّب بيوتنا ! » .

• • •

وخرجت أعرابية إلى الحج ، فلما كانت في بعض الطريق عطبت راحلتها ،
فرفعت يديها إلى السماء ، وقالت ، « يارب أخرجتني من بيتي إلى بيتك ، فلا بيتي
ولا بيتك ! » .

• • •

وعرضت السجون بعد هلاك الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم يجب
على واحد منهم قتل ولا صلب ، وفيهم أعرابي ، أخذ يبول في أصل مدينة واسط ،
فكان فيمن أطلق ، فأنشأ يقول :

إذا ما خرجنا من مدينة واسطٍ خَرِينَا وَبُلْنَا لَانْحَافِ عِقَابَا

• • •

ونظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان فقال : « وَاللَّهِ لِنِ آثَرْتُمُوهُ
لَتُمْسِكُنَّ مِنْهُ بِذُنَابِي ^(١) عِيشَ أُغْبِرَ » .

• • •

ونظر أعرابي إلى رجل سمين فقال « أرى عليك قَطِيفَةً مِنْ نَسِجِ أَضْرَاسِكَ » .

• • •

(١) الذنابي : الذنب .

وقال أعرابي : « اللهم إني أسألك مِيتة كميّنة أبي خارجة ، أكل بَدَجًا^(١) ،
وشرب مِشْعَلًا^(٢) ، ونام في الشمس ، فمات دَفَّانَ شبعانَ رِيَّانَ » .

• • •

وقيل لأبي المِخْشِ الأعرابي : أَيَسْرُكَ أنك خليفة ، وأن أمتك حُرّة ،
قال : لا والله ما يسرّني ، قيل له : ولم ؟ قال ، « لأنها كانت تذهب الأُمَّة ،
وتضيع الأُمَّة » .

• • •

وحضر أعرابي سُفْرَةَ سليمان بن عبد الملك ، فجعل يمرّ إلى ما بين يديه ، فقال له
الحاجب مما يليك فَكُلْ يا أعرابي ، فقال : من أجذب انتجع ، فشقّ ذلك على سليمان
وقال للحاجب : إذا خرج عنا فلا يَعدُّ إلينا .

• • •

وشهد بعد هذا سُفْرته أعرابي آخر ، فمرّ إلى ما بين يديه أيضًا ، فقال له الحاجب ،
ما يليك فكل يا أعرابي ، قال : من أخصب تخيّر ، فأعجب ذلك سليمان ، فقربه
وأكرمه وقضى حوائجه .

« وحضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك ، فلما أتى بالفألوذج ، جعل يُسرّع فيه ،
فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابي ، فقال : بلى يا أمير المؤمنين إني لأجد ريقًا
هنيئًا ، وَمُزْدَرَدًا^(٣) لَيْنًا ، وأظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه ، فضحك
سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابي ؟ فإنهم يذكرون أنه يزيد في الدماغ ، قال :
كذبوك يا أمير المؤمنين ، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل ! » .

• • •

« وحضر سفرة سليمان أعرابي ، فنظر إلى شَعْرَةَ في لقمة الأعرابي ، فقال : أرى

(١) البذج : وله الفسان .

(٢) المشعل : شيء من جلود له أربع قوائم ينبل فيه ، وشرب مشعلا أي شرب مافيه .

(٣) ازدرده : ابغله .

شعرة في لقمته يا أعرابي ، قال ، وإنك لتراعيني مُرَاعَاةً من يُبْصِرُ الشعرة في لقمته !
وَاللَّهِ لَا وَا كُنْتُكَ أَبَدًا» ، فقال : استرها يا أعرابي ، فإنها زلة ، ولا أعود لمثلها .

• • •

وقال الأصمعي : قلت لأعرابي : أَتَهْمِزُ^(١) إسرائيل ؟ قال : إني إذن لرجل سوء ،
قلت له : أفتجرُّ فِدَسْطِينَ ؟ قال : إني إذا لَقَوِيَّ .

• • •

وسمع أعرابي إماماً يقرأ : « وَلَا تُنْكِحُوا^(٢) الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا » - قرأها
بفتح التاء - فقال : ولا إن آمنوا أيضاً لم نُنْكِحْهُمْ ، فقليل له إنه يلحن وليس هكذا
يُقرأ ، فقال : « أَخْرُوه قُبْحَهُ اللهُ ! لا تجعلوه إماماً ، فإنه يَحِلُّ ما حَرَّمَ اللهُ » .
(المعقده الفريده ٢ : ١٠٠ - ١٠٥)

• • •

وخطب أعرابي فلما أعجبه بعضُ الأمر عن التصدير بالتحميد ، والاستفتاح بالتمجيد ،
قال : « أما بعد ، بغير ملال لذكر الله ، ولا إيثارٍ غيره عليه ، فإننا نقول كذا ، ونسأل
كذا » فراراً من أن تكون خطبته بترأء وشوْهَاء^(٣) .
(البيان والتبيين ٢١٢ : ٢١٥)

• • •

ودفعوا إلى أعرابية عِنْدَكَ^(٤) لتضغه ، فلم تفعل ، فقليل لها في ذلك ، فقالت :
« ما فيه إلا تَعَبُ الأضراس ، وَخَيْبَةُ الحَنْجَرَةِ » .
(الهبان والتبيين ٢ : ٤٧)

• • •

(١) من معاني الهمز : الغمز . (٢) أي تزوجوا .

(٣) وكانوا يسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد «البترأء» ويسمون

التي لم توشع بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «الشوْهَاء» .

(٤) العلك : اللبان (بالضم) .

وقيل لأعرابي : عند مَنْ تحب أن يكون طعامك ؟ قال : « عند أم صبي راضع ،
أو ابن سبيل شاسع ، أو كبير جائع ، أو ذى رحم قاطع » .
(البيان والتبيين ۲ : ۴۹)

• • •

وقال أعرابي :

« لولا ثلاث هُنَّ عيشُ الدهرِ الماء ، والنوم ، وأم عمرو ،

لما خَشِيتُ من مَضِيقِ القبرِ » .

(البهجة والتبيين ۲ : ۱۰۱)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ سورة براءة فقال : « ينبغي أن يكون هذا آخر القرآن » ،
قيل له : ولم ؟ قال : « رأيت عهداً تُنبذ » .
(البيان والتبيين ۲ : ۱۶۹)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ : « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا
جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا^(۱) » ، قالها بفتح الكاف ، فقال الأعرابي : « لا يكون » ،
فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء ، فقال الأعرابي : « يكون » .
(البيان والتبيين ۲ : ۱۷۴)

(۱) ذات الألواح والُدُسُر : هي السفينة ، والُدُسُر ما تشد به الألواح من المسامير وغيرها جمع دَسار
ككتاب ، بأعيننا : بمرأى منا أى محفوظة ، وقد قرئ كُفِرَ بِالبناء للفاعل ، أى الكافرين : أفرقوا
عقابا لهم .

الباب الرابع

في

خطب النكاح

١ - خطبة قريش في الجاهلية

زوى الجاحظ قال :

كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعنى خطبة النساء :

« باسمك اللهم ، ذُكِرَتْ^(١) فلانة ، وفلانة^(٢) بها مشغوفٌ ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ولنا ما أعطيت » .

٢ - خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة

« الحمد لله الحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المرهوب من عذابه ، المرغوب فيما عنده ، النافذ أمره في سمائه وأرضه ، الذى خاق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه . ثم إن الله تعالى جعل المصاهرة نسباً لاحقاً ، وأمراً مُفْتَرَضاً ، وَوَشَّجَ^(٣) به الأرحام ، وألزمه الأنام ، قال تبارك اسمه ، وتعالى ذكره :

(١) ذكر فلان فلانة ذكراً (بفتح فسكون) : خطبها أو تعرض لخطبتها .

(٢) وشجت المروق والأغصان كوهده : اشتبكت والتفت وتداخلت ، ورحم واشجة ووشيجة :

مشتبكة متصلة ، وقد وشجها الله توشيجاً ، وفي الأصل : « وشيج به الأرحام » واره محرفاً .

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » ، فَأَمْرُ اللَّهِ يَجْرِي إِلَى قَضَائِهِ ، وَلِكُلِّ قَضَاءٍ قَدَرٌ ، وَلِكُلِّ قَدَرٍ أَجَلٌ « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » .

ثم إن ربي أمرني أن أزوجه فاطمة من علي بن أبي طالب ، وقد زوجتها إياه على أربعمئة مثقال فضة ، إن رضى بذلك علي .

۳ - خطبة الإمام علي كرم الله وجهه

وخطب الإمام علي كرم الله وجهه حين تزوج بالسيدة فاطمة رضى الله عنها فقال :
« الحمد لله الذي قرب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد بالجنة من يتقيه ، وقطع بالنار عدد من يعصيه . أحمدته بجميع محامده وأياديه ، وأشكره شكر من يعلم أنه خالقه وباريه ، ومصوره ومُنشيه ، ومميته ومُحييه ، ومقرّبه ومنجيه ، ومُثيبه ومجازيه ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تباغته وترضيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله صلاة تُزلفه وتُدنيه ، وتعزّه وتُعليه ، وتشرفه وتجتبيه .

أما بعد : فإن اجتماعنا مما قدره الله تعالى ورضيه ، والنكاح ما أمر الله به وأذن فيه ، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم قد زوجني فاطمة ابنته على صداق أربعمئة درهم وثمانين درهماً ، ورضيت به فاسألوه ، وكفى بالله شهيداً » .

۴ - خطبة عتبة بن أبي سفيان

خطب عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان إلى عتبة بن أبي سفيان ابنته ، فأقعه علي نخذه ، وكان حدثاً فقال :

« أقرب قريب ، خطب أحب حبيب ، لا أستطيع له ردّاً ، ولا أجد من إسعافه بدأ ، قد زوجتكها وأنت أعز علي منها ، وهي الصق بقلبي منك ، فأكرمها يعذب

عَلَى لِسَانِي ذِكْرُكَ، وَلَا تُهِنِّهَا فَيَصْغُرَ عِنْدِي قَدْرُكَ، وَقَدْ قَرَّبْتُكَ مَع قُرْبِكَ، فَلَا تُبْعِدْ قَلْبِي مِنْ قَلْبِكَ.»

٥ - خطبة شبيب بن شيبه

وقال العُتبيّ : زَوَّجَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ ابْنَهُ بِنْتَ سِوَارٍ^(١) الْقَاضِي ، فَقَالْنَا : الْيَوْمَ يَعْْبُ عُبَابُهُ^(٢) ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَكَلَّمُ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ مِنَّا وَمِنْكُمْ ، بِنَا وَبِكُمْ^(٣) ، تَمَنَعْنَا مِنَ الْإِكْثَارِ ، وَإِنْ فَلَانًا ذَكَرَ فَلَانَةٌ .»

٦ - خطبة الحسن البصري

« وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي خُطْبَةِ النِّكَاحِ ، بَعْدَ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ :

« أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَمَعَ بِهَذَا النِّكَاحِ الْأَرْحَامَ الْمُنْقَطِعَةَ ، وَالْأَنْسَابَ الْمَتَفَرِّقَةَ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ فِي سُنَّةٍ مِنْ دِينِهِ ، وَمِنْهَا جَ وَاضِحٌ مِنْ أَمْرِهِ ، وَقَدْ خَطَبَ إِلَيْكُمْ فَلَانٌ ، وَعَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةٌ ، وَهُوَ يَبْذُلُ مِنَ الصَّدَاقِ كَذَا ، فَاسْتَخِيرُوا اللَّهَ ، وَرُدُّوا خَيْرًا ، يَرْحَمُ اللَّهُ .»

٧ - خطبة ابن الفقير

وقال العُتبيّ : حَضَرَتْ ابْنَ الْفَقِيرِ خُطِبَ عَلَى نَفْسِهِ امْرَأَةً مِنْ بَاهِلَةَ فَقَالَ :

« وَمَا حَسَنٌ أَنْ يَمْدَحَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَكِنْ أَخْلَاقًا تَدْمُ وَتُمدِّحُ وَإِنْ فَلَانَةٌ ذُكِرَتْ لِي .»

(١) وسوار بن عبد الله من قضاة البصرة وخطبائها - انظر البيان والتبيين ١ : ١٦١ - واقرا في أمالي السيد المرتضى ٤ : ٢٢ حديثا غريبا للجاحظ عنه في وقاره وضبطه من نفسه وملسكه من حركته - (٢) لأن والدي العرويين خطيبان . (٣) أي المعرفة منا بكم ؛ والمعرفة منكم بنا .

٨ - خطبة عمر بن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز :
« قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة » ، قال : « جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً ،
فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة » .

٩ - خطبة أخرى له

وحدث محمد بن عبيد الله القرشي عن أبي المقدام قال :
كانت قريش تستحسن من الخاطب الإطالة ، ومن المخطوب إليه التقصير^(١) ،
فشهدت محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان خطب إلى عمر بن عبد العزيز أخته أم عمر
بنت عبد العزيز ، فتكلم محمد بن عبد الوليد بكلام جاز الحفظ ، فقال عمر :
« الحمد لله ذي الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد : فإن الرغبة
منك دعتك إلينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من أودعك
كريمته ، واختارك ولم يختَر عايك ، وقد زوجتكها على كتاب الله : إمساك بمعروفٍ
أو تسريحٍ بإحسان » .

١٠ - خطبة بلال

وخطب بلال إلى قوم من خثعم لنفسه ولأخيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أنا بلال وهذا أخي ، كنا ضالّين فهدانا الله ، عبدين فأعتقنا الله ، فقيرين
فأغنانا الله ، فإن تزوّجونا فالحمد لله ، وإن ترُدّونا فالمستعانُ اللهُ » .

(١) وكذلك روى الجاحظ في البيان والتبيين (١ : ٦٤) قال : « والسنة في خطبة النكاح أن يطيل
الخطاب ، ويقصر المحبب » والمصري في زهر الآداب (٢ : ٣١) قال الأصمعي : « كانوا يستحبون من
الخطاب إلى الرجل حرمة الإطالة ، لتدل على الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة » .

١١ - خطبة خالد بن صفوان

وزوج خالد بن صفوان مولاة من أمته ، فقال له العبد : لو دعوت الناس وخطبت !
قال : أدعهم أنت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا ، تكلم خالد بن صفوان ، فقال :
« أما بعد : فإن الله أعظم وأجل من أن يذكركم في نكاح هذين الكلبين ، وأنا
أشهدكم أنني زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية » .

١٢ - خطبة أعرابي

وخطب الفضل الرقاشي إلى قوم من بني تميم فخطب لنفسه ، فلما فرغ قام أعرابي
منهم فقال :
« تَوَسَّلَتْ بِحُرْمَةٍ ، وَأَوْلَيْتَ بِحَقٍّ ، وَاسْتَنْدَتَ إِلَى خَيْرٍ ، وَدَعَوْتَ إِلَى سُنَّةٍ ،
فَفَرَّضْتَ مَقْبُولٌ ، وَمَا سَأَلْتَ مَبْذُولٌ ، وَحَاجَتُكَ مَقْضِيَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .
قال الفضل : لو كان الأعرابي حمد الله في أول كلامه ، وصلى على النبي صلى الله
عليه وسلم لفصحني يومئذ .

١٣ - خطبة المأمون

وقال يحيى بن أكثم : أراد المأمون أن يزوج ابنته من علي بن موسى الرضا ،
فقال : يا يحيى تكلم ، فأجلته أن أقول : « أنكحت » ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،
أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنت أولى بالكلام ، فقال :
« الحمد لله الذي تصاغرَت الأمور بمشيئته ، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته ،
وصلى الله على محمد عند ذكره ، أما بعد : فإن الله قد جعل النكاح ديناً ، ورضيه حكماً
وأنزله وحياً ، ليكون سبب المناسبة ، ألا وإني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى ،

وأمرتها أربعمئة درهم ، اقتداءً بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واتّهاءً إلى ما دَرَجَ
إِلَيْهِ السَّلَفُ ، والحمد لله ربّ العالمين .

* * *

وخطب رجل إلى قوم ، فَأُتِيَ بِمَنْ يَخْطُبُ لَهُ ، فاستفتح بحمد الله ، وأطال ، وصلى
على النبيّ عليه الصلاة والسلام ، وأطال ، ثم ذكر الْبَدْءَ وَخَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
واقْتَصَرَ ذِكْرَ الْقُرُونِ ، حتى ضَجِرَ مَنْ حَضَرَ ، والتفت إلى الخاطب ، فقال : ما أُسْمِكَ
أعزّك الله ؟ فقال : والله قد أنسيتُ أُسْمِي من طول خطبتك ، وهى طالِقٌ إن تزوجتها
بهذه الخطبة ، فضحك القوم ، وعقدوا في مجلس آخر .

(مفتاح الأفكار ص ۶۲ ، ومواسم الأدب ۲ : ۱۲۰ ، والعتد الفريد ۲ : ۱۶۳ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ۲۸ ، والبيان والتبيين ۱ : ۲۱۵ ،

۲۱۷ - ۲ : ۵۰ : ۱۳۰ - ۳ : ۲۲۱ ، وزهر الآداب ۲ : ۳۰ ، ۳۱)

الباب الخامس

في

خطب من أرتج عليهم

ونوادر طريفة لبعض الخطباء

روى الجاحظ قال : صَعِدَ عثمان بن عفَّان رضى الله تعالى عنه المنبر ، فأرْتَج عليه ، فقال :

« إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدَّان لهذا المقام مقالا ، وأتمَّ إلى إمام عادل أحوجُّ منكم

إلى إمام خطيب » .

• • •

وروى ابن عبد ربه قال : أول خطبة خطبها عثمان بن عفَّان أرتج عليه ، فقال :

« أيها الناس : إن أوَّلَ كلِّ مرَّةٍ كَبِّ صعب ، وإنَّ أعشَّ تأتِيكم الخطبُ على

وجهها ، وسيجعل الله بعد عُسْرٍ يُسْرًا إن شاء الله » .

• • •

ولما قدَّم يزيد بن أبي سُفيان الشام والياً عليها لأبي بكر ، خطب الناس فأرتج عليه ،

فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فقال :

« يا أهل الشام ، عسى الله أن يجعل من بعد عُسْرٍ يُسْرًا ، ومن بعد عِيٍّ بياناً ،

وَأْتَمُّ إِلَى إِمَامٍ فاعِلٌ^(۱) ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٌ^(۲) ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ
عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ فَاسْتَحْسَنَهُ .

• • •

وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ وَوَلِيُّ ثَابِتِ قُطْنَةَ^(۳) بَعْضَ قُرَى خُرَّاسَانَ^(۴) ، فَلَمَّا صَعِدَ الْمَنْبِرَ
يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، ثُمَّ أَرْتَجِعُ عَلَيْهِ ، فَنَزَلَ وَهُوَ يَقُولُ :

فَإِلَّا أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنِّي بَسِيفِي إِذَا جَدَّ الْوَعْيَى لَخَطِيبٌ

فَقِيلَ لَهُ : « لَوْ قَلَّتْهَا فَوْقَ الْمَنْبِرِ ، لَكُنْتَ أَخْطَبَ النَّاسِ » .

• • •

وَخَطَبَ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ لَمَّا وَوَلِيَّ ، فَحَصَرَ فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي كُنْتُ أَعَدَدْتُ مَقَالًا أَقُومُ بِهِ فِيكُمْ ، فَجُجِبْتُ عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ

يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، كَمَا قَالَ فِي كِتَابِهِ^(۵) ، وَأْتَمُّ إِلَى إِمَامٍ عَدْلٍ ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ
إِلَى إِمَامٍ خَطِيبٍ ، وَإِنِّي أَمْرٌ كَمِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنْهَا كَمِ عَمَّا نَهَا كَمِ اللَّهُ عَنْهُ
وَرَسُولُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ » .

• • •

وَصَعِدَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ يَوْمًا الْمَنْبِرَ بِالْبَصْرَةِ لِيَخْطُبَ فَأَرْتَجِعُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ :

(۱) فِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ : « إِمَامٌ هَادِلٌ » . (۲) وَفِي أَمْالِ السَّيِّدِ الْمُرْتَضَى أَنَّهُ هَذَا الْقَوْلُ يَرُودُ
لِعُمَّانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَفِي رَوَايَتِهَا : « إِمَامٌ فَعَالٌ » وَ « إِمَامٌ قَوَالٌ » بِصُورَةِ الْمِبَالِغَةِ ، وَفِي الْأَغَانِي أَنَّهُ يَرُودُ
لثَابِتِ قُطْنَةَ ، وَفِيهِ : « أَمِيرٌ فَعَالٌ » وَ « أَمِيرٌ قَوَالٌ » .

(۳) هُوَ ثَابِتُ بْنُ كَعْبٍ ، وَلَقَّبَ قُطْنَةَ لِأَنَّ سَهْمًا أَصَابَهُ فِي إِحْدَى عَيْنَيْهِ ، فَذَهَبَ بِهَا فِي بَعْضِ حُرُوبِ
الْتُرْكِ ، فَكَانَ يَجْمَلُ عَلَيْهَا قُطْنَةَ ، وَهُوَ شَاعِرٌ فَارِسِيٌّ شَجَاعٌ مِنْ شُعْرَاءِ الدَّوَاةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَكَانَ فِي صَحَابَةِ
يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ ، وَكَانَ يُوَلِّيهِ أَعْمَالًا مِنْ أَعْمَالِ الثُّغُورِ ، فَيُحْمَدُ فِيهَا مَكَانَهُ لِكِفَايَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ ، وَقَدْ مَالَ إِلَى
قَوْلِ الْمَرْجُتَةِ ، وَهُوَ قَصِيدَةٌ فِي الْإِرْجَاءِ ، انْظُرْ تَرْجُمَتَهُ فِي الْأَغَانِي ج ۱۳ ص ۴۷ .

(۴) وَفِي رَوَايَةٍ : أَنَّهُ خَطَبَ عَلَى مَنْبَرِ سَجِسْتَانَ ، وَفِي رَوَايَةِ الطَّبْرِيِّ : « فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَصَرَ فَقَالَ :

« مَنْ يَطْعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ » وَأَرْتَجِعُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ ، فَلَمَّا نَزَلَ مِنَ الْمَنْبَرِ قَالَ الْبَيْتُ الْمَذْكُورُ .

(۵) الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

« أيها الناس : أما بعد ، فإن هذا الكلام يَجِيءُ أحياناً ، وَيَعزِّبُ أحياناً ، فَيَسِيحُ عند مجيئه سببه^(١) ، وَيَعزِّزُ عند عزو به طلبه ، ولربما كُوبِرَ فَأَبَى^(٢) ، وَعُوجَ فَنَأَى ، فَالتَّائِي^(٣) لِحِيه ، خَيْرٌ مِنَ التَّعَاطِي لِأَبِيهِ ، وَتَرَكَهُ عند تنكره ، أَفْضَلُ مِنَ طَلْبِهِ عند تعذره ، وَقَدْ يَحْتَلِجُ^(٤) مِنَ الْجَرِيءِ جَنَانُهُ ، وَيَنْقَطِعُ مِنَ الذَّرْبِ^(٥) لِسَانُهُ ، فَلَا يُبْطِرُهُ ذَلِكَ وَلَا يَكْسِرُهُ ، وَسَاعُودٌ فَأَقُولُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَهَارَى حَصِيرًا أَبْلَغَ مِنْهُ .

° ° °

وصعد أبو العنابسِ منبراً من منابر الطائف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
أما بعد ، فأرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : لا ، قال :
فما ينفعني ما أريد أن أقول لكم ، ثم نزل ؛ فلما كان في الجمعة الثانية ، وصعد المنبر
وقال : أما بعد ، أرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : نعم ،
قال : فما حاجتكم إلي أن أقول لكم ما علمتُم ؟ ثم نزل ؛ فلما كانت الجمعة الثالثة ،
قال : أمّا بعد : فأرتج عليه ، قال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا :
بعضنا يدري ، وبعضنا لا يدري ، قال : فليخبر الذي يدري منكم الذي لا يدري ،
ثم نزل .

° ° °

وولى اليمامة رجل من بني هاشم يعرف بالدندان ، فلما صعد المنبر أرتج عليه ،
فقال :

(١) السبب : العطاء ، وفي رواية : « فيتسبب منه مجيئه سببه » .
(٢) وفي رواية : « فمسا » أي اشتد وصعب . (٣) تأتي له : ترفق ، وفي رواية :
« فالتائي » بالنون . (٤) يضطرب .
(٥) الحاد اللسان : وفي رواية : « ويرتج على البليغ لسانه » ، وفي أخرى : « وقد يرتج على
اللسان لسانه ، ولا ينظره القول إذا اتسع ، ولا يتيسر إذا امتنع ، ومن لم تمكن له الخطوة ، فخليق أن
تمن له النبوة » وفي أخرى : « وقد يتعاصى على الذرب لسانه ، ثم لا يكابر القول إذا امتنع ، ولا يرد
إذا اتسع ، وأولى الناس من عذر على النبوة ، ولم يؤاخذ على الكبوة ، من عرف ميدانه ، اشتهر إحسانه
وسأعود وأقول » .

« حَيَّاَ اللهُ هَذِهِ الْوَجُوهَ ، وَجَعَلَنِي فِدَاءَهَا ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ طَائِفِي بِاللَّيْلِ أَنْ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَتَانِي بِهِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَنَا هُوَ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

• • •

وَخَطَبَ عَبْدُ اللهِ بْنِ عَامِرٍ ^(۱) بِالْبَصْرَةِ فِي يَوْمِ أَضْحَى ، فَأَرْتَجَّ عَلَيْهِ ، فَكَثَّ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ :

« وَاللَّهِ لَا أَجْمَعُ عَلَيْكُمْ عِيًّا وَلَوْ مَاءً ، مِنْ أَخَذَ شَاةً مِنَ السُّوقِ فَهِيَ لَهُ ، وَثَمْنُهَا عَلَيَّ » .

• • •

قَالَ الْجَاهِظُ : وَلَمَّا حَصَرَ عَبْدُ اللهِ بْنِ عَامِرٍ عَلَى مَنْبَرِ الْبَصْرَةِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ زِيَادُ : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَ عَامَّةً مَنْ تَرَى ، أَصَابَهُ أَكْثَرُ مِمَّا أَصَابَكَ » .

• • •

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْكَلْبِيِّ عَلَى قِنَسَرِينَ ^(۲) ، فَوَثِبَ عَلَيْهِ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ ، فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا ، وَبَايَعَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ ^(۳) ، فَلَمَّا قَعَدَ زُفَرُ عَلَى الْمَنْبَرِ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدَ الْغَادِرِ الْفَاجِرِ » ، وَحَصَرَ ، فَضَحِكَ النَّاسُ مِنْ قَوْلِهِ .

• • •

وَصَعِدَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ ^(۴) الْمَنْبَرِ ، فَلَمَّا رَأَى جَمَاعَةَ النَّاسِ حَصَرَ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ هَؤُلَاءِ وَيُسْقِيهِمْ » .

• • •

وَصَعِدَ رَوْحُ بْنُ حَاتِمِ الْمَنْبَرِ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ شَفَّنُوا ^(۵) أَبْصَارَهُمْ ، وَفَتَحُوا أَسْمَاعَهُمْ نَحْوَهُ ،

(۱) انظر هامش الجزء الأول ص ۳۵۵ . (۲) كورة بالشام . (۳) انظر هامش الجزء الثاني ص ۱۴۱ .

(۴) كان هامل يزيد بن عبد الملك على البصرة .

(۵) شفتة كضربة وعلمه شفونا: نظر إليه بمؤخر عينيه، أو رفع طرفه ناظرا إليه كالمتعجب أو كالسكاره

بَحْصِرَ فَقَالَ : « نَكَّسُوا رءُوسَكُمْ ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، فَإِنَّ الْمِنْبَرَ مَرَّةً كَبَّ صَعْبٌ ، وَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ فَتَّحَ قُفْلٌ تَيْسَّرَ » .

• • •

وكان عبد ربه اليشكريّ عاملاً لعيسى بن موسى^(١) على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأرتج عليه ، فسكت ثم قال : « والله إني لأكون في بيتي فتجىء على لساني ألف كلمة ، فإذا قمتُ على أعوادكم هذه جاء الشيطان فمحاها من صدري ، ولقد كنتُ وما في الأيام يوم أحبُّ إلىَّ من يوم الجمعة ، فصرتُ وما في الأيام يوم أبغضُ إلىَّ من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه » .

• • •

وأرتج على معن بن زائدة ، فضرب المنبر برجله ، ثم قال : « فتى حرُوب ، لا فتى منابر » .

• • •

وحدث عيسى بن عمر قال :

خطب أميرٌ مرةً فانقطع نفجِلٌ ، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا ذلك وَلَفَّهِمْ^(٢) ، وفيهم يربوعى جلد ، فقال : اخطبوا ، فقام واحد فمرَّ في الخطبة ، حتى إذا بلغ « أما بعدُ » قال : أما بعد ، أما بعد ، ولم يدْرِ ما يقول ، ثم قال : فإن امرأتي طالقٌ ثلاثاً لم أُرِدْ أن أجمع^(٣) اليوم فمنعتني ، وخطب آخر ، فلما بلغ « أما بعد » بقي ونظر فإذا إنسان ينظر إليه ، فقال : لعنك الله ! ترى ما أنا فيه ، وتلمحني ببصرك أيضاً ! وقال أحدهم : رأيتُ القراقِرَ^(٤) من السفن تجري بيني وبين الناس ، وصعد اليربوعى فخطب فقال : « أما بعد » فوالله ما أدري ما أقول ، ولا فيم أقتمونني ، أقول ماذا ؟ »

(١) هو عيسى بن موسى ابن أخى المنصور وكان أمير الكوفة . (٢) لفهم : جمعهم .

(٣) جمع الناس بالتحديد : أى شهدوا الجمعة ، كما يقال : عيدوا : أى شهدوا العيد .

(٤) القراقير : جمع قرقور كمنصور : وهى السفينة أو الطويلة أو العظيمة .

فقال بعضهم : قل في الزيت ، فقال : « الزيت مبارك^(۱) ، فكلوا منه وادّهنوا » .
قال : فهو قول الشُّطَّار^(۲) اليوم ، إذا قيل لِمَ فعلتَ ذا ؟ فقل في شأن الزيت ،
وفي حال الزيت .

• • •

وروى الجاحظ أنه قيل لرجل من الوجوه : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما صعد
حصراً وقال : « الحمد لله الذي يرزق هؤلاء » وبقي ساكناً فأنزلوه . وصعد آخر ،
فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة^(۳) رجل فقال :
« اللهم العن هذه الصلعة » .

• • •

وقيل لوازع اليشكري : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال :
« لولا أن امرأتى لعنبا الله حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت ، وأنا أشهدكم
أنها منى طالق ثلاثاً » .

• • •

ودعى أيوب بن القرية لكلام ، فاحتبس القول عليه ، فقال : « قد طال السمر ،
وسقط القمر ، واشتد المطر ، فماذا ينتظر ؟ » فأجابه فتى من عبد القيس فقال :
« قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق^(۴) ، فلينطق من نطق » .

• • •

() يشير إلى الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره
كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة ، زيتونه لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء
ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » .

(۲) الشطار جمع شاطر : وهو من أعيان أهله خبثاً ، والمراد به هنا أهل الدعارة وأصحاب النوادر
والتنكيت والفكادات . (۳) الصلعة : موضع الصلع .
(۴) لثق يرما كفرح : ركبت ربحه وكثر نداءه .

وجاء في أمالي السيد المرتضى :

روى أن بعض خلفاء بني العباس - وأظنه الرشيد - صعد المنبر ليخطب ، فسقطت على وجهه ذبابة ، فطردها ، فرجعت ، فحصر وأرتج عليه ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ ^(١) مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ثم نزل ، فاستحسن ذلك منه .

• • •

وروى أن رجلاً صعد المنبر أيام يزيد بن معاوية ، وكان والياً على قوم فقال لهم : « أيها الناس : إني إن لم أكن فارساً طَبَّاً ^(٢) بهذا القرآن ، فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفاً منه ، وما أساء القائل أخو البراجم حيث قال :

وما عاجلاتُ الطير يُدنين للفتى رَشَاداً ، ولا من رَيْثَمِنٍ مَخِيبٍ ^(٣)
وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبٍ ^(٤)
ولا خيرَ فيمن لا يُوطِّنُ نفسه على نَائِبَاتِ الدهرِ حين تنوب
وفي الشكِّ تفریطٌ وفي الحزمِ قُوَّةٌ وَيُخْطِي الفتي في حَدْسِهِ وَيُبْصِيبُ ^(٥)

فقال رجل من كلب : إن هذا المنبر لم يُنصَّب للشعر ، بل ليُحمد الله تعالى ،

(١) وكانوا يطلون أصنامهم بالطيب والزعفران ويفلقون عليها الأبواب ، فيدخل للذباب من الكوى فيأكله . (٢) ماهراً حاذقاً .

(٣) كانت العرب تدين بالطير الصائح ، وهو ماولاك ميامنه ، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك ، وتنشام بالبارح ، وهو ماولاك مياسره ، بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك ، وذلك لأنه لا يمكنك رميه إلا بان تنحرف اه ، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير ، فيتمدها ، وعاجلات الطير هي أن يخرج الإنسان من منزله إذا أراد أن يزجر الطير ، فامر به أول ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانتظرها فقد رانت أي أبطأت ، والأولك عندهم محمود ، والفتى مذموم .

(٤) خشية خشية ومخشاة : خافه ، ووجب القلب وجيباً : خفق واضطرب . (٥) الحدس : الظن والتخمين ، والأبيات لضابي بن الحارث الجرمي (انظر زهر الآداب ٢ : ٨٨) .

وَيُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلِلْقُرْآنِ ، فَقَالَ : أَمَا لَوْ أَنْشَدْتَكُمْ
شعر رجل من كلب لسرَّكم ، فَكُتِبَ إِلَى يَزِيدَ بِذَلِكَ فَعَزَلَهُ ، وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ
أرأك جاهلاً أحمق ، ولم أحسب أن الحق يبلغ بك إلى هذا المبلغ ، فقال له : أحمق مني
مَنْ وَلَا نِي !

• • •

وخطب عتَّاب بن ورقاء^(١) فحث على الجهاد فقال : هذا كما قال الله تعالى
في كتابه :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جِرُّ الذُّيُولِ^(٢)

• • •

وخطب يوماً فقال : هذا كما قال الله تبارك وتعالى : « إنما يتفاضل الناس بأعمالهم ،
وكل ما هو آتٍ قريبٌ » قالوا له : « إن هذا ليس من كتاب الله » قال : « ما ظننتُ
إلا أنه من كتاب الله » .

• • •

وخطب وكيع بن أبي سود^(٣) بخراسان فقال : « إن الله خلق السموات
والأرض في ستة أشهر » فقيل له : « إنها ستة أيام » فقال : « وأبيك لقد قُلتها
وإني لأستقلها ! » .

• • •

وصعد المنبر فقال : « إن ربعة لم تزل غضاباً على الله مذ بعث نبيّه من مُضَرَ ،

(١) انظر الجزء الثاني ص ٤٣٣ و ٤٤٥ . (٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وذلك أن مصعب بن الزبير
بعد أن قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي دعا امرأته - وهي بنت النعمان بن بشير - إلى البراءة من المختار ،
فأبت فقتلها ، فقال في ذلك ابن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حبهناء غادة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن قه درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وهل الغانيات جر الذبول

• والمعطبول كمصفور : المرأة الفعجة الجميلة الممتلئة الطويلة المنق • (٣) انظر الجزء الثاني ص ٣١٢

ألا وإن ربيعة قومٌ كُشِفَ^(١) ، فإذا رأيتموهم فاطعنوا الخيل في مناخرها ، فإن فرسا لم يُطعن في منخره إلا كان أشدَّ على فارسه من عدوه^(٢) .

• • •

وضربت بنو مازن الحتات بن يزيد المجاشعي ، فجاءت جماعة منهم ، فيهم غالب أبو الفرزدق فقال : « يا قوم كونوا كما قال الله : لا يعجز القوم إذا تعاونوا » .

• • •

وخطب عدى بن زياد الإيادي ، فقال : « أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ^(٣) » ، قالوا له : « ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فرعون » ، قال : من قاله فقد أحسن » .

• • •

وروى الطبري أن عبد الله بن الزبير كان ولَّى أخاه عبيدة على المدينة ، ثم نزعها عنها ، وكان سبب عزله إياه أنه خطب الناس ، فقال لهم : قد رأيت ما صنع^(٤) بقوم في ناقة قيمتها خمسمائة درهم ، فسمى مقوم الناقة ، وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : إن هذا هو التكلف .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذا الخبر فقالا : خطب والي اليمامة^(٥) ، فقال : « إن الله لا يُقَارُّ^(٦) عباده على المعاصي ، وقد أهلك الله أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم » ، فسمى مقوم ناقة الله .

• • •

(١) كشف جمع أكشف : وهو من يهزم في الحرب ، ومن لا ترس معه في الحرب ، ومن لا بيضة على رأسه . (٢) وروى الطبري أن عبد الله بن خازم قال ذلك القول لأصحابه بخراسان ، قال لهم : إذا لقيتم الخيل فاطعنوها في مناخرها ، فإنه إن يطمن فرس في نخرته إلا أدبر أورى بصاحبه . (الطبري ٧ : ٤٦) . (٣) الآية الكريمة : « قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى . . . » .

(٤) يشير إلى ثمود قوم صالح عليه السلام - انظر هامش الجزء الثاني ص ٣٥٢ .

(٥) لعلها المدينة . (٦) أي لا يقدرهم .

وخطب فَبَيْصَةَ ، وهو خليفة أبيه^(۱) على خراسان ، وأتاه كتابه ، فقال :
« هذا كتاب الأمير ، وهو والله أهل لأن أطيعه ، وهو أبى وأكبر منى » .

• • •

ودعى مُصْعَبُ بن حَيَّان ليخطب في نكاح فَحْصِرِ فقال : « لَقَنُوا موتاكم
شهادة أن لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية ، عَجَلَّ اللهُ موتك ، ألهذا دعوناك ؟ » .

• • •

وخطب أمير المؤمنين الموالى - وهكذا لَقَبَهُ - خطبة نكاح فَحْصِرِ ، فقال :
« اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نُشْرِكُ بك » .

• • •

وخطب قُتَيْبَةُ بن مُسْلِمٍ على منبر خراسان ، فسقط القضيب من يده ، فتفأل له
عدوه بالشر ، واغتم صديقه ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذه وقال : « ليس الأمر على ما ظن
العدو ، وخاف الصديق^(۲) ، ولكنه كما قال الشاعر » :

فَأَلَقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرِ^(۳)

• • •

وتكلم صَعَصَعَةٌ عند معاوية فَعَرِقَ ، فقال معاوية : بَهْرَكَ^(۴) القول ! فقال
صعصعة : إن الجياد نضاحة بالماء .

• • •

وشخص يزيد بن عمر بن هُبَيْرَةَ إلى هِشَامِ بن عبد الملك ، فتكلم فقال هشام :
حامات من خلف مثل هذا ! فقال الأبرش الكلبي : ليس هناك ، أما تراه يَرُشِّحُ
جبينه لِضِيقِ صدره ! قال يزيد : ما لذلك رَشِّحَ ، ولكن لجلوسك في هذا الموضع .

• • •

(۱) هو المهلب بن أبي صفرة ، وكان والياً على خراسان - انظر الجزء الثاني ص ۲۸۰ .
(۲) وفي رواية : « كما ساء للصديق ، وسر العدو » . (۳) النوى : الغربة البعيدة .
(۴) أى غلبك .

وقال عبيد الله بن زياد : « نِعِمَّ الشَّيْءُ الْإِمَارَةُ ، لَوْلَا قَعَقَعَةُ الْبَرِيدِ ، وَالتَّشْرِيفُ
لِلخُطْبِ » .

• • •

وقيل لعبد الملك بن مروان : عَجِّلْ عَلَيْكَ الْمَشِيبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : كَيْفَ
لَا يَعْجَلُ عَلَيَّ ، وَأَنَا أَعْرَضُ عَقْلِي عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ؟
« أَوْ قَالَ : شَيْبَنِي صَعُودُ الْمَنَابِرِ وَالخُوفُ مِنَ اللَّحْنِ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٦٢ - ١٦٣ و ٣ : ٢٥٦ ، و عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ و ٢٥٦ و
٢٥٩ ، و أمالي السيد المرتضى ٤ : ١٩ - ٢٢ ، و الأغاني ١٣ : ٤٧ ، ١٧ : ١١١ ، و تاريخ الطبري
ج ٧ : ص ٩٥ ، ج ٨ : ١٨٨ ، و البيان و التبيين ١ : ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٦ - ٢ : ١٢٢ ، ١٢٦ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، و الأمالي ١ : ١١١ ، و تهذيب الكامل ١ : ١٧ ، و صرح للميون
ص ١٢٥ ، ٢٠٥ ، و الصناعتين ص ٢١) .

بدء الخطب وختامها

قال ابن قتيبة في عيون الأخبار :

تبعث خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدت أوائل أكثرها :
« الحمد لله حمده ، ونستعينه ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ،
ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، ووجدت
في بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحكام على طاعته » ، ووجدت
كل خطبة مفتاحها الحمد ، إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير .

(عيون الأخبار م ۲ : ص ۲۴۱)

وروى ابن عبد ربه في العقد قال :

« وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته :
اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك » .
وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : « اللهم
لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني على غرّة ، ولا تجعلني من الغافلين » .
وكان عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبي قد عظمت
وجلت أن تُحصى ، وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني » .

(العقد الفريد ۲ : ۱۳۳ ، ۱۴۲)

تم بحمد الله

فهرس ذيل الجمهرة

الباب الأول

في خطب الأندلسيين والمغاربة

الخطبة أو الوصية	رقم للصفحة
خطبة عبد الرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف الفهري	١٦٢
عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده قنسرين	١٦٣
عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سرقسطة	١٦٤
تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر	١٦٤
عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضاً	١٦٦
يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه	١٦٧
وفاء الوزير بن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز	١٦٨
خطبة منذر بن سعيد البلوطي في الاحتفال بقدوم رسل ملك الروم	١٦٩
خطبة أخرى له	١٧٣
أحد حساد الرمادي الشاعر والمنصور بن أبي عامر	١٧٣
ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح	١٧٧
دفاع ابن الفمخار عن القاضي الوحيدى بمحضرة ابن تاشفين	١٧٨
موعظة ابن أبي رندقة الطرطوشي للأفضل بن أمير الجيوش	١٧٩
خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين	١٨٠
مقال لسان الدين ابن الخطيب في الحوض على الجهاد	١٨٣
ماخاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني	١٨٤
وصية لسان الدين لأولاده	١٨٧
خطبة وعظية له	٢٠١
وصية موسى بن سعيد العنسى لابنه	٢٠٨
خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف	٢١٧
القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن	٢١٩

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة
خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن	٢٢٢
الكثعمي التي ضمنها سور القرآن أيضاً	٢٢٤

الباب الثاني

في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة	٢٢٦
وصية أعمى من الأزد لشاب يقوده	٢٣٠
رجل لآخر وقد أراد سفراً	٢٣١
لابنه وقد أراد الزواج	٢٣١
بعض العلماء لابنه	٢٣٢
لبعض الحكماء	٢٣٢
أخرى	٢٣٢
»	٢٣٣
عظة لبعض الحكماء	٢٣٣
نصيحة	٢٣٤
كلمات شتى لبعض الحكماء	٢٣٤
رجل من العرب والحجاج	٢٣٥
أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز	٢٣٦
كاتب وأمير	٢٣٦
وصف الملباجة	٢٣٧
بعض البلغاء يصف رجلاً	٢٣٨
خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن	٢٣٩
رجل من العرب يصف مطراً	٢٤١

الباب الثالث

في نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية	٢٤٢
مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك	٢٤٢

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة

- ٢٤٣ أعرابي يصف هشام بن عبد الملك
٢٤٣ خطبة أعرابي
٢٤٤ » أخرى
٢٤٤ » »
٢٤٤ أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر
٢٤٥ أعرابية توصي ابنها
٢٤٦ أعرابي يوصي ابنه
٢٤٦ » ينصح لابنه
٢٤٦ » »
٢٤٦ » لأخيه
٢٤٧ » يعظ أخاه
٢٤٧ » صاحبه
٢٤٧ » أخاه
٢٤٨ » رجلا
٢٤٨ » »
٢٤٨ » »
٢٤٨ كلام أعرابي لابن عمه
٢٤٩ كلمات حكيمة للأعراب
٢٥٤ أجوبة الأعراب
٢٥٤ مجاوبة أعرابي للحجاج
٢٥٥ .سألة الحجاج أعرابياً فصيحاً
٢٥٥ مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان
٢٥٦ مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري
٢٥٦ أجوبة شتى
٢٥٩ قولهم في الاستمناح والاستجداء
٢٥٩ أعرابي يجتدي عتبة بن أبي سفیان
٢٦٠ أعرابي يجتدي عمر بن عبد العزيز

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة
خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك	٢٦٠
مقام أعرابي بين يدي هشام	٢٦٠
أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد	٢٦١
أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكر	٢٦٢
أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري	٢٦٣
» » معمر بن زائدة	٢٦٣
خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام	٢٦٤
» » » » الجامع بالبصرة	٢٦٥
صورة أخرى	٢٦٥
» »	٢٦٦
أعرابي يستجدي	٢٦٦
» »	٢٦٦
» »	٢٦٧
» »	٢٦٧
أعرابية تستجدي	٢٦٨
أعرابي يستجدي	٢٦٨
» »	٢٦٨
» »	٢٦٩
» »	٢٦٩
أعرابية تستجدي	٢٧٠
أعرابي يستجدي	٢٧٠
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧٢
» »	٢٧٢

- ٢٧٢ أعرابي يسأل رجلا حاجة له
٢٧٣ قولهم في بكاء الموتى
٢٧٣ أعرابية تبكي ابنها
٢٧٤ حديث امرأة سكنت البادية قريبا من قبور أهلها
١٧٥ حديث امرأة مات ابنها بين يديها
٢٧٦ قولهم في الشكوى
٢٧٦ أعرابي يشكو حانه
٢٧٧ كلمات شتى في الشكوى
٢٨٢ قولهم في العتاب والاعتذار
٢٨٣ قولهم في المدح
٢٩٢ قولهم في الذم
٢٩٩ قولهم في الغزل
٣٠٤ قولهم في الوصف
٣٠٤ أعرابي يصف مطرا
٣٠٥ » » »
٣٠٦ » » »
٣٠٧ ثلاثة غلظة من الأعراب يصفون مطرا
٣٠٩ أعرابي يصف مطرا
٣١٠ » » »
٣١١ » » »
٣١٢ » » »
٣١٢ » » »
٣١٣ » » »
٣١٤ أعرابية تصف مطرا
٣١٤ » » »
٣١٥ » » أرضا

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
٣٢٤	قولهم في الدعاء	٣١٦	رائد يصف أرضاً جدبة
٣٢٤	دعاء أعرابي	٣١٦	» » »
٣٢٦	» »	٣١٧	» » »
٣٢٦	» »	٣١٧	أعرابي يصف أرضه ووالده
٣٢٧	» »	٣١٨	» » بلدا
٣٢٨	» »	٣١٩	» » أشد للبرد
٣٢٨	» »	٣١٩	» » إبلا
٣٢٩	» »	٣١٩	» » ناقة
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » خيلا
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » »
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » »
٣٣٠	» »	٣٢٠	» » فرساً
٣٣٠	» »	٣٢١	» » خانماً
٣٣٠	» »	٣٢١	» » أطيب الطعام
٣٣٠	» »	٣٢١	» » السويق
٣٣٢	» »	٣٢٢	» » الجمال
٣٣٢	» »	٣٢٢	أبو الخش يصف ابنه
٣٣٢	» »	٣٢٢	أعرابي يصف بنيه
٣٣٣	أدعية شتى	٣٢٣	أعرابي يصف أخويه
٣٣٧	نوادير وملح لبعض الأعراب		

الباب الرابع

في خطب النكاح

٣٤٤	خطبة قريش في الجاهلية
٣٤٤	» النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة
٣٤٥	» الإمام علي كرم الله وجهه
٣٤٥	» عتبة بن أبي سفیان

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة	
٣٤٦	خطبة شبيب بن شيبه
٣٤٦	الحسن البصرى
٣٤٦	ابن الفقير
٣٤٧	عمر بن عبد العزيز
٣٤٧	أخرى له
٣٤٧	بلال
٣٤٨	خالد بن صفوان
٣٤٨	أعرابي
٣٤٨	المأمون

الباب الخامس

٣٥٠ في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة لبعض الخطباء
٣٦١ بدء الخطب وختامها

تم الكتاب بحسن توفيقه وعونه تعالى
وسيتبعه إن شاء الله كتاب

جمهرة رسائل العرب
في عصور العربية الزاهرة

